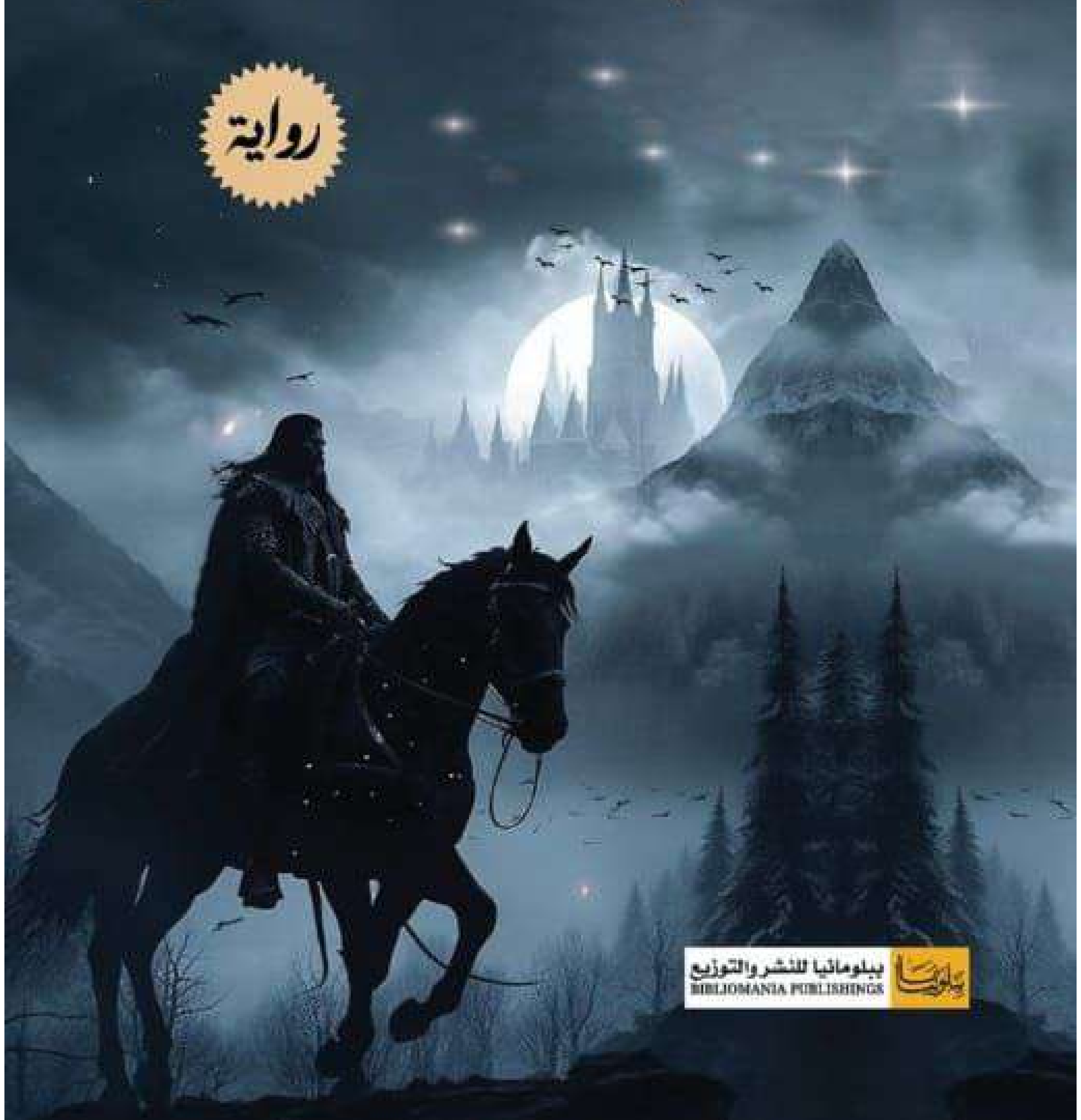
أحمد مصطفى الليبدي

قائد بنات نعش

رواية



قائد بنات نعش

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

- **الكتاب:** **قائد بنات نعش**
- **المؤلف:** **أحمد مصطفى اللبيدي**
- **الطبعة الأولى 1445 هـ - 2023 م - القاهرة**
- **الناشر: بيلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**
- **رقم الإيداع: 2023 / 25175**
- **الترقيم الدولي ISBN: 6801 – 994 – 977 – 978**
- مدير عام: جمال سليمان – مدير تنفيذي: محمد جلال
- العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
  عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 002026337855 - 002026064518
- محمول: 00201208868826 – 00201030504636 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.bibliomaniapublishing.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار بيلومانيا للنشر والتوزيع



بيلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS
15 شارع السباق «مول الميريلاند» – هليوبوليس – القاهرة
00201030504636 – 00201210826415 – 00201201001153
00201208868826 – 0021274985232 – 002 2 633 7855











قائد بنات نعش

رواية

أحمد مصطفى اللبيدي

ببلومانيا للنشر والتوزيع



ببلومانيا للنشر والتوزيع

BIBLIOMANIA PUBLISHINGS

www.bibliomaniapublishing.com

2023



إهداء

إلى روح شهدائنا الأبرار وأهلنا وإخواننا المرابطين فى الأرض المباركة وما حولها فى فلسطين الحبيبة .

إلى روح أبى رحمه الله وأسكنه جنات خلده ، وأمى الغالية حفظها الله ومتعنا بوجودها بيننا .

إلى زرقاء اليمامة فى عصره المتوقد ذهنه والنافذ بصره ومن يرى ببصيرته فى العَجَاج ما لا يبصره الآخرون فى صباح اليوم الرائق.

الفصل الأول

كانت تعلن كبرياءها فى وجه الشتاء الذى لم يتوقف عن إشهار سطوته على الانحاء من حولها. وقفت شامخة، باسطة جناحيها المتباعدين على قمة الجبل، توجته، ونشبت عَمَدَها فوق أكتافه .

لم يكن الجنود الذين يذرعون سطحها جيئة، وذهاباً أقل صلابة من صخورها العاتية، اغتسل كل منهما بما انهال عليه من أبواب السماء، ما فُتحت عيون السماء إلا لتغمض المشاعل من حولهم، وتتركهم بليل حالك الظلمة كقلوبهم الموصدة، اعتمد الحرس أثناء نوبتهم على حدسهم تارة، وعلى سنا البرق الذي كان يضرب الأفق باستمرار تارة أخرى. ساد الظلام المنطقة باستثناء النور الذى تراقص من زجاج النافذة الضخمة فى المبنى الدائرى وسط القلعة، احتلت قاعة الحكماء الطابق الأعلى من المبنى، تتوسطها طاولة مستديرة جلس الحكماء الثلاثة عشر حولها فى صمت تسرب فى أنفاسه التوتر، وهم يرمقون ذلك الضخم واقفاً على رؤوسهم فى ثبات كأنه تمثال من العصر الحجرى، كان أصلع، أملس الوجه سوى من شارب كثيف بُنى اللون، وحاجبين عريضين معقودين يدعمان هيبته مع عينين قويتين على صغرهما، وفم غليظ موصد بإحكام يقطع طريق التواصل معه. تململ أحدهم ضائقاً من طول الإنتظار، نظر إلى التمثال، وسأله:

جودفرى، لقد تأخر الوقت.

نظر إليه الرجل فى جمود، ثم صرف بصره عنه، ولم ينبس .

تشجع آخر، وقال:

لقد قال حكيمنا أن اليوم سيضع الخطة النهائية لطرد الأغيار، والاستحواذ على قداسة.

قال آخر:

لا أطيق صبراً، أخيراً ستتحقق نبوءات أجدادنا، وحكمائنا السابقين.

تجهم جودفرى، وبدا أنه لا يشاركهم الحماس، وقال بنبرة آمرة:

لن ينبس أحد بكلمة أخرى قبل حضور سيدى إجناتيوس.

أذعنوا له، وخيَّم الصمت من جديد، فلم يُسمع سوى صوت الأنفاس المترقبة، وطقطقة النار فى المشاعل المعلقة على الجدران، ودقات المطر فوق النافذة. يومض البرق من خلالها فيزيد من مهابة اللحظات الثقيلة، وبينما هم كذلك استنفر انتباههم صوت أقدام تدب فى تؤدة، وثبات عبر الردهة المؤدية إلى القاعة، تعلقت عيونهم ناحية الباب، بدد الصمت صوت صرير الباب يفتح ببطىء، عدل جودفرى وجهه ناحية الباب، ووقفوا جميعاً لدخول الملثم، وقد سدّ بجسمه العريض مدخل القاعة، تزحزحوا من أماكنهم، وتقدموا حتى أصبحوا خلف جودفرى، ثم ركعوا أمامه، مدَّ الملثم يده فوق رؤوسهم، وحركها من الغرب إلى الشرق، وهو يغمغم ببعض الكلمات، ثم أشار اليهم وراحة يده موجهة للسقف فنهضوا، بينما كانت يده الأخرى تقبض حقيبة جلدية حمراء تجلّى فى وسطها شعار الحكماء منقوشاً باللون الذهبى، زاده انعكاس ضوء المشاعل عليه بريقاً. مشي اجناتيوس بضع خطوات، وأخذ مكانه عند الطاولة، وقف جودفرى خلفه، وتحرك الآخرون إلى أماكنهم من حوله، وظلوا يرمقون عينيه الصغيرتين خلف اللثام خلسة، لم يجرؤ أحدهم بإطالة النظر إليه، ترقبوا نطقه بالسبب الذى اجتمعوا من أجله، انتظروا أن يُخرِج خريطة بها القوات موزعة بدقة، وتحاصر قداسة بإحكام، انتظروا موعداً يباغت فيه المدينة، انتظروا سلاحاً جديداً يفتك بأهلها، أشار إجناتيوس إلى جودفرى بوجْه كفه فخرج، وضع الحقيبة فوق الطاولة فى هدوء، فزاد بريق الشعار الذهبى لمواجهة المشعل المعلق فى العمود المجاور للطاولة، اندهشوا لرؤيته يفتح الحقيبة، ويُخرج كتاباً يعرفونه، أدرك ذهولهم، وتشوش عقلهم لرؤية الكتاب، ابتسم ابتسامة واثقة حجبها اللثام عنهم، ووضع الكتاب فى منتصف الطاولة، وأشار إليه بسبابته، ظل يُومىء إلى الكتاب بثبات وقد اكتست عيناه بالجد، حتى إذا تعلقت عيون الحاضرين على الكتاب مدَّ يده إليه، وقَلَبَه.

هز الحكماء رؤوسهم فى تفهم مدركين خطورة الخطة، وروعتها، سيفتكون قريباً بقداسة، سيلتهمونها. هذه خطة ستوفر لهم من القوة ما لا يتخيله عقل.
أجال اجناتيوس بصره فى وجوههم، ثم انصرف. ومرت بعدها السنون .

الفصل الثانى

استوت المدينة على هضبة عملاقة أكسبتها شموخاً، وميزتها عن سائر البلدان من حولها، هوت أفئدة الناس، وتطلعت عيونهم إليها، يقف فى ظهرها جبل المزار كحارس صنديد، يتمكن الزائر من فوقه أن يتمتع بتفاصيل المدينة الساحرة، فيمكنه رؤية مساجدها وكنائسها العتيقة، وقصر الحاكم سهيل، وأسواره البيضاء فى المنتصف، ينحدر ارتفاعها إلى العديد من البلدات، والمدن التابعة لها، وتنتهى حدودها بالبحر فى شمالها، وغربها، والصحراء فى جنوبها وشرقها.

يشهد قصر الحاكم اضطراباً بسبب الإستعداد لتتويج الأمير معاوية ولياً للعهد. سيُكمل عامه الثامن عشر بعد انقضاء الشتاء، وهو الابن الوحيد لسهيل حاكم المدينة، تدرب على شئون الحكم، والسياسة منذ نعومة أظفاره، فأظهر براعة فى السيف والقلم، وشهدت له الخاصة، والعامة حتى طغى على المملكة حضوره، يزيد على هذا جمال خِلقته، وكمال صفات الرجولة فيه، كان أبيض اللون، معتدل القامة، قوى البنية، له شعر أسود كثيف يدنو من شحمة أذنه، ولحية بلون رأسه، وعينان سوداوان ينقدح الذكاء منهما، دونهما أنف أُقنى، وفم فيه غلظة غير فاحشة .

شكَّل الحرس فى ساحة القصر حلبة دائرية، تبارى فيها فحول الجند، والقادة فى عرض المبارزة الفردية أمام الحاكم. يجلس إلى جانبه معاوية، وجواره عمر حفيده، يشاهد معاوية صديقيه محمداً، ويحى يخوضان مبارزة انتهت بتعادلهما، ثم وقف بعدها عدنان قائد الجيش، وبرز فى منتصف الحلبة، ودعى لنزاله القادة مثنى، وفرادى، وأبهر الجميع ببراعته، فلم يصمد أمامه أحد، كان صلباً، مفتول العضلات، يميل جسده إلى الطول، له بشرة سمراء،

وعينان صغيرتان لا تكفان عن الدوران، لم يعد أحد يرغب فى الخروج له.
كرر نداءه فيهم وعينه إلى الأمير معاوية حيث يجلس بجانب أبيه، غمز إلى أحد القادة، فطلب خروج الأمير معاوية له، وقف معاوية واستأذن الحاكم فى خوض المبارزة، فأذن له، واعتدل مترقباً نتيجتها.
نزل معاوية إلى الحلبة، جرد سيفه، وانتظر حملة عدنان عليه، فتبسم الأخير وبدأ النزال، تبارزا بمهارة، وقوة تركت عيون الجند، والقادة ساهمة، اشتعلت المتعة لتكافؤ القتال، ثم توقفا عندما أمر الحاكم سهيل بإنهاء المبارزة.
صافح عدنان معاوية، وقال:
لا أرى غيرك نداً لى فى هذه المدينة أيها الأمير.
تبسم معاوية، وقال :
أنت أحد قادتى، ولست نداً.
بُهِت وجه عدنان، وقال مبرراً:
عنيتُ المبارزة.
ربتَ معاوية على كتفه، وانصرف.

***

اجتمع أهل الرأى، والقادة فى قاعة الحكم لحضور التتويج، يقف عند مصرعى الباب حارسان فى دروع بيضاء، يقبض كل منهما رمحاً يجاوز طوله، وينتهى بسنان معدنى مدبب، يمتد بساط أخضر اللون من أسفل قدميهما على أرض صخرية ملساء، حتى عرش الحاكم فى نهاية القاعة .
وقف الحاكم سهيل، وخطب فى الجمع المنتبه عن يمينه، ويساره، وقبل أن يعلن عن تنازله لولده معاوية أعلمهم أن آخر قرار سيكون له فى إدارة المملكة هو إرسال الرحلات الإستكشافية من خلال البحر أملاً فى الوصول

إلى جزر جديدة يبحثون فيها عن الذهب والمعادن، ويستعينون بها فى حربهم ضد الظلاميين، ثم ختم كلامه قائلاً:

ستبحر السفن فى صباح الغد.

أسعد الجميع قراره على ما فيه من المخاطر فى خوض المجهول، دعى إليه معاوية، فدنى منه حتى وقف إلى جانبه، قال الحاكم:

والآن أيها الأمير جاء دورك فى حمل الأمانة.

أدار خاتم الملك فى إصبعه ونزعه، ثم أمسك يد معاوية كى يضعه فى إصبعه، فقبض الأخير يده.

نظر الحاكم باستغراب، وتطلع الحاضرون متعجبين، قال معاوية:

لا أريد هذا يا أبتِ.

قال سهيل بصوت مختنق:

ماذا ؟!.

أدامك الله بيننا، ولكنى لا أريد هذا.

يا بنى لقد وهن العظم منى، واشتعل الرأس شيباً، وكلنا يعلم أنه قد حان وقتك.

أقلني يا أبتِ، لا أستطيع.

صرخ سهيل بوجهه:

لماذا؟ ما هذا الهراء.

لم أُخلق لهذا، لقد وجدتنى فى عزلتى بين كتبى، وحلقات العلم.

ومدينتك ؟!.

سأكون أكثر نفعاً للمدينة.

وأى نفع أكبر من تدبير شؤونها، وحفظها من أعدائها ؟!

يمكن أن يقوم بهذا غيرى، وأنا لن أتخلف عنها عندما يحين القتال.

صمت الحاكم فى ضيق، تلفت الحاضرون إلى بعضهم فى استغراب، نفخ الحاكم ضيقه، وعاد إلى كرسيه، ثم قال:

من ترشح لها.

الأمر لك يا سيدى، أنتم أعلم، وأحكم.

حسناً، انتهى مجلسنا، سأقرر هذا فى وقت آخر.

انفض المجلس على غير رضى من الحاكم، وأهل الرأى عن إعراض معاوية، ورفضه لولاية العهد، أسر الحاكم فى نفسه قلقاً من نشوب النزاع بين الأمراء على الحكم، فقد كان معاوية هو الوحيد الذى اجتمعت عليه الكلمة، لذا سيتركه بعض الوقت، ثم يراجعه، ويقنعه بحمل المسؤولية التى رباه من أجلها.

***

طوى الكتاب بعدما تسلل النوم إلى جفنيه، فاستسلمت عيناه مطمئنة بعدما وضع عن كاهله عبء الحكم، وولاية العهد، يستطيع الآن تفريغ وقته لطلب العلم، فيخدم مدينته، ويُرضى شغفه.

استيقظ مفزوعاً لقرع باب غرفته بعنف، نهض ليري الخادم يلتقط أنفاسه بصعوبة، ثم قال:

سيدى معاوية، إن والدكم الحاكم يحتضر.

خفق قلبه، وأسرع إليه، فوجد إلياس طبيب القصر يجمع أدواته من حوله، وقد فاضت روحه، أغمض عينيه، وأخرج من كان فى الغرفة، وظل يبكيه فى هدوء. وبينما يغرق فى دموع الفقد انتشله صوت الحارس الملهوف يصرخ خارج الغرفة، ثم يقتحمها، وهو يقول:

سيدى الأمير أدركنا، فقد اقتحم الظلاميون المدينة.

انتفض للخبر، نهض متهماً سمعه، مكذباً.

ماذا قلت؟

أعاد الجندى كلامه:

لقد اقتحموا المدينة.

صرخ معاوية:

ماذا يعنى أنهم اقتحموا المدينة ؟ أين عدنان قائد الجيش ؟ أرسله إلى فوراً.

همّ الجندى بالمغادرة، فأشار إليه أن يتوقف " انتظر". قالها وعينه معلقة على الحاكم، دقق النظر فى عنق أبيه، كانت آثار الأصابع لا تزال مطبوعة عليه، وهناك خيط دقيق من الدم ينساب ببطىء من وراء أذنه، هوى إليه وتتبع منبع الدم . خدش صغير لأظافر غادر.

صرخ بالجندى:

لقد قُتل أميركم، تسلل الغدر إليه وهو بين أيديكم.

ارتبك الجندى، ولم يجب، تابع معاوية:

جِد إلياس طبيب القصر، وأحضره فوراً.

قلبه يخفق، الدقائق تتسارع، انتشر الضباب من حوله، وفى أعماقه، ارتمى فوق صدر أبيه شاهقاً بالدمع، أسند جبهته إلى جبهة المغدور الدافئة، وهمس بصوت ممزق بالدمع " ما كان لمثلك أن يُقتل إلا غدراً " لثم يديه مرات، وقَــبَّــل ما بين عينيه، ثم شد الغطاء على وجهه.

***

تعالت صيحات الفزع فى فناء القصر، أسرع إلى الشرفة المطلة على المدينة.

عشرات الأهالى يندفعون إلى داخل القصر محتمين به فى هلع، ورعب .

عصفت الرياح بالديار المطمئنة، وكشرت الليلة الحالكة عن أنيابها اللامعة بألسنة النار، تهاوت الجدران، وتهاوت الآمال معها، أُتلفت الزينات، وانتُهِكت المدينة وهى فى أبهى صورها، وعلت صيحات الإستغاثة، ولا مجيب لهم، ولا هم ينقذون، تمزقوا بين القتل، والهتك، أعمل جودفرى السيف فيهم، فلم يلقَ رجلاً إلا وقتله، ولا امرأة إلا وسباها، ذبح الأطفال

فى المهد، وجرّ اليافعين فى سلاسل العبودية، وقف فوق منصة تتوسط أرض المذبحة، وقهقه وضرب على صدره مختالاً، رفع سيفه الثمل بدماء الأبرياء، وطوحه فى الهواء صارخاً :

لقد أتاكِ الوعد يا قداسة، أتاكِ سليلُ الدماء المقدسة، أتاكِ جودفرى.

قهقه، ونشوة النصر تجتاح كيانه، وتبرق فى عينيه، صاح برجاله آمراً:

اذبحوا القطعان، لا تدعوا أحداً .

***

شدَّ معاوية إلى منكبه سيف أبيه المسند فوق عرشه الخالى، ودخل عاصم الصياد قائد حرس القصر، ومن ورائه محمد، ويحى . قال الصياد :

بمَ تأمر يا سيدى ؟

أين عدنان ؟

قد غادر المدينة قبل المغيب، ولم نجد له أثراً.

خاننا الكلب.

دخل الجندى الذى ذهب لإحضار الياس الطبيب "لا أثر للطبيب يا سيدى"

ابتلع معاوية ما سمعه، وفهم ما يعنى ذلك فى هذا الوقت، التفت إلى الصياد:

خيانة أخرى، لقد تفشت الخيانة كالنار فى الهشيم داخل مدينتنا.

بماذا تأمرنا يا سيدى ؟

مرَّر يده فى شعره، ومسح وجهه، ثم قال:

محمد ويحى احملا جثمان أبى، وافتحا دهاليز القصر المؤدية إلى الغابة خارج المدينة جهة البحر، أنقذا كل من تستطيعان إنقاذه من الأهالى.

قال يحى:

ولكن هل نملك الوقت؟ ما يلبث الظلاميون أن يقتحموا القصر.

سأشغلهم عنكم.

قال محمد في عناد:

لن أتركك.

أجابه معاوية بحزم:

هذا أمر، سنلتقى عند البحر، هناك ترسو سفن الرحلات الإستكشافية متأهبة للإبحار سنأخذها، هيا أسرعا.

ثم التفت إلى قائد الحرس :

وأنت أيها الصياد اجمع المقاتلين عند أبواب القصر.

أمرك، ولكن سيدى .....

تردد، ثم قال:

أوصيك بزوجتى، وصغيرى فى بطنها، كنت أرغب فى أن أسميه قيساً، اجعلهما فى كنفك وتحت جناحك.

قال معاوية فى جلد :

سننجو جميعاً، وسيكون من نصيبك أن تسميه، وتراه يكبر، سنكون معاً حين نسترد المدينة من هؤلاء الخنازير.

هزَّ الصياد رأسه فى يأس، وعانقه عناق مودع، وانصرف.

ركض معاوية إلى جناحه لتحل فوق رأسه مصيبة أخرى، فلم يجد ولده عمراً ولا وصيفته، صاح بأعلى صوته منادياً، وبحث فى كل مكان ولم يجده، ركض بين ممرات القصر يفتش فيها، الوقت يداهمه، والظلاميون يتقدمون، اختنق قلبه باليأس من العثور عليه بين تلك الفوضي، كان الصغير كإبرة فى تلال من القش، ركض، ونادى، تفحص الوجوه الخائفة، ولكن بلا جدوى، عليه أن يترك البحث، اعتصر الفقد قلبه، توجه مسرعاً إلى السلم المؤدي إلى ساحة القصر، قابله فى منتصفه الصياد، وقال:

جاهزون أيها الأمير .

اندفع معاوية إلى الأسفل لا يلوى على شىء.

وزَّع جودفرى قواته في مفاصل المدينة، واحتل مرتفعاتها، واقتحم كل شبر توجس فيه مقاومة، ثم أعطى الأوامر لألفونسو قائد طليعة الجيش:

تقدموا إلى القصر، واجلبوا جثمان العجوز، ورأس الأمير الصبى.

***

تحرك يحى والأهالى عبر الدهاليز إلى خارج المدينة، حمل اثنان منهم جثمان أميرهم فى عناية وإجلال، بينما راح محمد ينظم دخولهم من داخل القصر ويمنع تدافعهم، ويهدىء من روعهم .

وزع معاوية الرماة فوق أسوار القصر، وأغلق البوابة بعد دخول آخر رجل من أهل المدينة حاملاً طفلة صغيرة على كتفه لا تكف عن الصراخ. نزل إلى الساحة، وبوّأ المقاتلين مقاعد القتال، ثم أمر الصياد أن ينسحب بهم بعيداً عن الأسوار كي لا تصيبهم سهام العدو، عاد واعتلى السور، وارتقب وصولهم .

تفاجأ الفونسو قائد طليعة الظلاميين بوابل من السهام فور اقترابه من القصر، حصدت الرمية الأولى الكثير من رجاله، فتراجع، وأعاد تشكيل قواته، وقدم الرماة، وبدأ يبادلهم تراشق النبل .

تمكن معاوية، ومن معه من ردهم، وصد هجماتهم، فلم يفلحوا فى اقتحام القصر. تراجع الفونسو، وانتظر باقى الجيش ليميل به ميلة واحدة، وينهى أمر المدافعين دون خسائر أكثر .

ناداه الصياد :

سيدى الأمير لقد غادر الجميع .

تدفق إلى قلبه المهموم بعض الإرتياح لإبعاده الأهالى عن حد السيف. التقط القداسيون أنفاسهم، ومنعتهم الأسوار العالية للقصر، وستار الليل، فلم يصبهم شيء يُذكر، نادى أحد الرماة معاوية، وأخبره أن نبلهم يوشك على

النفاد، لم يتفاجأ فقد كان يدرك أنه لم يكن هناك شيء مستعد للحرب داخل المدينة، فكر قليلاً، ونظر إلى الأفق، وقد احمر جبينه لبزوغ الشمس، مضت ساعات، والقتال لم يُحسم، ثم أمرهم :

ليبقَ من لا يزال في جعبته سهام مكانه، ولينضم الآخرون إلى الصياد.

نظر إلى الخارج، فوجد الفونسو يتأهب لهجوم جديد، فنزل إلى ساحة القصر، وأشار إلى الصياد فتقدم إليه بمن معه. انتظر حتي أخذ الجنود أماكنهم، ثم أشار إلى المرابطين فوق السور " انزلو الآن " امتطى جواده، وخطب فيهم " كان يمكننا الانسحاب من خلال الدهاليز، ولكن هذا سوف يدل الظلاميين على طريق أهلنا، ويعرضهم للخطر، ويربط مصيرهم بمصيرنا، سنخرج للخنازير، ونكسب ما استطعنا من الوقت حتى يصل أهلونا إلى مأمنهم "

***

انشغل جودفرى باستقبال إجناتيوس. دخل المدينة يتبختر مختالاً فى مشيته، ينظر بصلف من خلف لثامه الأسود، تحوطه العساكرالمدرعة، وتتقدمه الطبول القارعة، أوغل بين ديار المدينة حتى استقر عند بغيته، ومراده. لامس الجدران المحترقة، ووقف عند الجدار العتيق، ثم أجهش بالبكاء، دنى جودفرى منه بحذر، وتصنع البكاء أيضاً، وبينما هو فى طقوسه باغته اجناتيوس :

أين سهيل وابنه ؟

***

انقضَّ معاوية بمن معه كالصاعقة على طليعة الظلاميين خارج القصر، ودار قتال ضارٍ عنيف، ودارت الرحى تطحن العظام الصلبة، والرؤوس العنيدة، وفاحت رائحة الموت من كل مكان، تفاجأ الفونسو لخروجهم وارتبكت قواته. كانت ضربة موفقة، ومباغتة بارعة، صال الصياد، وجال يقتطف

رؤوسهم. تنبه معاوية من الراية الحمراء إلى مكان الفونسو فعاجله، واشتبك معه، وقتله دون جهد، فانحدر الظلاميون بسقوط قائدهم، وتناثروا تحت ضربات القداسيين كأوراق الخريف، كاد معاوية أن يُنهى أمرهم، ولكن ظهر جودفرى.

ارتطمت قوات جودفرى بالقداسيين ارتطاماً مروعاً، فسقط على أثرها الكثير من الشهداء، وبدأت كفة المعركة تميل من جديد فى صالح الظلاميين.

استبسل معاوية، ومن معه، قاتلوا بصبر، وعناد، مزق الصياد أبطالهم، ثم ظهر عدنان إلى جانب جودفرى، وسأله الأخير:

أنت يا عدنان تعرفهم جيداً مَن منهم معاوية ؟

هذا يا سيدى .

قالها وهو يشير إلى فارس يقاتل حاسر الرأس، ودون درع، فقال جودفرى :

توقعت هذا، لقد استحق هذا الشاب شهرته، ولكن لا يُعجزك، انقض عليه يا عدنان، واجلب لى رأسه.

تردد عدنان، ثم تقدم حيث معاوية منهمك فى القتال، صرع أحد الظلاميين، ثم انتبه إلى قدوم عدنان إليه كأنه استشعر أنفاسه، وقال:

وضيع خائن، قد كفيتنى عناء البحث عنك.

أجابه عدنان :

هيا أيها الأمير تعال، سأُلحِقُكَ بأبيك.

اصطدمت سيوفهما، فانقدح منهما شرر عظيم، تابع جودفرى النزال بلهفة، وترقب غمغم مرة أخرى : " لقد استحق هذا الشاب شهرته، إنه بارع " أكل الحقد قلبه بقدر إعجابه، وما لبث وانقلب حقده، وإعجابه إلى عاصفة من الغضب، وهو يري رأس عدنان تطيش فى الهواء، فضيق الخناق على القداسيين، وضاعف هجماته، تقدم نحوه الصياد فى إصرار غير مبال للحرس من حوله، فتراجع جودفرى، وحالَ حرسه بينه وبين الصياد،

ونازلوه، فقاتلهم بعزم شديد، وحاول الوصول إلى جودفرى، فتكالب الحرس عليه، فسقط من فوق جواده، ونهض، يتابع القتال، جندل بعضهم، ولكن بدأت شيفرات السيوف تلثم لحمه من جميع الجهات، وهو صامد، ثم تصنَّم صارخاً متوجعاً للسيف، وقد اخترق ظهره، وشق أحشاءه حتى برز من بطنه، أحكم جودفرى طعنته، وأدار السيف فى ظهر غريمه، ثم انتزعه، خرّ الصياد على ركبتيه، والدم ينفجر من جسده وينبثق من فمه، فاقتص جودفرى رأسه، وطاف بها . تزايد عدد الشهداء، ولم يعد فى القوس منزع، رفع معاوية الراية، ونادى فى رجاله فتجمعوا حوله، ثم شق ثغرة بعد قتال مرير، وانسحب ونار الحسرة تلتهم قلبه " وداعاً قداسة ".

***

استطاع بعد عناء شديد أن يُفلت من قبضة المطاردين، وبعد أن اطمأن إلى يأسهم عن طلبه عدل وجهته إلى البحر، اجتاز الغابة ووصل الشاطىء حيث كان محمد، ويحى قد انتهيا من دفن الأمير سهيل داخل الغابة، ونظما أمور الأهالى، وجهزا السفن الراسية، وانتظرا وصوله، تراجع عن الشاطىء، وذهب غير بعيد داخل الغابة، فصلى الجنازة على قبر أبيه، ثم عاد يتفقد الأهالى المنكوبة، اكفهر وجهه، وطغي الأسى على ملامح الشباب فيه، واكتسى شعره الأسود بغبار الفرار، وسحق كاهله العار، لقد ذلَّ العزيز، وضاعت مدينته، ضاعت أرض الزمان المباركة، فأى أرض تحمله، وأى سماء تُظِله، ما زال غير مصدق بما جرى، كيف ؟ كيف فرط الناس بها ؟ كيف استطاع جيش الظلاميين أن يخترق كل المساحات الشاسعة بين كل تلك الشعوب، ويصل إلى قداستهم دون أن يتكبد قطرة دم واحدة، ماذا فعلوا ليكسروا بأسنا بهذه الطريقة ؟ لم يجد أى إجابة لتساؤلاته، هناك شىء واحد يعلمه، أن قداسة قد ضاعت، ولم يستطيعوا حفظها، سأله يحي " ماذا سنفعل بعد ذلك ؟ " تركه معاوية، ولم يُجب، مرّ بين الأهالى، وواساهم،

تفاجأ بالطفل يهوى إليه فور رؤيته، فانبسطت أساريره بعض الشىء، أخيراً وجد شيئاً من ملكه لم يضع، هرول إليه، وجثى على ركبتيه، واحتضنه، كان الصغير يرتجف، ثم بدأ يهدأ فى أحضانه شيئاً فشيئاً، ضمه إليه بشوق :

بُنى، ظننت أنى فقدتك، لا بأس يا صغيرى، أنت الآن بخير، لا تقلق قد انتهي، أنت فى أمان.

بدأ الأهالى يصعدون إلى السفن، سمع صراخ امرأة دوى فجأة، أسرع إلى مكان الصوت، وقد ظن أن الظلاميين أدركوا مكانهم، تبين من كلام النسوة اللاتى يحلقن حولها أنها فى المخاض، قالت إحداهن " إنها زوجة الصياد يا سيدى الأمير " اغتم قلبه لذكر الشهيد، قد كان ينتظر هذا اليوم، وبعد دقائق خرج للدنيا صوت الوليد، فأضاف نسيماً للحياة بين أنفاس الموت الجاثم فوق المكان، ظل واقفاً على مسافة من النسوة، حتى حملته إحداهن إليه، تلقاه برفق، وقبَّله، ثم تبسم لعمر، وقال :

انظر قد أصبح لك أخ.

تهلل عمر فرحاً، وتساءل:

ماذا سنسميه يا أبى؟

قيساً.

انحنى إلى أذن الوليد، وهمس به:

أعدك بأنى سوف أضع قاتل أبيك تحت أقدامك ذات يوم.

وسرعان ما أفلتت اللحظة الباسمة إذ فاضت روح أم الوليد لتلحق بزوجها.

أبحرت السفن، والقوارب الصغيرة مبتعدة عن المدينة، ثم وصل جودفرى، فتآكل غيظاً لإفلاتهم صاح فى حنق :

على أى السواحل ينتهى هذا البحر؟ أجابه صوت إلى جانبه :

لا نعرف حياة وراءه يا سيدى.

هنيئاً لحيتان البحر لحومهم.
ضحك الرجال، فتابع جودفرى:
الحق أنى أحسدها على التهام الأمير الشقى، كنت أختصه لنفسى.
صاح مجدداً بصوته الغليظ :
يا معاوية، أيها الأمير، هناك شىء يخصك فى أرضى .
رفع معاوية يده، فتوقفت السفن، ورمق جودفرى، تري ماذا هذا يقصد اللعين؟
رفع جودفرى يده، فتقدم من ورائه جنديان يحملان شيئاً يلفه القماش الأبيض، ووضعاه على الشاطىء، أغرورقت عينا معاوية بالدمع، غمغم:
لا ..... لا .
راقب القداسيون بعيون ذاهلة، وأنفاس متسارعة، لا يمكن أن يكون ذلك حقيقة، يجب أن يكون كابوساً يغزو ليلاً حالكاً بالحزن، والتشريد، ردد معاوية
لا ... لا.
تابع جودفرى أثر فعلته عليهم، وهو يعقد حاجبيه الكثيفين، وسرى إلى نفسه الحاقدة شيئاً من لذة البطش، وأمر الجنود، فنزعوا القماش الأبيض، وألقوه فى البحر، فصرخت وصيفة عمر، وهى تغمض بكفها عين الصغير:
لقد نبش اللعين قبر الأمير سهيل.
ترجل جودفرى، وربط قدمى الجثة بحبل غليظ، ورفع طرفه الآخر ليتدلى من جزوع إحدى الأشجار، وسحبه للأسفل، فارتفعت جثة العجوز تتطوح فى الهواء، أمر أحد الجنود، فأمسك بطرف الحبل، ثم سحب خنجره، وبدأ يمثل بالعجوز، وهو يجز أسنانه، وعينه تنظر إلى معاوية بالغل، والحقد، وتتربَّع على شفتيه ابتسامة متوحشة مشؤمة، انفجر معاوية مزمجراً:
أبى ... أبى .

جرّد سيفه، وضرب حبلاً عند حافة السفينة وقطعه، فسقط القارب الذى كان مشدوداً إليه فى الماء، وأسرع للنزول .

سأقتلك أيها الوغد الحقير.

اندفع محمد ويحى، وأطبقوا عليه يمنعونه من الرجوع، غالبهم، فساعدهم آخرون، صرخ بهم آمراً:

اتركونى، قلت ابتعدوا.

قال يحى:

والله لا نفعل، إهدأ يا سيدى أرجوك، ما ضاع قد ضاع .

تدخل محمد:

فكّر يا سيدى أرجوك بهؤلاء، ليس لهم سواك يعيد جمعهم، ويحفظ وجودهم وترابطهم، فكر فى عمر.

هتف الجميع عندها "لا تتركنا "، وعلا بكاء الصبيان، والنسوة، قال أحدهم:

إما نرجع جميعاً، أو نبحر جميعاً.

تابع يحى:

من أجل استعادة قداسة، ولأجل الثأر لشهدائنا، ولأجل أمتنا لا ترجع أرجوك .

أُسْقِطَ فى يده، أغمض عينيه، فانفجرت ينابيعهما، وتعالى صوت الدموع من حوله، عاود النظر إلى الشاطىء، فرأى جودفرى قد أشعل النار فى الأمير. بكى، وشهق، ونظر إلى السماء داعياً بالصبر، والتحمل، ثم بدأت السفن تشق طريقها بين العُباب إلى المجهول.

وداعاً يا أبى، وداعاً قداسة والله لا أُصاب بمثلكما أبداً.

***

الفصل الثالث

مضوا يتقاذفهم الموج، ويجذبهم المجهول، تعاقب عليهم الليل والنهار، آفاق حالكة، وقلوب قانطة، وجرت الرياح بما لا تشتهى السفن، فلم تكن فى قسوتها أقل بطشاً من الظلاميين، رفع الموج هامته، وتمادى فى نزقه، فابتلع بعضهم، ومضغ آخرين، ثم لفظهم فى اللحظة الأخيرة .

لازم عينيه التسهيد، وتسلل الخوف إلى قلبه الجرىء، بات يخاف النوم، كلما غفا يمثل له ذلك المشهد الأليم، عيون تم اقتلاعها، أطراف بُترت، وقلب على حافة الخنجر، وذلك الضخم الأصلع يضحك، وأسنانه ممزوجة بالدم، لم تكن يقظته أقل ألماً، فأينما ولَّى وجهه رأي المأساة ذاتها، هل ينتهى هذا العذاب ؟

تألم القداسيون من حوله، ولكنهم سلموا فى آخر الأمر بأنه انتهى، وأن الأمير مات، ولكن هل مات حقا؟

قداسة المحترقة تقول هذا،

ضحكة ذلك المجرم،

رماده المنثور فى البحر،

دموعه المسفوحة.

أجمع العالم كله إلا هو، لم تمت، أنت اليوم أكثر حياة من ذى قبل، تربع على عرشك فى أعماقى حتى نلتقى، حان الآن دورى، تلقيت الضربة الأولى ورغم قسوتها لم أمت، شُقَّ قلبى، ولكنى ما زلت أتنفس، سأجعلهم يلعنون كل دقيقة مضت، ولم يقتلونى فيها، سأجعل الموت نجاتهم وأكبر طموحهم .

***

بعد عدة أسابيع لاحت أمامهم جزيرة، كبَّر المهاجرون وهللوا، الآن يمكنهم تبادل التهانى لنجاتهم، صعد الأمير فوق ربوة، ونظر ملياً، كانت جزيرة خلابة غناءة، لا ينقطع فيها تغريد الطيور، وسقسقة العصافير، خفيفة على الروح، تألفها النفس بعد دقائق معدودة، ولكن اغتم الأهالى والمقاتلون لأوامره .

تزودوا بما نحتاجه من الماء، والطعام سنتابع الإبحار .

اقترب يحى، وهمس بلطف :

المعذرة يا سيدى الأمير، ولكن لمَ لا نستوطنها وهى خالية ؟

إنها لا تتسع لما أخطط له.

لم أفهم.

ستفهم كل شيء فى حينه .

ولكن ....

قطع كلامه نظرة الأمير الصارمة بأن الأمر قد حسم .

عاودت السفن الإبحار بقلوب واهية متحسرة، وأنفاس متأففة لم يُلقِ لها الامير بالاً، مرّت شهور وهم بين العباب، يتكرر الأمر ذاته، تصادفهم جزيرة فيتزودون منها، ثم يفارقونها، قنع بعضهم بأن التيه قد كتب عليهم، وسيظلون فى البحر بقية عمرهم، يصارعون الموج، ويستقبلون اللاشىء، تركوا الطموح، وألفوا المجهول، ولتكن هذه هى حياتنا، نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، أو الموج أيهما أقدر، أما الأمير فقد لاذ بقلعة من الصمت فى معظم وقته، وغرق فى بحره الخاص من التفكير، بنى فى خياله مدناً، وهدم أخرى. شتته ذات يوم صوت امرأة مذعورة شاكية، تجُرُّ بيدها طفلاً لا يكف عن البكاء، وقد تورم وجهه.

أدركنا يا سيدى.

ما الأمر ؟ ماذا حل بالصبى ؟

إنه جمال الدين، ضربه حتى كاد يزهق روحه .

أمر أحد جنوده "اجلبه لى" جاء جمال الدين متجهماً مستعراً بالغضب، حافظ الأمير على هدوئه، وسأله :

لماذا فعلت هذا؟

فعلته لمصلحته، إنها تربيه على النفاق، قد كان يستخف بصلاته، وينقُر نَقْر الديكة، وقد نهيته من قبل، لكنه لم يُطِع .

أهكذا تدعو ؟!

أردت تقويم اعوجاجه، وهو لا يزال غضَّــاً .

هل أصبح من عملك أن تُقَوِّم اعوجاجاً، وتُنْزِل العقاب فى وجودى.

أيها الأمير ...

رفع الأمير كفه فى وجهه بأن لا يتكلم، ثم قال آمراً:

اجثُ على ركبتيك حتى يكون وجهك فى وجه الصبى .

احمر وجه جمال الدين أكثر، وتسارعت أنفاسه المتكبرة، وبدأ التوتر يدب فى ملامحه، قال متردداً بصوت خفيض :

سيدى ...

همس الأمير، وهو يشير بعينيه إلى موضع قدمه :

هيا.

انصاع جمال الدين على مضض، كبح غضبه بصعوبة، ورمى الأمير بنظرة ساخطة أسرع فى غضها، ثم حملق فى عيني الصبى، فبعث الخوف فيه، نظر الأمير إلى الصبى، وقال برفق :

اضربه، لا تخش شيئاً .

لم يقوَ الصبى على ذلك، وخافت أمه أيضاً، لربما تربص به، وألقاه فى الماء دون أن يشعر أحد، ابتلعت ريقها، وهربت بعينيها من نظرات جمال القاسية، ثم قالت :

لا يا سيدى، ولكنى أردت أن تمنعه فقط .

ابتسم جمال الدين لنجاحه فى إرهابها، أدرك الأمير خوفها، وهزّ رأسه متفهماً، وقال بصوت خفيض :

انهض يا جمال .

انشرح صدر الأخير، واكتمل ظفره، وما إن نهض حتى باغته كف الأمير يرتطم بوجهه، ويسقطه حيث كان . ثم صاح مهدداً :

إن كررت هذا مرة أخرى، فلسوف أجعلك طعاماً للحيتان .

جمع جمال نفسه، وغادر مسرعاً، وهو يتحسس خده المخدر، وتفاقم الحقد والكره فى قلبه، وغمغم :

ماذا انتظر من رجل مثله ؟ كافر ابن كافر، أضاع الأرض، وما زال يَعُد نفسه أميراً، لقد استحق أبوك حرقه .

تبسم الأمير، وانحنى إلى الصبى، وأراح كفه فوق وجنته .

لا أراكَ تخاف أحداً بعد اليوم ... اتفقنا ؟

عند غروب الشمس ظهرت أمامهم اليابسة، لم تكن جزيرة كما فى المرات السابقة، فامتداد الساحل تقصر العين دون آخره، تبسم الأمير، ثم أردف :

لعلنا وجدنا ما نبحث عنه أخيراً .

***

مع شروق شمس اليوم التالى وصلت السفينة على ساحل الأرض المجهولة، رتب الأمير نزولهم " ليتقدم المقاتلون، ولكن لا تظهروا أسلحتكم "

وما إن لامست أقدامهم اليابسة حتى تفرق الناس من أمامهم فى ذعر، فروا منهم فرارهم من المجزوم، تفرقوا فى جهات مختلفة، ولم يفهم سبب خوفهم. هل حسبوهم قراصنة، أم كانوا يترقبون عدواً؟ كل ما قالوه وهم يركضون :

الجبار .... الجبار .

شكَّل الأمير طليعة من المستكشفين، وجعل يحى على رأسها، غاب طوال اليوم، وعاد بعد تشابك النجوم، وأخبره أن المكان معمور بالناس، ولكن لا أحد يخرج من داره، تُرى ما سر سلوكهم الغريب؟ قرر الأمير انتظار الصباح عندما لمح ظلاً يركض مبتعداً، وكأنه جاء ليتحرى أخبارهم، أمر أحد الجند :

أمسك به .

انطلق الجندى، وألقى القبض عليه، وأخذه إلى الأمير. كان فتىً أشقر فى مقتبل العمر، يميل جسمه إلى الطول. تفرس الفتى وجه الأمير الشاب، وهدأ روعه لهدوء ملامحه، وتقارب عمرهما، قال الفتى :

سامحنى يا سيدى، لم أخرج إلا مضطراً.

تفحص الأمير عينيه المطمئنة، وكفيه المفتوحين، والممدودين بتسليم إلى الخارج، إنه صادق فى اعتذاره، ولكن لماذا يعتذر لخروجه؟

علامَ أسامحك ؟ هل خروجك جريمة ؟!

استغرب الفتى سؤاله، ثم تساءل :

ألستَ من رجال الجبار؟

أومأ الأمير برأسه نافياً، فتشجع الفتى، وقال :

إذاً ما عملك هنا فى الخارج ؟ ألا تخاف على حياتك ؟

ممن ؟

زاد استغراب الفتى، وأشار بسبابته إلى السماء :

ألا ترى هذا يا رجل ؟!

لم يحِدْ الأمير ببصره عنه، لا يبدو عليه الجنون، كرر الفتى:

ألا ترى ؟!

وحرك سبابته من الأسفل إلى الأعلى مشيراً إلى السماء .

كانت كوكبة الجبار تتوسط سماء الشتاء، وهى مجموعة من النجوم اللامعة يتوسطها ثلاثة نجوم متراصة بعرض الكوكبة يطلق عليها حزام الجبار. يعلوها ثلاث نجمات أخر فى شكل حرف الثاء، وتمثل رأس الجبار، وهى إحدى منازل القمر، أسفل يمين الرأس يوجد نجم لامع يسمى منكب الجوزاء ، وإلى أسفل يسار الكوكبة نجم آخر يسمى رجل الجوزاء، وهى كوكبة رائعة الجمال شديدة البريق، يمكن تمييزها دون عناء .

هل تقصد بالجبار هذه النجوم ؟

يبدو أنكم غرباء عن هذه البلاد ؟

أين أميركم ؟ أريد لقاءه ؟

لا يفتح بابه قبل الشروق .

لا بأس، سنستضيفك بيننا حتى طلوع الفجر، ثم تأخذنا إليه.

وافق الفتى رغم احساسه بشىء من الإكراه فى نبرة الأمير، على كل حال يبدو أنه لا خطر منه، فلو كان يريد أذيته لفعل .

***

الفصل الرابع

آنس الفتى الجلوس معه، تملكته الرغبة فى صحبته، أمير شاب، قوى يلمع فى عينيه السوداوين ذكاء فائق، وطموح تضيق السماء عنه، ويمتزج بهما أسى عميق، وجرح غائر، أكرمه بثوب الصبر والتجلد. انتبه الأمير إلى اسم الفتى، وكان اسمه رجا وتحدثه العربية، فتساءل. علم أن العرب قد نزلوا هذه البلاد فيما مضى، وامتزجوا بأهل الديار، وانسابوا فى أنسابهم إلى الدرجة التى يصعب تمييزهم عن الأهالى الأصليين، وقد أطلقوا على هذه البلاد اسم الحدوة نظراً لأن الجبال تحيطها من ثلاث جهات، من شمالها، وشرقها، وغربها، أما الجنوب فيحده البحر، وإن كانت منحسرة عنه إلى ما وراء الغابة، وسكان الحدوة خليط من أمم، وديانات شتى، وما وراء الحدوة أراض شاسعة يسكنها أمم، وقبائل متنافرة يتصالحون تارة، ويتقاتلون أخرى على حسب ما تقتضيه المصلحة، وأدى غنى الحدوة، ونماء الخير فيها إلى تكالب الناس عليها، والتربص بها فانتشر الصعاليك، وشذاذ الآفاق حولها، أما لغتهم فهى عربية الجذر، ولكن انقطاع العلم عنهم، واختلاطهم بالأعاجم أدى إلى تشوهها، فلم تعد ناصعة الفصاحة، وإنما اعتراها اللحن، واختفى الإعراب إلا فيما ندر، فألفوا تسكين أواخر الكلمات.

وماذا عن الجبار؟

إنه مارد هذه البلاد، وكابوسها الذى لا ينتهى، منذ سنين والناس تحت سطوته وظلمه .

ماذا يفعل أميركم إذاً ؟

رجل ضعيف اختار الذل ثمناً للأمان، فقسم للجبار ما يشاء من أموالنا وأقواتنا، ومن نسائنا إذا تطلب الأمر، وقد ضاق الناس، ولكن لا حيلة لهم.

صمت الأمير يفكر فى ما سمع، ثم تساءل:

كيف تطيقون هذا فضلاً عن ذُلكم، وإهانتكم أنتم سجناء بيوتكم ؟

لا يكون هذا طوال العام، فقط يُمنع خروجنا، وتجمعنا فى الأيام التى تتوسط فيها نجوم الجبار السماء، فإذا مالت إلى الغرب عاد الناس إلى حياتهم،

صمت رجا، ثم تساءل :

ولكن من أين جئتم ؟

صمت الأمير لبرهة، ثم قال واجماً :

من ماء .

قالها بغموض أثار التوتر فى نفس الفتى، فآثر السكوت.

ومع شروق الشمس تحركوا، حتى وصلوا الغابة، وجاوزوها إلى الحدوة للقاء أميرها .

***

قدم الساقى للضيوف الشراب، وحياهم، وخرج فى هدوء. كان الكأس الزجاجى يتلألأ بسائل قانى الحمرة، تبينوا عند سؤال رجا أنه شراب التوت، كانت الغرفة تتزين برسومات بسيطة ترمز لمعان طيبة، مثل تلك التى خلف الديوان المنتصب على ناصية المجلس، توضح جلوس الضيف فى قلب مستضيفه، وترصع السقف برسم بارع لبعض النجوم منها كوكبة الجبار .

تفحص الأمير المجموعة النجمية التى تتوسط السقف، وحولها هالة من رموز أخرى سيف، ميزان، جبل، حتى قطع تأمله للسقف طقطقة عصى العجوز تقترب فى تؤدة، ووقار. كان رجلاً طاعناً فى السن، يتعكز على عصا عتيقة تقارب عمره. جلس، وأشار لهم أن يجلسوا .

كان المكان ينطوى على الترف بشكل، أو بآخر لا تدرى سره، أو مصدره، فيما عدا النمارق المبطنة بريش النعام، فقد كشفت عن لين معيشته دون مواربة. تناول الكأس الذى وضعه الساقى على يمين ديوانه، وقال :

قد طلبت لقائي يا بنى.

أشكرك لإجابة طلبى.

أهلا بكم، من أين مقدمكم ؟

كنا نستوطن إحدى الجزر، ثم ضاقت بنا، فقررنا الهجرة حيث نجد السعة.

قال العجوز فى فتور وهو يرفع الكأس إلى فمه :

ووجدتها ؟

أظنكم أعلم منى بإجابة هذا السؤال، هل تتسع بلادكم لنا ؟

هذه بلاد عظيمة الخطر يا بنى، قد علمتُ أنك تأمر على عدد غير قليل من الأهالى .

أومأ الأمير برأسه مُقِراً، فتابع العجوز :

إلقاؤك بهم فى حياض الموت، والذل ليس بالأمانة، فالجبار لن يسمح لكم سوى بحياة المهانة، هذا إذا سمح لكم بالحياة، سيمزقكم.

أومأ الأمير برأسه متفهماً، ووضع الكأس جانباً، وقال :

علمتُ أنه كسر بأس المكان، ونزع سلاحه.

هذه نقطة مهمة يجب أن تضعها فى حسبانك، فلن تجد من يجيرك، أو من يدافع عنك.

إذا تعاونتم معى يمكننى أن أخلصكم من شره.

انتفض العجوز فجأة، ووثب واقفاً بشكل لا يتأَتَّى لمثله، وقال متجهماً محتداً:

إنك تستعجل هلاكنا أيها الفتى، اجمع من أتيت بهم، وارحل عنا.

نهض معاوية، وحدَّق كل منهما فى أعماق الآخر لوقت طال بعض الشىء، ثم أدار معاوية عينيه فى المكان، ورمق السقف مرة أخرى، وغمغم "حسناً "، ثم خرج.

صاح العجوز من ورائه " أمهلكم ثلاثة أيام لترحلوا "

التفت معاوية إليه، وهز رأسه متفهماً، وانصرف، وهو يغمغم :

شكراً لمهلتك وكرمك، سنرى.

***

ابتعد عن الحدوة فى اتجاه الغابة، وظل صامتاً يزن ما سمع، وما رأى. تساءل محمد :

ماذا سنفعل الآن ؟

لا شىء يطمئننى فى هذا الرجل، عيناه اللتان لا تكفان عن الدوران، ويمينه المقبوضة على شىء يخفيه، يطل من سحنته الغدر، ويقطر من أسنانه الدم .

نظر يحى فى قلق، وقد اتسعت عيناه.

هل تشك بأنه يتواطأ مع الجبار ؟

أومأ الأمير برأسه مقراً، ثم أردف :

هل من الطبيعى أن يتخذ الواحد منا رمزاً لعدوه فى بيته، أما لاحظتما نقش الجبار على السقف، وقد بالغ فى إظهاره عن غيره من النجوم، وزاد حوله سيفاً، وميزاناً، ورموزاً أخرى ليست من أجرام السماء .

حكَّ محمد ذقنه، وداعب يحى خصلة تتدلى على ناصيته، صمت الأمير برهة، ثم تابع :

هذه واحدة، هل لاحظتما وثبته عندما جاء ذكر المقاومة ؟ أضعف الإيمان إن كان مخلصاً لقومه أن يسمع خطتى، ويزن إمكانية نجاحها، أما هذا فقط انتفض مذعوراً ليئد الفكرة فى مهدها، وهذه ثانية، وعندما هممنا بالذهاب

صاح مهدداً بأنه يمهلنا ثلاثة أيام لنغادر، هل يملك عجوز ضعيف القدرة على إطلاق التهديد إلا إذا كان له قوة يُعوّل عليها ؟ فالناس هنا كما علمتم مُحرَّم عليهم حمل السلاح، وهذه ثالثة .

قال محمد :

ولكن هذا سوف يصعب عملنا.

سنرى .

وبينما هم فى طريقهم إلى الساحل لحق بهم رجا عند أطراف الغابة.

أيها الامير، هل يمكننى البقاء معكم ؟

هل رأيت ذلك الجبار من قبل ؟

لا لم أره، كما أن رجاله ملثمون، لماذا ؟

لا بأس، كنت أود معرفة أوصافه .

هل يمكننى البقاء معك ؟

لماذا ؟

لا أريد العودة إلى الحدوة، سأذهب معك حيث تذهب .

***

مضى أسبوع، اتخذ القداسيون رمال البحر وطناً، وزعهم الأمير إلى مجموعات على حسب مهنهم، وصنائعهم، وجعل على كل مجموعة نقيباً ينوب عنها، وينهض بأمرها، تختاره كل فئة بنفسها، واستبشر بتنوع مواهبهم بين الطب، والفلك، والهندسة، وعلوم القضاء، واللغة، وغيرها من العلوم، إنهم نواة جيدة لمشروع كبير رغم قلة عددهم، من بين هؤلاء كان هناك قلة قليلة من الذين نبغوا فى كثير من العلوم، والفنون فى آنٍ واحد، استخلصهم الأمير لنفسه، وجعلهم خاصة خاصته، والدائرة الأولى من حوله، وأطلق عليهم عصبة البيرونى نسبة إلى نقيبها الذى اختارته لما عُرف من سعة علمه، وأدبه. بعد تقسيمهم بدأوا فى اقتلاع الأشجار، وصنعوا منها

أكواخاً، جعلها الأمير فى أبعد نقطة ممكنة عن الغابة كى لا يسهل مباغتتهم، ولينكشف عدوهم إن حدث وهاجمهم أحد، وزع الجنود حولهم لحمايتهم دون أن يظهروا سلاحهم ريثما يُحسم موقفهم مع أمير الحدوة، وأهلها، فى الوقت نفسه كانت العيون التى بثها حول الحدوة، وداخلها تمطره بسيل من المعلومات يؤكدها رجا، ويزيد عليها أحياناً، كما علم أهالى الحدوة بوجودهم، وكثر الحديث عنهم، واختلفوا فى الحكم عليهم وعلى أغراضهم، ولكنهم أجمعوا على هلاكهم بمجرد نزول الجبار .

***

أخذ يتأمل القطعة الذهبية فى يده، ويلامس نقوشها بأطراف أنامله، ويشتمها بشغف، ضحك وهو يعيد القطعة إلى كومة الذهب أمامه، نظر إليها وقبض منها ملء يده، ثم قال:

فليحيا الجبار.

قهقه واستنشق قبضته بعمق، ثم أفزعه صوت الخادم يستأذن فى الدخول، جمع ثروته فى زكيبة جلدية كبيرة، وخبأها أسفل سريره، زعق دون أن يفتح:

ما الأمر؟

قد جاء رجا يا سيدى ، ويطلب لقاءك.

فرح لمقدمه، وهرول إليه، فنهض رجا لدخوله.

سيدى الأمير .

تجاهل العجوز تحيته، وسأله :

هل رحل الأحمق ؟

سيدى، لقد ....

قطب العجوز حاجبيه، وقال آمراً:

قل.

لقد صنع من الأشجار أكواخاً، واستقر بطول الساحل.

لم يستمع الغبى لنصيحتى، إنى أشفق عليه، قد علمت يا رجا أنى قضيت عمرى فى سبيل حقن الدماء، إنى حزين عليه، وعلى الأبرياء الذين معه .

قال رجا مؤيداً :

لقد فقد الفتى عقله، يُقيم بهم فى العراء، وليس معهم ما يدفعون به عن أنفسهم.

تحمس العجوز، وقال:

ماذا تعنى ؟

إنهم حفنة من العُزَّل، حمقى يتبعون أحمق.

داعب العجوز لحيته ، وقال :

لقد نصحته يا بنى، وأبرأت ذمتى .

سيدى إذا سمحت لى فأنا لا أرغب فى العودة إليه، فليس لديه ما يُقلق.

حسناً، اذهب واسترح، لم يعد لوجودك بينهم حاجة.

***

جلس فى مواجة البحر يتأمل سيفه، وقد انطبعت صورة بدر التمام عليه، فانعكس بريقه، نظر إلى أفق الموج المضطرب، وتنهد الشوق، ليس بينى وبينها سوى هذا البحر، مدينتى المباركة، وطنى الأسير، لو أننى أستطيع، لقطعت الموج إليك عوماً. وبينما يصارع أشواقه سمع صوت خطى تقترب.

يحى ، هذا أنت ؟ تعال واجلس .

جلس يحى يراقب الموج فى صمت، فانتبه الأمير إلى وجومه.

ما بك ؟

أتساءل يا سيدى إن كنا سننجح فى هذا الأمر، أعنى هل سيتركنا الظلاميون وشأننا ؟

لإن تركونا فنحن لن نتركهم، إنها مسألة وقت، ولكن اطمئن، لن يهاجمونا، أو يلاحقونا.

لماذا ؟

ما كان اجتماعهم، وتوحدهم إلا ليأكلونا، وقد تم لهم ما أرادوا، لن يلبثوا حتى ينقسموا على أنفسهم، سيتضح كذب اجناتيوس، وحكمائهم، فقد سيطروا على المدينة، ولم يحل الإله فيهم كما كانوا يبشرون أتباعهم، سيرى كل حكيم منهم أنه الأحق بالملك، وسيشغلهم ذلك عنا لمدة .

تعنى أن حكم اجناتيوس سوف ينتهى ؟

لا، إنه الأكثر حنكة، وسطوة، وقسوة، ومعه ذلك اللعين جودفرى سوف يقمعهم .

هز يحى رأسه فى فهم، تابع الأمير:

والحق أنى لا أتمنى موت ذلك الكلب قبل لقائى.

جودفرى ؟

سيدور الزمان دورته، ويصير تحت أقدامى ذات يوم.

ساد الصمت، وعادت آذانهم إلى اصطفاق الموج، تساءل يحى من جديد:

هل تثق برجا ؟

لماذا ؟

رأيته خارجاً ناحية الحدوة على عجل، وهو الذى قال بأنه لن يعود إليها، أخشى أن يكون عيناً علينا.

قال الأمير فى هدوء :

قد يكون.

إذاً نمنعه إذا جاء إلينا مرة أخرى.

أجابه الأمير وهو يلامس بأنامله نصل سيفه :

لن يأتى.

ساد الصمت، ولم يفهم يحى ما قصده الأمير، نفض كفيه من الرمال، وغالب تثاؤبه، وقال :

هل تأذن لى، سأذهب للنوم ؟
أغمد الأمير سيفه، وقال " لا "

***

كان الليل قد انتصف عندما تمخض ظلام الغابة عن الأشباح الضارية تَهُبُّ على الساحل، وتنهب بخيولها الأرض، ويطلقون صيحات تدوى كالعواء. استيقظ المهاجرون فى فزع. كان معاوية متأهباً على رأس المقاتلين. انتظر حتى دنى المهاجمون منهم، ثم صاح آمراً وهو يشق الهواء بيده:
الآآآآآآن.
انطلقت السهام لتحصد أهدافها بدقة رغم الظلام، لا يزال يحى منبهراً بما يجرى، لهذا إذاً لم يسمح بذهابى، قد كان يعلم بالهجوم !!!
ارتبك المهاجمون بين مقبل ومدبر، فقد أتوا للقتل لا للقتال، شلَّت المفاجأة تفكيرهم، صاح معاوية مجدداً " الآن " فسقط منهم من سقط، نظر إلى يحى باسماً، وقال:
لقد اشتقت إلى صوت الخيل كثيراً.
حسم تردد المهاجمين بين الكر والفر، فجرد سيفه، وعصفهم .
التحم القداسيون بهم، وحاصروهم، دقق الأمير حتى اهتدى إلى قائدهم، فهوى عليه، ونازله، أسقطه من فوق جواده، ثم أسقط سيفه، وأسره. لم ينجُ من المهاجمين أحد، وغنم القداسيون مائة جواد، كانت هى الجياد الأولى لهم على هذه الأرض، جرَّ الأمير خلفه قائد المهاجمين مقيداً بالحبال ليستجوبه.
قال الأسير فى حنق :
لن تأخذ حرفاً منى.
سنرى .
مضى الليل، ولم يفلح الترغيب، والترهيب فى جعل الأسير يتحدث، قال الأمير فى ضيق :

اسمع أيها الوغد، أمهلك حتى الصباح، إن لم تتعاون معى فسوف أقتلك، وصدقنى لن يُفلح أحد فى اقتلاعك من يدى حتى ذلك العجوز.

ارتجف قلب الأسير لقوله، تبسم الأمير عندما لاحظ اضطرابه :

أعرف أنه من أرسلكم .

***

سرى خبر المداهمة داخل الحدوة كالنار فى الهشيم، فأسرعوا ليعاينوا ما سمعوه. هناك من تغلب على رجال الجبار، وأسر قائدهم. مع شروق الشمس كان القِدْر يغلى، وعلا أزيزه، وقف الأمير بقربه، ومن حوله أهل الحدوة ينظرون، وصاح بالمُعَلّق بجزع الشجرة فوقه:

هل أمير الحدوة له صلة بالجبار؟ أجبْ، قل من هو الجبار، وأين يسكن ؟

انتظر الناس نطقه، اقترب ثأرهم، وخلاصهم من كابوسهم، لم يبقَ شيء لم ينتهكه ذلك الرجل. قح الأسير لصعود الدخان إليه.

لن تجيب إذاً، لا بأس، أنزلوه فى الماء.

بدأ الحبل ينساب من يد الجنود ببطىء، ليقترب الأسير شيئاً فشيئاً من القِدر، وما إن شعر بحرارته، وسمع أزيزه حتى صرخ:

طارق .. طارق .. إنه العجوز هو الجبار نفسه.

اضطرب جمع الأهالى، وهموا بتمزيقه، لولا أن منعهم المقاتلون، كثر الصياح واللغط :

سنقتحم داره، ونقتله.

لن ندعه حياً.

لقد سرق مالى.

أجبرنى على ترك إحدى بناتى له.

رفع الأمير يديه قُرب منكبيه، وحركهما ببطىء كى يهدأوا، فاستجابوا له.

أعرف أن صدمتكم كبيرة، الرجل الذى كان من عمله السهر على حمايتكم كان هو من خدعكم، وسلبكم أموالكم، وأبناءكم، ولكن الحق أحق أن يُتبع، والعدل أولى بأن يُقتفى، لهذا لن نأخذ الرجل بذنب حتى نواجهه به، ونتثبت مما قال هذا (وأشار إلى الأسير)، وإنى أعاهدكم ألا أترك هذا الأمر حتى أخلصكم مما أنتم فيه، فاطمئنوا وطيبوا نفساً، فلن أفرض عليكم حكماً لا تريدونه، فإذا انتهى الأمر رجعت برجالى إلى حيث أقمنا.

ذهبوا خلفه إلى دار العجوز، فوجدوه قد رحل، ولم يترك فى داره شيئاً ذا قيمة عدا قطع ذهبية متناثرة بإحدى غرفه، وعلى سُلمه أسقطها أثناء فراره.

اجلبوا الأسير. أنت تعرف مخبأه فقل.

تردد الرجل، ثم اعترف:

فى مغارة عند قمة الجبل الغربى.

تذكر الأمير الجبل المرسوم فى سقف بيته إلى جانب المجموعة النجمية. قال يحى:

ربما يستدرجنا إلى فخ.

ثم انتبهوا إلى رجا قادماً إليهم مسرعاً، وقد تعرق فرسه، وجاش حميه.

توقفوا.

صاح الأمير ليمنع المقاتلين من إيذائه، فقد أرسله لتعقب العجوز إذا ما هرب. ترجل رجا، فبادره الأمير:

هل عرفت مكانه ؟

فى المغارة أعلى الجبل الغربى.

تأكد لديه الخبر، فجمع المقاتلين وصعد الجبل، باغت المغارة، وقضى على ما تبقى من رجاله، لكنه أبقى العجوز، وعرف منه مكان أموال الناس وأبنائهم. استرد الذهب، ولكنه كان قد باع الصبيان، والبنات فى سوق النخاسة.

سلم الأمير العجوز، ومعاونه لأهالى الحدوة فصلبوهما، ومكث بينهم يوماً كاملاً. جمع ثقاتهم، وسلمهم أموالهم التى سطى عليها المصلوب، ووعد الناس بأنه لن يدخر جهداً فى البحث عن أبنائهم الذين تم بيعهم فى أسواق العبيد، ثم جمع رجاله، وعاد إلى الساحل خارج الحدوة كما وعدهم.

ومع شروق اليوم التالى خرج أهل الحدوة جميعاً يتقدمهم أعيانهم، وثقاتهم، وطلبوا من الأمير النزول بينهم، وتولى أمرهم، فاستجاب لهم.

***

الفصل الخامس

دخل الحدوة تحيطه حفاوة أهلها، والإستبشار بعهده، استقر بمن معه ناحية الجبال الشمالية، سمح لهم بالمتاجرة، وكسب الرزق، وشراء المنازل، وبنائها، أما هو فقد أقام لنفسه خيمة، وجعلها تذكرة، ورمزاً لعدم القرار، كي لا ينسي الناس هدفهم، ومدينتهم المفقودة، علم أهل الحدوة بها حل بقداسة، فلطالما سمعوا عنها، وعن قيمتها في تراث أجدادهم. بدأ الأمير فور استقراره بتمشيط المناطق المحيطة بالحدوة، فجهز السرايا، وطارد قطاع الطرق، قاد بعضها، وأمّر غيره في بعضها، ناب عنه البيرونى نقيب عصبة البيروني في حكم الحدوة في حال غيابه، ولم يمضِ وقت طويل حتي أمَّن مداخلها، ومخارجها، والطرق المؤدية إليها، كما ربط داخلها بشبكة من الطرق، ومهدها، وأنشأ محطات للنقل العام بين جهاتها، فازدهرت حركة التجارة فيها، ورغب من حولها من القبائل في عقد الصفقات التجارية، واتفاقيات الحماية المشتركة، وفي الوقت نفسه نجح في تحرير أبناء الحدوة من قبضة العبودية بعدما بذل جهداً شاقاً في البحث، والتنقيب عنهم في الأسواق، والقري، أعانه علي ذلك جماعة كونها من أهل الحدوة كانوا علي علم بصفات المفقودين، وتاريخ فقدهم، انتقل بعدها إلي مهمة أخري وكانت الأكثر عناءً، وهي تصحيح عقيدة الأهالي، فقد أدي انقطاعهم عن العلم، والعلماء إلي انتشار الجهل، والخرافات، والإعتقاد في النجوم والكواكب، فكانوا ينسبون إلي نجوم بعينها الضر والنفع، والفقر والغني، والصحة والسقم، واعتقدوا في الأنواء، فربطوا نزول المطر بسبب سقوط نجم، وشروق آخر، وغيرها من أعمال الدجل التي جني من ورائها الأفاقون أموالاً طائلة، وكانت خطوته الأولي بأن أقام مدرسة لعلوم اللغة العربية، فأعاد ضبط لسانهم، وقوّم اعوجاجه، فبرئ لحنه، وانفتحت أمامهم سُبل

المعرفة، غيَّر نظام القضاء الذي ساد البلاد لقرون خلت، وأقام نظاماً قضائياً متكاملاً، فألغي البَشْعة، وهي إحدي طرق الإستجواب، يستخدمها المحققون متي لم يكن لديهم الأدلة الكافية لإدانة المتهم، وفيها يأمرون أحد مساعديهم، ويسمي المُبشّع بتمرير حديدة ساخنة علي لسان المُتَهم بطريقة معينة، ثم يتركه لبعض الوقت، ويتفحص لسانه، فإذا وجد أن اللسان قد تأذي يعتبر ذلك دليلاً علي ارتكابه الجريمة، وإن كان سليماً، فهذا يدل علي براءته!!

أنشأ صروح البحث العلمي، وربطها بالبعثات إلي خارج الحدوة لتحصيل العلوم التي تمتاز بها الأمم الأخري، ساعدته عصبة البيروني بشكل كبير، أنشأ مرصداً فلكياً أطلق عليه " سهيل " ، أصبح مع الوقت قِبلة لعلوم الفلك، وزاد عدد الجيش، وانضم له مئات الشباب من أهالي الحدوة، وما دان له من البلدات حولها، فَهِمَ حينها المهاجرون سبب إعراض الأمير عن الجزر الخالية التى نزلوا عليها في رحلة الفرار، وقولته المحفورة فى أذهانهم " لا أريد أرضاً فقط، بل أريد شعباً " ، ومضت السنون، وشبَّ عمر، وقيس، وأروي ابنة صديقه محمد، والذي أصبح واحداً من أقطاب المال بالحدوة، وخارجها، وتزوج الأمير من سلاف إحدي اللاجئات بالمدينة، كما برز نجم الشيخ إبراهيم الذى انضم للمدينة من إحدي القبائل الغربية، شقَّ إبرهيم لنفسه طريقاً بين أهل الرأي بتأسيسه النظام المالي للمدينة بشكل غير مسبوق عبر مجموعة من بيوت المال شديدة التعقيد عالية الدقة، ولأن الحدوة كانت خطوة لاستعادة قداسة فقد غيَّر الأمير اسمها لتصبح "حدوة الجسر" ورفض ما اقترحه بعض أهل الرأى فى أن يسميها "قداسة الجديدة" قائلاً:

أخشى أن يأتي المدلسون بعد زمن، ويخدعوا الناس بأن الحدوة هي قداسة، وأنه لا حق لنا في استعادة مدينتنا.

في أثناء ذلك انشغل الظلاميون بأنفسهم، وانقلبوا علي بعضهم في طلب الحكم، وطال نزاعهم لسنوات، ولكن تمكَّن اجناتيوس بعدها من توحيدهم تحت ظل سيفه، فأطاح بأعدائه، وفتك بمن ثاروا عليه حتي أخمدهم، وعلا معه نجم جودفري، وذاع صيته، ولم يبقَ أمامه سوي معضلة النبؤة التي قادتهم إلي حيث وصلوا، فلم يحل الإله فيهم، ولم يُعلن للعالمين تقديس دمائهم، وقوامتهم علي خلقه، فدعى إجناتيوس لعقد اجتماع لاتخاذ القرار .

***

أين المشكلة ؟ لماذا لم يُتوَّج نصرنا بعد كل تلك السنين ؟ ألم نستعد الجبل، ونطرد الأغيار ؟ ألم نُحكِم قبضتنا علي الدنيا ؟ لماذا لم يرتفع النداء، ويعلننا قبلة وسلماً للسماء ؟ تساءل إجناتيوس، وصمت الحكماء والمعبرون. كان جودفري يدير عينيه القويتين في الرؤوس الخاضعة والأبصار الصاغرة . تابع إجناتيوس :

أنت يا هيليوس من يجب أن يكون عنده تفسير لما يحدث، أنت عظيم العرافين والمعبرين هنا.

ابتلع هيليوس ريقه بصعوبة، وتردد في الحديث، ثم فضَّل الصمت، صرخ الحاكم بوجهه :

قل شيئاً، أم إن دولتنا حقاً خطيئة، مصيرها الزوال؟

انتفض هيليوس، وقال في تملق ونفاق:

لا لا يا سيدي لا.

قال الحاكم في صبر نافذ :

فماذا إذاً ؟

السبب أن هناك بلاداً لم تدخل تحت ظل سيفك.

أي بلاد هذه ؟

وراء البحار.

قال الحاكم مستغرباً:

وهل تعرف حياة وراءه يا هيليوس؟

ظل المعبر صاغراً مرتجفاً، قال بصوت خفيض:

هذا هو التفسير الوحيد.

انفض اجتماعهم، وتمخض عنه قرار اجناتيوس بإرسال الحملات الاستكشافية، والوقوف علي حقيقة كلام المُعَبر .

***

توتدت الخيمة البيضاء، متعددة الأجنحة في أقصي شمال الحدوة، هوت إليها الأفئدة، وطمحت لبلوغها الآمال، هنا يستقر أول من أنشأ مدينة لم يسبق للحدوة، ولا للبلاد التي حولها أن رأوا مثلها.

اجتمع الأمير بأهل الرأي تلبية لدعوة نقيب عصبة البيروني، وقف عمر، وقيس عند يساره، وتبوَّء البيرونى المقعد الأول علي يمين الأمير، يجاوره يحي، ويجلس علي يساره محمد، يجاوره الشيخ إبراهيم، افتتح الأمير المجلس ثم قال:

حسناً تفضلوا، أسمعكم .

قال البيرونى :

أري أيها الأمير أن ننشأ أسطولاً، ونبحر به إلي قداسة فور جاهزيته.

صمت الأمير، وأطرق ملياً، بينما تعلقت العيون نحو شفتيه ترقباً لقراره.

تابع البيرونى:

أخشي أن يألف الناس رغد الحياة هنا، وينسوا سبب وجودنا.

قال الأمير :

من كان سينسي فلن يمنعه طول الزمان أو قصره، إن ما اقترحتموه فضيلتكم لم يفارق ذهني منذ أول يوم نزلنا فيه هذه البلاد، ولكن لن أزيد الحِمل قبل أن يقوي الظهر، نوحد الساحل أولاً كي لا نتعرض للمباغة من خلفنا، ثم نتخذ جزراً في البحر الجنوبي تكون قواعداً لهجومنا ثانياً.

قال يحي :

سيستغرق هذا سنوات طويلة.

لا يهم ما دمنا علي الطريق، فلست أبالي من منا سيصل.

أدامك الله

لكل إجل كتاب يا أخي، وإن ذهبت فهناك من سيكمل طريقنا.

وأشار إلي يساره حيث عمر وقيس .

***

لم تتوقف رحلات الكشوف الجغرافية للظلاميين في البر والبحر، اكتشفوا بفضلها بلاداً جديدة، وأركعوا كل الشعوب التي قابلوها، استعبدوا بعضها وأبادوا بعضها، تبوَّء هيليوس مكانة عظيمة بين الحكماء لظهور صدق تفسيره، ووصلوا إلي جزيرة عملاقة أطلقوا عليها اسم ريد أيلاند أو الجزيرة الحمراء نظراً لان أهلها يصبغون شعورهم باللون الأحمر، وكانت عظيمة الثراء، فأغاروا عليها وحاصروها، ثم استعبدوا جميع من فيها، واتخذوها مركزاً لتجارة العبيد. تولي باليان حكم الجزيرة الحمراء، وهو من طبقة النبلاء، وهي الطبقة الثانية في مجتمع الظلاميين بعد الحكماء، كان أبوه أحد الحكماء الثلاثة عشر الذين وضعوا خطة إسقاط قداسة فى قلعة العهد. تابع باليان كشوفه البحرية، ونزل أحد السواحل التي تقع شرق جزيرته بفضل أحد الحكماء الذي وصل إليه قبله، وصعقته المفاجأة حين علم بوجود

القداسيين، فأرسل إلي إجناتيوس رسالة بدأها بعبارة " وجدت البقعة السوداء في العين المشرقة "

***

أدار إجناتيوس سيفه حول رقبة الراكع أمامه، ظل صاغراً مطأطىء رأسه الأصلع، انحني جسده الضخم بقدر ثقل النظرات الساخطة عليه.

لو أنك قتلته يومها، لو أبحرت في طلبه لكنت كفيتنا الآن تكاليف الحرب معه .

قال جودفري بخشوع :

سأتدبر أمره يا سيدي .

لم تفلح في إنهائه، وهو غِرٌّ هارب، فهل لك قِبَل به الآن ؟

سأصلبه كما فعلت بأبيه.

لا مفر من الحرب يا جودفري، لن يكفينا موت ذلك الآبق فقط، فلن يتم لنا الأمر، وواحد من قومه علي قيد الحياة.

ساد الصمت لثوان، ثم أردف اجناتيوس:

انهض.

بمَ تأمر يا سيدي ؟

سيكون من الأفضل لو وصل جيشنا وهو غير موجود، تخلص منه في هدوء .

***

انطلق في طريقه دون توقف، غير مُبالٍ بحرارة شمس الصيف الحارقة، أو بطول الطرق الوعرة بين الجبال، والوديان والسهول حتي وصل إلي مملكة أكيرا. كان أوتامى حاكم المنطقة قد استفاد من صعوبة تضاريس البلاد وبُعدها عن عواصم الممالك القوية من حوله، فأسس فيها إمارته وصدَّ كل من حاول إخضاعه من الملوك حتى اعترفوا به كياناً مستقلاً بعد الكثير من

الحروب الطاحنة. وصل جودفرى إلي معقله، فاستقبله هاتورلى بن أوتامى، واصطحبه إلى أبيه، انبهر جودفرى أثناء سيره بمهارة المقاتلين، وجديتهم في التدريبات القاسية. وصلا القصر ودلف هاتورلى، وفى أثره جودفرى، ووقف أمام الحاكم وحياه دون أن ينحنى، فاعتدل أوتامى، وقال :

إذاً أنت جودفري قائد جيش الملك اجناتيوس ؟ لم تختلف كثيراً عن ما تصورتك.

أجابه جودفرى فى ثقة :

لا يكون مثلي إلا هكذا.

ضحك أوتامى، وقال:

كيف أساعدك ؟

هناك رجل أريدك أن تخلصني منه ولك ما تريد.

غضب أوتامى، واعتبرها إهانة، ووقاحة، أجابه بحنق:

هل تظن من يقاتل الملوك يصلح أن يكون مرتزقاً.

لا أظن، ولكنك لم تسمع عرضي بعد، كلانا يعلم حاجتك الماسة إلى المال لتكمل طريقك، لن تستطيع توسيع مملكتك بهذا الفقر المدقع الذي تعيشونه، ما يلبث هؤلاء أن ينفضوا عنك.

قل ما تريد بوضوح.

مع الأسف أنت بحاجة لبعض التنازلات كي تصل المكان الذي تطمح اليه، وما أطلبه منك ليس كثيراً مقابل ما سأدفعه لك، لن يلوث تاريخك أن تكون مأجوراً لمرة واحدة إن كنت ستنال ألفي ألف قطعة ذهبية.

لمعت عينا أوتامى، وسال لعاب رغبته، تساءل غير مصدق:

قلت ألفي ألف؟

أجل.

أشار جودفري إلي الحارسين المرافقين له، فتقدما، وفتحا صندوقاً مكتظاً بالذهب، وقال :

هذه ألف ألف، والباقي عندما تأتيني برأسه.

نظر أوتامى مندهش إلى الذهب اللامع أمامه وتساءل :

من الرجل الغالي ؟ أتفكر فى قتل إجناتيوس ؟

معاوية بن سهيل آخر حكام قداسة.

قال متعجباً:

كل هذا لقتل رجل واحد ؟!! .

دعك من هذا، المهم أن تختار أقوي رجالك، وأكثرهم براعة.

سأله أوتامى:

هل هو بارع في القتال؟

صمت جودفري وزفر، ثم قال :

أكره أن أقول هذا، ولكني لم أرَ مقاتلاً مثله في حياتي.

ضحك أوتامى، ثم قال فى غرور :

لأنك لم تر مقاتلى أكيرا من قبل.

وأشار إلى هاتورلى. تجاهل جودفرى استعراضه، وتساءل :

هل اتفقنا ؟

***

خلع الشتاء علي قمم الجبال المحيطة بالمدينة عمامته الثلجية فزادها مهابة.

تحت قطع الثلج المتساقط، شق الموكب طريقه في وقار إلي خارج أسوار المدينة، يتقدمه الأمير في درع ناصع البياض، علي حصان فاحم السواد أتم اللوحة الفنية المشكلة من الطبيعة، وأهل الجسر، تابعته طوال سيره نظرات الحب، والإجلال، يسير عن يمينه عمر، فارس طويل القامة مفتول البنية،

يحرص علي أن يتأخر خطوة عن سير الأمير احتراماً، فُتحت أبواب المدينة، ووقف الموكب علي مقربة منها، دني عمر، وهمس بأذن الأمير:

لو لم ترهق نفسك يا أبتِ، كان يمكنني استقبالهم، وإحضارهم إليك.

أجابه الأمير وهو ينظر إلي الأفق في انتظار بزوغهم :

هذا أقل شيء، إنهم حملة نور العلم الينا، أين قيس؟

تفاجأ عمر لسؤاله، وكان قد أمر بإحضاره، تلعثم وانتقي كلماته كي لا يغضب:

لعله في ..... في ساحة التدريب، بعثت من يحضره.

نظر الأمير إليه وتبسم، أدرك عمر أن كذبته لم تنطلِ عليه، فتهرب من نظرته بسعال مصطنع، تابع الأمير:

عندما ننتهي من هذا الأمر، ابعث من يجده حيث يتسكع.

كان الأمير قد ضم إليه قيساً بعد استشهاد الصياد، فاعتني به، وعلمه بنفسه، وأبدي الفتي قدرات نادرة، وذكاء حاد، فتعلق الأمير به، ولكن بداخله صعلوك مجنون تعب الأمير في ترويضه.

***

استبشر الأمير بقدومهم، كانوا مجموعة من الفتيان النابهين أنفذهم في بعثة علمية خارج المدينة، تقدمهم عاطف نابغة المدينة، وقائد البعثة، ترجل الفتية لتحية الأمير، استقبلهم بانبساط، وبشاشة بدأت تتقلص شيئاً فشيئاً حتي تحولت إلي وجوم، واحمر وجهه. غالب اغتمامه، وتكلف ابتسامة باهتة وهو يتفحصهم، لقد ذابوا حيث كانوا، مشية رخوة، ثياب مبتذلة، ورؤوس لا يدري ما حل بها، تقدم إليه عاطف، وقد حلق جوانب رأسه، وصنع سناماً عند ناصيته، عانق الأمير، وأراح وجنته علي صدره، قال بصوت خفيض :

شكرا لاستقبالك يا سيدي .

قال الأمير في ضيق :

هل أنت بخير يا بني؟
أجابه عاطف بالصوت الواهن ذاته، وما زال متوسداً صدره:
بخير ... بخير .
أسر الأمير فى نفسه : "رباه، ماذا فعلتُ بكم ؟ هل أرسلتكم لتعلم آداب الجواري؟! ارفع أيها الفتي رأسك وحدثني كرجل، إن كنتم بخير فما بال حالكم هذه ؟ " كظم غيظه، وأبعد عاطف عنه برفق، وعانق باقي المجموعة فوجد منهم ما كان من صاحبهم، وما زال يتكلف ابتسامته :
أهلا بكم، أنرتم مدينتكم، تفضلوا وارتاحوا، وسيكون لنا اجتماع تخبرونني فيه بتفاصيل رحلتكم، قال عاطف :
حسناً يا سيدي ، **It's OK**
أغمض الأمير عينيه، وزمَّ شفتيه:
اتس ماذا يا عاطف ؟
اتس أوكيه يا سيدي.
– اذهب يا عاطف .... اذذذذهب .

***

لماذا تحبني ؟
همست بها، وعلقت شغف عينيها السوداوين إلي عينيه، انسكب في عروقه شلال قهوة استنفرت خلاياه، وصمت تغريد الطيور، وتوقف حفيف الأشجار، سكنت الريح، وقمع البحر أمواجه الثائرة، وتحولت الطبيعة لآذان تصغي وعيون ترقب، وقلوب تدق، لماذا ؟
سرت قشعريرة بجسده عقدت لسانه فصمت، وخانته قريحته وهو الشاعر، لا تزال عيناها تتلهفان الإجابة، سؤال لا يدري كيف يجيبه، أو بمعني أدق لم يخطر له من قبل، كأنها تسأله لماذا تتنفس ؟ اختلس النظر إليها، ثم حاول

المماطلة، والهرب، ولم يفلح، إنها تسبر أغوار قلبه، تراه في تخبطه واضطرابه، ضيقت جفنيها، وأمالت رقبتها، وقالت في مكر:

أم أنك لا تحبني؟

زاد اضطرابه، وقال متبرىءً:

لا لا.

لا تحبني؟

نعم، أعني لا، أوف، أنت تعرفين كل شيء.

ضحكت، وقد نجحت في عصفه.

قل إذاً.

التقط حجراً، ورمي البحر به، حيلة مفضوحة لكسب الوقت، فقالت مازحة :

وما ذنبه ؟

سأجعلك تعيشين الحب، وترينه أكثر مما تسمعينه.

تبسمت، وأردفت في دلال :

وأسمعه أيضاً .... أرجوووك.

ستسمعينه في حفيف الشجر، وزخات المطر،

في اضطراب البحر، وانسياب النهر،

في أنين الغروب، ودقات القلوب،

في طيش الحركات، ووقار السكون،

في كل ما كان، وما هو كائن، وما سيكون.

ضحكت، وقالت :

استنطقت التمثال أخيراً، مهلاً مهلاً هذا كثير علي.

ليته يكفي.

انحني ليلتقط حجراً آخر، فاضطرب شعره لهبة هواء مباغتة، وصعقه صوت صرختها:

قيس ساعدني.

أروى؟!

التفت فرآها معلقة في السماء بين مخالب خفاش عظيم سد الأفق بجناحيه، حاول أن يجرد سيفه، ولكن يده لا تتحرك، جرى العجز في دمه، فقد السيطرة علي جوارحه، وتصنم في مكانه، وعيناه شاخصتان إلي السماء، وقد حوَّل الخفاش نهارها إلي ليل حالك الظلمة، دوي في الأرجاء صوت استغاثتها "لا تتركني" جاهد، وصارع قيوده المتخفية، فضحك المجنح وزمجر قائلاً :

الظلام وحده من يمنح الحب ويمنعه.

ثم نفض جناحيه، وغاب.

لا ... لا ... لاااا.

فزعت الطيور لصرخته، نهض مرتجفاً، يتندَّى جبينه بالعرق، التقط أنفاسه المتسارعة، وسحب قربة المياه، وشرب ثم أغرق رأسه ووجهه، كان النهار قد أضحي بشمس تتستر بين الغيوم تارة، وتطل من خلفها تارة أخري.

نهض، وأسرج حصانه، داعب غرته، وتأمل جيده المخضب بدماء الطريدة المعلقة عليه، أدار بصره في الغابة الخالية من حوله، وانطلق.

***

انفض جمع الأهالي الذين خرجوا مع الأمير في استقبال البعثة، ظل ضائق الصدر، عاقد الحاجبين، كيف لم انتبه لهذا ؟ كيف رميت بقلوبهم الهشة بين العواصف ؟ سأستدرك الأمر.

لا تحزن، سوف تصلح ما فسد.

التفت إلي الفتي الصغير، وقد بقي لمواساته، تبسم مستغرباً:

نزار ؟ لماذا لم ترجع إلي المدينة؟
رأيتك حزيناً.
أنا بخير يا صغيري، سلم الله قلبك.
سوف تصلح ما فسد.
دعاه الأمير إليه برفق قائلاً:
اقترب.
دني الفتي، تطلع إلي براءته باسماً، وأراح كفه علي وجنته خفيفة السمرة، التقط الذكاء المنقدح من عينيه العسليتين، ثم سأله:
بماذا تشير علي؟
خجل الفتي، وتلفت الحاضرون من الأمراء، والحرس إلي بعضهم في اندهاش.
أري يا سيدي ألا تعيدهم قبل أن يكونوا مؤهلين لذلك.
سأفعل.
وانحني وقبَّل رأسه، وتابع :
ليت كان لهم نصف عقلك.
خفض الفتي رأسه، وذاب خجلاً من إطراء الأمير له، أشار الأمير إلي أحد حرسه، قال وهو يطوق كتفى نزار تحت ذراعه :
اصطحب نزاراً إلي حيث يريد.

***

ضربت حجابها فوق رأسها، وخرجت إلي الشرفة تتفقد المارة، وتترقب وصوله. لماذا تأخر هذا الولد ؟ ما كان علي أن أسمح بذهابه خارج المدينة، ولكن الأمير هناك، لن يمسه سوء، ولكن فيمَ تأخره إذاً ؟ مكث غير بعيد، ورأته قادماً في صحبة أحد فرسان الخيمة فاطمأنت، ثم قلقت، تُري ماذا

اقترف ؟ ولكنها هدأت عندما ودَّعه الفارس بلطف، وسأله إن كان يحتاج شيئاً.

دلفت إلي الداخل، وهرولت لاستقباله، احتضنته، وقالت عاتبه:

هل هذا ما اتفقنا عليه يا نزار؟

ما عدت طفلاً يا حنين، لا داعي للقلق.

قل أمي يا ولد.

ما الفارق؟ كلاهما يشعرني بالدفء، أمي حنين، والحنين لأمي.

إني فداؤك، أعلم أنك لم تعد طفلاً، ولكن قلقي عليك ليس بيدي.

قبَّل يدها، ومشي إلي غرفته، سارت في ظله بخفة.

هل رأيته ؟ أعني الأمير.

أجل.

كيف كان ؟

لم يكن سعيداً لتغيُّر حال الفتية العائدين من البعثة، وقد نصحته بألاَّ يرسلهم مرة أخري قبل أن يؤهلهم.

صكت حنين وجهها، وقالت في ذهول:

نصحتَ من أيها المجنون ؟!

الأمير يا أمي، هو طلب ذلك مني.

هدأ روعها، واجتاحتها موجة سرور وتساءلت فى لهفة :

هاااا، وماذا قال ؟

قال بأنه سيأخذ بقولي، ثم قبّل رأسي، وأمر حارسه بمرافقتي.

ضحكت حنين طرباً بما سمعت، فضمته بقوة، وراحت تدندن وهي تهزه :

ولدي ..... حبيبي .... مستشار الأمير

ولدي ..... حبيبي .... مستشار الأمير

الفصل السادس

لماذا يجب إنهاء القداسيين ؟

أكيرا لم تقع تحت سطوة سيفنا، لكننا صنعنا عقلها، وأفكارها، سواءً علموا ذلك، أم جهلوا، ألوف من القطعان تظن أنها تملك قرارها، وسيادتها والحقيقة أنهم عبيد أفكارنا، السطوة الحقيقة تكمن في السيطرة علي العقل والذهن، أن يري الناس بعينك، ويحكموا بعقلك ويحبوا ما تريدهم أن يحبوه، هذه هي القوة التي يصبح السيف أمامها باهت البريق، سأستمر في قتالهم حتي أردَّهم، لن يروا الراحة حتي يذعنوا، ويدخلوا القطيع، لا مفر لهم مني، سواء غاروا في الأرض، أو عرجوا إلي السماء، سألاحقهم.

تساءل صوت من أسفل قدمه بصعوبة:

ومعاوية ؟

عندما ينجح رجلك في مهمته، سأعصر قلبه خمراً، وأسقي به غليلي، ولكن لن أغفر لك خطأً آخر.

اعفُ عني .... اغفر ذلتي .

أتعرف سبب فشلك ؟ الغرور، أعمتك فرحة النصر فتركت عملك ناقصاً، إياك والنسيان، أنت لا شيء، أنت هكذا لأننا أردنا لك هذا، لا تنسَ نفسك .

رفع قدمه من فوق رقبة الساجد تحتها، وقال :

انهض يا اجناتيوس، لا آراك مخطئاً مرة أخرى.

***

نصب بيت المال هامته وسط المدينة، زين الدرع الأحمر أعلي بوابته الحديدية السوداء، تفضي إلي ممر طويل ينفتح بعد نزول درجات السلم الصخري علي ساحة استقبال واسعة، تتوسطها نافورة مياه دائرية لترطب المكان للزائرين،

يحيط بها مقاعد جلدية مصفوفة بعناية في مجموعات، ويتوسط كلاً منها منضدة دائرية من الزان صغيرة الحجم.

في نهاية الساحة المواجة للمدخل المدرج، نُصب مركز مدير الاستقبال، طاولة ضخمة، ومن خلفها كرسي فاره أقرب إلي العرش، يمتد عن يمينه، وشماله صفان من الطاولات الصغيرة تخص موظفي الإستقبال، وخدمة الزائرين، ينفسح من خلفه فناء صغير يفضي إلي سلم للطوابق العليا، تحتل قاعة المدراء الطابق العلوي للمبني.

هرول إبراهيم بين الزائرين من أصحاب الأرصدة، وصعد إلي قاعته، وانفجر ضاحكاً، كادت أنفاسه تنقطع، سأله ولده محمود:

خيراً يا أبتِ ؟

لو رأيته حين رأي الفتية المبعوثين وقد انقلب حالهم، وحل بوارهم، لو رأيته وقد احمر وجهه، وانقبضت أنفاسه.

ضحك محمود، وقال :

أوقد تغيروا بتلك السرعة ؟

أسرع مما كنت أظن.

سكت محمود، ثم قال في قلق:

أخشي أن ينقلب غضبه علينا، فأنت من اقترح أمر البعثات.

لا يا بني، أنا زينت له الأمر حتي اتخذ قرار إنفاذهم خارج المدينة.

وماذا فعل ؟

صرفهم بوجه عابس، وانصرفت أنا بعدها وتركته في حيرته، وغضبه.

وماذا بعد ؟

نحن لم نبدأ بعد، قد دبرت له فخاخاً سيتمني لو حُرِق مع أبيه، ولم يهرب.

سكت، وانقبض سروره فجأة، فتساءل محمود :

ما الأمر ؟ هناك قلق باغتك.

لقد أرسلت إلي الحكماء عبر باليان عاملنا في الجزيرة الحمراء، وشرحت لهم حال البلاد، واستفحال أمر معاوية يوماً بعد يوم، ومضي زمن طويل، ولم أتلقَ جواباً.

لعل إجناتيوس لديه ما يفعله .

داعب لحيته البيضاء متفكراً في الأمر، وقوس شفتيه، وقال:

ربما.

***

غير بعيد من وسط المدينة تململت الحانة من ثباتها وبدأ الاستعداد فيها ليوم جديد. وقف سعد صاحبها وراح يستعجل فتيانه في تجهيزها وتهيأتها قبل المساء، كان المكان شأنه شأن جميع الحانات في بداية اليوم، خالياً من الزبائن فيما عدا بعض الشبان الذين لم يبرحوا مكانهم منذ الليلة البارحة، توسطهم عُدي وقد دبَّ الملل فيهم وما زالوا يلعبون النرداشير، تنبهوا لنداء الزائر، فعلي الوجوم وجه عدي، زفر وقال في ضيق:

ها قد عاد المتسكع.

تدخل عمار هامساً:

لا تسعَ للعراك.

قال عدي، وهو يرمق الزائر بمقت:

يكفي أن يريحني من خِلقته، لا أطيق رؤيته.

استبشر سعد وتكلف ابتسامة في وجه الزائر، وقال متملقاً:

أهلا بك يا سيدي قيس، هل تأمر بشيء ؟

اسقِ فرسي، وأحضر لي قهوة .

أسرع سعد لتبية طلبه، انتبه قيس للعيون التي ترمقه في صمت فتقدم نحوها، تظاهر عدي بعدم الإكتراث، وأخذ يدحرج النرد في الرقعة، تبسم عمار:

أهلا بك يا قيس، تفضل.

سلمت، لكن ماذا تفعلون هنا، أليس عندكم تدريب ؟

أجابه عدي في فتور:

لم يعد هناك ما نتدرب عليه، أتقنا فنون القتال كلها، لا تنشغل بنا.

الفارس لا يترك التدريب أبداً، أول ما يقتل المغوار غروره.

قلت لك لا تنشغل بنا.

ضبط قيس نفسه، وكظم غيظه، وزفر ضيقه، ثم قال بهدوء :

أنسيت أني قائد التدريب ؟

أراح عدي ظهره إلي الوراء، ومدَّ ساقيه أسفل الطاولة، وقال :

لعلك أنت قد نسيت هذا أيضاً.

قال قيس محتداً :

ماذا تقصد ؟

تدخل عمار مشفقاً من وقوع عراك بينهما.

لا بأس، سنذهب يا قيس، ستجدنا هناك عند ذهابك.

زجره عدي :

لا تتكلم بصيغة الجمع يا أبله، أنا لن أذهب .

اقترب قيس منه، وقال مهدداً:

من الأفضل أن أراك معهم، لا تختبر صبري أكثر من ذلك.

غادر الحانة مسرعاً فتبلد سعد، والقهوة في يده عندما رآه ينصرف، التفت عمار إلي عدي، وقال موبخاً :

هل ستتفوق عليه هكذا ؟

يدعونا للانضباط وهو يتسكع منذ أيام خارج المدينة، لا أدري ما يعجبها به .

هذا هو إذاً، أنت تغار منه.

اصمت

أنا مشفق عليك، أبعد الأديبة عن خاطرك، ستجلب المتاعب لنفسك، كُفَّ عن التعرض لها أيضاً، ولا تكرر ما فعلته البارحة في نادي الأدب.

كن في شأنك، لا أحتاج ناصحاً.

حق الصحبة أن أنصحك، ولكن كيف تستسيغ عشق فتاة تمت خطبتها .

زمجر عدي غاضباً :

لا تنصحنى حتى أستنصحك .

***

بدأ معسكر التدريب في أداء مهامه منذ الشروق، انبري مقاتلو كتيبة العُقاب في نشاط بتأدية تدريبات تتناسب مع صعوبة المهام التي تُوكل إليهم، رَمَضَ الصقيع أمام نفوسهم المتوهجة، كانت بيارق الكتيبة تتوسط أرض المعسكر، وباشر كرشاب تدريبهم بالإنابة إلي حين عودة قيس، بذل جهده كي لا يشعروا بغيابه، وفي نهاية التدريب شكّل حلقة المبارزة، ثم وقف في منتصفها، ودعا صهيباً لنزاله وبدأ القتال، وبينما يترقب المقاتلون نتيجة المبارزة، انغرس سهم بين أقدام المتبارزين، وظهر الزير علي حصانه، صاح بصوته الجهورى :

المبارزة لا تتم إلا في وجودي.

ترجل وتقدم إلي حلقة المبارزة، رمقه كرشاب في حنق وصرخ بوجهه :

كم مرة أقول لك، لا تدخل التدريب بهذه الطريقة، لن ترتاح حتي تصيب أحدنا.

قال الزير باعتداد :

هون عليك، أنا لا أخطىء الرمي.

مشي إلي داخل الحلبة، وترك كرشاب يتقطع غيظاً، توسط الحلبة، وجرد سيفه، وطلب المبارزة .

كان الزير هو المجنون الوحيد الذي يطلب مبارزة مقاتلي العقاب، هؤلاء هم نخبة المقاتلين، وأكثرهم قوة، وحنكة .

أدار عينيه القويتين فيهم، تبختر بينهم ناصباً قامته القصيرة، والعرق يقطر من بشرته السمراء، ناداه كرشاب:

دعك من هذا، واتركنا ننهي تدريبنا.

ما فائدة التدريب وأنتم تجبنون عن لقائي ؟ لن أؤذي أحداً منكم.

نظر المقاتلون إلي بعضهم، وأسروا ضحكة ساخرة، فتابع كرشاب في ضيق:

كل مبارزة تقول هذا، ثم تخرج إما محمولاً، وإما تقيء.

نظر الزير إليه من أعلي رأسه إلي أسفل قدميه في استهتار، ثم صاح بهم:

يكفي أن تقولوا أنكم خائفون هذه المرة.

عاد صهيب للحلبة، وقد أثار الزير حفيظته، وقال:

هل تأذن لي يا كرشاب ؟

أومأ كرشاب برأسه موافقاً، فتبسم الزير، ودار حول صهيب دورة كاملة، ورجع خطوتين إلي الخلف وعاااااااع، بدأ القتال،

الزير يضرب ،

الزير يصد،

يضرب، يراوغ، يصد، يضرب، ويضرب ثم :

أوووووووعععععععع ، أووووععع ، أووووع .

سكنت قبضة صهيب في معدته كالعادة.

تلوي الزير، وهو يغمغم : أحسنت، أحسنت .

ثم امتطي جواده بوثبة خاطفة وفارق المعسكر.

***

سأتدرب حتي أصير واحداً منهم، قالها الزير لنفسه وهو يفارق المعسكر.

قابل في طريقه قيساً، حياه الأخير متبسماً:

من أين مقدمك؟ هل انضممت إلي العقبان دون علمي؟
تفقدتهم، واختبرت لياقتهم.
ضحك قيس، وقال:
وكيف وجدتهم ؟
قح الزير وقال:
يحتاجون إلي مزيد من التدريب.
شكرا لك سأتدبر أمرهم، اسمح لي .
ذهب قيس، والزير يتابع أثره بنظرة إعجاب، مصمص شفتيه، وقال:
فارس كما قال الكتاب .... فارس !!

***

ازداد نشاط المتدربين حينما رأوه يسير بينهم، كأنهم أرادوا أن يراهم في نفس اللياقة التي تركهم بها، تابع تدريبهم دون تدخل حتي وقت الاستراحة.
تقدم إليه صهيب وعمرو فحيوه بحرارة، ومنعهم من عناقه غبار التدريب المعجون بالعرق، ومشي إليه كرشاب، ثم قال باسماً:
هذه أمانتكم رُدت إليكم أيها القائد، يمكنني الآن أن استريح.
بادله قيس بشاشته.
شكرا لك يا كرشاب .
تابع الأخير :
لم تنسَ أصحابك، أليس كذلك ؟
وكيف أنسي، قد جلبت لكم غزالاً قضيت الليل أطارده.
رضينا
سأري عمراً ريثما تنتهون من تجهيزه.

***

انتبه يا بطل و لا تنس، اجعل ظهرك منتصباً، اسحب الوتر بقوة، أكتم أنفاسك، ولا تدع كلتى عينيك مفتوحتين، لا تطل زمن التصويب، وسدد، كن حريصاً علي أن يجد سهمك موطنه في نحر عدوك، كل سهم منا برجل من أعدائنا .

سدد عمر الرمية كبيان عملي علي المُعلم، ثم تراجع، وراقب الصبي، فنفذ ما سمعه بالحرف، ربت عمر على كتفه وقال :

أحسنت، هكذا دائماً.

ثم جاءه صوت قيس من خلفه :

ما هذا ؟! قائد جيشنا ينزل التدريب بنفسه .

ضحك عمر، وهرول إليه، واحتضنه.

ما عساي أفعل، وقائد تدريبنا يغيب عنا، ولا شيء يُوجِع ظله.

اشتقت إليك يا أخي، أعلم أنني أزيد من عبئك هذه الأيام.

دعك من هذا، إنما أمازحك، أنت بخير أليس كذلك ؟

أجابه قيس بصوت يشوبه الحزن :

بخير.

لن أثقل عليك بسؤالي، ولكن متي أردت الحديث ستجدني معك.

قالها عمر، ثم أغمض إحدي عينيه، وقال ممازحاً:

أم أن هناك من هو أقرب لك مني؟

المشكلة أنك قريب يا أخي، قريب لدرجة تدفعني للفرار منك.

نظر عمر مستغرباً:

لم أفهم.

جراحنا تحتاج لأن تظل بعيدة عن العيون المطلعة عليها ريثما تتعافي. أنت تفهمني، وقلبي عارٍ أمامك، فلا يكاد الجرح يبرأ حتي يخدش من جديد. أخشي أن يقيح من نظرات إشفاقك تلك .

ليس الأمر بهذا السوء.
قد تعكرت المياه بيني وبينها، مُعرِضة كما لم تكن من قبل.
هل أحزنتها؟
ليس غضباً، ولا حزناً إنها مُعرِضة يا أخي.
ألم تخطبها ؟ فما سبب قلقك ؟
بلى، ولكن لم تتم فرحتى حتى اشترط أبوها تأجيل القران إلى أجل غير مسمى .
الأمير محمد رجل وفى، لن يُخلف وعده معك.
صمت قيس، وكأنه لم يقتنع، أردف عمر :
سأنتظرك علي العشاء أما الآن فعلي الرجوع لحضور اجتماع طاريء أمر أبي بانعقاده .
لم يجد قيس في نفسه رغبة لمعرفة سبب اجتماعهم، فحرك رأسه متفهماً دون كلام.

***

حلّق المقاتلون حول الشواء، وتجاذبوا أطراف الحديث، قال قيس :
هل حدثت مشكلة في غيابي ؟
قال عمرو :
لا .
قال كرشاب :
غير أن عدد المتغيبين قد ازداد.
قال عمرو:
ليس سوي عدي، ومن هم في صحبته.
سأتدبر أمرهم.
تناول قطعة من الطريدة، وهو يسأل:

هل حضرتم اللقاء الأدبي ؟
نظر بعضهم الي بعض في صمت.
ما الأمر ؟ ألم يحضر أحد منكم ؟
قال عمرو:
صهيب فعل.
هل كل شي علي ما يرام ؟
ابتلع صهيب مضغة فى فمه، ثم قال:
مضي اليوم علي خير.
لمح قيس تواطؤاً علي الصمت بينهما.
هناك ما تخفيانه عني.
ثم أردف، وقد بدأ القلق يسري اليه :
أليست بخير؟
سارع عمرو مطمئناً:
إنها بخير.
ما الأمر إذاً ؟
قال صهيب:
قد تشاجرت مع عدي.
قال قيس بصبر نافذ:
قل ما لديك دفعة واحدة.

عقدت أروي لقاءها الأدبي كالعادة، وكان اللقاء ممتعاً، ويجري علي ما يرام، ثم دخل عدي دون استئذان، حاولت الأديبة أن تتخطي الأمر، جلس في الصف الأول مشعباً يديه خلف اللذين بجانبه، واضعاً ساقاً علي ساق، وأثقل ناظره عليها، فطلبت منه الإعتدال في جلسته، فقال:
لماذا؟

احتراماً للقاء الذي تشرفنا بك فيه.

اعتدل عدي، وقال متضجراً:

ليتني كنت متسكعاً.

عفواً، لم أسمع.

لا شيء، تابعي عملك أيتها الجميلة.

لا تتجاوز معي.

هل أخطأت؟

تدخلتُ أنا قائلاً:

كُف عن هذا السفه.

وما دخلك أنت ؟ منذ متي صرت مهتماً بالآداب أيها الجِلف ؟ أه نعم فأنت عين المتسكع هنا.

قمتُ لتأديبه، ولكن تدخل الحاضرون، ومنعوا عراكنا.

اكمل.

تردد صهيب، وهو ينظر لعمرو الذي يهز رأسه ناهياً كي لا يكمل، استبطأه قيس :

قل.

قال هل أنتِ حازمة هكذا دائماً في إدارة لقائك ؟ لو كنت ربيب الأمير لربما مرَّ الأمر.

ارتبكت عندها أروي، ورمقته في صمت، فخرج بعد ذلك، وتركها تتهرب من نظرات الحاضرين.

تطاير الغضب من عيني قيس ناراً، صمت برهة، وهو يطرق في الإناء، وأعاد قطعة اللحم من أمام شفتيه، ونفض يديه من أثر الطعام، وذهب.

***

تجهز ابراهيم، وابنه لحضور اجتماع الأمير، وبينما يهم بالنزول دخل إليه أحد رجاله وأعطاه رسالة، قرأها فتربعت علي وجهه ابتسامة عريضة. تساءل محمود:

خيراً يا أبتِ؟

أخيراً تحرك الحكماء، سيقتلونه الليلة.

لمعت عيني محمود:

كيف؟

أعطاه إبراهيم الرسالة فقرأها بتلهف، استأجروا هاتورلي مرة واحدة؟

دعنا ندعو أن يكون الرجل كما سمعنا عنه، وينجح.

ماذا إن تغلب معاوية عليه ؟

لا أظن ذلك، ولكن إن حدث فسوف يكون قد ختم قرار إحراق مدينته بيده، فسيأتي أوتامى لينتقم منه، المهم أبلغ رجالنا ليكونوا جاهزين.

***

بدأت الحانة تضج بروادها، وعاد سعد شخصاً مهماً يحاسب هذا، ويوصي بذاك، يضحك هنا، وينافق هناك، كل له من النفاق علي قدر سخائه، وما يدفع، بحكم خبرته أصبح يميز بين الأثرياء، ورقيقي الحال، بين الكرماء والبخلاء من النظرة الأولي قبل تعامله مع الزائر.

لا يزال عدي، ورفاقه يطلبون الطعام، والشراب حتي تراكم حسابهم من الليلة البارحة، وهو لا يجرؤ علي طردهم أو مطالبتهم، صاح عدي هذا الغاضب دائماً يأمره برفع الناردشير، وجلب الشطرنج، بينما انزوي الزير بركنه المعزول في أقصي الحانة، وانهمك في قراءة كتابه المفضل " البلاء في ذكر أوصاف النساء "

هيفاء : الطويلة الجميلة، يمصمص شفتيه.

حوراء : سوداء العين طبيعية الكَحَل ... يتنهد هاااا يا سلام، نعم نعم.

جَهْبلة : الدميمة القبيحة، أعوذ بالله، قلب الصفحة هارباً، وأسند رأسه علي الحائط، وحدَّث نفسه، تخيل أيها الزير بعد بطولاتك في ثقافة النساء، وطباعهن ينتهي بك الأمر إلي جهبلة، هذا هو الخسران المبين.
وهذه تعني المرأة الضخمة، قد تدفنك في أحشائها يوماً إذا أنت أغضبتها، أو لم تُطِع كلامها.
مع الوقت ارتفع الضجيج، والصخب بين الضحكات، واللعنات، أصوات تهادن، وأخري تتحدي، ثم تداخلت، وتحولت الحانة إلي بؤرة لغط، وطلاسم لا يتبين منها شيء، علي كلٍ، انشغل كل بهمه، ولهوه، راح سعد يعد نقوده، ويعقد أكياسها في نهم، كان أكثر الناس فرحاً بما آلت إليه، المزيد من الضوضاء، المزيد من الذهب، قطع متعته السكوت المفاجيء للحانة إذ ابتلعت ضوضاءها إثر ركلة عنيفة للباب فتحته علي مصرعيه، فغر رواد الحانة أفواههم، وشخصت أبصارهم إلي الزائر الغاضب، مكفهر الوجه، يندفع إلي الداخل كقطعة من نار المنجانيق، أسرع سعد، وعقد كيسه، وخبأه داخل صندوق خشبي أسفل طاولته، طوي الزير كتابه، ونهض، دني سعد من الزائر في خوف.
سيدي قيس ما الخطب ؟
لم يُعره الأخير انتباهاً، فتشت عينه الغاضبة في الوجوه، ثم صاح:
عُدي.
تقدم إليه، وقلب الطاولة التي يتربع عليها، وركله بقوة، فانقلب بمقعده إلي الخلف، نهض عدي، وتصارع معه، تبادلا اللكمات، والصفعات، تلوَّي عدي للكمة في بطنه، طبع قيس ركبته بعدها في وجهه فطرحه، ومسح الدم المنساب من أنفه، صَعّدَ عدي القتال، وأرخي زمام التهور، فاستل سيفه، وهوي به فراوغه قيس، وتمكن من قبض يديه حاملة السيف، وثناها بقوة فتخلت عن سلاحها، أستأنف عدي بلكمة في وجهه، وهَمَّ بأخري صدها

قيس، وأحكم قبضته علي نحر غريمه، ومشي به دفعاً إلي خارج الحانة التي انجابت بمن فيها خلفهم، اجتمع أهل المدينة لصوت القتال حولهم، تابعوا قتالهم بسخط، حاول بعضهم فض الشجار لكن تصدي لهم صهيب، وعمرو، ومنعا تدخلهم، ووقف الزير في وجه عمار عندما سعي لوقف القتال، لم يستسلم عدي، لكن بلغ الضعف منه، وسيطر عليه، فوهنت ضرباته. اقتص قيس قدمه من فوق الأرض، والتف من خلفه، ثم أحكم خنقه بذراعيه، فصرخ الجمع به محذراً:

ستقتله يا قيس، سيموت.

ما هذا الجنون؟!!!

ماذا جرى لكل هذا ؟

طرق عدي ساعد خانقه طرقات سريعة واهنة يعلن استسلامه، اندلع لسانه، ثم :

قيس.

التقطت أذنه النداء الأخير، فتخدَّرت أعصابه الجامحة، رفع عينيه فإذا بها غاضبة خائفة، يجتاح التوتر ملامحها الهادئة، وتحيط النار بحسنة وجنتها، وامتزجت نظرتها بالخوف، وبالغضب، وبالرجاء. أرخى حبال يديه المفتولة عن عدي كأخطبوط عفا في اللحظة الأخيرة عن فريسته، شهق عدي لاندفاع الهواء إلي رأتيه، أنفاس متحشرجة، سعال متقطع، ثم تمدد دون حِراك. أسرع إليه الناس، ونادوا بإسعافه، وقف قيس أمامها، وقد ضاقت نفسه لرؤيتها تخشاه، رمقته في صمت، وهو باسط كفيه أمامها، ولسان حاله " إن الأمر قد انتهي، ولم أعد مذنباً " تهرَّب من سياط عينيها التى أحاط به سرادقها، ثم جاءه الغوث عندما أطلق أحد الأهالي تهديداً صرف نظرها عنه:

لنشكون طيشك إلي الأمير .

أشفقت عليه من هذا، استجمع نفسه بعد أن باغته وجودها، ثني ذراعيه خلف ظهره، ونظر إليها متحدياً، فنظرت أروي جراح وجهه، وزمت شفتيها، وهزت رأسها مستنكرة، تراجعت، ثم استدارت مفارقة، حرك شفتيه محاولاً تبرير الأمر، لكن عجز لسانه كأن يداً قد التفت، وخنقته كما فعل بخصمه، مدَّ ذراعه محاولاً استبقاءها، ثم صاح، وهو يعيد يده خلف ظهره :

سأقتله في المرة القادمة.

توقفت لحظة دون التفات، غالبت ابتسامتها، وذهبت.

***

دأبت سلاف في عقد المعصم حول ساعده المفتول، وعيناه السوداوان تتابعان انهماك جمالها، وملامحها الشقراء في يده، ارتسمت علي شفتيه ابتسامة راضية، أسرعت إلي طرف الخيمة برشاقة، وناولته سيفه، وتطلعت إلي عينيه الراضيتين، وبادلته ابتسامتهما، وقبَّلت يده :

هل سيطول اجتماعك بأهل الرأي؟

لن يطول.

قالت فَرِحَة:

هذا جيد.

تبسم الأمير، وقال :

هل هناك من ينتظرني ؟

رفعت يدها، وأراحتها في لحيته السوداء، وقالت هامسة متطلعة إلي عينيه :

هناك دائماً من ينتظرك، لكن الأمير لا يشتاق.

تظلمينني.

بَرِّيء نفسك إذاً.

ضحك، وقبَّل ما بين عينيها، وقال :

سأفعل .

***

نهض أهل الرأي لدخوله، جلس، وأشار لهم فجلسوا.

قد علمتم أني جمعتكم لمناقشة أمر البعثات، بعضكم كان معي لاستقبال أبنائنا، وقد رأي كيف تغيرت أحوالهم، واعوجت ألسنتهم، فبمَ تشيرون ؟

قال محمد:

أري يا سيدي أن تنفذها وليصحبهم أحد علمائنا فيضبط سلوكهم، ويقوم اعوجاجهم.

أسرع إبراهيم مؤيداً، وكان واجماً حنِقاً لفكرة منع البعثات.

أوافق محمداً يا سيدي، رأيه صائب جداً .

هل هذا لأنك مَن اقترح علينا أمر البعثات، أم أنك فعلا توافقه.

قال إبراهيم متبرىء:

الله يعلم أني ما أردت إلا صلاح أمر المدينة.

قال الأمير:

لا بأس، ولكن عندما رأيت منهم ما رأيت ضاقت نفسي، وقد تنبه فتي صغير لذلك وأشار علي بألاَّ أرسلهم حتي يُعاد تأهيلهم أولاً .

قال إبراهيم مستنكراً :

وهل ندع الأطفال يقررون مثل هذه الأمور.

رماه الأمير بنظرة قاسية، فأسرع مستدركاً:

ولكن ما دام قوله لقي القبول عند جلالتكم، فالأمير أعلم، وأحكم.

ليس الأمير ولا الفتي، الحق أحق أن يُتبع، وإن جاء به طفل أو رضيع، وإنَّ رأي من رأيه، ثم التفت إلي البيرونى قاضى المدينة:

بمَ تشيرون ؟

الصواب فيما أشار به الفتي، وأقررتموه عليه، نؤهلهم أولاً، ثم نرسلهم إلي البلاد الأجنبية، فيدخلوها دخول الفاتح لا المتسول، دخول من يدرك هدفه ويعلم قيمة لغته وتراث آبائه، فيأخذ خيرها ويدع شرها، أما القول بإرسال أحد العلماء معهم أري أنه لن يغني شيئاً، من كان الضعف بداخله فلن يقويه شئ ولو اجتمعت الدنيا لعونه، ومن لم يراقب نفسه فلن يمنعه عن الخطأ ألف رقيب.

تابع الأمير حديثه متبسماً. قال يحي :

وأنا أري وقف البعثات أيضاً.

تساءل الأمير:

هل هناك من يرغب في الكلام أيضاً ؟ انتظر لحظة ولما أقر الحاضرون تابع :

وسوف أبعث من يُعلم تلك البلاد بأننا لن نرسل أبناءنا هذا العام، وسأجري نفقاتهم في الوقت نفسه كأنهم قد بعثوا.

قال عمر:

سيكون هذا عبئاً علي الخزانة يا سيدي.

فليكن، كل شي يعوض إلا الإنسان.

وقبل أن ينهى الأمير الاجتماع دخل قاسم قائد حراس الخيمة :

المعذرة، أحد الأهالي يطلب لقاءكم علي عجل.

أدخله.

دلف الرجل، وقبض ركبتيه، وراح يلتقط أنفاسه المتسارعة من الركض.

هوّن عليك.

يا سيدي لقد تقاتل قيس مع عدي، وكاد يزهق روحه.

انقبض قلب حاتم والد عدي، وهو مسن مريض، صحب الأمير من أول يوم في حكم المنطقة، تبادلته الأعين في صمت لوجود الأمير.

ما سبب قتالهم؟

لا أدري يا سيدي، قد تفاجأنا بخروجهما من الحانة يقتتلان.

حسناً، سوف أتدبر الأمر.

خرج الرجل، وطلب حاتم الخروج ليطمئن علي ابنه، التفت الأمير إلي عمر وقال محتداً :

ألم آمرك بأن تأتيني به ؟

لمعت عيني إبراهيم، وقال بخبث :

ويلي من طيش الشباب، هل تعرف سبب عراكهم أيها الأمير محمد، يا أبا أروي ؟

ماذا تعني؟ قل ما تريده كالرجال .

تبسم إبراهيم، وقال:

لا شيء أنا فقط أتساءل.

تبسم محمود، وكان واقفاً خلف أبيه أثناء الإجتماع.

صاح الأمير:

قاسم، جِد قيساً، وأحضره إلي .

***

حي الحارسين، وربت علي صدر إحدهما بشكل يليق بصلابته، ودلف إلي الخيمة، تململ الأمير، وكان يضع ذقنه فوق مقبض السيف المتعامد طرفه بأرض الخيمة يستمع أراءهم، فنهض الحاضرون بوقوفه، دخل قيس، والتقي بعين الأمير الساخطة، مر بين العيون التي ترمقه بغيظ حتي وقف أمام الأمير.

طلبتني يا سيدي.

زفر الأمير ضيقه، وقال:

اسمحوا لنا.

خرج أهل الرأي في إثر بعضهم، ولم ينس أحد منهم أن يرمقه بنظرة أخيرة تقول تباً لك .. طائش .. عديم المسئولية...عاق.

تابع الأمير:

وأنت أيضاً يا عمر.

ولكن يا أبى .....

أخرج.

ربت عمر علي كتف قيس، وخرج.

قطع الأمير صمتهم القصير:

لماذا تقاتلتما ؟ ليست المرة الأولي .

صمت قيس، وأطرق كي لا يلتقي بعينه المتسلطة، تابع الأمير:

هل ستجيبني اليوم؟

سيدى ...

نعم أسمعك.

لأنه لم ينتبه لما حذرته منه.

جميل، وما هو الشيء الذي حذرته منه ؟

عاود قيس الصمت، وبدأ صبر الأمير ينفذ :

تكلم، أم أن هذه أُحجية ؟!

قد كسر قواعد التدريب.

حقاً ؟

أجل.

كيف؟

تكرر غيابه دون عذر، ولم يأبه لتحذيري، واستخف بقيادتي.

ضحك الأمير ساخراً، وقال :

وكيف تتوقع غير هذا ؟ ألست أنت من تركهم، وراح يتسكع خارج المدينة ؟

سيدي أنا ...

أشار الأمير بيده مقاطعاً، وانفجر مزمجراً :

كفى لا أريدك أن تتفوه بكلمة، لا أريد سماع صوتك، لقد تجاوزت أيها الفتي حدودك، وخنت ثقتي، وفرطت في الأمانة، ونسيت مشروعنا الذي ربيتك أنت وأخاك من أجله، وفوق هذا كله تتقاتل مع أحد أفراد المعسكر الذي تقوده، وتكاد تزهق روحه علي مرأى ومسمع من الناس، لقد سويت هيبة المقاتلين بالتراب، ثم تأتي وتكذب علي، وتقول أنك تعاقبه لعدم انضباطه، منذ متي كان يُقضى في هذه الأمور داخل الحانات، وبين المتسكعين ؟

انفجر الدم في وجه قيس، وتفَصَّد العرق من جبينه، وانعقد لسانه، تنهد الأمير، وقال بصوت خفيض :

تماديت أيها الفتي، وضللت الطريق وإني أخاف عليك مني، أشفق عليك من قسوة لا يشوبها رفق حتي ترجع، لا تجبرني علي ذلك، هذا تحذيري الأخير، فإن لم تُجَرّد قلبك لما أنت أهله، ونسيت الغاية الكبري، وركضت خلف أهوائك، صار علي أن أعيدك للحق بطريقتي.

صمت، ثم مد يده أسفل ذقن قيس، وتابع :

ارفع رأسك، وانظر إلي، أنت تعرف مكانتك في قلبي، أنا افتدي شعرة منك بروحي، لا تُحزني يا قيس .

أفديك يا أبتِ، لن أكرر هذا، أعدك.

ربت علي كتفه، وقال :

اتفقنا إذاً، والآن جهز نفسك للخروج سفيراً إلي جرين ديزرت.

لماذا ؟

سوف تعلمهم أننا لن نرسل أبناءنا في بعثة العام القادم، وستتفق معهم علي أمور أخري سأعلمك بها.

أمرك، هل أخرج وحدي أم أصطحب معي بعض المقاتلين ؟

سأرسل معك بضعة منهم فالطريق آمن.

هل تسمح لي باختيارهم ؟

تبسم الأمير، وقال :

لماذا ؟

لا لشيء إنما...

لنقل أني سمحت لك، فمن ستختار ؟

تردد قيس، فتابع الأمير وهو يعد علي أنامله :

لأقل لك، ستختار صهيباً، وعمرو، فهما رفيقا طيشك، أليس كذلك؟

تبسم قيس :

بلي.

ومن أيضا؟

لم أقرر بعد.

هل تستخف بي ؟

العفو يا سيدي ولكني..

أحقاً لا تعرف ؟ الاسم الوحيد الذي تعرفه لم تخبرني به، ستختار عدياً أيها الغلام، لتجعله تحت عينيك حتي تعود، أليس كذلك ؟

فغر قيس فاه، لهذا الرجل جاسوس داخل عقلي .

أردف الأمير :

فاجأتك ؟ أتظن حقاً أنني لا أعرف سبب عراكك معه ؟ أنت ذكي يا قيس، ولكن لم تُحسن تقدير الخصوم من حولك، سأنصحك نصيحة أب .

تأهب قيس، فمال الأمير عند أذنه، وهمس بها :

ليس عدي هو من يجب أن تقلق منه، هناك آخر.
اتسعت حدقتا قيس البنيتان وابتلع ريقه، ولسان حاله دُلني عليه أرجوك، لأنكث عهدي معك فوراً، وأذهب إليه واقتله، تابع الامير متبسماً :
هل أعطيك اسمه ؟
هز رأسه في سرعة أي نعم، قال الأمير:
لا، سأتركك تتعلم كيف تصطاد خصمك، وتعرفه من تقلب عينيه، وتردد أنفاسه، ولكن كن واثقاً دائماً بأني لن أسمح لأحد بأن يكسر قلبك، أنا في صفك دائماً ...... ما لم تظلم.

***

" أنتم في أمان، أهلا بكم في مدينتكم "
لا زالت كلماته الأولي تهمس في أذنها. شردت في تذكر أيامها الأولي حين التجأت إلي المدينة، تذكر كل لحظة رأته فيها عن كثب، نبرة صوته الدافئة، خطوته الواثقة، وعينيه اللامعتين المتفجرتين بالذكاء، والفطنة، تاريخ قلبه الجريء الجريح، لم تجرؤ على مصارحة أحد بما في قلبها، بل إنها تهرب من نفسها، تنكر أمامها ما تحس به، أين أنا منه ؟ لا يلتفت لا يعبأ، حمله ثقيل، وحلمه أكبر من أن أكون فيه، إنه رجل قد انطبعت النجوم في قلبه، سأرحل عن هذه المدينة، سأهرب من سحر أنفاسك.
سأرحلَ عن ديار أنت فيها ... وإن جَارَ الزمان علي الفقير. قطع هزيم الرعد شرودها، وعوت الرياح بين الشوارع الخالية، مشت إلي غرفة نزار، فوجدته غارقاً في نومه، فعادت إلي فراشها، وحاولت النوم، تلفحت نيران قلبها، وغفت بعد عناء، رأت رياحاً عاصفة تزلزل خيمة الإمارة، بينما أفعي ضخمة تتسلل إليها حتي إذا وصلت فُتح بابها، سمعت صوت تأووه عبر الرياح، فتبينت الصوت، ثم صرخت "أميري".

أسرعت حتي وصلت سلم الخيمة، ولم تستطع التقدم أكثر، حاولت النظر عبر الباب المفتوح، ولكن الضباب حجب رؤيتها، همّت أن تنادي الحرس، ولكن امتنع صوتها عن الخروج، ثم قُذف من داخل الخيمة قميص الأمير الأبيض ملطخاً بالدم، صرخت، وصرخت دون جدوي، انهارت جاثية بينما علا صوت القهقهة داخل الخيمة.

نهضت مفزوعة، وضعت كفها الرقيق فوق ترائبها المرتعدة، رشفت كوب الماء بجوارها، وما زالت أنفاسها تتعالي حتي انفجرت باكية.

***

لم يستطع قيس الراحة، اجتاح القلق قلبه، وأقض مضجعه، سمع زخات المطر خارج خيمته، لو كنتُ عدوي فلن أجد وقتاً أفضل من هذا كي أهاجمني، ما هذا العمق ؟! هل تصلح مطلعاً لقصيدة ؟ ربما في غير هذا الوقت.

***

بات منفرداً بعد ذهاب زوجه إلي دار الايتام خارج المدينة، كان يجلس على الأرض متوسطاً خيمته وهو يطالع كتاباً عن حياة الظلاميين ونشأتهم، شعره شديد السواد، وقميصه الناصع كأنهما الليل والنهار قد اجتمعا في مكان واحد، كانت العيون ترمقه خلف لثامها الأسود بعدما شق صاحبها بخنجره سقف الخيمة، تأكد المراقب من إحكام سيفه، وتحسس سكيناً صغيراً في معصمه، وتذكر ما طُلب منه " اقتلع قلبه واحرص أن تأتي به سليماً " قفز بخفة إلي الداخل، انتبه الأمير والتفت وراءه فرآه خلفه، جرد الملثم سيفه، وقال:

وأخيراً معاوية.

تساءل الأمير فى هدوء :

من أنت ؟

لا يهم .. أزعجتك ؟
قطعت خلوتي.
نظر الأمير إليه، وتمعن زيه، وسلاحه، ثم أردف:
لو أنك نزلت ضيفاً لاستقبلتك بما يليق بك.
ماذا تعني ؟
أكيرا.
مثقف كما سمعت عنك.
وأشار خلف ظهره بإبهام يده المقبوضة إلى المكتبة المنتصبة خلف العرش ثم أردف :
هذا يعني أن كل هذه الكتب ليست للتباهي، ألن تنادي حرسك ؟
لا حاجة، فقد صرفتهم منذ مدة.
ماذا تتمنى؟
فقط قل لي من أرسلك.
هل سيكون موتك أقل ألماً ؟
علي الأقل أعرف قاتلي.
القائد جودفري.
صديقي القديم .
نظر إلي سيفه المتعامد علي كرسيه خلف هاتورلي، فقال الأخير في كِبر، وثقةر:
لك أن تجلب سيفك.
أعرف كيف أصل إليه، هذا إذا لم أقتلك بسيفك.
بدأ هاتورلي حملته بطعنة سريعة إلي صدر الأمير، وأعقبها بحركة لجذّ رقبته، ثم طوَّح علي يمين الأمير ويساره، يسدد الضربة بعد الضربة في سرعة فائقة، راوغها الأمير، وتفاداها كلها بخفة ومهارة، فاستأنف هاتورلى حملته بضربة

متعامدة مال الأميرعنها، وسدد لكمة في وجهه، التف معها، وسحب سكين معصمه، ورماه بخفة فنشب في جسد الأمير، وصدرت عنه أهة مكتومة، وتخضب قميصه الأبيض بالدماء المتدفقة، فصاح هاتورلي:

هذا جيد.

قبض الأمير جرحه، وتقدم ببطء وقد احمر وجهه، وتصبب عرقه، وقال :

اخفض صوتك.

مُصِر علي أن تموت سراً يا معاوية.

زمجر هاتورلى، وانقض ليحسم القتال بطعنة أخري، ولكن هوي سيفه في الفراغ لابتعاد الأمير، ثم اصطدم وجهه بالأرض لركلة اجتثت ساقيه، أسرع الأمير إلى كرسيه، واستل سيفه، وبادر غريمه، حتى ذاب هاتورلى تحت ضرباته، وانتهي الأمر بطرف سيف الأمير عند نحره.

دع سلاحك .

امتثل هاتورلي، وقال في أسي:

غلبتني.

جثي، وكشف لثامه عن شعر ناعم، وبشرة بيضاء، وأنف أفطس، وعينين صغيرتين، التف الأمير وصار خلفه، ووضع سيفه علي رقبته، فتح هاتورلي شقي الكيمونو فبرز صدره، واستل سيفاً صغيراً من خاصرته وقال، وهو مطأطىء الرأس:

ما دمت تعرفنا، فأنت تعرف ما يجب فعله، هارا كيري.

ستقتل نفسك ؟

وأطلب منك أن تقطع رأسي عندما انتهي من قطع أحشائي.

كايشاكو ؟

نعم

حسناً.

جلس هاتورلي واضعاً قدميه أسفل منه، ونصب ظهره، وأمسك مقبض السيف الصغير بكلتا يديه، وجعل نصله للداخل، ومد ساعده لطعن نفسه، فرفع الأمير سيفه، وهوي عليه.

***

انهمر المطر بغزارة زادت وحشة الليلة القاسية، شقت حنين طريقها في الظلام مهرولة، رباه ما هذا السكون، لا شيء سوي البرد، والخوف، والمطر، وقفت قرب الخيمة متلفحة بعباءة صوفية بيضاء، اقتربت ببطيء، ولم تجد هناك شيئاً غير مألوف سوي أنه لا أحد يقف للحراسة، والباب مفتوح، ثم راعها قدوم الأمير من خارج الخيمة، وقد غرق وجهه بالماء المنهمر، فانسدل شعره فوق جبينه، تبين ملامحها ولم يتحدث، بدا منهكاً ضعيفاً، جلس علي سلم الخيمة من شدة الإعياء، وقال :

ماذا أخرجك في هذا الوقت يا أم نزار؟

سارعت بكتم صرختها عندما رأت جرحه، وقميصه الغارق بالدماء، نسيت حنين حدود التعامل معه، اقتربت منه لحد مكَّنها من سماع أنفاسه المتحشرجة، لامست كتفه الجريح برفق، وقالت بصوت باكٍ:

أنت مصاب .

لم تجيبي .

رأيت حلماً ... رأيتك، رباه، لا أدري كيف أوضح الأمر، سيدي دعني اهتم بجرحك.

قاوم الأمير إعياءه، صمت للحظة، يمرر الهواء لصدره.

هلا ابتعدتي، ما هذا الهذيان ؟! اذهبي فوراً.

لا

اذهبي، لا تضعيني ونفسك في موضع الشبهات.

تراجعت حنين، ثم وقفت ترمق جرحه المنفجر، صرخ الأمير بها :

قلت اذهبي .

ركضت في اتجاه المشفي صارخة لطلب المساعدة، ولم يتعد صوتها شفتيها لاشتداد الريح، كان إبراهيم يكمن بانتظار الخبر بمقتل الأمير، ومن حوله محمود وثلاثة من رجاله.

هيا يا هاتورلي .

ثم اندهش للمرأة تصرخ في طلب المساعدة، فتراقص قلبه فرحاً.

نجح هاتورلي أخيراً، ولكن ما عمل هذه عند معاوية في تلك الساعة ؟!

سكت، ثم برقت عيناه بفكرة، فقال لأحد رجاله :

الحق بها، واقتلها، فلدي تدبير.

انطلق الرجل كالبرق ليعترض طريقها، وتساءل محمود:

بماذا تفكر؟

سنشعل ناراً لا تنطفيء .

***

بينما تركض حنين لطلب المساعدة، برزت أمامها صخرة بشرية، شبّك الواقف ذراعيه علي صدره، ونظر إليها متبسماً، ارتجفت، وحاولت العودة إلي الوراء، فانقض الضخم عليها، صرخت:

اتركني.

لطمها بقوة، فانطرحت أرضاً، وأخرج خنجره، وتأهب لطعنها، ثم صرخ متوجعاً لسيف الأمير، وقد نفذ في ظهره، فتجندل يخور كالثور، قال الأمير بصوت ضعيف :

أنتِ بخير؟

صرخت فى فزع :

انتبه.

التفت للوراء، فسكن الخنجر بأحشائه، صرخت حنين، وقصَّ الأمير حنجرة طاعنه، ثم جثي متعكزاً علي سيفه. هاجمه ثالث، فأسرعت حنين، وحالت دونه، رفع سيفه ليصرعها، فألهاه للحظة صوت قيس من خلفه:

أنت.

رجع، وانشغل بقتاله، ثم لحق بصاحبيه إذ تمكن قيس من قتله .

غلب الأمير إصابته، فترك سيفه المزروع في الوحل، وتمدد جثة هامدة، انكبت حنين عليه، ومررت يدها المرتجفة علي وجهه تتحسس الحياة فيه، انتزع قيس سيفه من صدر القتيل، وأسرع صارخاً :

أبي ، أجبني أرجوك.

استيقظ المشفي، وعلت صيحات الاستغاثة، ثم بدأ الحرس يتوافدون من جميع الجهات، تحركت سبابة الأمير ببطيء للأعلي، فشخصت عينا قيس لتحركها، وصرخ كالمجنون :

لا تفعل هذا، أعني لا....... رباااااااااااه.

***

الفصل السابع

وقف عمر أعلي ربوة يراقب كرشاب، وهو يعطي تعليماته الأخيرة لتنفيذ عملية الانسحاب المنظم لتطويق العدو، وفيه تقوم فرقة قوية من الجيش بسحب أفضل مقاتلي العدو وراءها إلي نقطة الحصار حيث تلتف فرقة أخري كامنة، وتقطع طريق عودته، وترتد في الوقت نفسه الفرقة المنسحبة فيقع العدو بين فكي أسد.

سيتم التحرك بناء علي صوت الطبول، وتغير ضرباتها.

وبينما أوشك المقاتلون علي بدء التدريب، جاء أنس كاتب الإمارة، تبين عمر قلقه.

سيدي قد أصيب الأمير في محاولة اغتيال.

***

انتهي علي طبيب المدينة، ومساعدته سيلا من تنظيف جراح الأمير وكيها وتمكن من وقف نزيفها بصعوبة، كان الأمير ممداً دون حراك، ينبض قلبه بدقات واهنة، يذوب قيس إلي جانبه باكياً، انتشر الحرس حول مبني الشفاء وفي الحديقة وبين الممرات، وجلست حنين علي أريكة خشبية أمام غرفة الجراحة متكأة علي كتف نزار، وأروي إلي جوارها في صمت، في آخر الردهة المؤدية إلي غرفة الجراحة وقف يحي، ومحمد واسندا رأسيهما إلي الحائط، بينما لم يهدأ البيرونى، فأخذ يذرع الردهة جيئة وذهاباً يراقبه إبراهيم وقد تصنع القلق والبكاء، ثم خرج علي وسيلا بعدما أنهيا عملهما، وفشلا في إقناع قيس بالخروج.

التف الناس حولهما، تساءل البيرونى:

كيف حال الأمير ؟

سيكون بخير.

سكن في قلوبهم البرد، وهدأ قلقهم، وعندها واصل إبراهيم البكاء بدموع حقيقية، فالتف حوله الناس، وراحوا يواسونه، ثم انفضوا عنه لصوت نحيب علا عند مدخل المشفي، فأسرعت سيلا، ومعها أخريات، ورحن يخفف عنها، لم تكف دموعها، انحصر حجابها عن شعر كستنائي اللون، فأعادته سيلا فور سقوطه، وقفت عند باب الجراحة، وقبل أن تدلف كفكفت دموعها، واستدارت إلي المقعد حيث حنين تقف حذاءه شاحبة الوجه باكية، وتقدمت نحوها وصفعتها بجل قوتها، فصرخت حنين، وانتفض الحاضرون للمفاجأة، صاح نزار غاضباً :

كيف تفعلين هذا ؟! لو لم تكوني امرأة، وزوجة أميرنا لرددت لك الصاع صاعين .

كمَّدت حنين وجنتها بيد، وسحبت نزاراً بأخري، وقالت:

دعها يا بني، إكراماً للأمير لا لها.

عاودت سلاف البكاء، وصرخت بهما آمرة:

أخرجا من هنا حالاً .. اخرجااا.

أشفق البيرونى من حدوث شجار بينهما، والأمير في تلك الحالة.

لا بأس يا أم نزار، سوف نطمئنكم علي حاله.

ابتلعت حنين إهانتها، وكظمت غيظها، وانصرفت.

جاء الزير متقلداً سيفه، يتخبط في انفعاله، وغضبه، واتجه مباشرة للدخول، فعارضه قاسم ومنعه فبدأ في الشجار معه، تدخل البيرونى:

اسمع يا بني، إن آخر ما يحتاجه الأمير هو صوتك الجهوري ذاك.

سأنظر إليه فقط.

اصبر قليلاً، وسنطمئن عليه كلنا.

***

أعرف أنني أغضبتك كثيراً، وخيبت أملك أيضاً، لكنني لم أحب في الدنيا أحداً كما أحببتك .

مسحت سلاف دموعها، وقالت بصوت متقطع :

وهو كذلك يحبك كثيراً.

أمسك قيس يده برفق، وانهال يُقبّلها، ثم أسند جبينه فوقها.

الضياع يفتح ظلمته، الظهر ينكشف، والجبل يرتج ويدنو من الزوال، مصير حالك، وأحقاد كامنة، وأنياب متعطشة، ومخالب مسنونة، ودموع ندم لا تساوي شيئاً .

تسلل الزير في لحظة انشغال لقاسم، وظل يرنو للأمير في صمت.

تململت أهدابه الكحيلة، وازدرد ريقه بصعوبة، فبدأت صورة قيس المشوشة تتضح أمام عينيه، حرَّك يده، وضرب وجه قيس بوهن، ثم قال بصوت ضعيف:

تبكي أيها الطائش ؟

تهلل قيس، واندفع الأمل إلي أعماقه مبدداً ظلام اليأس.

أفديك يا أبتِ، لا بأس عليك.

منافق، تريد موتي كي تكتب أشعارك الركيكة في رثائي .

أشرقت بوجه قيس ضحكة مشوبة بالبكاء، ومسحت سلاف شعره بلطف، وهمست :

لا بأس عليك يا أميري.

سلاف ؟

معك دائماً .

وهنا اجتاحت الزير عاطفة كتمها، غالبها، تنهدها، أجهش بها، وعاااااااااااااااااا

أخذ يبكي كطفل بصوت ثور، ولكنه نجح في إضحاك الأمير كعادته، فتبسم وقال:

والمجنون الآخر هنا أيضاً.

تفاجأ قيس وسلاف لوجوده معهم، فرمقه قيس وأشار إليه برأسه "أي أخرج " فرد عليه الزير برأسه أيضاً " أي لا " .

***

اقترب البيرونى من قاسم، وقال آمراً :

أريدك أن تجمع لي حرس الخيمة، وحرس بوابات المدينة، وأبلغ قيساً، وأم نزار بذلك أيضاً، يجب أن نقف علي حقيقة تلك الخيانة.

اقتربت أروي من باب غرفة الجراحة، وكان مُوَارَبا، رنت إلي قيس وأحزنها رؤيته يبكي، فانسابت دموعها، نظرت إلي جانبها حيث قاسم لا يزال منصتاً لتوجيهات البيرونى، ثم همت بالدخول.

أروي.

التفتت لأبيها يشير إليها ألا تدخل، اقترب منها، وقال مستنكراً:

ماذا تفعلين؟

أطمئن علي أميرنا يا أبتِ.

لا عمل لك هنا، هيا اذهبي.

نظر إلي دموعها، فأشفق من كسر خاطرها، فأردف:

يمكنك الانتظار في حديقة المشفي.

خرجت، وجاء حاتم والد عدي، وتساءل:

كيف حال الأمير ؟

بخير، كيف حال ابنك ؟

يتعافي ليس به ما يقلق.

***

جلست في حديقة المشفي علي مضض، ثائرة النفس مضطربة الفؤاد، إن لم أكن بجانبه الآن فمتى ؟

فيمَ شرود أديبتنا؟

انتفضت من مقعدها لصوت محمود من خلفها، تبسم متصنعاً:

أخفتك ؟

ماذا تريد ؟

رأيتك حزينة، شاردة، فأردت الإطمئنان عليكِ.

شكراً.

ألا تشاركينني همك، فربما أواسيكِ.

وكأنك لست معنا، ولا ترى ما نعيشه.

زمَّ شفتيه، واصطنع التأثر.

نعم، إصابة أميرنا وقائدنا، داخلي يتمزق كما لو أصيب أبي، ولكن أفهم الحزن أما الشرود فما سببه أم أن الأدباء دائماً هكذا ؟

لم تجبه، وهمت بالانصراف، فاعترض طريقها مجنحاً يديه.

انتظري.

إذا سمحت.

انتظري لحظة لم أشأ مضايقتك، أردتك فقط أن تعرفي شيئاً، أنا...

أنت ماذا؟

ارتجف محمود للصوت من ورائه، ثم تبسم متملقاً :

قيس ... إنني ...

ماذا يجري؟ لماذا تعترضها هكذا ؟

لا لشيء.

اسمع يا هذا، إنه ليس يوماً تغضبني فيه، أنا أكبح بركاناً بداخلي فاحذر أن ينفجر فيك.

يا أخي لقد أسأت فهمي.

لا أراك تحوم حولها مرة أخرى.

تدخلت أروي:

لا بأس يا قيس، لم يحصل شيء.

أشار إليها ألا تتكلم، ثم قال :

هيا انقلع من أمامي.

انصرف محمود مسرعاً لا يلوي علي شيء.

تذكر قيس قول الأمير " ليس عدياً من يجب أن تخاف منه، هناك آخر"

أنت هذا الآخر إذاً.

تساءلت أروي في استغراب:

أي آخر؟ لم أفهم.

لا عليكِ .

أنت بخير أليس كذلك ؟

كما ترين.

نظر ناحية المبني فرأي عمراً يدلف مسرعاً، فلحق به.

الفصل الثامن

تنفست الصعداء، دق قلب المدينة مطمئناً، ما يلبث الأمير ويستجمع عافيته، فيحمي ثغورها، ويغشي أسواقها، ولكن نفثت الأفعي سمومها، واستفحل المكر السيء، وسري بين الناس كالنار في الهشيم، ما عمل حنين عنده في ساعة متأخرة من ليلة عاصفة ممطرة، رائحة الفاحشة تهب من أقصي الشمال، والخيمة البيضاء لم تعد ناصعة كما كانت، هذا هو داعي الفضيلة، والعفاف، أخرج صبوته سِفاحاً بين أحضان أرملة لاجئة، انشطرت المدينة علي نفسها بين مصدق، ومكذب، ومحايد، واشتعلت فتنة عظيمة تولي إبراهيم كبرها في الخفاء، واستغل كامل نفوذه بين الوراقين، والكُتَّاب، وفي الحانات، والأسواق، وفتح خزائنه ليغرف منها المرتزقة دون حساب، ولم يمضِ الكثير من الوقت حتي غرقت المدينة تحت سيل من الشائعات، والتهم.

***

باشر البيرونى تدبير شئون المدينة، تجنب الجلوس في مقام الإمارة، واكتفي بتوسيط مقعد له بين أهل الرأي، وبينما يطالع أحد التقارير، دخل أنس منخطف الوجه مرتبكاً، ووقف لا يدري كيف يبدأ حديثه، بادره متسائلاً:

ما الأمر يا بني؟

سيدي، المدينة تزبد بلغط يجرح الأعراض.

عرض مَن؟

تردد أنس، ثم قال بصوت خفيض:

الأمير.

انتفض البيرونى من مجلسه، وقبض تلابيبه:

من يجرؤ علي هذا ؟

لا نعلم يا سيدي، فقد استيقظت المدينة علي رقاع كتبت، وعلقت في الأسواق والحانات، والطرقات، وهذه إحداها.

دسَّ أنس يده في جيب قميصه، وأخرج ورقة مطبقة انتشلها البيرونى في صبر نافذ، وقرأها ثم قال:

أبلغ أهل الرأي بدعوتي لاجتماع عاجل.

خرج أنس، وأعاد البيرونى قراءة الورقة، ثم مزقها.

***

هذا الأحمق هاتورلي، ماذا كان سينقص من الدنيا لو جلب معه بعض رجاله، فأنهي أمره دون عناء، ولكن تقاليدهم الفارغة، واعتدادهم بأنفسهم إلي درجة الحماقة جعلته يقاتل معاوية في مبارزة متكافئة، يوشك عقلي أن يطيش من هذا الغباء، لا أستوعبهم أبداً، يضيعون الوقت في الزخرفة أكثر من المضمون، ما أفهمه هو النجاح في تحقيق الهدف، أما كيف فلا يهمني إن كان غدراً أم مواجهة، فقد الأحمق روحه، وخسرت أنا ثلاثة من أفضل رجالي، وفوق هذا كله ما زال اللعين يتنفس، كل هذا الوقت، كل تلك الدماء، وتلك الأموال، ولم يمت، أحياناً يخالجني الشك في هزيمته، أقول لو كان سيُهزم، فلربما قُتل يوم فراره وهو ما زال غضاً وحيداً ذليلاً، بعدما كنا قاب قوسين من الحلم، ودني فجر اليوم الموعود من البزوغ علي الأرض الموعودة ظهر كالكابوس، وحجب شمسنا، لقد أصبح اللعين حجراً أمام آلاف السنين. زفر ضيقه، وجلس وأغمض عينيه وقد أنهكه التفكير، داعب لحيته البيضاء، ثم أردف:

لكنه لم يرَ ما أعددت له.

قال محمود:

ولكن أين جثمان هاتورلي ؟ لا أثر له.

معاوية رجل ذكي، يعلم أن قتله للرجل سوف يجلب علي رأسه بلاء أوتامى، ومقاتليه لهذا لم يعلن، ولن يعلن عن قتله.

لدي فكرة يا أبتِ .

قل.

نأمر صديقتنا في المشفي، فتُجهز عليه، وهو ما زال جريحاً.

إياك والتفكير بهذا، أخشي أن يفضح أمرها.

ولماذا ؟ إنها من القلة المسموح لهم بالدخول عليه، يمكنها دسَّ السم في دوائه، ولن يشك أحد بها.

قلت لا.

ثم انقطع حديثهما لاستئذان أنس بالدخول.

سيدي البيرونى يدعوكم لاجتماع طاريء.

تساءل إبراهيم في قلق:

ألم يقل السبب يا بني ؟

لا يا سيدي.

حسنا يا بني تفضل أنت.

خرج أنس، فانفجر محمود ضاحكاً:

أحقا لا تعرف السبب؟

فتابع أبراهيم بنفس النبرة القلقة:

وما أدراني يا بني؟

ثم ضحك كلاهما وخرجا.

***

جلست تمشط شعرها المنساب قرب خاصرتها بهدوء، أماطت سالفاً منعطفاً علي وجنتها، وتفقدت أثر اللكمة التي تلقتها في الليلة البارحة، وجددت سلاف ألمها، شعرها البني، وعيناها الذهبيتان، وسُمرتها الخافتة المتوردة،

بدت أمام المرآة كالوحة فنية لجمال مهجور، تركت مشطها، ونهضت مسرعة عندما سمعت صرير الباب.

نزار، قد أتيت ؟ فيمَ تأخرك في السوق كل هذا الوقت، هل كان مزدحماً؟ كما أنك لم تجلب شيئاً.

نظر الفتي إليها بوجه مكفهر، ورماها بنظرة مستهجنة، ثم راعها الدم المنساب من أنفه.

ويلي، هل تشاجرت ؟ من فعل بك هذا ؟

لم يجبها، وتركها إلي حجرته، فتبعته.

ألا تجيبني ؟

ارتجفت لصياحه بها :

ماذا تريدي؟

ترفع صوتك علي ؟ أهكذا تخاطبني ؟!

تنهد نزار في ضيق، ثم أردف :

حسناً قولي إذاً، ماذا أخرجك إلي خيمة الأمير البارحة في تلك الساعة ؟ لماذا صفعتك الأميرة سلاف ؟

ما الذي تريد قوله ؟

تساءل بنبرة مرتابة غاضبة :

ما عملك عند الأمير في مثل هذا الوقت ؟

خفق قلبها، واتسعت حدقتا عينيها، ما الذي تسمعه ؟ وما تلك النبرة المتهمة ؟! ألجمتها المفاجأة، فتابع نزار :

هيا قولي، لماذا تصمتين ؟ قولي لما ...

اسكتته صفعة دوت فوق وجهه . وقالت فى قوة وغضب :

بماذا تتهم أمك أيها الغِر السفيه ؟!

صرخ نزار قائلاً :

لقد انفجرت المدينة بالحديث عنكِ.
وتصدق هذا ؟
قولي إذاً، ما عملك عنده ؟
لن أنطق حرفاً، وأنت تضعني موضع المتهم، أنت وكلاب الحانات سواء.
كما تشائين.
صمتت حنين، فغادر غاضباً لا يدري إلي أين وجهته.

***

استعاد الأمير وعيه، وعاد لعينيه شيء من بريقهما، غير أن وجهه لا يزال شاحباً، وقد زاده هذا جاذبية ووقاراً، كان نصف معتدل في نومته، وتتوسد سلاف كتفه السليم عندما استأذنت سيلا، ومعها سراب لتبديل ضمادة جرحه، فاعتدلت سلاف وأذنت لهما. دنت سيلا لتتفقد الجرح، ووقفت سراب خلفها، كانت قصيرة ثمينة لوجهها بياض ممزوج بحمرة، نظرت سيلا إلي الضمادة، وقد تحولت إلي اللون الأحمر، وقالت :
سأحضر مرهماً.
أسرعت إلي ركن فى الغرفة، وأخذت تتفقد عبوات زجاجية مرصوصة فوق طاولة خشبية صغيرة، توجع الأمير بآهة مكتومة عندما ضغطت سراب موضع جرحه بخشونة، فنهرتها سلاف :
ما هذا العته ؟! كيف تعاملين جرحاً حديثاً هكذا ؟
ارتبكت سراب، وقالت مطرقة :
العفو يا سيدتي.
قال الأمير مُهَدِئاً:
لا بأس لم يحدث سوء.
قالت سلاف بذات النبرة الساخطة :
لا تتدخلي في هذا، ودعي سيلا تقوم بعملها، ساعديها فقط.

تراجعت سراب ممتقعة الوجه، بينما انهمكت سيلا في تغير الضمادات. وضعت مرهماً، ثم أقمشة نظيفة فوق الجرح، وجمعت سراب الأقمشة الملوثة في سلة سوداء، وهي تتهرب من عيني سلاف التي ترمقها بغيظ كغابة خضراء أثارت الرياح جنونها.

***

أخيراً بطُل سحره، وانكشف ضلاله، لقد أمضيت عمري أنتظر تلك اللحظة، عاش يخفي كفره وفسوقه، ولكن أبي الله إلا أن يفضحه في عقر داره.

قالها جمال الدين وعيناه تبرقان فرحاً لما آلت إليه المدينة، فسأله مراد صديقه ورفيق أفكاره:

ماذا سنفعل الآن ؟

إن وقت تمكيننا يقترب، سنستقطب إلينا كل من تزعزعت ثقته في معاوية.

هل تصدق أنه فعل هذا حقاً ؟

لا يهمني هذا، المهم هو استغلال الموقف في صالحنا، تلك هي السياسة.

طرق الباب، فنظر بعضهم إلي بعض في توجس، ثم قام مراد وفتح، تفاجأ الحاضرون للزائر، قال جمال الدين مرحباً :

نزار؟ أهلا ومرحباً يا بني تفضل.

هل تقبلونني بينكم ؟

رحَّب به جمال الدين، فجلس في صمت وضيق، مال جمال نحوه وقال:

يجب أن تعلم أني لا أصدق ما يتناقله السفاء.

ونظر الي مراد الذي كان يحك ذقنه ويتابع حديثه باهتمام، ثم أردف:

سيلقي الكاذبون عقابهم في الدنيا والآخرة.

لا ريب، شكراً لك.

أسرَّ جمال فرحاً عارماً للجوء نزار إليه، فقد كانت حنين بالنسبة له حلماً لا يقل عن طمعه في الإمارة، سعي للزواج منها، وطلبها من الأمير فترك الاختيار لها، ولكنها تعللت بتفرغها لتربية نزار، وخوفها عليه من زوج أم. حاول جاهداً إقناعها، لكنه لم يفلح، فتحولت رغبته إلي حقد لا يستكين.

***

اجتمع أهل الرأي، ووقف رباح قائد محققي المدينة، وكان نحيفاً فارع الطول، حليق الرأس واللحية، له عينان عسليتان قويتان، وصوت هادئ تتخلله خشونه، وحضور جيد، قال موجزاً:

لم نتوصل بعد إلي مطلق الشائعات، ولكني سأعثر عليه قريباً.

قال إبراهيم:

إن شاء الله، مؤكد مؤكد.

قح محمد وكان إلي جانب إبراهيم كعادته، فانتبه اليه البيرونى.

هل ترغب بقول شئ يا أبا أروي؟

لا أيها النقيب، لكن لست أدري متي سنرتاح من كل هذا العناء.

رد يحي:

ستزول هذه المحنة كغيرها.

قال محمد ساخطاً:

نحن من يجلب إلي أنفسنا تلك المصائب.

لم يرتح قيس لكلامه، فتساءل:

ماذا تعني ؟

رمقه محمد ثم صرف بصره ولم يجب، كظم قيس غيظه لتجاهله، قال البيرونى:

حسناً لتستمر أنت يا رباح في تحرياتك حول الأمر، ولينشغل كل بعمله حتي يتعافي الأمير.

تنهد محمد وقال :

هذا خير ما يمكن فعله، وما غير ذلك فالله مطلع علي حقيقته.

تابع عمر كلامه بضيق، قال قيس محتداً :

وكأنك لست موقناً من براءة أميرك ؟

هل تُنْطِقني بما لم أقله يا هذا ؟ أقول إن الله مطلع.

الحياد في هذا خيانة .

لا حديث لي معك.

هل تأنف عن محادثتي ؟

صاح محمد في ضيق:

لا حديث لي معك يا يتيم الخيمة.

تدخل عمر غاضباً:

انظر ما تقول أيها الأمير، ولا تتعد قدرك، أنت تهين أخي.

بالطبع لم أقصدك بشيء إنما ...

انفجر به قيس صارخاً :

ألمثلي يقال هذا ؟ أنا ربيب الأمير، وابن قائد حرسه، أنا ابن الصياد الذي مات شهيداً، وأنت تركض مع النساء تحت الأنفاق هارباً.

قال يحي مهوناً :

اهدأ يا بني، قد كان ذلك بأمر الأمير، كما أنك تصيبني أنا أيضاً.

ما قدمت أنت في ميادين الموت يدفع عنك يا سيدي، ولكن ماذا فعل هذا المغرور سوي جريه لاهثاً خلف المال.

اضطرب محمد وتلعثم، فتابع قيس، وقد زادت حدته:

هيا قل أيها الوضيع، ماذا قدمت لمدينتنا ؟

قال ابراهيم :

احترم فارق العمر بينكما.

انتفض محمد من مقعده :

هذا يكفي، أقسم أنني سأحاسبك علي هذا الفُحش، والطيش معي.

نهض عمر غاضباً، وانتفخت أوداجه، وزمجر قائلاً :

أتتوعد أخي في خيمة الإمارة ؟ والله لو صحبتك للأمير لسحقتك الآن تحت أقدامي.

كتم ابراهيم، وابنه فرحة عارمة، نهض البيروني غاضباً

واأسفي عليكم، أهكذا تواجهون المصائب، والله لا أري لكم حياة يوم بعد الأمير، لا أريد حديثاً في غير ما اجتمعنا لأجله، خلاصة القول، سنعثر علي مروجي الفتن، ونودعهم السجن حتي يحكم الأمير فيهم، ولن ندع الشيطان ينفث في صدور الأهالي، لن نترك للفتن موطئ قدم تنزل فيه.

***

جلست عند النافذة تطالع السماء شاردة، وهي تتحس بأطراف أناملها قلادة ذهبية منقوش عليها طائر العقاب، علي جناحيه الشهادتان، كما نقش فوق جبينه أربعة أحرف متفرقة (أ ، ر ، ق ، ي).

كان قيس قد أهداها لها يوم انعقاد اللقاء الأول في ناديها الأدبي، تقدم باسماً وقد ثني يده خلف ظهره، تبسم عندما لاحظ تطلعها إلي ما يخبأه، رفع قبضته أمام عينيها ولم يبسطها كل البسط فانسابت سلسلة ذهبية تتدلي في آخرها القلادة، قدَّمها هامساً:

لا تنزعيها أبداً.

كاد قلبها يطيش من مكانه فرحاً، لامست تفاصيلها برفق، ونطقت الشهادتين فوق جناحي الطائر، ثم تساءلت عن الأحرف فوق رأسه، فأجابها:

أول حرفين منك ومني.

أعادت أروي قراءة الحروف في كلمة واحدة، ثم ضحكة قائلة:

أهكذا أنا بالنسبة لك ؟
أرقي.
حراااام، مسكين، ولماذا الأرق ؟
تسألين ؟! عندما تكبرين سأخبرك.
ضحكت وأردفت:
أنها أغلي ما لدي، ستكون معي ما دمت أتنفس.
انتبهت من شرودها لصوت أبيها يصرخ مستشيطاً، وأمها تحاول تهدأته، نزلت مسرعة إلي حيث يقف في فناء البيت، فتوجه إليها فور رؤيتها وخاطبها، وهو لا يكف عن التلويح بسبابته :
إياك أن تحدثيه مرة أخري.
انخطف وجهها لغضبه ونهيه، نبست بصوت ضعيف:
من ؟
ذلك الكلب قيس، أعرف انه اتخذ طلب الأمير لخطبتك ذريعة للتقرب منك، وأعلم أنه لا يفوت لقاءً في ناديك الأدبي، لا تسمحي بحضوره إليه، لن يدخل الكلب بيتي.
قالت أمها علياء :
اهدأ ارجوك، سننفذ كل ما تأمر به، اهدأ فقط.
نفخ غضبه، مسح وجهه وهو يغمغم:
كلب ... لقيط.
قالت أروي في انزعاج:
أبي لا تقل عنه هذا أرجوك.
بل إنه أحط من هذا، لو كان لقيطاً لكان أكثر تأدُّباً.
ألا تخبرني بما حدث ؟
قد مسح بكرامتي الأرض يا بنت، لم يلزم قدره، ولم يعطني قدري.

تنهد غيظه ثم غمغم:

حسناً أيها الأحمق الطائش، سأريك سأريك.

ثم قال لأروي:

وطلب خطبته لك مرفوض، مرفوووض، وتصرفي وفقاً لهذا.

أبى ....

لا أريد جدالاً حول هذا الأمر.

***

لقد أحسن الطائش فعلاً، تعكر الصفو بينه وبين والد أروي بشكل لا رجعة فيه أليس كذلك يا أبتِ ؟

أغلق ابراهيم دفتراً كان يطالع حساباته، ثم أردف:

لا تقلق سنصل إلي ما نخطط له.

أريدها يا أبتِ، أريد أروي.

سأعطيك إياها، ولكن حذاري أن تنسي من تكون، أنت سليل الدماء المقدسة.

أريدها، ولا يهمني طريقة الحصول عليها، لا يهمني إن كانت زوجة أم جارية، راضية أم مغصوبة.

قد دبرت مكيدة سأسقط بها ألف طائر برمية واحدة، وأولهم غريمك ذلك الطائش.

برقت عيني محمود، وقال متحمساً:

كيف؟

ستعلم كل شيء في وقته، أما الآن أخبر رجالنا باجتماع طاريء، فقد وصلتني الأخبار عن تعبئة الحكماء، واستعدادهم لغزو المدينة، ينتظرون إشارة مني بالوقت المناسب، وابعث إلي أكيرا من يخبر أوتامى بأن معاوية قد

قتل ابنه هاتورلي، وأحرقه، ونثر رماده فلم نعثر علي أثره، هكذا سينضم إلينا بأفضل مقاتليه ثأراً لولده .

***

اشتعلت الحانة بالخوض في أمر حنين، والأمير بين مصدق، ومكذب، دخل عدي ومر بين تهاني السلامة من رواد الحانة، حياهم بود وجلس في مكانه المعتاد، فأسرع إليه سعد:

حمداً لله علي سلامتك أيها البطل، بمَ تأمرني؟

قهوة .

عاودت الحانة حديثها علي استحياء، ثم داهمها الصمت لاستقبال آخر، تقدم بهدوء بين العيون المتوجسة حتى وقف أمام عدي، وقال:

سألت عنك في المشفي، وعلمت أنك خرجت.

هل تريد شيئاً ؟

أردت أن أعتذر منك.

مدَّ قيس يده مسلماً، رمقها سعد من بعيد في حنق، وتطلع الجميع إلي يده المعلقة، وعيني عدي غير مبالية، ولم يصافحه، تجاهل يده، وقال:

لن أحبك أبدا يا قيس، ولكن سأعاملك في ساحة التدريب كما يليق بقائدي.

قبض قيس يده، ولم يُبدِ أي تعبير علي وجهه.

كما تشاء .

غادر وقد سري الإرتياح إلي قلب سعد، أخرج مسرعاً قصاصة ورق وكتب موجز ما حدث.

***

غادر البيرونى المشفي بعدما أطلع الأمير علي أوضاع المدينة، لكنه لم يذكر ما تضج به من أقاويل إشفاقاً عليه، غفا الأمير، وجلست سلاف عند رأسه، رنت إليه، وفكرت، ثم أجهشت بالبكاء.

لا أصدق فيك سوءاً، قطع الله ألسنة المجرمين، لو اجتمعت الدنيا على هذا فلن أصدق.

مسحت دموعها بأطراف أناملها، وعاودت النظر إليه فوجدته ينظر إليها مستغرباً، ارتبكت، ولم تنطق، اعتدل جالساً، ثم تساءل:

ما الذي يجري؟ أي سوء، وأي مجرمين؟

شهقت سلاف وأجابته بنبرة باكية:

لم يحدث شيء.

قطب الأمير حاجبيه، وأمرها فى حزم:

قولي.

أطرقت سلاف، ولاذت بالصمت، صاح الأمير منادياً قاسم، فدلف مسرعاً.

أمرك يا سيدي.

ما الذي تتناقله الألسنة عني؟

ارتبك قاسم، ولم يدرِ بما يجيب، تدخلت سلاف:

لا جديد يا سيدي، نار الحاقدين لا تنتهي.

نظر إلي قاسم، وقال منزعجاً:

لماذا تصمت ؟ قل.

إنهم يرمونكم بالسوء.

يرمونني ومن؟

تردد قاسم، ثم قال:

أم نزار.

استشاط غضبه، وقال موبخاً:

كيف تكتمون أمراً كهذا عني ؟ من تظنون أنفسكم ؟! اجمع لي الناس حالاً.

قالت سلاف مستنكرة:

كيف ستخرج وأنت في هذا الحال؟

لم يلتفت إليها، صاح آمراً:

هيا اذهب، ما يوقفك؟

زحف إلي حافة الفراش، مدت سلاف يدها، فتعكز عليها بلطف، ووقف في منتصف الغرفة، أسرعت لمساعدته في ارتداء ثيابه، تعالت أنفاسه، انفجر الغضب من عينيه، لم يتوقف عن قبض يده، وبسطها.

يريدون إسقاطي من قلوب الناس يا سلاف، يريدون إزاحتي ليلتهموا المدينة، سنري يا أولاد الزنا، سنري.

***

سوَّر السُّهاد حول عينيها، ظلت وحيدة ليس لها سوي الدموع رفيق، وقلق لتغيب نزار عن البيت كاد يقسمها، الناس لذَّت مضغ عرضها، ومن يقدر علي تبراءتها يصارع جراحه بين الحياة والموت، وهذا قلق آخر، هرولت إلي الباب لسماع خطواته، وارتاح قلبها لرؤيته سليماً، لكن وجهه يقول أن غضبه لم يسكت عنه، قالت عاتبة:

أهكذا يترك الرجل أمه وحيدة ؟

أدخلي، وتهيأي فلدينا ضيف.

من؟

سترين.

أسرعت إلي غرفتها، وضربت خمارها، بينما سعل جمال الدين، ودلف إلي غرفة الإستضافة، ووقف نزار عند بابها، وقال:

سيدي جمال الدين يرغب في الحديث معك.

سيدك ؟!

لا تدعيه ينتظر.

***

مزق إبراهيم قصاصة الورق في غيظ، وقال :

لم يكن هذا جيداً، يجب أن نسرع.

تساءل محمود في قلق:

ما الخطب ؟

ذلك الطائش قد سعي للصلح مع عدي، واعتذر له أمام الناس.

قال محمود في لا مبالاة :

وما المشكلة؟

رمقه إبراهيم، وأدار عينه الخضراء في وجه ولده الثمين.

أتدري يا بني، أحياناً أتساءل كيف يمكن أن يجتمع كل هذا الغباء في رأس واحد ؟

امتقع وجه محمود، وقال بصوت خفيض :

لماذا يا أبي ؟

لو أنني تزوجت امرأة أكثر ذكاءً من أمك، فلربما كان ولدي نابهاً، ولكن اتبعت غرائزي، ولهثت خلف جمالها وكانت النتيجة هي أنت، لم ترث عنها سوي هذا العقل المغلق.

سامحني يا أبي، سأفكر جيداً في القول والفعل.

لا تفكر، نفذ ما أقوله فقط، مضت سنون حتي أيقنت أن رأسك لم يُخلق لكي يعمل .

خفض محمود رأسه في صمت، ثم دخل أحد الخدم.

سيدي، الأمير يجمع الناس للقائه.

ظل يرمقها بتبجح، فلم تتحمل ثقل نظراته، فبادرته قائلة :

تفضل، أسمعك.

سعل جمال الدين، وازدرد ريقه، ثم قال:

أولاً أريدك أن تعلمي أني لا أصدق ما يقوله المنافقون.

وإذاً؟

أنا معكِ دائماً في وجه أى فاسقٍ يذكرك بسوء.

نظرت إلي نزار متضجرة، ثم التفتت إلي جمال، وقالت:

قل ما جئت من أجله صراحة.

جئت أكرر طلبي، وتمسكي بك.

بل جئت تصطاد في الماء العكر، تحاول استغلال أزمتي لغرضك.

أسأتِ الفهم يا حنين، أقصد يا أم نزار.

انفجرت حسرتها بوجهه، وقالت بصوت متماسك يشوبه البكاء :

قد سبق وأبلغتك ردي، واعلم أنني لست ضعيفة كي أهرب من أزماتي لأحد، وأوقن أن براءتى ستظهر، وعندها ستخجلون كلكم، وأولكم هذا الفتي الأحمق الذي كان أول من صدَّق السوء بأمه، وجاء بك إلي، كي يواري عاره .

ارتجف نزار لقولها، فأسرع وجثى عند قدميها باكياً.

لم أصدق، سامحيني، أعماني الغضب.

حاول تقبيل يدها، لكنها انتزعتها من بين يده وذهبت، كبح جمال الدين غضبه وانصرف، ظل نزار جاثياً حتي سمع منادياً في الناس بأن الأمير يدعوهم إلي الخروج للقائه.

***

الفصل التاسع

كل شيء يسير علي ما يرام، بقي أن يسيل الدم بين الناس، وبينه لنمنع من تصالحهم، قبل اجتماع الأمير بأهل المدينة سندفع رباحاً لشيء سيزيد من حنق الناس علي معاوية، ويوغر صدورهم حتي إذا دعاهم إليه لن يجد سامعاً.

جعل إبراهيم عيونه تتلقف سقطات اللسان، وتشي بها عند رباح قائد التحقيق، فقام بدوره بالتقبض عليهم، وأودعهم السجن.

***

ظل مسنداً رأسه فوق قبضة سيفه المتعامد علي ألواح المنصة الخشبية المنتصبة في وسط المدينة، تطلعت إليه العيون المرتقبة لظهوره، وأصغت الآذان المتلهفة لسماع كلماته وفصله فيما ارتجفت به المدينة. وقفت حنين بين صفوف النساء غير عابئة بنظراتهن نحوها، ووزَّع قاسم الحرس في كل الجهات، حتي طوَّق المكان وجعله في قبضته، ووقف عمر عن يمين الأمير، وقيس عن يساره كتمثالين من الصخر العنيد، لم يتوقفا عن تمشيط المكان بعينيهما، طال الصمت، والترقب لوقت، حتي جاء رباح قائد محققي المدينة، ووقف أمام الأمير، وقال بنبرته الحاسمة :

قد تم الأمر يا سيدي، أطلقنا من تقبضنا عليهم.

نظر إليه الأمير وقال :

ممتاز، هل أتوا للقاء.

إنهم بين الناس.

حسناً.

توسطت قبضته غمد السيف، وكابد جراحه في النهوض، فمدَّ قيس يده يساعده، لكنه امتنع فتراجع قيس، وجَنَّح إلي جانبه بيده الممسكة للسيف،

فأسرع عمر وحمله، ثم أشار إلي الحرس الذين ينتشرون حول الأهالي، فانحسروا عنهم إلي أسفل المنصة، غمغم بكلمات، ثم قال :

سمعت أن سياج العِرْض مُنْتَهكُ .. وأن قومي أُساري حولهم شَـــرَكُ

جاء العدو يفوح الســـــم من فمه .. فاستقبلوه وفي ظلمـــــائه سلكـوا

ليت الدنا نُفِخت مـن قبل غفلتكم .. والأرض مادت بنا أو دَكَّها الفَلَكُ

فغر قيس فاه للمفاجأة، ثم عاد لجده، واختنقت أنفاس إبراهيم حين رأي تطلع الأهالي بعين مصدقة، استنفر الأمير حواسهم إليه، واعتدل مرفوع الرأس، " أيها الناس، بلغنى أنَّ نفراً يؤذونني في عرضي، وما ذلك عليهم بجديد، ألسنة النفاق تمتد من الماضي البعيد، وتنفث سمها ما بين القلب والوريد، أشم رائحة الظلاميين المنتنة قد تفشت بين أرجاء المدينة الآمنة، ولسوف أمحقها، ولكن أدماني ترديد ما نفثه المجرمون بين إخوتي وأبنائي، بلغ ما لم تبلغه طعنات غدرهم بأحشائي، فأين العهد وأين الوفاء وقد جعلت روحي لكم فداء، من دون بينة ولا شهيد قالوا اقترف الفاحشة، وتستر بالظلام، وهل مثلي يحتاج لمثل هذا ؟! إن كنت أرغب فى امرأة فما يمنعني من زواجها ؟! هل علمتموني قبل اليوم جباناً أو صعلوكا ؟! فواأسفي علي من صدَّق منكم، وقد جمعتكم لأقص عليكم حقيقة ما حدث وأبين لكم، ولكن قبل هذا، هل أم نزار بينكم ؟

ارتجفت حنين لندائه، وتطلعت النسوة إليها في اندهاش، فأعاد الأمير نداءه، هل سيدة نساء المدينة، وتاج طهرها ووقارها بينكم .

رفعت حنين يدها في تردد، فناداها :

تفضلي، واصعدي إلي جانبي.

صعدت مرتبكة بين القوة والخجل، وسكت الأمير حتي وقفت بينه، وبين قيس، ثم تابع :

تالله ما علمنا عليكِ من سوء .

أطرقت حنين خجلاً، فتوجه الأمير إلى الجموع قائلاً :

قد دبَّر العدو لقتلي غيلة، وتنبهت أم نزار لحركة غير مألوفة في المدينة ورأت من واجبها حماية مدينتها وأميرها فبادرت، وعندما كانت قرب الخيمة كنت قد انهيت أمر المباغة بمفردي، رأت إصابتي، فأسرعت إلي المشفى لطلب المساعدة، ولظني أن الخطر لا زال مُحدِقاً تبعتها، فأدركتها وأحد الظلاميين يوشك علي قتلها عند أبواب المشفى، قتلته فطعنني آخر، ثم أدركنا قيس، وفقدت الوعى، ولم أنتبه إلا وقد اشتعلت المدينة بإفكهم، هذا كل ما حدث، وإني أسامحكم جميعاً بحقى، وتجاوزت عن ما سلف من بعضكم، وقد أمرت قائد التحقيق، فأفرج عن من تقبَّض عليه، وهم الآن بينكم.

تابع الناس حديثه دون زيغ كأن علي رؤوسهم الطير، أردف قائلاً:

" أما من اصطنع الإفك وروَّجه فلا والله لا خلاص له مني، عمله إلى بوار، وروحه ما بين السيف والنااار"

قالها وقد احتدت ملامحه، أجال بصره فيهم، فحدث اضطراب طفيف بين الصفوف لتزحزح إبراهيم عندما سمع تهديده، لمحه الأمير، وتابع قائلاً:" أنا أعرف غريمي من دوران عينيه، وتردد أنفاسه " ابتلع ابراهيم ريقه بصعوبة، وتحسس نحره ورغم انصراف بصر الأمير عنه فإنه لا زال يشعر بأنه تحت وطأة عينيه، ظل يرتجف، ثم استجمع نفسه، وصاح بأعلى صوته :

نفديك، نفديك، حاش لله ما علمنا عليكما من سوء، حاش لله ما علمنا عليكما من سوووء.

انفجر الهتاف خلفه، ورددوا ما قال، بكت حنين فرحاً، ثم تقدمت إليها سلاف، واعتذرت عما بدر منها .

***

تفرَّق جمع المدينة، وانطفأت الفتنة، وعاد الأمير إلي الخيمة، ولم تُفلح سلاف في إقناعه بالعودة إلي المشفي، فستيأست منه، أسرع البيرونى، ونحَّي كرسيه من أمام مقعد الإمارة، فتبسم الأمير للطفه، وقال:

لا خوف عليهم ما دمتَ فيهم أيها النقيب.

لا أرانا الله غيابك.

استأذن رجا في الدخول، وكان الأمير قد ولاه مقاطعة شريان في غرب المدينة لما علمه فيه من القدرة والاخلاص، استغرب حضوره، دخل رجا يعلو القلق ملامحه.

هل أنت بخير يا سيدي ؟ سمعنا بما سعي إليه المجرمون.

أنا بخير، تفضل واجلس، ولكن ما كان لك أن تترك شريان وحدها.

اعذرني، لم استطع صبراً، لكني جعلت علي أعمالي هناك من أثق به .

قال إبراهيم متملقاً:

أعذر محبيك يا سيدي، ولو كنت مكانه لفعلت مثله.

هز الأمير رأسه متبسماً، ولم يرتح إبراهيم لتبسمه وصمته، مدَّ يده، والتقط كأساً من الماء، وخبأ وجهه فيه.

كيف تصنع يا إبراهيم ؟

شرق إبراهيم بالماء، وأخذته نوبة سعال شديد، فقال الأمير بهدوء:

لا عليك، أنت بخير ؟

اعذرني يا سيدي، عن أي شيء يسأل الأمير ؟

أجابه في عجب :

أي شيء؟! استثمارات المدينة وأموالها.

كل علي ما يحب الأمير، الخزانة في ازدياد.

التفت الأمير إلي محمد، وكان ينظر إلي قيس .

وأنت يا محمد؟

كل علي ما تحب يا سيدي.

لاحظ الأمير شرود قيس، وقد ارتسمت علي شفتيه ابتسامة صغيرة

ما بك، فاجأتك أليس كذلك ؟

تبسم قيس:

لم أعرف قبل اليوم أنكم تنظمون الشعر.

أفسح الطريق لأمثالك.

ضحك الحاضرون، وعاد قيس لذهوله، ومحمد ما زال يرمقه في غيظ، واستأذن رجا في الانصراف، فأشار إليه الأمير ليدنو، وهمس بأذنه :

هل الأمانة في أمان ؟

في أمان.

أحسنت سآتي قريباً.

تآكل إبراهيم لعجزه عن سماع تناجيهما، ثم تظاهر بعدم الاكتراث، وهو يودع رجا متبسماً.

***

في منأى عن المدينة، والعيون اجتمع جمال الدين بمن استطاع استقطابهم، وإقناعهم بالخروج على الأمير، ضمَّ إليهم المحكومين والهاربين وشذاذ الآفاق، مشي بينهم مختالاً، وقد اشعل انصياعهم له رغبته الجامحة في الحكم، والسلطة.

اقترب وقت إنزال الكافر الهارب معاهد عبدة الاوثان، من ضيع الأرض، وتركها لمصيرها، وراح يرتع في النعم، بقي قليل القليل.

كان نزار أحد أتباعه، وأصغرهم سناً، وقد زاد توثق علاقتهما بعد الفتنة، أعجب جمال الدين بذكائه غير ما له فيه من الأغراض الأخري، قرّبه منه ولم يفلت فرصة استطاع فيها إظهار الكرم، والشهامة إلا وفعل، لعله إن كسب قلب الفتي أن يجد مدخلاً لقلب والدته. توقف جمال الدين أمامه، وقال:

سأطلب منك مهمة صغيرة يا نزار.

الأمر لك.

أريدك أن تشارك في معسكر التدريب، وتخبرني بتفاصيله.

ضاق نزار بطلبه، أردف جمال الدين:

أعرف أنك تمقت مخالطتهم، ولكن هذا سيكون ذا فائدة عظيمة لنا.

حسناً، سأفعل.

***

جمع دفاتره وراح يقلب عينيه فيها في ارتباك ودون تركيز، ثم انهال يمزق بعضها، ويرمي بعضها إلي يمينه وشماله، أمسك بآخر دفتر أمامه، ونشب أسنانه في غلافه الجلدي حتي انطبعت عليه.

" سأموت سأموووت، ما هذا اللعين، أي بلاء هذا!! "

قال محمود وقد راعه حالته :

إهدأ يا أبي، نحن لن نستسلم.

لكنَّ الأمر طال.

صب محمود كأساً من الماء، وقدمه له، ارتشف حافته، ورماه بعنف.

عندي سؤال، لكن لا تغضب.

ستقول لماذا بدأت الهتاف له، وشجعت الناس.

نعم.

قد انتبه اللعين لاضطرابي عندما أطلق تهديده، أحسست وقتها أنه قد كشف أمري.

حملق محمود عينيه، وتساءل في خوف :

هل يشك بك ؟

لا لا، لو كان كذلك لبادر بشيء، لكني لن أمهله، هل أعلمت الرجال بموعد اجتماعنا؟

فعلت.

لنري كم سيصمد، وأنا أحول حياته إلي رماد.

سجدت، وكلمات الشكر تتدافع إلي شفتيها وتختلط حروفها بشهقات البكاء، ليت نزاراً كان حاضراً في تلك اللحظات، قامت إلي الشرفة تتفقد عودته، لم ترتح إلي تكرار غيابه حتي ساعة متأخرة في الآونة الأخيرة، رأته يمشى شارداً كأنه لا يحس بمن حوله، يتردد في عقله ما نفثه جمال الدين: " الويل للمدينة وأهلها، الويل لهم من شططهم وضلالهم، هذا الذي يحسب نفسه أميراً ترك مدينته للذبح وهرب، ترك الأرض المباركة، ولم يكفه حتي نزل الحدوة وروَّع أهلها، وأذلهم، وأخذها عنوة، ثم صالح عبدة الأوثان هنا وهناك، لا يقبل موعظة، ولا واعظاً، أحاط نفسه بمن يتملقونه، واستخلف علي شئون الرعية أهل النفاق" دلف إلي البيت ضائق الصدر، واجمة ملامح البراءة فيه، سألته حنين:

ما بك يا بني؟ هل آذاك أحد ؟

أومأ برأسه نافياً، تبسمت وقالت:

هل رأيت ما حدث، ألست سعيداً ؟ ما بك ؟ إن كان هناك من تعرض لك بسوء فاشكيه للأمير.

قال بفتور:

أي أمير ؟

سألته مستنكرة:

وهل للمدينة أميران ؟

لا أثق به.

هل جُننت ؟ أنسيت فضله، وشهامته ؟

نفخ فى ضيق، وأجابها بحدة:

كله تصنع ورياء، ألم يكن أميراً علي مقدساتنا، ثم تركها وهرب ؟ فما عمله في هذه البلاد؟

أهذا ما نفثه في قلبك ذلك السمج ؟

أماه لم أعد طفلاً، لستُ غِراً ليخدعني أحد.

لكنك خُدعت.

سكتت، ثم قالت بنبرة قلقة :

نهاية هذا الأمر دمار عظيم، سأُعلم الأمير.

انتفض نزار، وقال محتداً:

إن فعلتِ، فلن تريني مرة أخري.

انقبض قلبها، واصفرت ملامحها، ابتلعت ريقها، وقالت مهادنة:

حسناً..حسناً لا تغضب، لن أفعل.

***

عاد عدي، وصحبته إلي سالف عهدهم، اتخذوا مكانهم المعهود في الحانة، اتكأ الزير في مكانه أيضاً، يطالع الكتاب نفسه، وانشغل كل بلهوه، وانمحي ذكر الحادثة الأخيرة، واطمأنت النفوس بعد اضطرابها، دخل قيس منبسط الوجه يحكي لصهيب دهشته من ارتجال الأمير، وفصاحته.

ما زلت لا أصدق .

ضحك صهيب:

هذا ليس بجديد عليه، فهو دائماً ما يفاجئنا.

رسم سعد ابتسامة عريضة علي وجهه فور رؤيته، وأسرع إليه، وقال بنبرته المتملقة :

اليوم لدينا عيدان، خروج الأمير علينا، وحلولك بيننا.

سلمت، واجعل كل ما يطلبه زبائنك الليلة عندي.

بل عندي، إنها فرحتنا كلنا.

ناداه الزير وهو يفرك سبابته بإبهامه :
احذر يا سعد أن تحرق الفرحة كبدك.
انفجرت نوبة ضحك لتعريض الزير ببخله، نظر سعد إليه في حنق، فأردف قيس مؤكداً:
كما قلت حسابكم عندي.
ارتاح سعد لنجاته من تكاليف ذلة لسانه، أمر خدمه بتوزيع الأشربة والأطعمة، عاد الزير الي كتابه، جلس قيس وصهيب، وتأفف عدي، زادت فرحة قيس من ضيقه فهم بالانصراف، لكن النادل وقف، عنده ووضع المشروب أمامه، فلم يكبت ضيقه وجهر قائلاً:
وهل يغير ذلك شيئاً ؟! يا لحماقة الدهماء صدق القائل، ذاكرة العوام ثلاثة أيام.
هدأ الضجيج، وتطلع الناس إليه بنظرات متوجسة، فقام قيس ومشي إليه.
ماذا تقصد ؟
ما قلته لا يعنيك.
إن سعيت لإيقاظ الفتنة - لعنها الله ولعنك قبلها - فلن تنجو من يدي هذه المرة.
هل ستقتلني ؟
سأفعل إن لم تضبط لسانك.
هيا افعل ما يمنعك.
روض قيس غضبه بصعوبة، وصرف وجهه بعيداً، وارتقب الناس نشوب القتال، ووقف الزير في ظهره، والتف صهيب خلف عدي وصحبته، فتراجع قيس إلي طاولته، واخرج كيس نقوده، ووضعه فوقها، ثم انصرف.
أسرع سعد إلي طاولته وقد أعماه الفرح عن النقود، أمسك قلمه، وكتب " من الأذن الصاغية إلي القلب الواعي، .... " سرد الواقعة، ثم

أنهي كلامه " وأري أن الوقت قد حان، والأمر إليكم فانظروا " ثم تلفت حوله، وسحب من نطاقه قطعة قماش ملفوفة حول ختم معدني نقش عليه صورة للعين، واجتذب إليه شمعة كانت علي حافة طاولته، وقرب الختم من نارها، ثم طبعه فوق الورقه.

***

لم يمر الكثير من الوقت حتي كانت الورقة بين يدي إبراهيم قرأها وعيناه تبرقان فرحاً بما جاء فيها، لاحظ محمود فرحته، لكنه أشفق من توجيه سؤال يستغبيه، أو لا يعجبه، فاكتفي بالابتسام وتآكل في صمت، طوي إبراهيم الرسالة، وقال:

أخيراً، لقد تشاجر الطائش مع عدي، وهدده بالقتل.

تظاهر محمود بالفهم، فتكلف ابتسامة وراح يهز رأسه دون توقف، قال إبراهيم:

استدعي فلاديمير فوراً.

لمعت عينا محمود، وقال متحمساً :

فلاديمير ؟! هل سيكمل عمل هاتورلي، هل سيقتل الأمير؟

انقبض وجه ابراهيم، وانمحي الفرح من عليه، نظر إليه مشمئزاً، وزمَّ شفتيه، وقوسهما للأسفل، وانتابه شعور الغثيان، فلاحظ محمود تبدل حاله، انخطف وجهه، وقال بصوت خفيض:

هل أشبهتُ أمي ؟

ألم أقل لك لا تفكر.

حسناً.

أطرق، ومشي إلي الباب، ثم توقف، سأله إبراهيم:

ما يوقفك؟

لم تصفها لي من قبل، أعني أمي، كيف كانت ؟

كانت صفراء فاقع لونها تسر الناظرين.
فرح محمود لوصفه، فتابع إبراهيم:
لا تفرح هذا لن يغير من كونها بقرة، هيا اذهب.

***

اصطف الجند في ثبات، بينما كانت قلوبهم ترفرف فرحاً لرؤيته يسير بينهم مستجمعا قوته، مشي قاسم قربه، وعيناه لا تتوقفان عن تمشيط الوجوه كعادته، وسار عمر إلي يمينه، توقف عند وحدة القيادة، وتفقد أحوالها في صمت، بادره عمر وهو يشير الي أحد القادة المصطفين أمامه:
سيدي قد عزمت علي تعيين طلال نائباً لي، إذا رأيتم هذا مناسباً.
حدق الأمير فيه، فتقدم طلال، وحياه بقوة، هزَّ الأمير رأسه موافقاً.
أين أخوك؟
في ساحة التدريب .
امتطي الأمير فرسه، فأسرع قاسم، وفريقه إلي جيادهم، أشار إلي عمر:
اقترب .
دني الأخير من ركابه، فانحني حتى أذنه، وقال هامساً:
لا تراجعني في شيء تريده أمام الناس مرة أخري.
ارتبك عمر، ثم قال متلعثماً:
العفو يا سيدي لم أقصد.
ربت الأمير علي كتفه وذهب.
وصل معسكر التدريب، فوجد قيساً يتوسط ساحة الناشئين، توقفوا لرؤيتهم الأمير، لكنه أشار لهم بمتابعة عملهم، راقب تدريبهم، ثم ترجل عند انتهائهم.
هلموا إلي.

أسرع الفتية، وحلقوا حوله، لمح الأمير نزاراً بينهم فتبسم له، لكن الفتي ظل واجماً.

تتدربون بقوة، ونشاط لا يخلو من المهارة، ولكن لمست في عقولكم بعد التشتت عند قدومي، اجعلوا أعينكم، وعقولكم في السيف، ولا تلتفتوا إلي ما سواه، ولو رأيتم السماء تنطبق علي الارض، فكروا في السيف، ولا شيء آخر، هل فهمتم ؟

أمر قيساً ببدأ المبارزة، فاخرجهم مثنى مثنى، لاحظ الأمير تفوق نزار علي أقرانه، فقال:

قيس، اجعل نزاراً في تدريب أعلي، فربما انضم إلي كتيبة العقاب يوماً.

أمرك يا سيدي.

وبينما يتحرك الأمير للمغادرة ناداه نزار:

هل يمكن أن يشاركنا الأمير المبارزة ؟

التفت إليه الأمير مستغرباً:

هل تطلب مبارزتي ؟

ظل قيس يحدق في الفتي كي ينظر إليه فينهاه بعينيه، تابع الأمير:

هل تتجرأ علي أميرك ؟! أهكذا علمك جمال الدين ؟

ارتجف نزار لقوله، ولم يدرِ بما يجيب.

تبسم الأمير، وقال:

حسناً يا صغيري تعال.

تقدم الأمير منه لكنه لم يجرد سيفه، وقف، ثم استبطأه، فشجعه:

هيا هاجم.

اندفع الفتي إليه، فتنحي الأمير، وتركه يهوي، نهض، واستأنف، فقبض الأمير يده الممسكة للسيف، وثناها حتي وضع السيف عند نحره، ثم تركه، ربت علي كتفه، وقال " لا بأس بك "، ثم انصرف .

اجتمع البيرونى بالفلكيين داخل مرصد سهيل، تابع حساباتهم وأبحاثهم، ثم نهضوا لاستقبال الأمير بعدما أخبرهم أحد العمال بصعوده إليهم، وبعد دقائق وصلهم، وترجل عندهم.

كيف تجري أموركم، هل ينقصكم شيء؟

قال البيرونى :

الأمور علي ما تحب.

جيد، اتركوني مع النقيب إذا سمحتم.

حياه الحاضرون، وانصرفوا، أشار الأمير إلي قاسم فخرج، صعد إلي طابق الرصد ومن ورائه البيرونى، ساد الصمت لبعض الوقت، تساءل النقيب:

هناك ما أهمك ؟

الأمر القديم، الخطة التي وضعها الظلاميون كي يستولوا علي قداسة، لم نستطع حل لغزها طوال تلك السنوات، صحيح أن تأسيس إمارتنا قد استغرق وقتاً، ولكن إن لم نعثر علي تلك الخطة، ونفهم سر قوتها، فسنظل علي حافة السقوط.

أومأ البيرونى متفهماً، ثم قال:

ألم يتوصل إخوتنا في قداسة إلي شيء؟

اجناتيوس جعلها بحراً من الظلمات لا تهتدي فيه لشيء، كما أنني لا أعتقد أن مكان اجتماع صفوتهم، وسجلات وثائقهم في قداسة.

لما لا وهي أحصن نقطة لهم، ومركز حكمهم؟

هذا ما يجعلني استبعد قداسة، الظلاميون لا يتحركون بشكل تتوقعه، لا يقدمون إلي هدفهم بصراحة، لابد أن يغلفوه داخل شيء لا تتوقعه.

صمت البيرونى مقتنعاً بكلامه، أردف الأمير:

الخطة التي دمرونا بها ليست في قداسة، وليست خطة عسكرية أو شيئاً ملموساً يمكن أن تضع يدك عليه، كل ما توصلنا إليه هو اجتماعهم داخل قلعة مجهولة.

سنجدها.

يجب علينا ذلك، وإلا فإن استرداد قداسة، أو حتي الحفاظ علي ما في أيدينا سيكون محط أوهام.

***

كانت ليلة هادئة تداولتها رياح خفيفة تحمل لمسة برد كتذكير بأن الشتاء لا زال حاضراً، وسيطبق فكى صقيعه في أي وقت، انصرف كل موظفي المكان، ولم يبق غيرهما، ظلا صامتين، فتساءل محمود عن سبب شرود والده، تململ العجوز، ثم قال:

بعدما تفقد الأمير مرصد سهيل ذهب منفرداً إلي مكان ما، ثم موهه أثره، هناك ما يخفيه.

سمعا وطء أقدام قادمة، قطع إبراهيم حديثه، وانتظر، دقَّ الطارق الباب بإيقاع عرَّف به نفسه.

تعال.

دلف، وركع عند قدمي إبراهيم.

انهض يا فلاديمير.

وقف، وأماط لثامه، كان صلب البنيان معتدل القامة، ذا شعر ناعم أصفر اللون ينساب الي حاجبين كثيفين، وله عينيان زرقاوان ضيقتان، ولحية بلون رأسه نصف نامية، وبشرة بيضاء شديدة الحمرة.

استدعيتنى يا سيدي.

هناك ما ستقوم به اسمعني جيداً، ونفذ ما سأقوله بالحرف.

انصت لما قاله ابراهيم بعناية، وهو لا يتوقف عن هز رأسه بالفهم، ثم قال:

كيف سأعرفه ؟

إذهب إلي حانة سعد، هناك من سيدلك.

***

استيقظت مع زقزقة الطيور في حديقة منزلها، وباشرت بنشاط التجهيز لانعقاد ندوتها الأدبية، كانت تنتظرها بفارغ الصبر، لم يخل بالها من التفكير بما قد يحدث إذا تصادم قيس مع أبيها خلال الندوة، مع حلول المساء كانت القاعة المعدة للقاء في أتم جاهزيتها لاستقبال الضيوف، اتخذت مكانها عند المنصة المنتصبة علي ارتفاع قليل من مستوي أرضية القاعة، كان راشد أول من وصل، حياها متبسماً وجلس في مواجهتها، توافد الناس تباعاً، ووصل عدي، ووقف في الممر الفاصل بين مقاعد الرجال، ومقاعد النساء، تردد، ثم جلس علي مقعد عند حافة الممر، جاء محمود وجلس في مواجهتها، ودخل صهيب بعده، وجلس خلفه، فأحس محمود أن صهيباً يحصي عليه أنفاسه، همَّ بتغير مقعده، لكنه تراجع وصهيب يقول "كما أنت" جلس علي مضض، لم تستبشر أروي بحضور صهيب فهي الإشارة أن قيساً لن يأتي، لكنها لم تقطع أملها، ظلت تسترق النظر إلي الباب بين الحين والآخر، يخيب أملها كلما طرق الباب، ولم يكن هو، لم تجد بُداً من أن تبدأ اللقاء من دونه، كان يجب أن تفهم أنه لن يأتي بعد ما كان بينه وبين أبيها ما كان، لاحظ عدي توترها، وشغفها المتطلع إلي غائب، فقرر في نفسه أن يبتعد، برقت عيناها بأمل جديد عندما طرق الباب في منتصف اللقاء، ثم نهضت مندهشة للقادم.

أبى ؟!

أحببت مشاركتكم إذا لم يزعجكم وجودي.

العفو يا أبتِ تفضل مكاني.

لا سأجلس هنا، تابعوا ما بدأتموه.

وقف يفتش في الوجوه عن وجه جاء لأجله، ولما لم يجده جلس إلي جوار عدي، وعينه إلي الباب، فهمت أروي مغزي حضوره غير المعتاد، قد جاء ليرد إهانة قيس، ويطرده شر طردة، لكن يبدو أن الطائش قد حسب حسابه تلك المرة، انتهي اللقاء، وشعرت باختناق، ورغبة ملحة في البكاء.

أبي هل تأذن لي بالخروج إلي البحر حتي المغيب.

لا بأس. قبّل رأسها، وخرج.

***

انصرف من لقاء الأديبة غاضباً، لا يدري وجهته حتي توقف عند باب المسجد وكان موارباً، ربما إذا تطهر بالوضوء سكت عنه الغضب، فليكن كل امرىء مع من اختاره، كفي سخافة عند هذا القدر، فاليحترقوا سوياً، لن اقترب منها مرة أخري.

انتهي من صلاته، وجلس، كان المكان خالياً من المصلين كحال المساجد بين العصر، والمغـــرب، تسلل ضوء خافت من قبة الحرم، فبدد ظلامه بعض الشيء، انتبه لصوت نعال خلفه تطأ الأرض بحذر، التفت وراءه، وقال موبخاً:

أتدخل الحرم بنعلك ؟

وقف الأشقر ينظر إليه، وهو يدس يده داخل عباءته السوداء.

عدي.

نهض، وتساءل متعجباً لندائه باسمه:

من أنت ؟!

لمح قلادة تتدلي فوق صدره، أسرع الرجل باسدال عباءته فوقها، واستل من خاصرته خنجراً مدبباً، وهجم عليه.

تفادي عدي هجومه، وراوغ ضرباته، بادله اللكمات، وأسقط خنجره، تشبكت أيديهما، وتصارعا، تغلب عدي عليه، وقبض صدره، وقلادته، وراح يكيل له اللكمات، حتي كاد يهوي تحت قدميه.

ماذا تفعلان في بيت الله ؟!

انتبه كلاهما للصوت الأنثوي يقف قربهما، كانت غاضبة ساخطة.

عدي ماذا تفعل؟ هل تتقاتلان في بيت الله؟

أرخي عدي قبضته عن غريمه، وقال:

هو من بادرني.

تبسمت، وتقدمت إليه:

لكنه بيت الله.

هز عدي رأسه مؤيداً، ثم جحظت عيناه، وهو ينظر لخنجرها، وقد انغرس في قلبه، تشبث بتلابيبها، وطعناتها لا تتوقف، سقط علي ركبتيه، ويداه تنزلقان من فوق ذراعيها.

لماذا فعلتِ هذا ؟

دفعته وابتعدت عنه، قبض جراحه، وهو ينظر إليها متسائلاً، كأن السبب أهم من حياته، أشارت إلي شريكها آمرة:

هيا يا فلاديمير.

أسرع، والتقط خنجره، ثم التف خلف عدي، ونحره.

ارتبكا لوقع أقدام في فناء المسجد، أسرعا والتصقا بالحائط عند مصرعي الباب، فتح عامل المسجد باب الحرم، فشهق وحملق مصدوماً عندما سقط الضوء المندفع من خلفه علي الدماء، ثم تكوم علي الأرض فاقداً للوعي.

***

فتح عينيه، واستشعر نعومة السجاد يغوص به خده، تأوّه عند اعتداله لألم الضربة التي تلقاها خلف رأسه، وعاد فزعه لرؤية القتيل ممدداً بالقرب منه،

نهض، وخرج مسرعاً لا يلوي علي شيء، خرج صارخاً في الناس، قتيل، قتيييل، صادف صراخه عمراً، وكان عائداً إلي الخيمة مع مجموعة من المقاتلين، أسرع إليه متسائلاً:

مَن ؟

لم أتبين ملامحه يا سيدي، وجدته غارقاً في بركة من الدماء.

أين ؟

داخل الحرم.

صُعق عمر، ما جنس من يقتل الناس في بيت من بيوت الله، ألا لعنة الله علي الظالمين، ترجل، وهرول إلي المسجد، ونشر الجنود حوله، ومنع دخول الناس، أمر أحد جنوده بإبلاغ الأمير، ثم التفت إلي آخر:

اذهب، وأخبر رباحاً قائد التحقيق، وأنت أبلغ علياً طبيب المدينة.

ثم صاح آمراً الجند:

لا تسمحوا لأحد بالاقتراب من المسجد كائناً من كان.

***

اجتمع إبراهيم برجاله داخل مخبأهم في الجبال الشرقية للمدينة، كان في قمة غضبه من فلاديمير الذي تأرجح بين الصفعات التي تلقاها عن يمينه وشماله، مسلماً وجه في خضوع أمام النار الضارية.

كيف تجرؤ، وتورطها في هذا الأمر؟

لم أفعل، لقد تدخلت أثناء القتال، ولم أكن أعلم بوجودها.

أين ذهبت الآن؟

لم أعلم وجهتها.

قام إبراهيم عنه، ونضح وجهه بالماء، أَسَرَّ في نفسه عتاباً لها، لماذا فعلتِ هذا يا أختاه ؟ كم مرة قلت أنني لا أقبل تعريضك للخطر، يكفي ما تقومين به لأجلنا، صرخ برجاله " اصطفوا "

تنبهوا جميعهم، ووقفوا في صلابة من حديد.

قد حان وقت المرحلة الثانية من الخطة، قوموا باختطاف الأديبة الليلة قبل أن يستفيقوا من صدمتهم بمقتل عدي.

أمرك يا سيدي.

نظر إلي فلاديمير، وهو ما زال منكسراً:

تولي قيادتهم، لا أريد خطأ آخر، وبعد اختطافها نفذ ما اتفقنا عليه.

عادت لفلاديمير ثقته بنفسه بعض الشيء، فتقدم في نشاط، وركع أمامه.

أعدك أنني لن أخيب ثقتك مرة أخرى.

غادر إبراهيم المغارة، ونزل إلي المدينة قبل أن يلحظ أحد غيابه، انتبه فلاديمير بعد ذهابه إلي أن قلادته ليست عليه، فأسرَّ أمرها، ولم يخبر بفقدها أحداً.

***

شكّل الأمير، ومن معه دائرة حول الجثة المنكبة علي وجهها، أشار إلي علي، ومساعده فقاما بقلبه علي ظهره، انخطف قلب الأمير، وقال بأسى:

عدي؟! ..... بني؟

غالب الأمير صدمته، ومد كفه، وأغمض عينيه الشاخصتين، ولم يتمالك عمر دموعه، بينما ظل رباح يدقق، ولم يُبْدِ أي انفعال، لامس بأطراف أنامله حز الخنجر في رقبة عدي، وأردف:

قد قتله من خلفه علي حين غرة.

فكر الأمير بما سمع، ثم قال:

لا، لقد حدث قتال بينهما، انظر إلي الفوضي التي عمت المكان، والمصاحف التي وجدناها علي الأرض.

كيف تمكن من نحره بهذه الطريقة إذاً ؟

قال علي مؤيداً رباح :

لقد قتله كما لو كان متمكناً من رقبته.

قال الأمير:

لم يكن وحده.

ركز عينيه إلي صدر القتيل، ثم أردف:

توجد طعنات متفرقة في صدره.

دقق رباح وعلي، وانحني عمر ممعنناً النظر، فانتبهوا إليها، وقد حجبتها الدماء التي أغرقت قميصه، وأذهلهم جذ رقبته عن باقي تفاصيل الواقعة، مدَّ الأمير يده الي إحدي الطعنات، وقطع القماش حولها، وأردف:

كانت امرأة.

قال رباح:

عفواً يا سيدي، لم أفهم.

كانت امرأة مع القاتل، انظر، إنها طعنات من نصل صغير الحجم، أغلب ظني أنه من الخناجر التي تتقلدها النساء، كما أنها ليست غائرة في جسده، أي أن من سددها ليس بالقوة الكافية، أومأ رباح برأسه مقتنعا، قال الطبيب:

صحيح.

نهض الأمير، وقال:

مهما تكن هذه اللعينة، فهي شخص يثق عدي فيه، وإلا لما تمكنت من طعنه بتلك الطريقة.

نهض رباح، وتراجع خطوة للوراء، فانتبه الأمير إلي صوت معدن تحرك تحت أقدامه تغطيه الدماء، وأحس رباح بملمس المعدن في باطن قدمه الحافية، فأبعد رجله وانحني، ثم انتشله بأطراف أنامله برفق، ورفع يده، فتدلت سلسلة ذات قلادة غير واضحة النقوش لتلطخها بالدم، أسرع علي، واستخرج منديلاً أبيض اللون، وتلقي القلادة عليه، ثم دفعها إلي مساعده،

فظهرت العين المنقوشة فوقها واضحة بعد مسحها، فأغمض الأمير عينيه، وزم شفتيه.

هكذا إذاً

قال رباح:

من هم يا سيدي؟

هذه القلادة تعود لأحد الظلاميين.

أسرع رباح، وأخذ القلادة من يدي علي.

العين.

قال الأمير:

كم شعاع حول العين؟

دقق رباح عينيه المحملقتين في القلادة.

سبعة عشر.

تلك درجة القاتل عندهم، لا تخبروا أحداً بأمرها، مفهوم ؟

أمرك.

جلب الجنود محملاً، واستأذنوا في الدخول.

وقبل حمل القتيل قال الأمير انتظروا، لاحظ كفه مقبوضة علي شيء، فتحها، فوجد خرزة بيضاء اللون، قد انتزعها عدي من أكمام القاتلة، التقطها الأمير بأنملتي سبابته وإبهامه، رفعها أمام ناظريه، ودقق بها فخفق قلبه.

قال رباح:

هذا يؤكد ظنكم يا سيدي، إنها مما تترصع به ملابس النساء.

لم يجبه الأمير، غير أن وجهه قد زاد احمراره، وبدا عليه انفعال مكبوت تسرب إلي يده اليسري، فأخذ يقبضها، ويبسطها في وتيرة متسارعة.

سنري، ستبقي هذه والقلادة معي، وكما أمرتكم لا تخبروا أحدا بأي شيء رأيتموه هنا.

احتشد أهل المدينة حول المسجد في انتظار خبر من الداخل، خرج المحمل تحوطه الجنود في اتجاه المشفي لتجهيزه، تعالت الصرخات بأن عدياً قد قُتل، ثم انتبهوا لسقوط حاتم والده فور رؤيته محمولاً، خرج الأمير فرأي الناس يحيطونه، أسرع اليه، ونادي بمحمل، فجاء الجنود، وحملوه.

علت صيحات بكاء، واسترجاع، ثم تسلل من بينها الهتاف بأن قيساً قد قتله.

قتله من أجل الأديبة

سمعناه يتوعده

قد شرع من قبل في قتله

وقف الأمير، وأشار بيده فصمت الجميع.

أقسم أنه لو كان هو الفاعل فإنني لن أرحمه، لاعتصرن روحه بيدي، فتصبروا.

التفت إلي رباح، وأمره بحزم:

ابحث عنه، وتقبض عليه حيث تجده، لا تترفق به.

الأمر لك يا سيدي.

هرول رباح، وامتطي جواده وانطلق، وخلفه الجنود.

***

ظلت ترقب سقوط الشمس، وأعماقها دامية بلون الأفق، وأضافت عيونها إلي البحر قطرة، أحست بقدومه، وقف إلي جانبها بهدوء، ومد بصره إلي المدي يراقب المشهد نفسه، تنهد وقال:

الغروب .

التفتت إليه، وقالت بصوت باكٍ:

قد ظل مقعدك شاغراً اليوم.

لم يلتفت نحوها، تابع وعينه إلي الأفق:

الغروب، مثل كل أقاصيص النهاية لا أحبه، لا أحب مشاهدته، الشمس تسقط مثل قتيل درج الأفق بدمائه، ينسحب النهار هارباً ليتركنا فريسة بين أنياب الظلام.

لم ترتح لكلامه، وطريقته، لم تعهده هكذا، هناك جفاء في صوته، وقسوة في عينيه، حتي إنه لم يسأل عن سبب بكائها، لقد أتي بوجه لا تعرفه، زفر في ضيق، وأردف وهو يلوح بيده ناحية الغرب:

علي كلٍ، أنا لا أحب أقاصيص النهاية بكل صورها، أفضل أن تنطفىء الشمس مرة واحدة، ولا تطيل العذاب، إن كان الليل قادماً لا محالة فلا معني لوجودها الباهت بين الأفق.

فهمت ما يرمي إليه، سكتت برهة، ثم قالت علي طريقته:

وكأنه يهمك ؟ أعني الغروب.

نفي بهمس شفتيه، وأجابها:

لا يهمني.

هذا ما ظننت.

لا يهمني ما دامت الشمس لا تتمسك بفلكي.

رمقته في غيظ من استعلائه، وقالت متحدية :

حقاً؟! ما ذنبها إذا كنت أنت من يسحب بساط المدي، ويدنيها من السقوط.

ظل صامتاً، ترقبت رده، ثم صرخت به:

التفت إلي، لماذا فعلت هذا ؟

لأنه أهانني.

وأنا ؟

وأنتِ ؟!

ألم تفكر بي ؟

عاد لصمته، وصرف بصره عنها للأفق، فعاودت صراخها، وقد انفلتت أعصابها :

لا تتهرب، وانظر إلي، قاتلك الله.

زم شفتيه، والتفت إليها بكامل جسده ليصبحا وجهاً لوجه.

ألم تفكر بي ؟ لقد أنهي أبي أمر زواجنا، وأنت تتنطع بالغروب والشروق هنا.

اسمعي أيتها الأديبة.

ما أسرع أن أسقطت اسمي.

لقد دفعني لهذا.

كان يمكن أن تكون أكثر صبراً، كان يمكن أن تضبط غيظك لأجلي.

أنا أريدك، ولكن لا أتسولكِ، لا أقبل أن يخاطبني أبوك، وأنفه في السماء، إن كان سيعطي حرة فلحر، أميرة فلأمير.

وصل الخلاف لنقطة لا يبدو عندها الرجوع، لم تستطع إجابته، لا حيلة لها بين رأسين عنيدين، فسلمت أمرها، وهي تتمزق بينهما في صمت، واصلت البكاء، فلانت قسوته لدموعها، قال بصوت خفيض:

أروي افهميني، لا أطيق ذلاً، لا يحمي عرضه ذليل.

انتهي يا قيس، أنت رجل عنيد أعمي الغرور عينيه.

تحسست قلادته عليها، وقبضتها، جزت أسنانها، وهمت بنزعها.

أروي احذري.

انتبها لسحابة من الغبار المثار تزحف إليهما، جرد سيفه، وتأهب " تعالي هنا " وقفت خلفه حيث أشار، ابتلعت ريقها، ونظرت في خوف من وراء كتفه إلي القادمين، ثم أغمد سيفه عندما تبين هويتهم، وقف رباح، وهدأت قعقعة السلاسل في العربة ذات القفص الحديدي من خلفه، والتف جنوده حولهما، قال رباح :

قُتل عدي.

تفاجأ قيس، ارتجفت أروي.

وأنت متهم بقتله.

صرخت، ثم كممت فمها بكفيها، وأشار رباح إلي الفرسان، فترجلوا، أسرع أحدهم، وفتح باب العربة، وجر منها السلاسل.

ماذا تفعل يا رباح ؟

أجابه بنبرته الحاسمة، وقد عقد حاجبيه :

أنت رهن الاعتقال.

قالت أروي:

مستحيل، هناك خطأ.

لم يلتفت رباح لها، فقال قيس:

لا عليك ، ستتضح حقيقة الأمر.

أخذ الجنودَ سيفه، ووضعوا الأصفاد في يديه، ورجليه، وقال رباح:

هيا اصعد.

اقترب قيس من باب العربة، وقبل صعوده قال لرباح:

دع الأديبة تأتي في رفقة الجنود، فقد دني الظلام.

ظهر محمود، والشماتة منبسطة في وجهه:

أنا أوصلها، فكر أنت في عقاب قتلك الأبرياء.

قعقعت السلاسل في أقدام قيس وهو يمشي بتؤدة نحو محمود، ثم طبع رأسه في وجهه، ثم قال:

أنت لا شأن لك بها.

التفت إلى رباح، وقال:

كما قلت أيها القائد، دع الأديبة في رفقتكم.

حسنا فالتأتِ.

وصل صهيب، ومعه الزير وعمرو، فأشار إليهم قيس ألا يتدخلوا، نهض محمود، ونفض الغبار عنه، ومسح الدم المنساب من أنفه، واستجمعت أروي نفسها بصعوبة، وامتطت جوادها ورجلها لا تكف عن الارتجاف، ثم تحركت العربة قافلة إلي المدينة.

الفصل العاشر

لم يجد الليل له موطئاً بفعل المشاعل التى امتلأت بها شوارع المدينة، وأزقتها، شقت العربة طريقها بين الحشود الغاضبة، والمنكرة، كان يجلس داخل القفص الحديدى، مسنداً ظهره ورأسه إلى الجهة ناحية قائد العربة، باسطاً ساقاً، وقابضاً إليه أخرى، وواضعاً يده فوق ركبتها، ظل مغمضاً جفنيه غير مبال بالضجيج من حوله، كانت أروى تمشى حذاءه، ترنو إليه بنظرة مشفقة، اضطرب جوادها لصراخ الناس وتنديدهم، فتح عينيه منتفضاً عندما تسلل من بين الصيحات الغاضبة بعض الكلمات النابية، وهم يرمون أروى، ويشركونها فى الأمر.

لقد قتله بسبب الأديبة.

بفعل ابنة الامير محمد المدللة.

سعيدة الآن يا ساقطة.

قتل الرجال بعضهم لميوعتك.

ليت الأرض انشقت وابتلعته قبل أن يراها فى موقف كهذا، ولا يستطيع الدفع عنها، لا شيء يسحق القلب أكثر من عجزنا عن حماية من نحب، نظر إليها مستصعباً وقع هذا علي مسامعها، تابعت أروى طريقها بين الحشود دون التفات، غير أن قدمها أصبحت أكثر ارتجافاً، وبهت وجهها، وانخطفت ملامحها، فتماسكت لبعض الوقت، ثم انهار عصِي دمعها.

أوقف رباح المسير عندما حرض بعض الناس على رميه بالحجارة، عدل فرسه إلى الحشود، وجرد سيفه وصاح بحزم:

من تسول له نفسه بالاقتراب من شيء فى يدى، فلن تطلع عليه شمس، عقابه ليس لي ولا لكم، للمدينة محكمة وقاض، لن أكرر تحذيري مرة أخرى.

سيطر رباح على الفوضى قبل اندلاعها، وطغى الصمت للحظات، ثم استأنف المسير، وصل البوابة الخارجية للسجن، ونزل قيس بثبات، التفت رباح إلى الأديبة، وقال: إلى هنا وحسب.

قال قيس:

أرسل معها من يوصلها.

وقبل إجابة رباح وصل محمد مع حرسه، وقال لأروى غاضباً:

لا عمل لكِ هنا، هيا إلى البيت.

دنى بجواده من قيس، وتوعده:

لقد جرّأت السفلة على عرضى، لن يمر هذا دون حساب.

لم يجبه قيس، وتولى بظهره، فقالت أروى:

لم يفعل شيئاً يا أبتِ.

اخرسى أنتِ، هيا بنا.

تقدم رباح، ودلف من الباب الخارجى، ومن خلفه قيس وسط اثنين من الجنود، مشى فى طريق ترابى ممهد، انتهى بممر حجرى ضيق مسوراً على جانبيه، وله باب حديدى صغير، اجتازوا الممر حتى وصلوا سلماً حديدى من بضع درجات يقف عنده حارس، قام بفتح باب غير مصمتٍ، يُفضى إلى صالة مربعة الشكل تتوزع المشاعل حولها، يوجد بها أربع حجرات ذوات أبواب خشبية تخص قائد التحقيق ومعاونيه، وباب آخر حديدى يفضى إلى سلم من ثلاث درجات إلى الأسفل، يؤدى إلى ممر ضيق خافت الإضاءة لقلة المشاعل فيه، يتخلل أسواره فتحات صغيرة للتهوية، تنتشر الزنازن عن يمين الممر، وشماله. وقف رباح عند أحدها وأشار إلى الجندى، ففتح بابها، كانت حجرة صغيرة يتسلل إليها ضوء خافت من مشعل خارجها، لها باب حديد غير مصمت يمكن للسجين أن يري رفيقه فى الزنزانة المقابلة، ونُصب سرير صغير فى أحد أركانها، وانفتح فى أعلى الحائط المقابل للباب نافذة صغيرة

تتخللها قطع الحديد، لم تتوقف الجلبة التى أحدثتها السلاسل حول قيس، وقد بدت منتظمة الايقاع مع صوت خطواتهم فوق الأرض الصخرية، دلف وتوقف فى وسط الحجرة، ورفع عينيه إلى النافذة، وقف رباح عند الباب من خلفه، وقال:

لا تفكر فى الهرب فلن تنجو منى.

قال قيس دون أن يلتفت له، وعيناه إلى النافذة:

إذا أردت شيئاً، فأنت لا شىء يا رباح.

هكذا؟

إنك أقل من أحسب لك حساباً.

قال رباح بغيظ:

انتبه أيها الفتى، أنا لست مثل غلمان الحانات.

التفت إليه قيس، وقال:

وأنا لست مثل اللصوص الذين يرتعدون أمامك، أنا قائد التدريب فى هذه المدينة، وسأظل.

رد رباح متهكماً:

أجل قائد تدريب جيش المدينة، وتتعاون مع الظلاميين عليها.

لم أفهم.

ستفهم قريباً، وجدنا من الأدلة ما يكفى للإطاحة برأسك.

أغرب عن وجهى

تقدم رباح منه، وقبض السلاسل بين يديه، واجتذبه إليه حتى أصبحت رأس قيس عند صدره، وأطل بعينيه بغيظ، وبادله قيس النظرة المتحدية، فهمس رباح:

لا تعول على أن الأمير سينقذك، إن ثبت ما وجدنا فسيقتلك بيديه.

قبض قيس يد رباح، ورفعها عن سلاسله، ثم دفعه بقوة، فتزحزح الأخير إلى الخلف، وذهب .

***

عاد بالشرود الذى لازمه فى الآونة الأخيرة، لازال يصارع تخبطه، هناك بون شاسع بين ما يراه، وما يسمعه، وما يحس به، فكَّر فى جمال الدين وصحبته، وما يخططون له، أسرَّ فى نفسه حديثاً : " يرمون الأمير بالجبن، والعجز، والبخل، ولم أرَ فى طباعه شيئاً يدل على هذا، ولا حتى فى ذلات لسانه، بينما هم قد جمعوا من حولهم وجوهاً لم تعرف الله يوماً، ولم تمر الأخلاق أمام طباعهم، ولو مصادفة، كل ما يرمون الأمير به ليس فيه، وكل ما يدعونه لأنفسهم ليس فيهم، قد صح فيهم مثل القائل رمَتْنِى بدائها وانْسَلتْ" تفاجأ بأمه تقف عند عتبة الدار، اطمأنَّت لرؤيته غير أن الخوف لم ينجلِ عن ملامحها بعد.

أماه ما أخرجك ؟!

عاتبته حنين قائلة :

تعبت منك يا نزار ... فيمَ تأخرك ؟

ماذا حدث لكل هذا القلق ؟

ألم تعلم بمقتل عدى ؟

صمت، وبدا أن الأمر لم يشغل باله كثيراً، أردفت عاتبه :

لماذا لا تقيم وزناً لقلقى عليك ؟

قال مُطيباً خاطرها :

حسناً يا أمى لا تحزنى، لن أتأخر مرة أخرى، اطمئنّى.

***

فتح الكيس الجلدى، وتفقد القلادة، ثم أعادها إليه، واستخرج الخرزة البيضاء، تأملها، ثم قبضها، مشى إلى أرفف الملابس فى جناح استراحته، ووضع زجاجة عطر فوق أحد الأرفف، وراح يتفحص ملابسها.

أميرى هل تبحث عن شئ ؟

التفت، فرآها تقف خلفه متسائلة ليس على ملامحها شيء، غير أنها ترمق يده المقبوضة، تبسم الأمير، وقال :

أين كنتِ؟

تفقدت فقراء المدينة كما أخبرتك ؟

تُجهدين نفسك كثيراً.

تبسمت، واقتربت منه، ثم أراحت يدها فوق صدره :

سعيدة بذلك، كما أنك أنت أيضاً لا تتدخر جهداً.

سلمتِ.

هل كنتَ تبحث عن شىء ؟

التقط زجاجة العطر، وقال :

جلبتُ هذه لكِ، ولكنى استحييتُ أن أُهديكِ إياها، وفى مدينتنا شهيد، لذا وضعتها لوقت لاحق .

بدت متأثرة لحديثه :

حسبنا الله ونعم الوكيل، هل توصلتم إلى المجرم ؟

تنهد، ثم ربت على كتفها، وقال: ليس بعد، ثم تكلف ابتسامة وخرج.

***

فى الوقت الذى تَعج المدينة فيه بالفسقة، ومروجى الشائعات، ولا يتورع أحد عن ترديد الإفك، ومضغ أعراض الناس، فى الوقت الذى أهاننى فيه أمام أهل الرأى، وعلم الجميع بخصومتى معه أراكِ تمشين بجوار عربة السجن غير عابئة بما يقذفه الفاسقون.

أخذ يصرخ، وهو يقلب كفيه، ويقطع الغرفة جيئة، وذهاباً.
قالت أروى هامسة:
أبى إنه ...
قاطعها صارخاً:
إنه لا شىء، ألم أخبرك بأن خطبته لك قد انفضّت ؟ أم أنك ستدوسين كلامى ؟
أنا لا أفعل شيئاً كهذا، لكنه برىء.
هذا لا يعنينى، ولا يعنيك أنتِ أيضاً.
دلفت علياء إلى الغرفة مذعورة من صوت عراكه معها، تركت أروى نفسها للصمت والبكاء، فأسرعت علياء، واحتضنتها، وتابع محمد بذات النبرة الغاضبة :
عقليها إذاً، لقد نفذ صبرى، وسأزوجها لأول خاطب لها وهم كُثر.
خرج، وأغلق الباب خلفه بعنف، اجتاز حديقة المنزل لا يلوى على شيء، فتح البوابة الخارجية بالعنف، والسخط نفسه، فوجد إبراهيم أمامه، فتبسم الأخير، وقال:
صديقى الحبيب قد أتيت طامعاً فى لقائك.
أهلا بك يا أبا محمود، تفضل.
لا، لن أؤخرك عن عمل خرجت له، نتحدث فى وقت لاحق.
لا عليك، ما دمت قد أتيت بنفسك فالأمر مهم.
لن أُطيل عليك، قد أتيت فى طلب كريمتكم لولدى محمود، هذا إذا فُسخت خطبتها من قيس بعد ما كان منه.
تفاجأ محمد لطلبه، ووافق ذلك هواه، فأسرَّ فى نفسه فرحة به.
يشرفنى، ولكن ...
قاطعه ابراهيم، قائلاً :

أعرف الظروف التى تمر بها مدينتنا، لنتحدث بشكل مطول بعد الجنازة.

انصرف إبراهيم يحك عارضيه، بينما انفرج عن محمد ضيق صدره، فعاد إلى المنزل بغير الوجه الذى غادر به.

***

باشرت الحانة نشاطها على استحياء، فلم تشهد صخبها المعهود، أصدر سعد تعليماته إلى الخدم بصوت خفيض، وكان أكثر الناس التزاماً بظروف الحداد التى تمر بها المدينة، ثم انخلع قلبه عندما انفتح باب الحانة، ورأى قاسماً يتوسط اثنين من الجنود، فأسرع بحركة لا إرادية واختبأ أسفل طاولته، تُرى ما جاء به إلي، استجمع نفسه، ونهض متبسماً، مشى إلى قاسم مُطَأطِيء الرأس، وحانى الظهر، وتساءل بصوت خفيض:

سيدى القائد قاسم، بمَ تأمرنى ؟

متى كانت آخر مرة رأيت فيها قيساً، وعدياً معاً ؟

أمس.

هل تشاجرا ؟

أجل.

أبْلِغ كل من شهد الواقعة، وتعال بهم إلى خيمة الإمارة.

هز سعد رأسه بتوتر، وقال فى خضوع:

أمرك ... أمرك.

خرج قاسم، فزفر سعد بقوة، وقلبه لم يتوقف عن الخفقان.

***

كان يتحسس أنفه، ويتأكد من توقف نزيفه، راح يردد اللعنات، ويطلق التهديدات دون توقف، سأجعلك تعرف من أنا، سترى عاقبة من يتحدانى، سأخذها لى، سألتهم قلبك بالتهامها، الصبر الصبر، سترى كيف تتجرأ على

سليل الدماء المقدسة، استنشق بصعوبة، ثم نهض عندما رأى أباه يقف عند الباب ينظر إليه متعجباً.

ما بك تحدث نفسك؟

ضربنى الكلب قبل ذهابه إلى السجن.

تبسم إبراهيم، ثم جلس، وقال وهو يصب لنفسه كأساً:

لم تعد بحاجة لتحديه، قد خطبتها لك.

لم يصدق محمود ما سمع، اتسعت عيناه، وانفرجت شفتاه بابتسامة عريضة، ودنى بمقعده نحو أبيه، وقال:

هل عدلت عن خطة اختطافها ؟

لا

تراجع بظهره إلى الوراء متسائلاً :

كيف سأتزوجها إذاً ؟

أنت لن تتزوجها، وما ينبغى لك وأنت سليل الدماء المقدسة، وهى من الأغيار، ولكنى أعلم رغبتك بها من غريزة الكلب التى تتطل من عينيك.

حك محمود رأسه، وعينه ثم نظر فى بلادة.

لم أفهم شيئاً.

خطبتها كى لا يشك أحد بصلتنا فيما سيحدث، سأرسلها إلى مكان تجدها فيه جارية فى انتظارك، رتبت كل شىء، وقذفت حجراً سيقع به ألف طائر.

كيف؟

عند اختطافها قد يهرب الطائش، وسيثبت هذا التهمة عليه، وسوف تفقد المدينة صفوة مقاتليها، فيسهل عمل جيشنا حين يأتى.

تنبه محمود إلى خطته، وقال فى ذكاء:

لأن كتيبة العقاب ستخرج لإنقاذها.

اندهش ابراهيم، ونظر إليه متعجباً، وقال:

الله اكبر، الله اكبر، أخيراً.

ضحك محمود فى خجل من نظرة إعجابه.

على رِسْلِك يا أبتِ ستصبح مسلماً.

أفعل إن كان هذا سيجعل لك عقلاً.

ضحكاً، واطمأنّا لما سيأتى.

***

جلس الأمير يستمع إلى شهود الحانة بعناية، انهمك أنس بكتابة أقوالهم، وجلس رباح إلى جواره، كان الأمير قد أمر بدخولهم عليه فرادى، ولم يطلب منهم سوى شىء واحد ليجيبوا عليه "احكى لى ما جرى بينهما "

انتهى صهيب، والزير، ومن ورائهما عمار، وآخرون، ثم دخل سعد وأدلى بشهادته، ثم انصرف، وأغلق أنس محاضر استجوابهم، صمت الأمير لبعض الوقت، ثم قال :

قاسم، رباح، اقتربا.

همس بأذنيهما:

اجعلا سعداً تحت المراقبة.

قال رباح:

هل تشك به يا سيدى؟

لقد حكى الواقعة بتفاصيل لم يذكرها من كانوا على الطاولة نفسها، أى أنه كان يترقب وقوع شجار بينهما، وإلا فكيف تمكن من الإلمام بكل تلك التفاصيل رغم انشغاله، وازدحام حانته.

انصرف رباح، وخرج قاسم إلى رجاله عند الخيمة، أشار الأمير إلى أنس فرفع أدواته، وخرج، تحسس الأمير القلادة داخل كيسها الجلدى، ووضعه إلى جانبه " يريدون توريط ولدى، وقص أحد جناحي" خرجت سلاف، ودنت منه بهدوء، وضعت يدها فوق كتفه برفق، ثم جلست إلى جواره.

هوّن عليك.

من تظنين برأيك أنه ارتكب تلك الجريمة ؟

رفعت كتفها، وقوست شفتيها، ثم قالت :

أعداؤنا كُثر.

نظر إلى عينيها للحظات، ثم زم شفتيه، وأوما برأسه موافقاً، صرف بصره عنها، وقال :

صدقتى إنهم كُثر .

نظرت إلى الكيس الجلدى بينهما، ثم تساءلت، وهى تمد يدها إليه:

ما هذا؟

سحبه، وقبضه قبل أن تلمسه، ثم قال " ليس مهماً " ونهض، تساءلت سلاف :

إلى أين ؟

لن أتأخر .

***

عليك أن تفكر فى عقوبة قتلك الأبرياء، ليس عدياً مَن يجب أن تخاف منه، هناك آخر، كان يمكن أن تكون أكثر صبراً لأجلى، أنت رجل أعمى الغرور عينيه، قُتل عدى، أنت متهم بقتله، قتله بفعل الساقطة.

أسند رأسه المثقل بالضجيج إلى الحائط المقابل لباب الزنزانة، أغمض عينيه محاولاً الإسترخاء دون جدوى، أحس بارتباك الحرس فى الممر خارج الزنزانة، ثم هدأ اضطرابهم، سمع بعدها صوت خطوات تمشى بتؤدة نحوه، ونهض عند رؤية القادم يقف أمام باب الزنزانة، وأحد الجنود يُسرع بفتحه:

أبى ؟!.

مشى الأمير إليه، ثم وقف أمامه، ونظر إليه فى صمت أربكه، وبعث الإضطراب فى قلبه، تطلع إلى عينى الأمير الخاليتين من أى تعبير.

لم أفعل هذا يا أبتِ، إنى برىء.

صرف الأمير بصره عنه إلى أرجاء المكان، أردف قيس:

سيدى قل شيئاً، ألا تصدقنى ؟

نظر الأمير إلى السلاسل فى يده، وصرف بصره عنها مسرعاً، وقال:

سنرى.

هل يُعْقل أن أسفك دماً بريئاً ؟

أجابه الأمير بنبرة جافية :

ألم تشرع فى هذا من قبل ؟

لمعت عينا قيس بدمع كافح فى كبته، وأجاب بصوت مختنق:

أقسم إن تصديقك هذا أشد علي من الإعدام ظلماً، لقد أوقعونى فى الفخ.

مَنْ ؟

أطرق رأسه، وقد أعياه السؤال، وهمس قائلاً :

لا أعلم.

ظل رباح يقلب بصره بينهما، وتسلل لقلبه بعض الإرتياح لحياد الأمير، وانكسار قيس، مدّ الأمير يده المقبوضة أسفل ذقن قيس، وقال بهدوء :

انظر إلى .

رفع رأسه، فرأى القلادة فى يده، فتساءل:

ما هذا؟

تدخل رباح :

وكأنك لا تعلم ف ...

ششششش.

ابتلع رباح كلماته لنهى الأمير له، وتراجع خطوة، وقال:

العفو يا سيدى.

أعاد الأمير القلادة، وقال:

سنرى يا قيس، سنرى.

***

لم تحسن الوسادة احتواءها، ظلت تتقلب ذات اليمين، وذات الشمال، ثم استقرت عيناها شاردة إلى السقف، أحست بخطواته الهادئة تقترب من باب غرفتها، فأغمضت عينيها.

فتح الباب برفق، وقال بصوت خفيض " أروى " اقترب من رأسها، ورنا إليها بعين حانية " نامت أخيراً " شد غطاءها عليها، وقبَّل جبينها، وخرج.

سمع صوت استئذان الحارس فى حديقة المنزل.

سيدى محمد، الأمير يدعوك للقائه.

مشى إلى غرفته، فوجد علياء زوجته تغط فى ثبات، تلحف عباءته، وخرج بهدوء، تُرى ماذا حدث ليدعونى إليه فى هذا الوقت، مرَّ على الحرس عند باب بيته، وشدد عليهم تعليماته.

انتبهوا جيداً، لن ينام أحد الليلة، الخطر مُحْدِق.

***

تسلل القلق إلى قلوب الحاضرين، التزموا الصمت، وتبادلوا نظرات حائرة، دلف محمد إلى الخيمة، ورأى تطلعهم إليه، وكأنهم كانوا فى انتظاره، جلس بعد أن بادله البيرونى، ويحى التحية، ثم نهض ثلاثتهم لدخول الأمير.

هذا ما وجدنا فى مكان الجريمة.

رفع الأمير قبضته، فتدلت منها القلادة أمام أعينهم، ارتجف محمد، وجحظت عيناه عندما رأى النقش فوقها، ازدرد ريقه، وتسارعت أنفاسه، تطلع كل منهم إلى الآخر فى اندهاش، ومن خلف الستار تآكلت سلاف كى تتبين معالم القلادة، وقد حجبها انعكاس ضوء المشاعل على عينيها " تُرى ماذا وجدتَ أيها الثعلب، ولم تخبرنى به؟ " دققت، ولم تنجح، فاكتفت بالتنصت، قال البيرونى:

لقد اقتربوا بسرعة لم أتوقعها.

أجابه الأمير وهو يعيد جمع القلادة إلى قبضته:

إنها الأنفاس النتنة نفسها التى سبقت سقوط قداسة، يجب حل الأمر بسرعة.

قال يحى:

الخيانة ذاتها.

لم يتكلم محمد ظل يتابع حديثهم بتوتر، زمت سلاف شفتيها، وقالت مغتاظة:

اللعنة حتى حديثهم غداً همساً.

ثم انسحبت إلى جناح استراحتها.

***

تململ الحرس عند باب محمد الصراف، واستبطأوا عودته، ولم يستطيعوا الإسترخاء خيفة أن يفاجأهم، وهم متراخون عن الحراسة، قال أحدهم:

نحن أربعة فلا بأس إن نام اثنان، وبقى اثنان، لا أفهم لماذا يصر على وجودنا معاً ؟

وبينما يتبادلون تزمرهم انتبهوا لقادم لا تستبين ملامحه، ويشدّ عباءته على رأسه، فتقدم أحدهم إليه :

من أنت ؟

ابحث عن منزل الامير محمد .

وماذا ...

ارتجف الحارس لصوت الخناجر تصطك بنحور أصحابه من خلفه بعد أن كتم المغتالون أفواههم، ثم عاجله فلاديمير من صدمته، واقتص حنجرته، وجرَّه مع أصحابه إلى داخل المنزل، وأغلق الباب، جعل فلاديمير ثلاثة من رجاله فى الحديقة، وتسلل اثنان معه إلى الأعلى، انتبهت أروى لدبيب

خطواتهم المسرعة فوق الدرج، فأسرعت إلى الباب فوجدته فى وجهها، صرخت مفزوعة، وتراجعت إلى الداخل.

من أنت ؟ وماذا تريد ؟

ستأتين معى دون أن اضطر إلى أذيتك.

أسرعت، واستلت خنجراً بيد مرتجفة، فتبسم فلاديمير، وتقدم غير مبالٍ بتهديدها الكاذب، سددت ضربة واهية، صدها وأسقط خنجرها، صرخت مستغيثة، فصفعها ثم ضرب كفه فى شعرها، وقبضه وجرّها خلفه، ظلت تصرخ حتى رأت أمها بين يدى الرجلين الآخرين.

أماه ؟ قال فلاديمير مهدداً:

إن أصدرتِ صوتاً، فسأقتلها أمام عينيكِ، امشى معى.

طاوعته، ونزل فلاديمير بها، وعلياء لا تكف عن الصراخ باسمها، واسم الحرس، ومحمد، ثم أسكتها أحدهم بضربة خلف رأسها، وانصرف.

قصد فلاديمير الأبواب الغربية للمدينة، فوجد الحرس المناوبين فى نصف وعيهم، فقتلهم دون عناء، وخرج.

استفاقت علياء متألمة للضربة خلف رأسها، مضت ثوان، واستجمعت ما كان، فهرولت إلى الأسفل ملهوفة تنادى :

أروى .... أروى، ثم صرخت فى فزع عندما رأت جثث الحرس غارقة فى الدماء، مرقت من الباب، وكان مفتوحاً على مصراعيه، وولولت، فاستيقظت المدينة على صوت استغاثتها، وتوافدوا نحوها، أسرع بعضهم إلى خيمة الأمير، وكان اجتماعه لا زال قائماً، دخل قاسم واعتذر عن دخوله، ومقاطعة حديثهم، أدرك الأمير توتره، وتساءل :

ما الخطب؟

نظر قاسم إلى محمد ، ثم قال:

لقد اختطفوا الأديبة يا سيدى.

ارتجف محمد، ونهض مذعوراً، فكر الأمير للحظة، وقال:

استدعوا إليّ رباحاً فوراً.

استأذن محمد بالانصراف، وخرج، وأشار الأمير إلى أنس أن يدنو، همس بأذنه، فهز الأخير رأسه متفهماً، وانصرف مسرعاً.

***

انبعث بقلبه قلق جهل مصدره، قعقع سلاسله فى بعضها، ونفخ، ثم صاح :

أيها الحارس، يا حارس السجن.

أسرع إليه الجندى المناوب، فسأله:

أين قائدك الأحمق ؟ قل له يأتى إلي .

لقد خرج القائد رباح منذ قليل لاستدعاء الأمير له.

هل حدث شىء ؟

لا ، جاء أحد حرس الخيمة، وذهب القائد معه.

ضرب قيس على صدره، وقال:

فما بال هذا لا يستكين إذاً ؟ لماذا يخفق بهذا الجنون ؟! يكاد يفارق أضلاعى.

وما لبث حتى تعالت صيحات، وضجيج خارج السجن لكنه لم يتبين شيئاً، قال للحارس:

اذهب وانظر.

دنى من نافذة الزنزانة قدر استطاعته، وحاول أن يتبين ما يجري، تسلل إلى مسامعه كلمات متفرقة :

اختطفوها ... الأديبة.

خفق قلبه، وغمغم " كنت أشعر.... كنت أشعر"، ثم صاح:

أيها الجندى، يا حُرّاس.

لم يجبه أحد، راح يصارع السلاسل، والأساور فى يديه، جاء الحارس إليه مرتبكاً، والتقط أنفاسه، وأخبره:

لقد اخْتُطِفت الأديبة أروى.

افتح هذا الباب بسرعة.

حملق الحارس مندهشاً لطلبه، فصرخ قيس :

افتح هذا الباب فوراً.

هزّ الحارس رأسه معترضاً، فانقض عليه، وقبض تلابيبه، واجتذبه إليه، والصقه بباب الزنزانة، حاول الجندى التملص، ولم يفلح.

افتح الباب، وإلا قتلتك.

المفتاح ليس معى إنه فى غرفة القائد رباح.

أرخى قيس يده عنه، فتراجع الجندى، وصاح محذراً زملائه:

السجين يحاول الفرار .... السجين يحاول الفراااار.

اجتمع لندائه ثلاثة من الحرس، وجردوا سيوفهم، فزمجر قيس مهدداً:

الويل لكم جميعاً إن لم تطيعوا أمرى.

لم يجبه الحرس، ثم تفرقوا عنه عندما دلف صهيب، ومن معه إلى الممر، وتقاتلوا مع الحرس وأسروهم جميعاً، استبشر قيس، وقال:

أحسنتم يا إخوتى.

أذهب أيها الزير إلى غرفة رباح، وأحضر المفاتيح.

أسرع صهيب، ومعه عمرو، وقيدوا الجنود، جلب الزير المفاتيح، وتخلص قيس من قيوده، وعند خروجه لمح سيفه فى غرفة رباح، فدخل لأخذه، ثم سمع صوت رباح يصرخ فيمن معه للتجهز كى يخرجوا لمطاردة الخاطفين، فانزوى قيس ومن معه خلف باب الغرفة، تفاجأ رباح بباب الممر مفتوحاً، ورأي رجاله فى وثاقهم عند زنزانة قيس، جرد سيفه، وأسرع إليهم، تسلل قيس من خلفه وأغلقوا الباب الخارجى عليه، جندل عمرو وصهيب

الحارسين عند الباب، وأفقدوهما الوعى، وهرب من أمامهما ثالث، انتبه رباح إليهم، أسرع ليمنعهم، وأدركهم قبل أن يُحكم الزير إغلاق الباب، فمدّ قيس يده من بين قوائم الحديد، واجتذب رباحاً إلى الباب، ولكمه فى أنفه فتكوم على الأرض، وأكمل الزيرعمله، ثم نزلوا الدرج الحديدى، وشدوا وثاق الحارسين أسفل الدرج، وتركوا رباحاً يزمجر، ويتوعد، والدم ينهمر من أنفه "سأقتلك يا قيس، سأقتلكم جمييييييعاً ".

***

جلست علياء تندب، وتصرخ، ولم تفلح محاولة الأهالى فى تهدأتها.

اختطفوا ابنتى، انتزعوا ريحانتى، أين أنت يا محمد، أين أنت ؟

وصل محمد، واحتضنها، وهى لا تكف عن العويل:

افعل شيئاً أرجوك، لا تدعها معهم.

انتبها لمجموعة من الفرسان توقفوا عند بابهم، وترجل أحدهم، ودلف إليهم، رمقه محمد، وانقض على تلابيبه صارخاً :

ماذا تفعل هنا ؟ إن كان لك صلة بهذا الأمر، فلسوف أفتك بك، ولن أرعى خاطراً لأحد.

قالت علياء بصوت مبحوح:

دعه يا محمد ليس هذا وقته، أرجوووك.

قال قيس:

سأعيدها لكِ يا أماه، أعدك ولكن قصى على ما جرى فى عُجالة.

وقفت علياء، وأوجزت له ما حدث، أسرع إلى الخارج، وامتطى جواده، وقبل تحركه هرولت إليه، ونادته وهى تمد يدها بحجابٍ حريرى:

لقد أخذوها سافرة يا أمير.

جزّ قيس أسنانه غيظاً، وانحى وأخذ حجاب أروى من يدها، وتنهد حرقته وهو يلفه حول معصمه.

سأعيدها لك يا أماه، ثم انطلق ينتهب الأرض تحت سنابك خيله.

***

كان الأمير يقف خارج الخيمة، ومن حوله الحرس فى انتظار أوامره، وصل إليه حارس السجن الذى فرَّ من قيس وصحبته.

لقد هرب قيس من محبسه يا سيدى.

ماذا ؟

هرب يا سيدى.

صمت الأمير والعيون تتطلع إليه، أسر فى نفسه " أحسن الطائش، ليس لها غيره "

وصل قيس البوابة، فوجد القتلى، فتجاوزهم دون التفات إلى خارج المدينة، ثم توقف ليحدد وجهته، والتفت إلى صهيب، وقال:

ما كنت أتوقع تصرفكم بهذه السرعة، أحسنتم.

تبسم صهيب والمقاتلون، ثم قال :

إنها خطة الأمير، أرسل أنساً يأمرنا بتهريبك، وقد استدعا رباحاً إليه لكى يسهل عملنا.

تهللت أسارير قيس فرحاً، هذا يعنى أن الأمير لا يشك فى براءته، ثم صاح: فداه نفسى والله .

الفصل الحادى عشر

كتمت المدينة أنفاسها، وتقوقعت كل أسرة على خوفها، وتلفحت ثوب الحداد، مُحارب قتل فى المسجد، وابنة أمير اختطفت من عقر دارها، أشباح تتسلل وتتخطف ما تشاء من أرواح أبنائها، شعر كثيرون بالوهن، وتواطأ صمتهم، ونظراتهم على أنهم قليل مستضعفون يخافون أن يتخطفهم الناس.

كان راكعاً أمام خيمته على ركبة ساق وقدم الأخرى، وبيده سهم يخطط الأرض به، رسم حدود المدينة، ووضع نقاط حراستها، وبدأ التخطيط لمعركة لم يشعرغيره بدنوها، يسمع فحيح أنفاسهم، ويستشعر حرَّها حول رقبته، الطريقة نفسها، عمليات قتل غادرة، تفريق الصف، فوضى، خيانة، ثم مباغتة وانتهى الأمر. " بقى أن يقتلونى غيلة ليأتى من يصرخ فى الناس بأن الظلاميين قد اقتحموا المدينة، سنرى يا خنازير الإنس، وقردتها، لأذيقنكم من العذاب أضعاف ما أذقتموه لنا، تعالوا بغبار مدينتى الذى دنستموه، تعال جودفرى بثأر السنين الخالية، تعال واجلب علي بخيلك، ورجلك، فالسوف أطحنكم جميعاً بأسنانى" اختلس قاسم النظر إليه، وشعر بتوتر من نظرته واجماً إلى الأرض، وشروده، انتبه الأمير لخبب جواد ترجل صاحبه، واستأذن بمحادثته.

سيدى الأمير، الشيخ حاتم والد عدى يطلب لقاءكم على عجل.

نهض الأمير، وطمس بقدمه ما كان يخطط له.

هل هو بخير؟

طأطأ الجندى رأسه، وقال بحزن:

أظنه يحتضر.

أسرع إليه، فتبسم حاتم عند دخوله، دنى الأمير، وقبّل رأسه.

لا بأس عليك يا أخى.

ازدرد يحى ريقه، وأجابه بصوت ضعيف:

أعرف أنّ قيساً لم يقتل ولدى، لقد انتزع الظلاميون قلبى.

لأثأرن له، أعدك بشرفى.

حزين لأنى لن أكمل الطريق معك.

أشار إلى الخادم خلف الأمير، فدنى ومعه قارورة زجاجية شفافة، وأردف حاتم:

لقد ملأتها بتراب قداسة يوم فراقها، لقد كانت هذه وطنى طوال تلك السنين، احفظها عندك يا سيدى حتى يأتى اليوم الذى تعيد ترابها لأصله.

تشبث الأمير بيده، وخفق قلبه، وتسارعت أنفاسه وتعالت، ثم استعبر وقد أسلم صديقه الروح.

***

" أحب المعارك التى لا يتمكن فيها عدوى من حمل سلاحه، أحب مباغتته وسحق رأسه نائماً، أو غارقاً فى فضاء الوهم، ولكنّ أرضاً بها رجل كاللعين معاوية لن ترى فيها عيناً غافلة إلا وأسرع بإشعال اليقظة فيها، هذا واقع يجب الإقرار به " استمع محمود، والجالس إلى جواره الكلمات فى عناية، وانصات، ثم تساءل:

ما هى الخطوة التالية؟

سنسعى إلى إخراج مقاتلى العقاب من المدينة قبل وصول جيشنا، وفى الوقت نفسه سنضرب فى أماكن متفرقة حتى يتشوش تفكير معاوية، ويقف عاجزاً لا يدرى ما يصنع، والطوفان يَدْهَمه.

هز ثالثهم رأسه وقال فى حماس:

هل يقع على عاتقي شيء يا سيدى ؟

أنت يا جسور أحد أهم قادة الجيش، كما أنك ممن يثق الأمير برأيهم، ستخبرنا بكل ما يخطط له، بفضلك سنظل نسبقه خطوة فى كل شىء يقدم عليها، ولكن هذه المرة الأخيرة التى سنلتقى بها قبل انتهاء الحرب.

كيف سنتواصل إذاً ؟

عن طريق سعد، أو نديم تاجر الغلال فى السوق إذا كان هناك شىء طارىء تريد إطلاعى عليه، أما فيما يتعلق بأمور الحرب، فسيكون اتصالك مباشراً مع القائد جودفرى عن طريق الحمام الزاجل.

حسناً كما تأمر.

نهض جسور، وهم بالإنصراف، فاستوقفه إبراهيم وكأنه التقط الخاطرة فجأة :

صحيح، تواترت الأخبار عن اختفاء معاوية فى مكان ما خارج المدينة، يذهب منفرداً بين الحين والاخر، حاول أن تتوصل إلى ما يخفيه.

خرج جسور بعد تأكده من خلو المكان من العيون، تثاءب محمود، وقال:

هل تسمح لى يا أبى ؟

علمتُ أن جمال الدين ينوى الإنشقاق عن معاوية، وقد جمع حوله العديد من الحمقى أمثاله، اذهب الآن واسترح، وليكن أول عمل تقوم به غداً هو أن ترتب للقاء به.

حسناً.

***

فتح سدة القارورة، وقرب فوهتها لأنفه، واستنشق ترابها، ولامسه برفق، فغالبه الشوق والشجا، فبكى وبكى حتى علا صوته، أحس باقتراب سلاف من جانبه، كانت تنظر إليه مستعجبة لحاله وهو من هو، لم تره هكذا من قبل، فأشار نحوها دون أن ينظر إليها، وقال بلهجة آمرة :

ارجعى حيث كنتِ، لا تقتربى منى، ارجعى.

ارتجفت، وحملقت عينيها، ثم همست :

سيدى إننى ....

لو سمحتى .

لم تجازف بالمكوث أكثر، فانسحبت إلى جناحها. أغلق القارورة، وهمس:

الويل لكِ إن صدق ظنى، لن أرحمك يا سلاف.

خطر له أن يواجهها بما يشك به، وبأمر حبة الخرز التى وجدها فى مكان الجريمة، فنهض ومشى إليها، كانت تنظر نفسها فى المرآة عندما رأته يقف خلفها، فاستدارت وتساءلت بعينيها عن ما يريد قوله، ولمحت يده مقبوضة على شيء ما، لكنه تراجع دون أن ينبس، وهم بالخروج، فنادته :

سيدى، أنت بخير، هل حدث خطب ؟

صمت للحظات، كانت عينه لا تزال ندية بالدمع، تنظر إليها، وكأنها تسبر أغوار قلبها، دنى منها، ولامس خصلة من شعرها تنساب إلى وجنتها، ثم همس :

سأكون بخير .

***

اكتمل القمر فى كبد السماء، وبدا كقطعة من الماس تتوسط وشاحاً حريرياً ترصعه ومضات النجوم المتفرقة من حوله، لولا اغتمام النفوس لما منع البرد القارس عيون الناس من التطلع إليه. شق فلاديمير طريقه إلى مكان تسليم الأسيرة، ساعده نور البدر على التحرك بخفة، وسرعة، ووصل عند صخرة عملاقة تتوسط مفترق الطرق، كانت وكأنها مارد متجبر يفرض سطوته على الأنحاء من حوله، انقسم الخاطفون إلى فريقين حتى يصعب تعقبهم، وللتضليل إن كان قد خرج أحد وراءهم. أدارت أروى عينيها فى الأنحاء، وقد أطبق اليأس عليها من الجهات الأربعة، أبوها لم يعرف، وأمها فقدت

وعيها، والمدينة فى ثبات عميق، ومن تثق بأن يهب لنجدتها يصارع وحدته، وسلاسله فى غياهب السجن، ينتظر مصيراً مجهولاً.

***

لم تستطع النوم كحال أهل المدينة كلهم، تقلبت فى فراشها، ثم نهضت ومشت إلى غرفة نزار، فوجدته مستيقظاً، وعينه شاردة إلى ما تبدَّى من السماء عند نافذته.

ماذا يقلقك يا بنى؟

اعتدل لرؤيتها، وتنهد ثم قال:

ارتكبت خطأ فادحاً يا أماه.

دبَّ القلق بقلبها، فتساءلت:

فى حق من ؟

الأمير.

ويلى، ماذا فعلت ؟

لم أرع معروفه، وقابلته إحسانه بالسوء، وشاركت فى التحريض عليه .

خدعك ذلك السمج .

أجل، ولكننى سأوقعه فى مكره، وسأرد للأمير فضله علينا بما سأقدمه.

ابتلعت حنين ريقها، واضطرب قلبها :

أنت لا شأن لك بتلك الأمور، خير ما يمكنك فعله هو تجنبهم.

لم يرغب فى جدالها، فصمت موافقاً، غير أنها شعرت بتصميمه، فأسرت فى نفسها رفع أمره إلى الأمير.

***

قطع الليل ركضاً خلف آثار الخاطفين، كان فى ذروة يقظته، ولم تمنعه السرعة التى ينطلق بها عن الدقة فى تقفى الأثر، ساعده على ذلك اكتمال القمر، يباغت خاطره صورتها بجانبه، وإهانتها بين الحشود، وبكاؤها فى صمت،

يخنق أعماقه تصورها لحظة اختطافها، وهذا الحجاب الحريرى حول معصمه يرسم ألف صورة يفضل الموت على أن يرى أيا منها، تُرى ما حيلة اليمامة البيضاء بين مخالب السفلة وأنيابهم، اعترض طريقه الصخرة عند مفترق الطرق، كانت أنفاس الصبح قد انتشرت، وانمحت خيوط الظلام، أشار لمن معه فتوقفوا، وترجل عن جواده، وأمعن النظر فى الأرض ويده تلامس آثار حوافر حديثة، لاحظ تفرقهم، وانقسامهم بين الطريقين، نهض ونفض يده، وقال متهكماً " يريد خداعنا ابن الخبيثة " ترجل الزير، ونظر إلى ما نظر قيس وقال:

أرى أن نسلك الطريق المتفرع إلى الشمال فآثار الخيل أكثر من تلك الجهة.

صمت قيس، ثم قال معترضاً:

لا بل هذا الاتجاه، فهناك آثار لجواد أكثر عمقاً فى الأرض.

قال صهيب :

هذا صحيح.

فهم الزير مقصده، فهز رأسه متفهماً، ثم أردف:

أه نعم نعم، أنت محق، تقصد أن أحدهم قد حملها على جواده؟

نفخ قيس، وهز رأسه، والأسى على وجهه، فكرر الزير:

هذا منطقى الآثار عميقة، لقد حملها معه، أردفها معه، حمل...

فصاح قيس به :

فهمت فهمت، كفى لا تكررها .

***

خرجت المدينة لتشييع عدى ووالده، يتقدمهم الأمير وأهل الرأى، تجهز إبراهيم لتأدية واجب العزاء، وقبل خروجه طرق الباب بطريقة يعرفها. أسرع، وأدخل الزائر، أخرج رأسه من الباب، وتلفت إلى اليمين، وإلى اليسار، ثم أغلقه.

لماذا فعلتِ هذا يا أختاه ؟ قلت لك ألف مرة لا أقبل بتعريض حياتك للخطر.

لو لم أتدخل لتغلب عدى على رجلك الأحمق.

لماذا أتيت ؟

لدى الأميرَ ما يخفيه، وقد وجد بعض الأدلة فى مكان الجريمة.

ألم تتمكنى من معرفة ما لديه؟

لا، هو لا يبوح لى، ولكن هناك شىء معدنى، وأظنه وجد خرزة عباءتى التى سقطت عندما تشبث الأحمق بى وأنا أطعنه.

حملق إبراهيم عينينه الخضراوين:

ويلى يا سلاف.

لا تقلق لقد تخلصت منها فى اليوم نفسه.

مسح وجهه بيده، ثم قال :

ماذا لو كان يشك بكِ ؟

لا أظن، والآن سأذهب قبل أن تنفض الجنازة، ويعود ولا يجدنى.

***

خرج إبراهيم مسرعاً، وشهد الدفن باكياً منتحباً، انتهى الأمير من دعائه، وأشار إلى عمر، فاقترب.

خذ كتيبة العقاب، وأدرك أخاك ومن معه، وتولى أمر إنقاذ الأديبة.

أمرك يا سيدى.

سمع إبراهيم، وكاد قلبه يطيش فرحاً لخروج كتيبة العقاب، لمعت عينيه وهمس بنفسه :

الآن التهمك، ولا يُشاك لى شفة.

لاحظ الأمير انبساط وجهه، فتنبه إبراهيم وعاد للبكاء، وعلا صوته بالذكر والقرآن.

وقف فلاديمير فى سهل منبسط لإراحة الخيل، ثم أمر بشد وثاق أروى إلى إحدى الأشجار، وانضم إليه رجاله الذين تفرقوا عنه عند مفترق الطرق، ومعهم بعض الطرائد، يتقدمهم جونسون وكان رجلاً فى الثلاثين، واسع العينين مع صغر حدقتهما، له شعر أحمر اللون يشق خده الأيسر آثار جرح قديم، ويستقر رأسه الضخم فوق لـُغْد منتفخ، تقدم إلى فلاديمير، وترجل عن جواده، ثم تساءل:

هل هذا مكان لقائنا بالقائد سانتوس.

أجابه فلاديمير فى ضيق:

لا.

أين إذاً ؟

لا تنشغل بما لا يعنيك، اذهب وساعد الباقين.

أسر جونسون فى نفسه حقداً عليه، وأطاعه مكرهاً. ذهب إلى أحد الرجال، وكان يقوم بتجهيز الطعام، وهمس به:

لم يجد حكيمنا غير هذا الخصى لقيادتنا، أكاد أُجن.

تلفت الرجل حوله، وقال بنبرة حذرة:

اخفض صوتك يا جونسون لا تهلكنا معك .

ضحك، ونظر الى أروى عند الشجرة وقال:

هل علمت لمن نحمل تلك الجميلة ؟

أعاد الرجل تلفته، وقال متبرىء:

لا شأن لى، وأستطيع إنهاء الأمر بمفردى، اذهب وساعدهم فى جمع الحطب.

قهقه جونسون، وضرب على كتفه " جبان ". ، ثم انصرف.

ظلت أروى ترمقهم فى مقت، وقد حلّقوا حول الطعام ينهشونه بنهم، ووحشية، بينما كان الجندى المكلف بحراستهم يرميهم بنظرات حاقدة لعدم

مشاركتهم الطعام بعد أن أمره فلاديمير بمراقبة الطريق، لعق جونسون أصابعه، وهو ينظر تجاه أروى، ثم قال بمكر:

ألن يكون لهذا الطعام اللذيذ تحلية يا فلاديمير ؟

انفجر الجميع بالضحك عدا أروى التى تابعت حديثه عن بُعد فتسلل إحساس الخطر إليها، وفلاديمير الذى قطب حاجبيه وأشار إليهم بسبابته آمراً :

لن يقترب أحد منها، إنها تخص كبير الحكماء فى هذه البلاد.

سكت الجميع على مضض، وقال جونسون :

وما المانع ؟! سنتركها لمن أرادها بعد ذلك، فلن تنقص ساقاً، ولا ذراعاً.

لم يجبه فلاديمير، وتناول كل منهم ما تبقى من طعامه فى صمت، وبعد انتهاء الطعام شرعوا يسرجون خيولهم لمتابعة المسير، استغل جونسون انشغالهم، واقترب منها يحك عارضه، وأسفل ذقنه، قلّب فيها عينيه بوقاحة، ثم قال بصوت أجش:

يقولون إنك محظية كبير الحكماء، ما اسمك ؟

صرفت بصرها عنه مشمئزة من قبح منظره، ووقاحة نظراته. تبسم حتى بدت صفرة أسنانه، ثم قال وهو يطالع ووجهها، ويلامس ذوائب شعرها:

ما المانع من أن يكون لى مع الحكماء نصيب ؟ ها ؟ ألم أخاطر باختطافك ؟

ابتعد عنى .

هل سبق لك وأن ......

اتفووووووو .

ألجمه لعابها، وقد اندفع فى فمه، فاشتعل غضبه، وسعل وبصق عدة مرات، ثم أطبق كفه على وجنتيها، ولوثهما بآثار الطعام.

أيتها اللعينة، أنتِ أشرس مما تبدين عليه.

ثم لمع فى عينيه جزء من القلادة حول جيدها، فمدَّ يده، وانتزعها، وتلفت حوله وأسرها فى سرواله، ثم دوت على وجهه صفعة فلاديمير، وهو يصرخ به :

أيها الأحمق، سوف تبطل عملنا كله.

غضب جونسون، وتقاتل معه، تبادلا اللكمات، والصفعات، ثم فض اشتباكهما الحارس يهرول نحوهما محذراً " هناك من يتعقبنا " أمر فلاديمير بإخلاء المكان، وأسرع جونسون وأسرج جواده، وهو يغمغم غيظاً "الآن عرفت لماذا أمّروا علينا ذلك الكلب الخصى"

وصل قيس فوجد المكان خالياً. تفقده ودنى من أثافى النار، ولامس رمادها بحذر ثم قال:

لم يبتعدوا كثيراً، يجب أن نسرع. وبينما يهم بامتطاء جواده انتبه لشىء يلمع عند الشجرة المواجهة للموقد، دنى فوجد قفل القلادة التى أهداها لها قد انفلت عند انتزاعها منها، فالتقطه، وسأله صهيب :

هل نفترق ؟

لا، سنظل معاً، إنهم يفوقوننا عدداً.

وصل فلاديمير إلى مكان اللقاء، فوجد القائد سانتوس فى انتظارهم، ومعه مقاتلوه. كان فارع القامة يميل جسده إلى السمنة، ذا بشرة سمراء، وشعر أسود مجعد خشن، ولحية كثيفة، ويجرون خلفهم مجموعة أخرى من الأسرى معصوبة عيونهم. ترجل فلاديمير، ومن معه، وانحنوا له، ثم سلمه رسالة مختومة بالشمع الأحمر، فقرأها، وأومأ برأسه متفهماً لما جاء فيها، ثم قال:

أين الفتاة ؟

أمر فلاديمير من معه، فقدموها له. أشار سانتوس لجنوده فعصبوا عينيها، وزجُّوها مع الأسرى داخل عربات ذات أقفاص حديدية، صاح سانتوس:

هيا سنتحرك .

قال جونسون:

إذا سمحت يا سيدى، فليبقَ منا من يعيق الذين يتعقبوننا.

تساءل سانتوس مستعجباً:

وهل تبعكم أحد؟

أجل، وإنهم قريبون جداً من هنا.

فكر سانتوس، ثم قال:

حسناً فلتبق أنت يا فلاديمير للقضاء عليهم، ثم الحق بنا وأنت يا جونسون تعال معى .

رمق فلاديمير جونسون فى غيظ، وبادله الأخيرالنظرة نفسها بشىء من الشماتة، وكأنه ورطه، أو فرض رأيه عليه.

ذهب سانتوس، ووصل قيس بعد فترة، فوجد فلاديمير فى انتظاره، تقدم وإلى جانبيه صحبته فيما عدا الزير، فقد أخَّره قيس وجعله من خلفهم. أمر فلاديمير رجاله، فاتخذوا تشكيل القتال، وقال:

أهلا بالعاشق الذليل.

لم يجبه، وظل يبحث بعينيه عنها، فقال فلاديمير:

عليك أن تجتازنى كى تصل إليها.

صاح فلاديمير برجاله، فهاجموا، اشتبك الفريقان، وبدأ القتال شرساً، وتأخر الزير كما أمره قيس " إنهم يفوقوننا عدداً لذا عليك أن تتصيدهم بقوسك، وتقلص الفارق بيننا " راقب فلاديمير القتال، وبدأ الخوف يطرق قلبه لرؤية رجاله يتساقطون. جعل الزير سهامه دعماً، وغطاء لظهور أصحابه، ولما تعادل الفريقان تفقد المقاتلين، ووجد فلاديمير يقف فى موضع المراقبة رمى قوسه و عااااااااااع. وفى اللحظة التى أطاح قيس بغريمه الأخير كان الزير قد اشتبك مع فلاديمير، قاتله ونازله ثم:

أووووووووع.

أدركه قيس، واشتبك مع فلاديمير قبل أن يتمكن من طعنه. تراجع الأخير لركلة قيس له فى صدره، ثم عاود هجومه، ولوح بسيفه بمهارة تصدى لها قيس بأحسن منها، ثم أسقط فلاديمير سيفه صارخاً عندما قطع قيس أنامله، وأغمد سيفه فى قلبه حتى مقبضه، ثم انتزعه وقد بصق روحه. مسح سيفه بثوب القتيل، وأسرع إلى جواده، وانطلق خلف الأثر.

***

قطع سانتوس طريقه بين الأحراش، والسهول ومن خلفه عربات الأسرى محاصرة بالجنود، ومع حلول الظلام وصل إلى شاطىء مهجور، يفصل بينه وبين الغابات ثلاثة ربوات تنحدر كل منها إلى موضع عليه، وصاح بجنوده " سننتظر القبطان لوبيز هنا " فأسرع الجند، وفكوا السلاسل عن أبواب العربات وبدؤوا فى وضع الأسرى فوق الشاطىء. تابع جونسون أمر تنظيمهم، وأمرهم بفك عصاباتهم ليسهل ضبطهم، ورمق أروى، وهى تتحسس العربة للنزول، فانقض نحوها، وجرَّها من شعرها، ورماها بين الأسرى، ثم أشار إلى أحد الجنود، فوضع يدها فى الحلقة الشاغرة مع أسيرة أخرى سوداء عظيمة الجسد حادة الطباع متزمرة، كانت أروى بمثابة قشة فى بطن ناقة، طغت السمينة على نصيبها فى الجلوس، واستنشقت حصتها من الهواء، وأخذت المرأة كل شيء، ووهبتها رئحة تعرقها عند الهدوء، وتقلص أمعائها عند الخوف ... ستموت مختنقة.

***

إذا كانت ابنة أمير قد اختُطِفت من عقر دارها فكيف يأمن عامة الناس، لم يعد أحد في مأمن. ابتلع الجميع مخاوفه في صمت. ظل ساهراً يتأهب لصد العاصفة، تأمل القلادة في يديه في صمت، ثم أرجحها، وأعاد قبضها.

أغمض عينيه، وتنهد بعمق، ودس القلادة تحت نمارق علي مقعده، ثم قام وانتحي إلي جانب الخيمه، وأسبغ الماء على رأسه.
تسلسلت سلاف من خلفه، وهي تحمل إبريقاً، وكأساً، اقتربت ببطيء إلى الوسادة، لكنها تراجعت عندما جاء، وعلى رأسه منشفة بيضاء ناولها لها.
التفت إليها فإذا هي باسمة حانية " أما زلتِ مستيقظة ؟ "
لم أستطع النوم، أشعر أن هناك ما يقلقك، هل هناك خطب ؟
لم يجبها، فتابعت في ضيق صمته، وهو مطرق يلامس أطراف لحيته، ثم استأنفت " قد أحضرت لك بعض الشراب "
سلمتِ
هل أعد لك الطعام ؟ لم تأكل طوال اليوم.
ناولها الكأس، وقال:
لا رغبة لي، ولكن اذهبي، وخذي قسطاً من الراحة.
قام يتلفح عباءته، ويتنكب سيفه، فاستغربت خروجه.
إلي أين في هذا الوقت ؟
لن أتأخر.
قالها، وهو يسحب يده المقبوضة من أسفل الوسادة.
تابعته في احتراق " اللعنة، لا يفوته شيء"
لاحظ عينها العالقة فى يده، فتبسم وانصرف.
***
وقف الجنود كأوتاد الجبال عند مدخل المغارة، كانت الريح تعوى بداخلها كذئب شريد، جلس إبراهيم فى الداخل بين نخبته، ينتظر قدومه فى الموعد المحدد، انتبه الجميع لمقدمه عندما سمعوا تحية الجنود له فى الخارج، ثم دخل متلفحاً بعباءة سوداء تغطيه من رأسه إلى قدميه، تضيق جوانب المغارة عن

جسده الضخم، ويقترب سقفها من رأسه، ركع الجميع أمامه عدا إبراهيم، تبسم، وقال:

أهلا بالقائد جودفرى.

أهلا بك أيها الحكيم.

نهض الجنود بعد إشارته لهم، وتابع:

هل المدينة جاهزة لاستقبالنا؟

أجل، وقد خرجت كتيبة العقاب من المدينة، ومعها عمر ولد معاوية وقائد الجيش، ولكن أخبرنى هل ما تزال بقوتك التى عهدناها، أم أكلتها السنون ؟

تبسم، ومد كفه، فوضع إبراهيم فيها قطعة من النقود، أطبق جودفرى عليها سبابته، وإبهامه حتى تعجنت فى بعضها، ضحك إبراهيم، وطالعه الجنود بعين إجلال، قال جودفرى:

هكذا سأسحق معاوية حين ألقاه، ولكن استمر فى تقليص قوتهم حتى يكتمل جمعنا.

هل هناك سبب لقدومك غير الوقوف على حال المدينة ؟

سأذهب الى الجزيرة الحمراء، ولكن قبلها هناك ما يجب أن أفعله.

***

اجتاز أشجار الداردار فى مدخل الغابة، سلك وديانها، وسهولها، وانتهى عند الربوة الوسطى. تحرز من وجود كمين، فعقل الخيل فى الأشجار، وتقدم مشياً على الأقدام، وصعد الربوة، وانبطح عند قمتها، ثم زحف حتى أطل على الشاطىء، تبين موضع الحرس، ولكنه لم يتبين مكان أروى فى الظلام، قال الزير وكان أحدَّهم بصراً:

هناك أسرى غير الأديبة.

أضاف عمرو:

أنهم تجار عبيد على ما يبدو.

صمت قيس يفكر فى حل، قال صهيب:

أنهم كتيبة كاملة، كيف سنقاتلهم ؟

أجابه عمرو:

وهل نتركهم يأخذونها ؟

انفجر غضب الزير، فتأهب للهجوم، وقال مختنقاً:

نترك من ؟ عااااا....... وكزه قيس

شششششش ماذا ستفعل أيها الاحمق ؟! ستهلكنا، اصمت.

قال الزير بنفس النبرة المختنقة من بين أسنانه الموصدة:

هل نتركها إذاً ؟

بالطبع لا، ولكن لابد من حيلة لإنقاذها.

أشار إليهم، فتراجعوا إلى الوراء زحفاً حتى ابتعدوا عن قمة الربوة.

***

قبل طلوع الفجر زادت شدة الرياح، وبات صفيرها يتردد في الأرجاء الخاوية، هناك علي أبواب المعسكر كانت البيارق ترفرف بجنون فوق السواري الشاهقة، لم يمنع ذلك الحراس المناوبين من الإستسلام للنوم في وقت حراستهم، النوم في ليلة كهذه أثمن من السلامة.

في قلب المعسكر كانت وحدة القيادة، وخيمتها البيضاء تشبه جوهرة تتوسط قلادة كبيرة. لم تسلم من سطوة الشتاء، وطول ليله، فاستسلمت للنوم كباقي الوحدات من حولها. كافح طلال قائد الوحدة، ونائب عمر في أن يظل مستيقظاً، ولكن اغتاله النوم دون أن يشعر، فغط في ثبات عميييييق، وتحول الجيش إلي جثة مترهلة لا حراك فيها.

كان ملثماً يتلفح عباءته السوداء، ويمشى بهدوء كزحف الثعبان نحو فريسته. تابع التسلل بين خيام المعسكر حتي انتهي أخيراً أمام القبة البيضاء، وبهدوء جرد سيفه، وتلفت حوله، ثم تقدم.
وبينما كان طلال يقطع ما تبقي من الليل الطويل جرياً خلف أحلامه، عرقل سرعته القصوي شفرة السيف تحط فوق نحره، استفاق مذعوراً شاخصاً عينيه، فكّر في الدفاع، لكن عين الملثم تَشِى بقدرة صاحبها، فضلاً عن ضعف موقفه، والسيف يوشك أن يختلط بنحره، حرَّك يده ببطءٍ أسفل وسادته كي يلتقط خنجراً، فدُهش للملثم يرفع يده الأخري أمام ناظريه، ويهمس بصوت خفيض " هل تبحث عن هذا؟ "
قال طلال وعيناه جاحظتان إلى الطارىء:
من أنت؟
ششششش، اجعل يديك خلف ظهرك، وانقلب
ماذا؟ كيف وصلت إلي هنا؟
قد كان أسهل مما توقعت.
ضغط علي نحره قليلاً " هيييييا .. لا وقت لدي"
ابتلع طلال ريقه بصعوبة، ورمي ببصره جهة الباب علَّ أحداً من حرس القبة يأتي، ولكن أسقط في يديه، وبعد أن أحكم الملثم وثاقه وقعت عينه علي خريطة الدفاع، والحراسة الخاصة بالمدينة، وبها نقاط قوتها، وضعفها، ودوريات حمايتها، وأماكن تخزين السلاح، وغيره من الأمور الخطرة المتعلقة بأمنها وسلامتها، وجدها مبسوطة فوق منضدة قرب فراش طلال، فهمّ عندها طلال بأن يركل إبريقاً من الشراب بقربها لينسكب فوقها، ويخفي ملامحها، لكن الملثم منعه، ثم ركله خلف ركبتيه فخَرَّ راكعاً، وأخذ بعدها المتسلل الإبريق، وألقاه في جهة أخر من الخيمة، فهشم ما اصطدم به في طريقه، ثم اختطف الخريطة، وطواها في صدره.

استفاق الحارسان خارج الخيمة لصوت الفوضي التي أحدثها الإبريق، فجردا سيوفهما، ودخلا وعيناهما نصف موصدة، ولا يزال النوم يسكنهما، لكنه كان أول من يلوذ بالفرار لمشهد طلال وقد أركعه الملثم، ووقف من خلفه، واضعاً سيفه فوق رقبته.

" هناك هجووووووووم ، هناك هجوووووم"

صرخ بها أحد الحارسين، وهو يركض خارج القبة.

" هجوووووووووووم ، السلاح السلاااااااااااااح"

استيقظت وحدة القيادة يتخبط بعضها في بعض، ويوشك كل منهم أن يقتل الآخر في بداية يقظته، ووثبته إلي سلاحه. صرخ طلال بالملثم:

أتظن أنك سوف تخرج حياً بعد دخول معسكرنا ؟ هيا اقتلني، فإني لن أدعك حياً بعد الذي اطلعت عليه، هيا اقتلللللنييييييي.

ضحك الملثم ساخراً، ثم عاد الغضب إلي عينيه من جديد، يرتعد أمامهما ذلك الجندي الآخر المسكين، لا يبقيه مكانه سوي الخجل من قائده الراكع فى خضوع، والسيف حول نحره، قد كان صاحبه أسرع بديهة منه حين ركض طالبا النجدة، وتركه في مأزق.

هل يهرب ؟

هل يقاتل خصماً أركع قائده ؟

أم يولول ؟ ... يولول ؟

وهل يليق بالفارس فعل هذا ؟

تردد، وتزحزح خطوة للوراء، ثم " أدركووووووناااااا ، أدركو........"

ششششششششش .

أمره الملثم بالصمت، فامتثل له! ثم وكز ظهر طلال بركبته " انهض..." وجذب ياقته من خلاف، والسيف حول رقبته، وخرج به أمام

القبة، والجنود حوله من كل مكان شاهرين سيوفهم، عاجزين عن فعل أي شيء حفاظاً علي حياة قائدهم. أجال الملثم النظر فيهم، ثم صاح غاضباً " ما نفع السيوف التى جُرّدت بعد أوانها ؟ ما نفعها مع معصم مرتجف، وقلب غاااااافل ؟ "

صعقوا لسماع صوته، شخصت عيونهم، وهو يرفع لثامه.

سيدنا الأمير؟!

سيدنا الأمير؟!

الأمير

سُحِق عندها طلال، وتمني لو مات ألف مرة علي أن يراه في موضع التخاذل والتفريط. غرس الأمير سيفه أرضاً بعنف، وهو يصرخ في وجهه " ما هذا أيها القائد ؟ " لم يدرِ طلال بماذا يجيب " سيدي .... لقد ... إنني ...."

فاعفاه من ثقل الإجابة كف الأمير ترتطم بوجه، وتطرحه أرضاً، ثم زجر قائلاً :

لم تعد قائداً ولا جندياً، إني أعزلك من جميع وظائفك، ليس لك سلطة علي نملة في هذة المدينة، لا أنت ولا الجاريتان اللتان وقفتا علي حراسة خيمتك.

أعرض عن طلال، والتفت يفتش فى وجوه الجند " أين حارسا القبة اللذان واجهاني ؟ " تقدما أمامه في خجل مطأطىء رأسيهما.

هل ما فعلتماه هو ما يفعله الجندي مع من اقتحم معسكره، وأسر قائده ؟

لا، سامحنا يا سيدي .

أتدري أيها الشاب لو أنك قاتلتني، وقتلتني لكنت أسعد مما أنا عليه الآن.

خفضا طرفيهما ولم ينطقا.

وأنتما أيضا معزولان من وظائفكما في الجيش .

تنهد بحرقة، وما زال وجهه متلهباً، وعيناه ساخطتين تحولت الليلة القارسة إلي ظهيرة رمضاء تكفي حرارتها لإذابة الجليل الذي يعمم رؤوس الجبال حول المدينة. استدار إلي الجنود وقد اصطفوا من خلفه، وقال:

جميعكم مقصرون، لقد خذلتم ثقتي، ماذا تريدون أكثر مما مررنا به ونعيشه كي تستفيقوا ؟! من منكم ليس ابناً او أخاً أو صاحباً لشهيد ؟ من منكم لم يعرف بما حل بنا عندما غفلنا عن مدينتنا ؟! هل بردت نار الثأر فينا ؟ قالها وهو يضرب علي صدره بقوة، ثم تابع:

هل مات حلمنا في استرداد بلادنا ؟ أم نسينا عارنا وقد انتهك الظلاميون حرمتنا ؟ ماذا تريدون لتدركوا ما نحن فيه ؟ هل تنتظرون الظلاميين وقد استعبدوا أبناءكم، وانتهكوا نساءكم، وسلبوا أموالكم، وأضاعوا دينكم ودنياكم، استيقظوا فما حال القري المنكوبة عنكم ببعيد، لم يبقَ غيرنا لكي نعيد الأمر إلي نصابه.

استطاع أن يري الندم في عيونهم، وصمتهم، ثم هتف أحد الجند، وردد الجميع وراءه:

لن تتكرر يا سيدي، نعدك.

أجابه الأمير بعدما خفض صوته عما كان:

لإن تكرر هذا الخطأ مرة أخري، فإني لن أعاقبكم، أو أوبخكم، ولكنى سوف أحل اجتماعنا في هذه البلاد، وأوزعكم بين الأمم لا يكون لكم بلاد ولا هوية، فهذا أءمن لكم، ثم أعمد إلي عمود خيمتي فأكسره بيدى، واتوجه إلي ملك الظلاميين، وأطلب منه أن يقتلني بسيفي، لأني عندها أكون قد فشلت في تربية أبنائي، ولم أنجح في إعداد جيل المواجهة، جيل يستحق بأن يطأ قداسة من جديد.

دوى الهتاف مرة أخرى، فهتف بعضهم وبكي آخرون. فطن الأمير إلي أنه نجح في إشعالهم بالنار التي في داخله.

" ألا فاستعدوا ... البدار البدار .... فالحرب علي أعتاب مدينتا "

***

أدركت أن أمرها انتهى إلى مستنقع النخاسة، بقيت وحيدة بدموعها مدهوسة وسط الجموع الخاضعة، تسحقهم هامة الظلم وسطوته، تدافعت نبضات قلبها، وخنق الغم روحها عندما رأت صوارى السفينة الضخمة تقترب مثل جبل من الظلمات أتى ليبتلع مستقبلهم، أيقنت بالضياع، تبسم سانتوس لوصول السفينة، وثار الأسرى عند رؤيتها، ودبت الفوضي بين صفوفهم، وصيحات الذعر من مصيرهم الأسود لا تنقطع، أشار سانتوس إلى جنوده، فطوقوا المكان، وراحو يطوحون بسياطهم ليعيدوا السيطرة، وثار جنون جونسون، فأخذ يجلد الأسرى بعنف ومن حوله الجند يحكمون وثاقهم، وقتلوا كل من لم يخضع لهم، وتحت سطوة السيف، والسوط عاد الهدوء، واستتب الأمر من جديد، مشى الأسرى فى صفوف منتظمة منكسرى الرأس، والنفس، لم يتوقف جونسون، وراح يجلد صمتهم كما جلد ثورتهم، لمح أروى، ودنى من خلفها ولوح بسوطه بحركة دائرية فى الهواء، ونزل به على ظهرها، ولكن ارتطم السوط بظهر رجل تعثر بينها وبينه، بصق جونسون عليه، وجلده عدة سياط، ثم انصرف إلى غيره، لم تُعِر أروى لما يجرى حولها انتباهاً، وظلت شاردة يائسة لا تبالى بشىء، استطاع سانتوس رؤية القبطان لوبيز يقف مختالاً على مقدمة السفينة، ترفرف فوقه الأشرعة ويحيطه الجنود، أمر بأن يقعد الجميع فى أماكنهم، وتوقفت السفينة على مقربة من الشاطىء، نزلت من جوانبها القوارب الصغيرة عليها بعض جنود القبطان، وصلوا الشاطىء، وصنعوا جسراً خشبيا إلى السفينة، ثم نزل القبطان عليه مختالاً، كان قصيراً، ضخم الجسم، والرأس، تلمع أشعة الشمس بصلعته، يغطى فمه شارب بنى كثيف. ركع عنده سانتوس، وزحف على ركبتيه، ثم قبَّل يده. نظر إلى الأسرى، وقال:

أحسنت يا سانتوس، صيدك كبير هذه المرة

احنى سانتوس رقبته، وقال:

تلاميذك يا سيدى.

بلغنى أن لديك أمانة للأميرنا.

أشار سانتوس إلى أروى، كانت تجلس عاقدة ذراعيها حول ركبتيها، تسند إليهما رأسها، مستمرة فى البكاء، مشى القبطان نحوها، وركل قدمها.

ما اسمكِ ؟

لم تنظر إليه، ولم تجب، فقبض شعرها، وأوقفها أمامه، وكانت تفوقه طولاً، فتطلع إليها، ثم طرحها، ونظر إلى سانتوس، وقال:

لم يصبحوا عبثاً حكماء، ضحك الأخير، وقال:

هل تأمرنا بشىء قبل الإبحار ؟

لا.

صعد الأسرى إلى متن السفينة، وبالغ الجنود فى قهرهم، وإذلالهم، فثاروا من جديد، فعاود الجند حملتهم بالسياط، والسيوف حتى أخضعوهم. حشروهم متلاصقين لا يملك أحدهم بسط قدمه، أجلسوهم فى قسمين عند مينائي السفينة بينهما ممر يمشى الجنود فيه. كانت أروى قد أنهكت، وتحاول التقاط أنفاسها بين الزحام بصعوبة، قبض اليأس قلبها، وأهدر الذل دموعها، وضاقت عليها الأرض بما رحبت كضيق السلاسل حول معصمها، ثم سرت قشعريرة بجسدها حين رأته.

كان ينظر إليها متبسماً، وهو يضع يده على منكبه متوجعاً من أثر السياط التى تلقاها من جونسون بدلاً عنها، خفق قلبها، وانكشف ليلها، وانفجر الأمل بأعماقها، فكأن الليل تبدل، والسلاسل تراخت ولا أحد سواهما هنا، فلا معنى للقيود إن كان داخلنا طليقاً، إنه هو، قد سلَّم نفسه للأسر، هذا الجنون لا يفعله أحد سواه، الشكر لله أنك طاااائش. طوَّع قيس السلاسل في يديه،

ووازى سبابتيه وضمهما، أى " سنظل معاً " . تبسمت، فغمز بعينه معتداً كعادته، ولسان حاله " أنا قيس يا بنت "

الفصل الثانى عشر

مع شروق الشمس انتشرت مداهمة الأمير للمعسكر في جميع أنحاء المدينة وصارت حديث الساعة، يتحاكي بها جميع الأهالي ما بين فتية في مقتبل العمر يرون فيه أسوة لهم في الفتوة، والذكاء، ونساء وأطفال، وجدوا الأمان بدفيء أنفاسه حولهم، وعينه الساهرة، جدد الجميع نياتهم، وشحذوا همتهم، وانتشرت بينهم دعوات لتنظيم مسيرة لتأييد الأمير، ودعمه. جلس إلى جانب أنس يتفقد مكاتباته لعماله فى الإقطاعات التابعة للمدينة، ثم انتبه إلى رسالة، واردة من إحدى مدن البعثات لم ينفض شمعها، فتساءل مستنكراً:

لماذا لم تعرض على تلك الرسالة من قبل؟ متى وصلت؟

ارتبك أنس، وكان قد نسي تدوين استلامها، وعرضها بفعل التوتر الذى عاشته المدينة .

العفو يا سيدى، نسيت أمرها.

أنس، لا شأن لك بما يجرى خارج هذه الخيمة، لا تسمح لشىء أن يزيغ بصرك عمّا كلفتك به، إننى اعتمد عليك فى هذه الأمور، إن كنت لا تقوى عليها فأخبرنى .

الأمر لك يا سيدى، لن تكرر.

قرأ الأمير الرسالة، وأخذت ملامحه تتغير، ثم كمشها فى قبضته، وألقاها جانباً، لاحظ أنس ضيقه بما جاء فيها، فأجاب الأمير تساؤل عينيه:

يريدون زيادة نفقات البعثات إلى خمسة أضعاف.

هل ستجيبهم يا سيدى؟

لن أزيدهم مثقال ذرة، وسأرسل البعثة فى حينها، سترى.

دخل قاسم، وقال:

الأمير رجا يستأذن فى الدخول؟

دلف رجا، ووقف أمام الامير " طلبتنى يا سيدى " .
أشار الأمير إليه، فجلس .
ستأخذ يا رجا الأمانة التى لديك فى شريان إلى مكان آمن، وتترك على أعمالك فى شريان من تثق به.
هل حدث خطب يا سيدى ؟
تحسباً.
ولكن إلى أين تأمرنى أن انتقل؟
نهض الأمير، ومشى إلى طاولة خلف مقعد أهل الرأى، وبسط خريطة كانت مطوية فوقها، وأشار بسبابته " هنا " . أومأ رجا بالفهم، فطوى الأمير خريطته، وأثناء عودته إلى كرسيه طلب القائد جسور لقاءه فأذن له. وقف وهو متجهم غاضب، فبادره الأمير متسائلاً :
ما وراءك أيها القائد ؟
لم تهدأ ثائرة نفسى منذ علمت بغفلة طلال، ليس هذا وقت الغفلة.
وإذاً ؟
تردد جسور، ثم قال بحزم :
أوكل إلىّ قيادة الجيش يا سيدى حتى يعود القائد عمر.
صمت الأمير للحظات، ثم قال :
لكننا لا نعطى هذا الأمر لمن يطلبه.
انخطف وجه جسور، وانعقد لسانه، قال مختنقاً:
ألا ترونى أهلاً لها يا سيدى؟ لا أريد من هذا المنصب إلا خدمة مدينتى.
قال الأمير فى ضيق:
لست بحاجة لهذا كى تخدم مدينتك، يكفى أن تنجز ما أكلفك به.
حاول جسور أن يستأنف الجدال، ولكن رفع الأمير كفه فى وجهه بألا ينطق، ثم قال:

يمكنك الخروج .

انصرف، وقلبه يتمزق حقداً، وبعد خروجه دلف قاسم، وقال:

سيدى، القائد داود حضر للمثول أمامكم.

أدخله.

مشي إلى كرسيه وجلس، بينما دلف داود إلى الخيمة وحياه، ثم وقف فى ثبات، كان معتدل القامة، ذا بشرة سمراء، وله عينان لامعتان بالرغم من ضيقهما، وشعر أسود اللون قصير فيه خشونة، ولحية سوداء يتخللها الشيب.

استدعيتنى يا سيدى.

تعلم ما تمر به المدينة، وخروج قائدكم فى إثر قيس والخاطفين، وتعلم أننى قد عزلت طلالاً عن نيابته، وقد رأيتك لائقاً بتلك المهمة.

تسلل الفرح إلى قلب داود، ولكن لم يبدُ على وجهه، قال فى وقار:

الأمر لك يا سيدى، لن أخيب ثقتكم بى.

مدّ الأمير يده إلى أنس، وأخذ قرار تكليفه بقيادة الجيش، ثم نهض ومشى إليه، وقال وهو يسلمه القرار:

خذ ما أتيتك بقوة، ولا تعجز.

أفعل يا سيدى.

ربت الأمير على صدره " هيا انطلق " تراجع داود بظهره إلى الوراء حتى وصل باب الخيمة وخرج. رأى الأمير حنين تقف أمام الباب تحدث قاسماً للدخول فناداه بأن يسمح بدخولها، ثم استأذن رجا بالمغادرة وخرج.

دلفت، ومشت على استحياء لم يمنعها من التطلع إليه، تساءل بعينيه عن حاجتها، وقد وقفت أمامه ولم تتكلم، انتبهت وخفضت بصرها عنه، فقال:

اسمعك، تفضلى.

سيدى إن جمال الدين يحرض الناس ضدكم، واستغل نزاراً وجره معه.

صمتت، ثم أردفت عندما رأت السخط على وجهه:

ولكن نزاراً قد رجع أقسم أنه ....

لا تخافى على ولدك منى يا أم نزار، إنى أقدر ما عاشه، وأعلم أنه فتى ذكى لن يتلاعب به أحد.

اطمأنت لقوله، وأردفت :

وقد أمرته بالابتعاد عن جمال الدين، وصحبته.

حسنا فعلتِ

تحركت شفتها بابتسامة خفيفة، ثم استأذنت، وخرجت من الخيمة، وقلبها لا يزال عالقاً بها، مشت وابتعدت، ثم أشارت إلى إحدى عربات النقل الجماعى التى تمر أمام مبنى الصيارفة، شدَّ السائق لجام الأحصنة، فتوقفت العربة. وثبت حنين بخفة إلى داخلها، ثم تحركت العربة، وابتعدت عن خيمة الإمارة، وعيناها شاردتان نحوها.

***

شقت السفينة طريقها بين الموج، فبدت كجبال بعضها فوق بعض، استقرت مع توغلها فى عرض البحر فوضى التمرد، واستكان الجميع، وانشغل كل منهم بهمومه الخاصة، كل يحمل جباله من الضياع، واليأس موطدة على حطام أحلام كانت تفوقها ذات يوم، كان يقلب نظره، ويتفحص أرجاء السفينة علَّه يجد مخرجاً مما هم فيه، غير أن السلاسل كانت تئد كل فكرة فى مهدها، بين كل هؤلاء الأسرى، والجنود المتيقظين والسلاسل القاسية بدا أمر النجاة شبه مستحيل فى الوقت الراهن. كانت أروى تسترق النظر إليه بين الحين، والآخر، واكتنفها الأمان، وشعرت بدفء أنفاسه قربها، كانت نصب عينيه المتيقظتين، وطربت لحجابها الملفوف حول معصمه. ما زال موجوعاً من سفور شعرها، شيء ما ينتهب كيانه ويسحقه، سيظل عارياً إلى أن يتمكن من ستر ليلها الحريرى المقدس، يواسى نفسه بأنها بين هاتين السمينتين، ولا أحد يقربها، وفجأة دقت الطبول، وأشار القبطان لوبيز،

فتوقفت السفينة فى عرض البحر متوازية مع أخرى كانت فى انتظارها، كانت محملة بصناديق مغلقة، وجوالات مكتظة عن آخرها مجهول ما فيها، أمر القبطان بفك قيد بعض الأسرى " سانتوس استعن ببعض العبيد فى نقل البضائع إلى سفينتنا " بدأ سانتوس، ومعه جونسون يتجولان بين الأسرى لاختيار بعضهم، وتحفز قيس، ورأى فرصة له فى هذا الأمر، لو أنهم فكوا وثاقه فلربما استطاع فعل شىء، وأشار سانتوس إلى رجل أسود البشرة يجلس خلفه يبدو عليه الخوف والخنوع، فانقض الجنود عليه وفكوا عنه قيوده، وفعل سانتوس مثل هذا ببضعة رجال، ولم يختره، اختار رجلاً إلى جانبه كان هزيل البنية، عليل الجسد، فانتهز قيس فرصته، وقال " إنه مريض، ولن يقوى على مثل هذا " التفت جونسون إليه، وتقدم خطوة ووضع قدمه على صدر قيس:

وما شأنك أنت أيها الوضيع ؟ سأقتلع لسانك إن حاولت الحديث دون أن آمرك .

ثم نظر إلى الرجل على يمين قيس " أها أنت ضعيف حقاً، كيف لم انتبه لهذا من قبل " دنى من الرجل، وأزال السلاسل عنه، وأبقى قدميه موثوقتين، ثم ألقى به فى الماء، وعاد التفاته إلى قيس، وبصق عليه، وقال فى احتقار"شكراً لمساعدتك أيها العبد العطوف"

كبح قيس غضبه، وابتلع إهانته، تكاد الدماء تنفجر من عروقه كبركان يفتك بمن حوله، بكت أروى ذله وإهانته، تعلم قسوة هذا على عزيز مثله، عاد إليها صوته يوم قال " لا أطيق ذلاً " ، وها هو يتجرعه ألواناً دون أن يحرك ساكناً، كل هذا لأجلها، تُرى أى عز وصلت إليه معى يا قيس ؟ زفر وتنهد غضبه، لاحظ حزنها، فأومأ لها برأسه " أى لا بأس " .

***

جلس فى ساحة بيت المال نافذ الصبر متذمراً من انتظار دوره، بدا ذلك جلياً من ساقه التى لم تتوقف عن الإهتزاز، وتأففه بين الحين والأخر، نظر فى القرص المعدنى بيده، ثم استطال الأمر، مشى إلى أحد المكاتب، ووجهه متجهم، وصاح بالعامل:

كل هذا الوقت ليتم صرف حفنة من النقود ما هذا التراخى، والإهمال.

نهض العامل، وجاهد كى يظل متبسماً، ثم أجابه بلطف:

نعتذر منكم يا سيدى، ولكنكم ترون ازدحام المكان بالزائرين. وقبل أن يجادله تدخل مدير القاعة.

سيدى جمال الدين تفضل معى نعتذر عن جعلكم تنتظرون .

استغرب جمال الدين لكلام الرجل، ولكنه مشى إليه معتداً، أشار الرجل إليه " تفضل معى ". مشى بمحاذاته، وصعد معه إلى قاعة مدير المكان. جلس جمال الدين فوق المقاعد المبطنة، وراح يدير رأسه فى الزخارف والتحف، وأذهله فخامة المكان، وتجهيزاته، وبعد ثوان انتبه لنفسه جالساً على طرف المقعد، فزحف إلى الدخل بتردد، ثم أسند ظهره، ولكن لا يزال داخله مرتبكاً، ثم دخل إبراهيم، وأشار اليه ألا ينهض، وجلس إلي جانبه، وعلى شفتيه ابتسامة ودودة، فسعل جمال الدين ، وقال:

لم يكن الأمر يستدعى تدخلكم، أعتذر.

بل يستدعى ما هو أكثر، أنت رجل مهم جداً فى نظرى، إنى أُكِنُّ لك احتراماً كبيراً.

لم يصدق جمال الدين ما سمع، وإن طرب به، أطرق رأسه خجلاً، وقال:

هذا من لطفك، إننى عبد فقير.

قال إبراهيم بلهجة توحى بالجد:

لو كان عندى نصف علمك لأدركت مدينتنا.

اضطرب قلب جمل الدين، وقال:

لم أفهم .

أعلم أن صلاح أمر مدينتنا في رأيك، وإني متفهم كل ما تدعو إليه.

وما الذى سمعتنى أدعو إليه ؟

سأحدثك بصراحة، أنا لست راضياً عن شيء فى حياتنا.

توجس جمال الدين، وشك في صدق حديثه، وهمس بنفسه " ربما يكون الأمير هو من دسه علي " فطن إبراهيم إلى ما يجول بداخله، فبادره وهو يربت على ركبته:

لا تصدق ما يدور في رأسك يا أخي، فلست غِراً ليستعملني أحد في صالحه، وكل ما أرجوه أن أخدم المدينة في آخر عمري.

استبشر لكلامه، وأحس بأن فتحاً عظيماً سوف يتحقق بدخول إبراهيم في دعوته، فهو يدرك مثل الجميع مقدار ثروته وسعة نفوذه، تبسم، ثم قال: " أرجو أن أكون عند حسن ظنكم "

ربت الشيخ علي ركبته من جديد، وقال " خذ طلالاً إلى جانبك، وأنا معك بكل ما أملك ".

نزل جمال الدين يضيق المكان عن فرحته، وسعده بما سمع، وخرج من بيت المال مسرعاً، ثم توقف عند رؤية حنين تنزل من العربة، وتعطى سائقها أجرته، وتفاجأت بوقوفه فى وجهها.

خيراً ؟

هل ينقصكِ شيء ؟

لا ينقصنا سوى ابتعادك عنا.

لماذا يا أم نزار؟

دع ولدى ولا تلوث نقاءه بأفكارك تلك، إن كان لك مطمع فى الإمارة فاذهب إلى الأمير، وانتزعها إن استطعت، ودع مكر الثعالب ذاك.

قال جمال الدين فى ضيق :

إنك تظلمينني بكلماتك القاسية تلك، وأخشى أن يأتى يوم، ولا أراه بعيداً تندمين فيه على ظلمك لى، وإعراضك عنى.

زمَّتْ حنين شفتيها، ولم تجبه، ودلفت إلى بيت المال .

***

قصدت جناح الأمانات، وهو قاعة ملحقة بمبنى بيت المال، واتخذت مقعدها فى هدوء بين نفر من أهل المدينة جاؤوا لصرف أعطياتهم الشهرية التى قسمها الأمير لهم من أرباح المشروعات العامة، فقد قسم الأرباح إلى ثلاثة أقسام، فجعل ثلثاً للجيش، وثلثاً لإعمار المدينة ونفقات أهلها، والثلث الباقى للإدخار. قام أحد عمال المكان بتوزيع قطع من المعدن دائرية الشكل منقوش عليها رقم الزائر، بينما جلس جون مدير الأمانات خلف طاولته المنتصبة فى آخر الجناح، وأمامه دفتر يحمل بيانات الأهالى، ومستحقاتهم، وحركة صرفها، وإيداعها، وتراكمها. يجلس إلى يمينه أحد مساعديه والذي تقوم وظيفته على نداء الرقم، والبحث عن اسم صاحبه فى السجل، وتحديد قيمة المبلغ المنصرف له، ثم يراقب توقيع الزائر بعد استلامه نقوده. أخذت حنين تختلس النظر إلى رقمها فى هدوء، ثم ارتبكت القاعة فجأة لدخول الأميرة سلاف، وقف جون، ومساعده، وباقى الحاضرين لتحيتها، تبسمت فى ودٍ، وأشارت إليهم أن يجلسوا، ثم مشت حتى وقفت إلى يسار جون الذى عرض أن يجلسها مكانه، ولكنها امتنعت بلطف.

كيف تجرى الأمور؟

على ما يرام سيدتى .

بوركتم .

توالت الأرقام، ثم صاح المساعد:

رقم ثلاثة عشر ... ثلاثة عشر.

رفعت حنين يدها، فساءلها الرجل:

ما اسمك يا سيدتى ؟
راح يبحث فى سجله قبل أن تمشى حنين إليه، ثم قال لجون:
خمس قطع ذهبية.
استخرج جون من الصندوق كيساً جلدياً صغيراً كُتب عليه المبلغ، ووضعه فوق الطاولة، وعندما وقفت حنين للسير إليه، أمسكت سلاف بالكيس، وقذفته نحوها، فسقط فى منتصف المسافة بينهما، نظرت حنين إلى الكيس، ثم إلي سلاف فى استياء، ولم تتحرك نحوه، تبادل الحاضرون نظرات الإستغراب، وعدم الفهم، أحمر وجه حنين، وغلت الدماء فى عروقها، ولكنها التزمت الصمت، ولم تبرح مكانها، فتبسمت سلاف، وقالت:
معذرة يا أم نزار لم أقصد.
لم تجبها، وقررت الإنصراف.
الأميرة سلاف، أهكذا تؤدين الأمانة إلى أهلها ؟
انتفض المجلس لصوته، وتفاجأوا عندما التفتوا خلفهم فرأوه يقف عند باب القاعة، مشى بضع خطوات وقد برق الغضب من عينيه، ارتبكت سلاف، فغرت فاها للحظات، ثم ابتلعت ريقها، وحاولت تبرير موقفها، فتلعثمت، وخفضت طرفها. قال الأمير "لا بأس" ، ثم تقدم بضع خطوات والتقط كيس المال، فانتفضت حنين، وهى تشير إليه ألا يفعل.
العفو يا سيدى الأمير، أنا آخذه.
مشى إليها، وسلمها إياه دون أن يتطلع نحوها، فخفق قلبها، ونبض بما تُكِنّه له دفعة واحدة، ولمعت بعينيها عاطفة عارمة، وتمنت لو شكرت سلافاً ألف مرة على ما بدر منها، فقال الأمير:
أعذرى الأميرة فقد زادت أعباؤها ومسؤلياتها.
ثم نظر إلى سلاف وأردف :
الله وحده يعلم ما تقوم به، وسيجزيها .

تكلفت سلاف ابتسامة باهتة، وقالت:

سلمتَ يا أميرى، يكفينى رضاك عنى.

تبسم الأمير، وقال برفق:

عزيزتى، لا تتصرفى وكأنك توزعين من حر مالك، فإنها أماناتهم عندنا، أرجوكِ .

أقسم أننى لم أقصد أن ......

لا عليكِ أعرف ما ستقولينه، لقد أجهدتك فى الكثير من المهام لذا لا تنشغلى بالأمانات بعد اليوم.

اشتعل غيظها، وألجم لسانها، ورفرف قلب حنين، ثم توجه الأمير إلى باقى الحاضرين، وقال بنبرة تحمل الدفء بين أنفاسها:

ولأن الشىء بالشىء يذكر، فاسمعوا، وبلغوا عنى: لا تسمحوا لشىء فى هذه الدنيا فيه ظلم لكم دون أن تخبرونى به، ولا تتجاوزوا عن الإساءة ولو كانت من زوجتى العزيزة، أو أحد ولدى.

التفت إلى سلاف، وغمز بعينه متلطفاً بعد أن رأى وقع كلامه فوق وجنتها وندا جبينها، وقال " هل نذهب ؟ " ، أومأت برأسها موافقة، وخرجت أمامه كالسهم .

***

هدأت الحركة فوق متن السفينة، واستأنفت إبحارها، لكن البراكين العاتية فى قلبه لم تهدأ بعد، فظل يرمق جونسون وهو فى الطرف الآخر من السفينة بين جنوده: أقسم أننى سوف اعتصر روحك بيدى. لم يمضِ الكثير من الوقت، حتى اشتدت الرياح فجأة، واستجابت لصيحة الريح طباع الموج، فبدأت تتعالى، وبعد دقائق قليلة تحولت الرياح إلى عاصفة، وأصبح الموج أكثر عتواً، واضطراباً، وراحت السفينة تتأرجح بين الجنون، وصيحات

الذعر، وضرب بعض الموج سطح السفينة، وبدأ القبطان لوبيز يفقد السيطرة، فأسرع سانتوس إليه، وقال ملهوفاً:

سيدى لوبيز، علينا تخفيف حمولة السفينة لكى نستطيع تجاوز العاصفة.

ماذا تقترح ؟ قالها بهدوء لا يتناسب مع الخطر المحدق بهم.

أنتم يا سيدى أعلم بأقل الصناديق قيمة، ونفعاً.

ضحك عندها القبطان، وقال :

أتدرى يا عزيزى سانتوس، إن صندوقاً واحداً من تلك الصناديق أغلى قيمة من هؤلاء الأوباش مجتمعين.

تبسم سانتوس فى خبث، وفهم ما يرمى إليه.

***

عند اكتمال الغروب ضمد الأفق جراحه، وشفقه الدامي، وهدأت عندها ضوضاء المدينة، وبدأ جامعها يجذب إليه أهله لدنو الصلاة، توافد عليه المبكرون من جميع الأنحاء، توسط جمال الدين صفاً من الشبان اليافعين كانوا قد أسندوا ظهورهم للحائط في نهاية الحرم، يرمقون إمام الجامع في حنق همس أحدهم " يدعون الله، والدين براء منهم، ومن أميرهم " همس به جمال الدين " تصبَّر قليلاً لكل أجل كتاب" دخل الأمير بهدوء مسلماً، وجلس حيث انتهي به الصف، لم يرد جمال الدين، ومن معه السلام، ثم همس " يتصنع الورع، والتواضع ليقرطس عقولنا " مرت دقائق الانتظار، وهم يرمقونه، وكان مطرقاً، ولم يلتفت إليهم. اصطف بعدها المصلون جميعاً خلف الامام فيما عدا جمال الدين، ومن معه، انتظروا حتى قضيت الصلاة، ثم قام جمال وصلي بمن معه، لاحظ الأمير تخلفهم، فانتظر انتهاءهم، وقبل تسليمهم دخل معهم طلال مسرعاً إذ جاء متأخراً، وعندما هموا بالمغادرة ناداهم الأمير " جمال الدين توقف، توقفوا يا أبنائي"

ثم قال باسماً:

لماذا لم تنضموا إلينا، وقد أدركتم جماعتنا.

نظر الفتية بعضهم إلي بعض، ولم يجيبوا، فبادر جمال الدين:

الإمام يستعجل بعض الشيء في صلاته، فأحببنا أن نعطي الصلاة حقها، فأجابه الأمير:

الإصلاح يكون بالنصيحة، وليس بالفُرقة.

هذا ما اطمأنت له نفوسنا.

لا تعودوا لمثلها، فذلك يبعث الشقاق في أبناء الصف الواحد.

ثم تبسم، وهو ينظر إلي نزار وهو الأصغر سناً بينهم، وملامحه أقرب للطفولة منها للشباب " هل فهمتني يا بني؟ "

أحس نزار بصدقه، وقوة منطقه، فتبسم مؤيداً.

فهمتك يا سيدي.

لامس الأمير، وجنته وربت على كتفه، وانصرف.

استشاط جمال الدين غضباً، وكظم غيظه بصعوبة حتي توارى الأمير عن أنظارهم، ثم وكز نزاراً بعنف، وقال:

إذا أنت أقررته، فأنت شريكه في الإثم.

احمر وجه الفتى، ولم يجب، فهمّ جمال الدين أن يزيد لولا انتباهه لإنتهاء طلال من صلاته، فذهب خلفه مسرعاً.

***

عزم علي اعتزال الناس قدر استطاعته، وعدم خروجه إلا للضرورة بعد أن فشل، ولم يقم بوظيفته، لا يزال نادماً كاسف البال معظم وقته، وأثناء عودته بعد الصلاة سمع جمال الدين يناديه، وتكلف بعض الجهد ليدركه، فتوقف ليسمع، بدا ذلك غريباً بعض الشيء، فلم يكن بينهما صحبة أو شيء مشترك، وزاد في دهشته وجهه العابس قد تبسم له هذه المرة، ويقبل علي مصافحته بحرارة.

تقبل الله يا أخي، سعيد أنك انضممت إلينا في الصلاة.

لم أفهم .

استغرب لقوله، تصنع جمال ابتسامة، ثم قال:

لا عليك كنت أود أن أحدثك في أمر.

تفضل.

أعلم حبك لهذه المدينة، وأعرف أن ما جري بحقك ليس عدلاً.

قد قصرت في حمل أمانتي، واستحقيت ذلك.

هذا ما أراد معاوية أن يوهمك به، أما نحن فنعرف قدرك.

استغرب طلال لهجته:

معاوية ؟! .... نحن؟! هلا تحدثت بوضوح أكثر.

سيكون ذلك، ولكني أرغب أن تتفضل بالموافقة علي لقائي غداً عند الربوة الغربية للمدينة قبيل المغرب، وسأفهمك كل شيء.

تردد طلال، ثم همس في نفسه " لن أخسر شيئاً علي أي حال"

لا بأس نلتقي غداً.

انصرف طلال، وترك جمال الدين يشعر أنه قد أحرز نصراً مبيناً، ثم أطبق ابتسامته، وأعاد وجهه إلي عبوسه وانصرف.

***

نشر سانتوس رجاله حول الأسري، وجرد الجنود سيوفهم فى انتظار إشارته على كبش الفداء، مرت ثوان من الخوف، والترقب، والصمت الرهيب، علت دقات القلوب المنخلعة فوق صيحات البحر وهوجائه، وظل قيس معلقاً عينيه فى قلق على الجندى المتأهب خلف أروى، فيكفى أن يشير أحد الملاعين إليه ليقتلها ويلقى بها، بدأ جونسون يمر بين الأسري، ويغمد خنجره فى نحر من يقع الإختيار عليه، ويسرع من خلفه الجنود، ويحلون سلاسل القتيل، ويلقون به قبل أن يلفظ أنفاسه، وبينما يوزع قيس نظراته

الوجلة بين جونسون، والجندى القريب من أروى شعر بصقيع النصل فوق نحره.

انهض.

وقف ونظر بعيني جونسون، فتبسم الأخير حتى ظهرت صفرة أسنانه، وقال :

جاء دورك أيها العطوف.

ارتجف قلب أروى لمشهده، لقد اختاره اللعين، وسيقتله، فكتمت أنفاسها، وشخصت عيونها، ودب التوتر بها، وغدت أطرافها لا تكف عن الإرتجاف، وأصبحت لا تسيطر على شيء فيها، ستصرخ، وليكن ما سيكون، قبض جونسون تبسمه، وهم بطعن نحره، ولكن ناداه القبطان لوبيز:

ستظل أحمقاً يا جونسون.

التفت، وكان يوشك أن ينهى الأمر، فدنى القبطان منه، وقال:

قبل أن تضحى برجل مفتول يمكن أن تجنى ربحاً وافر من ورائه كهذا العبد، عليك أن تتخلص ممن هم أقل نفعاً.

تراجع جونسون على مضض، فاستل لوبيز سيفه، ثم طوحه عن يمين قيس ويساره، فسقط اثنان من الأسرى.

هذا يكفى، لا تقتل أحداً آخراً.

تنفست أروى الصعداء، تداركها القبطان قبل أن يقتله أو تصرخ، ويفتضح أمرهما، واختلس قيس نظرة عابرة إليها، فلمح ارتجافها، وشحوبها ولكن اجتماعهم حوله منعه من أن يومىء لها بشىء.

***

فلاديمير... فلاديمير ... أيها الخنزير الغبي

صرخ بها إبراهيم بعد أن علم من سلاف بفقده القلادة في مكان الجريمة، يعض أنامله ويقطع الغرفة جيئة وذهاباً، ويتابعه محمود في توتر، استجمع نفسه، ثم قال: " اهدأ يا أبي فإنه ..."

اخرس، لا أريد سماع صوتك.

أبي إنني ...

سيدي إبراهيم السلام عليكم، هل أدخل؟

كظم الشيخ غضبه بصعوبة، واصطنع ابتسامة لم تفلح في إخفاء توتره وأذِن له، فدخل مستبشراً، ولم ينتبه إلى الحنق المطل من ابتسامة الشيخ.

قد نجحت يا شيخنا، وسأقابله غداً.

تقابل من ؟

تسلل إليه بعض الإحباط، وأجاب صوت خفيض:

طلالاً!

أومأ الشيخ إلي محمود، فأغلق الباب، واندفع إلي ياقة جمال الدين، واجتذبه بشدة، ومدده على الطاولة، وقال بغيظ:

إن أكثر ما أكرهه في الحياة بعد معاوية هو أن يكون لدي حليف غبي.

بهت وجه جمال الدين، وخفق قلبه لرد فعله الغير متوقع.

ظننت أن ذلك يسرك.

إياك وأن تعيدها، إياك أن يعرف أحد صلتي بهذا الأمر، سأدمرك.

بدا عليه الحزم، والعزم علي إنفاذ تهديده، والشرر يتطاير من عينيه، ازدرد جمال ريقه:

حسناً، حسناً.

اغرب عن وجهي.

خرج مسرعا مضطرباً لا يلتفت خلفه، واصطدم في طريقه بفتى كان يهم بمحادثته، لكنه لم ينتبه ومضي في طريقه، تبعه الفتى خفية مستغرباً تواجده

عند ابراهيم، وصل الأخير داره، ودلف وأغلق الباب بعنف، فكر الفتى فى أن يطرق عليه، ثم تراجع متوارياً عندما رأى ملثماً يتلفت حوله، ثم يدخل، أدرك الفتى من نعله، ومعصم يده أنه أحد أفراد الجيش جاء لمقابلة جمال سراً، وشك من مشيته، وهيأته فى قائد يعرفه.

***

هدأت العاصفة، واستوت السفينة دون قلق، وقبل الغروب تلاقت مع سفن أخرى محملة بالجنود، فأمر القبطان جونسون أن يأخذ معه بعض المقاتلين، وينضم إليهم، جمع جونسون رجاله على مضض، وكان يأمل أن ينتهى مصير أروى إليه، وقبل أن يغادر أخرج القلادة التى انتزعها منها، ورفعها " سأقتنع بها حتى ينتهى أمر صاحبتها إلى " انتبه قيس إلى القلادة، وكاد الغيظ يمزق كبده، إذاً أنت ذلك الوقح الذى انتزع قلادتها، سنتصافى فى وقت لاحق، ثم انشغل عن غيظه بتساؤله عن وجهة السفن، وإلى أين تنقل كل هؤلاء الجنود.

***

عاد الفتى إلى بيته، ودلف دون كلام إلى غرفته، وجلس على طاولته، وراح يكتب بتوتر، ولم يلتفت إلى صوت أمه من خلفه.

ماذا تفعل ؟ ما سبب انهماكك فى الكتابة تلك الأيام .

أجابها دون أن يترك القلم :

أُقَيد دروسي.

دنت منه، ومدت يدها وقالت:

أرنى .

أسرع وخبأ ما يكتب عنها، وقال فى ضيق:

قلت يا أماه أقيد دروسى قبل الخروج.

إلي إين يا نزار ؟ لقد تأخرالوقت.

لن أتأخر. أجابته بحزم:

لن أسمح لك بالخروج.

نهض بعدما طوى الورقة، ودسها بين كتبه، قال فى ضيق:

قلت لك أننى لم أعد طفلاً.

لم تعد طفلاً، لكننى سأظل أمك، إن قلت أنك لن تخرج، فلن تخرج.

جلس متأففاً، ثم قال:

بشرط أننى سأخرج عند الشروق.

تبسمت عندما لان، وطاوعها، وقالت:

اتفقنا.

***

الصرخات تعلو من كل أنحاء المدينة، والنار تلتهم، والرياح تدمر كل شيء أتت عليه، وجودفرى يضحك، ويزمجر، وأطفال تذبح، ونساء تنتحب، وجثث تكوم بعضها فوق بعض، وهو فى وسط العاصفة يطوح بسيفه، ويركض بجواده ذات اليمين، وذات اليسار، يحاول منعهم، ثم رأى أباه يتناثر رماداً بيدى جودفرى، يصرخ ويصرخ، ولكن امتنع صوته، وانعقد لسانه، وتسلل العجز إلى جوارحه، ثم نهض فزِعاً، فرآها تنظر إليه فى خوف، كان صدره يعلو، ويهبط بسرعة، وأنفاسه تتعالى، والعرق يتفصد من جبينه بغزارة، فأغمض عينيه، ووضع وجهه فى كفيه. أسرعت سلاف وصبت كأساً من الماء، وقدمته له، وتساءلت فى رفق:

سيدى ربما قد رأيت حلماً.

سحب وجهه من بين كفيه، ونظر إليها، وأنفاسه لم تهدأ بعد، جز أسنانه، وضرب يدها بعنف، فطار الكأس، وانسكب الماء، فصرخت، وتراجعت إلى الوراء، وهى تنظر إليه فزعة متوجعة، تضمد يدها بالأخرى. نهض، ومشى

إلى الخارج، فاندفعت خلفه باكية، ولحقت به. جلس على عرشه، فارتمت تحت قدميه، وتشبثت بيده، وقالت وهى تشهق بالبكاء :

إن كنت قد أسأت فى شىء فعاقبنى، أو سامحنى، أما صمتك، وهجرك لى هكذا فالموت أهون منه.

نظر إليها، ثم رقت قسوة ملامحه، وهدأت أنفاسه، فانحنى إليها، وضم كتفيها بكفيه، وأواها إلى جانبه، فاتكأت على صدره، لامس شعرها، وقال :

اعذرينى يا سلاف. تكالب الأعداء على. الأمر لا علاقة له بكِ، مهما فعلتِ لا يمكننى هجرك أبداً.

أنت أكبر من أن تعتذر، أنا أفهمك.

قال وهو لا يزال يهدهد شعرها:

لكنى لست أكبر من هجرك، فاطمئنى.

ثم همس بنفسه " اطمئنى حتى أتيقن منكِ "

***

قطعت السفينة ليلها بهدوء، ومع شروق الشمس لاحت من بعيد جزيرة عملاقة، صاح عندها أحد الأسرى: "سيبيعوننا هناك، لقد انتهى أمرنا" ثار الأسرى لصياحه من جديد، فأدار الجنود سياطهم لقمعهم، أشار قيس إلى أروى ألا تشترك معهم كى لا تصاب بأذى، لم يستخدم الجند سيوفهم كى لا تخسر صفقة بيعهم، ولكنهم استطاعوا قمعهم، وسيطروا على الوضع، وعند اقتراب السفينة من الجزيرة مشى القبطان لوبيز مختالاً إلى مقدمة السفينة، وبينما يمر بين الأسرى تعثر فى قدم أحدهم، وهوى على ركبتيه، فانقض عندها أحد الأسرى عليه، وجعل رقبته بين سلاسل يديه، فهمَّ الجنود لنجدته، فأشار إليهم لوبيز ألا يتدخلوا، صرخ الأسير بأذنه " لقد قتلت أخى لتنجو من العاصفة" وقف سانتوس أمامه مهدداً، ومهدأ، ولكن يبدو أنه قد اتخذ قراره، فضيق السلاسل على حنجرة القبطان، إنها محاولة لا بأس

بها للانتقام، فإن كان لا بُدَّ من الهزيمة، فلا أقل من أن تفسد على عدوك فـــرحته. أشار سانتوس إلى الجنود بعينيه خلسة، فمزقوا ظهر الأسير بسيوفهم، لكنه لم يترك ما بيديه، فظل محكماً قبضته، ومع خروج نفسه الأخير تُوجت مهمته بالنجاح إذ انقطعت أنفاس القبطان أيضاً. تسللت الفرحة إلى أروى لمقتل زعيمهم، ولكن سرعان ما عاودها الخوف من رد فعلهم، وانتقامهم لمقتله، أسرع سانتوس، وهوى فوق جثة القبطان، وجرَّد نصف جسده العلوى من ثيابه فى محاولة يائسة لإسعافه، فسرت قشعريرة إلى جسد قيس، وهو ينظر مشدوهاً إلى الوشم فوق كتف القبطان، إنه نفس الشىء الذى كان منقوشاً على القلادة التى وجدوها عند مقتل عدى، إنها هى تماماً، تلك القلادة سوف تأخذنا إلى القاتل بلا شك، الفاعل واحد وراء تلك الأحداث كلها، ولكن ما يزال الهدف من وراء ذلك مجهولاً، مَن قتل عدياً، وأراد أن يحملنى دمه، ومن اختطف أروى شخص واحد.

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى وصلوا الجزيرة، فأمر سانتوس بحمل جثمان القبطان، والسيطرة على الأسرى، ونزل الجزيرة، وأرسل إلى قصر الحاكم من يعلمه بالأمر. حاول التصرف بثبات، وهدوء، ولكن كان التوتر مسيطراً على تحركاته ونبرة صوته، فتقدم مشفقاً من مصيره لما قصر فى حماية القبطان.

***

جلس يراقب الشمس، وهي تتواري خلف الأفق، لا تزال تلك الليلة مطبقة علي أنفاسه، كيف يقع مثله في هذا الخطأ؟

تتردد علي وجهه الصفعة، وصوت الأمير " لم تعد... ولا جندياً .. سأقسم عمود خيمتي .... ليقتلني بسيفي ... أخفقت في تربية أبنائي ....". انتبه إلي حلول الظلام، ولم يأتِ أحد، هل يكون قد أخطأ السمع، فذهب إلي مكان خاطىء، علي كل لم يعنِ له ذلك الموعد شيئاً، عامد ساقه وتوكَّأ بكفه فوق

ركبته ونهض، وبينما ينفض الغبار عن يديه سمع خبب جواد من خلفه. نزل القادم عن جواده، ثم قال:

أعتذر عن التأخير أيها القائد.

أجابه طلال في ضيق :

ما عدت قائداً.

أنت كذلك بالنسبة لنا .

نظر إليه طلال، وصبره يوشك علي النفاذ

من أنتم ؟ قلي هل هذه أحجية أم أنك تتلاعب بي ؟

لا عليك، لا عليك.

سأخبرك بكل شيء، ولكن عدني بأن يظل ذلك الكلام بيننا.

صمت طلال لبرهة، فاستأنف جمال :

يجب أن تعلم يا أخي أننا ... أقصد أني لست راضياً عن ما حدث معك، وهناك كثيرون معي علي ذلك.

قد أستحقيت هذا.

أنت لا تفهم، إنه قصد إذلالك أمام الجنود، وإبعادك عن الجيش لانه يخاف من مقتدر مثلك.

ولِمَ يفعل وأنا ....؟

ليس هذا فقط، أرأيت خطبته التي سحر بها الجنود، لم يستطع أن يخفي ضعفه، ونفاقه وخانته الفصاحة.

لم أفهم.

قال بأنه سوف يسلم المدينة، وينثرنا بين الأمم، هل صاحب هذا الضعف يليق بقيادتنا ؟ هل هذا الضعف يجدر به، وهو الذي فلق رؤوسنا بأن العدو قريب والحرب علي الأبواب؟ افتح عينيك أيها القائد، سيحاسبك الله إن لم

تدرك المدينة مع ما آتاك الله من القوة والقدرة، هذا الذي يدعو نفسه أميراً لن يتردد في الفرار حين يجِدُ الجِد، وسيتركنا لمصيرنا كما فعل أول مرة.

أنت تقسو في حكمك عليه.

ألم يفعل ؟ لم يترك قداسة لمصيرها ؟ هل يجدر بنا الوقوف مكتوفي الايدي؟

لم يجد طلال ما يدفع به وساوس جمال الدين، ووافق هذا هوىً فى نفسه بسبب ما مر به.

لكن ماذا تريد مني ؟

هناك الكثيرون ممن ملوا شظف العيش، وضيق الحال معه، ويتطلعون إلي قيادة حكيمة، وأن يقضوا عمرهم في سلام، وقد عزمنا علي الإنشقاق عنه، ودعوته بالحسني لما فيه صلاح المدينة، وإلا حل لنا قتاله.

قتاله ؟! تقاتل قومك ؟

نقاتل ذلك الظالم، ولا أخفيك بأننا نشك في دينه بعد ما عقد الصلح مع عبدة الأوثان، فنحن لن نرفع سيفاً، ولكن سيكون هذا وسيلة للضغط عليه، وإعادته إلى الصواب.

ظل طلال صامتاً يزن ما يسمع، ولم يصدر عنه ما يشي بموقفه، فتابع جمال الدين:

وإن حدث، وخالفتني فاحفظ سري كما وعدت.

***

كان مولياً وجهه إلى المكتبة المنتصبة خلف عرشه، وهو يقلب برفق صفحات لكتاب قديم فى يديه، ثم استقرت عيناه على شىء، فقرأه بصوت مسموع:

إذا غامرت فى شرف مروم ــ فلا تقنع بما دون النجومِ

فطعم الموت فى أمر حقير ــ كطعم الموت فى أمرعظيمِ

أعاد الكتاب، وراح يذرع الخيمة جيئة وذهاباً، وهو مطرق يردد الأبيات بصوت خفيض، جلس على كرسيه ونادى:

أيها الحارس .

دخل قاسم فور ندائه، لم ينظر الأمير إليه، ظل مطرقاً، وهو يهمس بالأبيات، حاول قاسم أن يستبين كلامه، ثم هز رأسه، وقال:

أمرك سأفعل .

رفع الأمير رأسه، ونظر إليه فى استغراب:

ستفعل ماذا ؟ .. تردد قاسم وارتبك

هجومى، أعنى ... نعم أعنى لن أقنع همومى.

تبسم الأمير حتى ظهرت نواجذه، وقال :

أحسنت، فإنها لن تقتنع.

تبسم قاسم غير أنه لازال يتساءل عما يجب فعله، تابع الأمير:

أرسل من يخبر طلالاً أن يوافينى فى معسكر القيادة.

وبينما يهم قاسم بالخروج دلف آخر.

سيدى نزار يرغب فى لقائك.

فاليدخل، قاسم انتظر لحظة.

دخل نزار مرتبكاً، فهون عليه ابتسامة الأمير فى استقباله، ورده تحيته بود، ثم قال :

قل يا نزار من صاحب الأبيات " إذا غامرت فى شرف مرومِ ....

أسرع الفتى قائلاً:

فلا تقنع بما دون النجوم، إنه المتنبى يا سيدى شاعر الحكمة.

تبسم الأمير، ووقف واحتضنه " إنى أحبك يا فتى " ثم نظر إلي قاسم، وقال متبسماً :

أما زلت مُصراً على إقناع همومك ؟

لا يليق بنا أقل من النجوم، ونحن معك.
أحسنت، هيا انطلق.
عاد الأمير إلى مجلسه، ولاحظ انخطاف وجه نزار، وحيرته فى كيف يبدأ ما جاء من أجله، فقال بلطف:
ما أهمك يا صغيرى؟
سيدى .. جمال وأنا ...أعنى.
انعقد صوته، فقال الأمير بصوت خفيض:
هوّن عليك.
ثم أفسح له، وأشار إليه أن يجلس إلى يمينه، فتردد الفتى متهيباً، ربت الأمير برفق فوق المكان الخالى بكرسيه، وأومأ بعينيه أى لا بأس، فتقدم نزار ببطىء، وجلس فى خجل. طوق الأمير كتفه بذراعه، ثم قال مطمئناً " لا تخش شيئاً " .
سيدى إن جمال الدين يحرض الناس ضدكم ويقول إنك كاف.....
قبض نزار لسانه خجلاً، فحرك الأمير رأسه فى فهم، ورفع يده عنه، وزفر وقد تبدلت ملامحه، وذهب عنها مرحها، فانتبه نزار لوقع كلماته فقال:
أعتذر منك يا سيدى
لا عليك يا بنى أنت لم تخطىء، بل إننى أشكرك.
نهض، فقام نزار من خلفه.
هل تأذن لى ؟
أجل، ولكن لا تتورط فى هذا الأمر بعد الآن، ولا تبتعد عن المدينة دون علمى.
ولكن يا سيدى يمكننى المساعدة.
افعل ما آمرك به.

خرج نزار وهو يهمس بنفسه " ليتنى أخبرته بكل ما أعرف، ولكن سأتيقن أولاً " تابع الأمير خروجه، وهمس بنفسه " يكفى أن تكون سالماً " ثم تنكب سيفه وخرج.

***

مرَّ ومن خلفه الحرس بين صفوف الجند الذين وقفوا فى ثبات، وانتباه، ثم توقف عند القبة البيضاء، وأخذ الحرس أماكنهم حولها، تقدم إليه داود وحياه ومن خلفه القائد جسور، وباقى قادة الجيش، ثم وقفوا فى ظهره ودلفوا خلفه إلى الخيمة، وقف عند رأس طاولة تتوسط الخيمة، ثم أشار إلى قاسم، فتقدم وسلمه خريطة تبين الحاضرون عندما بسطها إنها خارطة الدفاع الخاصة بالمدينة، قال وهو يسحب سهماً من جعبة معلقة بقربه" أريدكم أن تنتبهوا " ثم أشار بالسهم إلى نقاط متفرقة على حدود الخارطة، وقال:

سأنشىء فرقاً للكشافة تمشط أطراف المدينة على مدار الساعة، على كل منكم أن ينتخب أسرع فرسانه لتلك المهمة، ستكون فرقاً مستقلة عن القيادة المركزية للجيش، تساءل داوود:

ستتبع من إذاً ؟

سيكون أمرها لى بصورة مباشرة.

ومن سيتولى قيادتها ؟

طلال .

نظر الجميع فى استغراب، ولكنهم التزموا الصمت، أدرك الأمير ما جال فى خاطرهم، أعاد السهم، وقال:

كل خطأ يستحق فرصة أخرى فيما عدا الخيانة.

استأذن أحد الحرس، ودنى من أذن قاسم، وهمس بكلمات، ثم خرج. قال قاسم:

سيدى الأمير إن طلالاً غادر المدينة.

كيف ؟!

رحل عن المدينة.

ضاق صدر الأمير واحمر وجهه، ونفخ فى ضيق، وبينما انشرح قلب جسور وتمنى أن يأخذ المهمة، فأنهى الأمير اجتماعه، قائلاً:

انتخبوا فرسانكم، وسأعين غيره، ثم خرج.

***

لقد تأخروا.

قالها وهو يطوى كتاباً، ويضعه إلى جانبه بعد أن يئس من التركيز فى قرأته، وباله منشغل بتأخر كتيبة العقاب، وانقطاع أخبارهم، وضع وجهه بين كفيه، ومسح ببطىء حاجبيه، ولحيته، كان أنس إلى جانبه منهمكاً فى تنقيح رسالة أملاه إياها، فتساءل:

ألم تنته بعد ؟

قد انتهيت يا سيدى .

أرنى .

قرأها، فسره دقة أنس، وضبطه، فلم يغير حرفاً عما سمع.

أحسنت يا بنى.

رفع غطاءً من فوق تجويف بمسند كرسيه، وأخرج ختمه، فقرب أنس إليه قنديلاً، وجعل الأمير نقوش الختم فوق النار، ثم طبعه أسفل الرسالة، وهو يقول: استعجل فى إرسالها.

خرج أنس، وعاد الأمير يلامس غلاف الكتاب، ولكنه لم يحمله، فدخل قاسم :

سيدى القائد كرشاب حضر للقائكم.

أدخله.

تقدم كرشاب، وانحنى كى لا تصدم رأسه بباب الخيمة، مشى حتى وقف أمام الأمير وحياه. كان أسمر البشرة، فارع الطول، مفتول العضلات، حليق الرأس، واللحية.

طلبتنى يا سيدى .

لعلك سمعت بفرقة البرق والكشافة التى أنشأتها.

هز كرشاب رأسه مقراً بمعرفته، فتابع الأمير:

لقد كلفتك بقيادتها.

استبشرت ملامح كرشاب السمراء لثقة الأمير به، وقال فى حماس:

الامر لك يا سيدى .

قال الأمير، وهو يناوله قرار تعيينه:

لا تنس، مهمتك هى منع الكارثة قبل حدوثها، وحماية المدينة من المباغتة.

لن أخذلك يا سيدى

هذا ظنى بك.

وبينما يشرح الأمير لكرشاب جوهر مهمته، سمع ملهوفاً يطلب مقابلته، فخرج إليه مسرعاً، وكان مصاباً يسيل الدم من جبهته، ويندفق بغزارة من منكبه، ويترنح فى جراحه، منع الأمير سقوطه، وأسنده على ساعده، وقد فقد الوعى، ونادى بالجمع، فأسرع أحدهم، وأحضر قربة ماء جلدية كانت معلقة فى سرج حصان المصاب، بلل الأمير يده، ومسح وجهه برفق.

هل تسمعنى يا بنى ؟

لم يجبه الفتى، فعاود مسح وجهه بالماء، وقرب سبابته من أنفه يتحسس الحياة فيه، مضت لحظات، حتى فتح عينيه، وقال بصوت مبحوح :

أدركنا يا سيدى ..... أحرقونا .. قتلونا

من ؟ من أين مقدمك ؟

شريان .

قالها الفتى، وغاب وعيه مرة أخرى، فنادى الأمير جنوده :

احملوه إلى المشفى بسرعة .

التفت إلى كرشاب، وقال بحزم:

فلتكن هذه مهمتك الأولى، قف على حقيقة الأمر .

أمرك يا سيدى .

انطلق كرشاب كالسهم، وبينما يعود الأمير إلى خيمته رأى فارساً قادماً إليه مسرعاً، علم من زيه أنه من أفراد الإستخبارات، ترجل الفارس، ثم تقدم وسلمه رسالة، استعجل الأمير بفتحها، ثم طواها، وأشار إلى الفارس أن ينصرف.

أنس أعلم القادة، وأهل الرأى باجتماع طارىء.

صعد درج الخيمة، ففتح أحد الحرس الباب، دلف وهو يهمس: " المصائب لا تأتى فُرادى ".

***

شريان قرية صغيرة تابعة للمدينة، تقع فى أعلى نقطة على حدودها الغربية، ورغم طبيعتها الجبلية القاسية إلا أنها غنية بالمعادن النفيسة، ومنبع لنهر شريان الذي يغذي المنطقة، ومنه اكتسبت المدينة إسمها، فكّر الأمير فى جعلها مقراً لحكمه، لكنه عدل عن ذلك لصغر مساحتها، وصعوبة تضاريسها، فأولاها اهتماماً كبيراً. وصل كرشاب على رأس فرقته، واصطدم برائحة الموت المنبعثة من أرجائها، لقد دمَّر المهاجمون المدينة عن آخرها، وأخمدوا نبض الحياة فيها، فوزع رجاله، وتقدم بحذر من وجود كمين، وتأكد من خلوها من الكمائن، ومن أهلها أيضاً، فقد سفح المهاجمون دماءهم، ورحلوا، ترجل بين أكوام القتلى، ولم يجد مصاباً واحداً يمكن إسعافه، جميهم ما بين مصلوب، وحريق، وذبيح.

يا إلهى ليس للشياطين مثل هذا الإجرام.

أيها القائد ... انظر هنا.

التفت كرشاب، وذهب إلى حيث أشار الجندى، شخصت عيناه أمام أخدود عظيم تفحمت به جثث الأطفال، فكمم أنفه لبشاعة الرائحة، وصرف بصره عن مشهدهم، ثم صرخ برجاله:

جدوا هؤلاء الملاعين .

وقبل انصرافه انتبه إلى لافتة عُلِقت على شفا الأخدود طالت النيران جزءاً منها، وقرأ الكلمات الباقية متعجباً " ..... إلا فاجراً كفاراً "

زمجر قائلاً " لن تفلتوا منى "

أيها الجندى، عُدْ إلى المدينة، وأخبر الأمير بما حدث، وأعلمه أننى قد انطلقت فى طلبهم.

انبرى كرشاب يفتش عن آثر لهم، ثم ناداه أحد الجنود:

سيدى، انظر .

أسرع إليه، وتفحص الأثر، ونهض وهو ينفض التراب عن يده .

تجمعوا، تجمعوا، لقد فروا فى اتجاه الغرب، سنلاحقهم، هيا.

***

اجتمع الأمير بأهل الرأى، وقبل بدأ الاجتماع استأذن داوود، واعتذر فى خجل عن تأخره.

ما الذى أخرك؟

المعذرة يا سيدى ، لم أقصد جعلكم تنتظرون لقد ......

لا بأس اجلس.

مشى، واتخذ مقعده على يسار الأمير، يقابله البيرونى متبسماً إليه فى ود أراحه بعض الشىء، ورغم أن الأمير قد تجاوز الأمر إلا أن محمداً كان يرمقه بحنق لم يُلقِ له داوود بالاً.

لقد بلغتنى الأخبار بتحرك جيش الظلاميين إلى المدينة.

زمَّ إبراهيم شفتيه، وكتم غيظه "كيف عرف الداهية بهذه السرعة" تابع الأمير:

وقد عزمت على قتالهم من خلف أسوار المدينة فما قولكم ؟

اختلفت الآراء، وتبارت الحجج، بعضهم رأى القتال من خلف الأسوار أفضل لهم لمناعتها، وأخرون يرون الخروج أفضل، وبينما يدلى كل بما يراه كان الأمير يستمع إليهم، وهو يرمق إبراهيم الذى كان مطرقاً متجهم الوجه، وضائق الصدر لإطلاع الأمير على تحرك الجيش فى وقت باكر يسمح بالإستعداد له، فبادره الأمير:

ما قولك أنت ؟

ارتبك لسؤال الأمير بشكل مفاجىء، ثم صمت لحظة، وقال:

نقاتلهم من خلف الأسور يا سيدى .

أسند الأمير سيفه إلى جانبه، ونهض، فوقف الحاضرون معه.

حسنا لنشرع فى توسيع الخندق، وتقوية الأسوار .

التفت إلى داود، وقال:

باشر أعمال الحفر، ونصب المتاريس بنفسك .

أمرك يا سيدى.

سعل إبراهيم، وابتلع ريقه، ثم قال:

سيرد الله كيدهم فى نحورهم، وإذا أذنت لى يا سيدى، أريد متابعة احتياج الجيش، وتسليحه، وتمويله من مالى الخاص، فلمثل هذا اليوم ادخرته.

انبهر الحاضرون بسخائه، وكرمه، ودوى المجلس بالثناء عليه، فتبسم الأمير:

هل اعتبر هذا إذناً منك بسحب ما نحتاجه من أموالك فى بيت المال ؟

لم يشعر إبراهيم بارتياح لتبسمه، وكلامه ولكنه أحرجه، فقال فى تردد :

بالطبع، بالطبع.

هزّ الأمير رأسه شاكراً، ثم التفت إلى داود من جديد:

أحصى ما ينقصك على وجه السرعة، وأعلمنى به، وسأوفره لك.
أمرك يا سيدى .
أما أنت يا شيخ إبراهيم فلا أجد ما يفى حقك، سأعتبر هذا ديناً فى رقبتى.
العفو يا سيدى، كله من فضلكم.
وفيما يخص متابعة التسليح، فهناك من يقوم بهذا عنك، فأنا بحاجة لك معى.
امتعض وجه إبراهيم، وحاول أن يتقنع بابتسامة مصطنعة بعد فشل سعيه للإطلاع على تسليح الجيش، وقبل أن ينهى الأمير اجتماعهم، دخل قاسم:
سيدى أحد جنود الكشافة يطلب الدخول .
وقف الجندى مرتبكاً لانتباه الأمير له والعيون المتعلقة عليه، ثم استجمع نفسه وقص عليهم ما كان من أمر شريان، فكاد الدم ينفجر من عروق الأمير غضباً، فتابع الجندى:
حفروا أخدوداً عظيماً، وأحرقوا فيه أطفال القرية، ووجدنا هذه اللافتة مرفوعة فوقها "...... إلا فاجراً كفاراً " ، وقد خرج القائد كرشاب فى طلبهم زمجر الأمير :
هكذا إذاً ؟ قاسم .
دخل قاسم مسرعاً فور ندائه:
جِدْ جمال الدين، وأحضره إلَىَّ فوراً، لقد بدأت الحرب أسرع مما توقعت، وأنت يا داود تحرك من فورك، وكن على رأس مهمتك، ولا تغادر المعسكر إلا بإذنى، واستعدوا جميعاً، فإننى أعلن النفير العام من تلك اللحظة .

***

شىء همس بقلبه، فأوجد فيه كرهاً وتوجساً شديدين تجاه إبراهيم، منذ انتهاء الاجتماع، وصورة وجهه المتجهم لا تفارقه، توالت بعدها مواقفه المتفرقة، تذكر اضطرابه يوم جمع الناس، وتوعد من أشاع البهتان عنه وعن

حنين، ودموعه المنافقة فى جنازة عدى، وانبساط ملامحه لخروج كتيبة العقاب، وطلبه لمتابعة التسليح وتأييده القتال من وراء الأسوار " لا بأس أيها الثعلب العجوز، سنرى " زفر بصوت مسموع، وأطرق ملياً حتى دخل قاسم.

سيدى، جمال الدين غير موجود .

كما توقعت.

سكت قاسم، فانتبه الأمير إلى شىء يدور فى باله، وثقل بقوله لسانه.

قل.

سيدى قد رصدت عيوننا منذ أيام خروجه، وبلغتنا أخبار عن انضمام قطاع الطرق، والمحكومين إليه، وقد تبعهم عدد من فتيان المدينة، ولكننى ...

ولكنك ماذا ؟ كيف تُخْفِى شيئاً كهذا عنى.

سامحنى يا سيدى لم أُقصد إخفاء شيء، لم أتوقع أن الأمر بهذه الخطورة إياك، وأن تعيدها .

هز قاسم رأسه، وهو صاغر، ثم همس " وقد خرج نزار وراءهم " نهض الأمير، وقال بقلق :

من ؟ قلت نزار ؟

تأفف وخرج مسرعاً، وهو يرمق ظل سلاف وراء الستار.

***

هناك شىء بين معاوية وهذا الفتى نزار يجب أن أتصرف، خرجت قاصدة سوق المدينة، فهمَّ حارس الخيمة بمرافقتها، ولكنها أشارت إليه بحزم " أبق مكانك ". كانت أخبار الحرب قد انتشرت بين الناس مثل النار فى الهشيم لذا بدأ بعض تجار السوق فى تخزين ما لديهم لعرضه عند اشتداد الأزمة. شرع نديم صاحب دكان الحبوب، والغلال فى سحب بضاعته للمخازن

ليبيعها فى وقت الحصار بسعر باهظ، وبينما يُملى تعليماته على أحد غلمانه وهو متكأ على أريكة تتوسط دكانه رَءَاها تتفقد الباعة قرب دكانه، فاعتدل فى جلسته، وتظاهر بعدم الانتظار، لكنه ظل يسترق النظر إليها بين الحين والآخر، نهض وحياها فى احترام عندما وقفت عند مدخل دكانه:

كيف حال تجارتك ؟

بخير مادام أميرنا، وأهله بخير.

أرجو أن تراعى الأمانة فى عملك، ولا تستغل أزمة الأهالى عند الحرب

بالطبع يا سيدتى لن نضيق على أهلنا.

قوست سلاف شفتيها للأسفل، وأومأت برأسها كأنها قد اقتنعت بنزاهته، وأخذت تتفقد البضائع، ثم دسَّت كفها برفق داخل كيس من القمح، وأخرجتها وهى تنظرالحبوب فى كفها، ثم أعادتها إلى كيسها، وقالت :

لا بأس، هذا جيد.

فركت أناملها بهدوء وأنفة، وأثناء انصرافها لاحظت عجوزاً يفترش الأرض أسفل جدار يقابل دكان نديم، كان ينظر نحوهما بعين راجية، فدنت منه، وتبسمت، ووضعت فى كفه قطعت ذهبية، تهلل بها وجهه، وانبسطت تجاعيده، وبعدما توارت سلاف عن الأنظار، أرسل نديم غلامه لتحصيل بعض ديون زبائنه، ودنى فى تؤدة من كيس القمح، ونبش سطح غلاله، ثم استخرج برفق قصاصة ملفوفة، أسرع وخبأها داخل نطاقه.

***

وصل مبنى بيت المال، وقبل دخوله اعترضه أحد الحرس، وعلم مقصده ثم أشار إليه، وقال بلطف :

قيد اسمك فى قائمة الزائرين إذا تكرمت يا سيدى.

هز رأسه فى ود، ومشى خطوتين إلى الكاتب الذى حياه متبسماً، وخاطبه باللهجة المهذبة نفسها:

ما اسمك يا سيدى ؟

نديم.

حسناً تفضل، وأعطاه قرصاً معدنياً نُقِش عليه دوره فى تلقى الخدمة. نظر نديم فى الرقم، ثم مدَّ بصره إلى آخر الصالة حيث أحد العمال يرفع لوحة تحمل، رقم خمسة وثلاثين، ثم نادى بالرقم ثلاث مرات، غمغم نديم " جيد لن انتظر طويلاً "، وقبل جلوسه توالت الأرقام لينادى العامل برقمه.

ثمانية وثلاثون، ثمانية وثلاثون .....

تقدم إلى إحدى الطاولات فى آخر الصالة، وترك قرصه المعدنى أمام الموظف، وجلس، سأله الموظف بصوت خفيض:

كيف أساعدك يا سيدى ؟

سأودع هذا المال فى أمانتى لديكم.

كم رقمها ؟

أمسك نديم بورقة بينه وبين الموظف، وبلل ريشته فى المحبرة، ورسم ↑↑↑☼ . أومأ الموظف متفهماً فى هدوء، وحمل كيس النقود، وصعد إلى الأعلى بينما انصرف نديم .

***

كان إبراهيم يطالع دفاتره عندما طرق الباب برفق :

تعال .

لقد ترك موظف الإستقبال هذا، أودعه أحد عملائنا.

أشار إبراهيم إليه، فوضع الكيس، وقصاصة الورق أمامه وانصرف، قرأ إبراهيم الرموز، وفتح كيس النقود، واستخرج قصاصة صغيرة، تبسم عندما رأى خطَّها.

أختى الغالية .

قرأها فى تمعن، ثم طواها وخرج .

***

جلست تطالع السماء بعينين شاردتين، وشفتين ارتسمت عليهما ابتسامة هائمة، وهى تداعب سالفاً تدلى عند وجنتها، تلفه حول سبابتها ثم ترسله، لم يتسع جو السماء لها، فأسرعت إلى غرفة نزار، ووقفت عند طاولة أسفل النافذة تكدست فوقها كتب اصطفت فى ثلاثة أعمدة، وأسندت إلى الجدار مع أقلام، ومحبرة، فأمسكت بالمحبرة، وراحت تبحث بين الفوضى وهى تدندن " ودع الصبر محب ودعك ــ ذائع من سره ما استودعك

يا أخا البدر سنــاء وسنى ــ حفظ الله زمــانا أطلعــــك " ثم ها وجدتك .

سحبت بأناملها قصاصة ورق، وعادت إلى غرفتها، راحت تبوح للورقة بما لا تستطيع قوله، فانهمكت فى الكتابة حتى انعزلت عما حولها، ثم أفزعها قرع الباب مع صوت قاسم " يا نزار الأمير يستأذن " ارتجف قلبها لقوله، نهضت، وأخذت تذرع الغرفة فى توتر، أمسكت الورقة " يا إلهى تُراه علم ما كتبت فيها ؟ حمقاء " طوتها، وخبأتها أسفل وسادتها، وضربت حجابها، ونزلت مسرعة. انخطف وجهها لملامح الأمير الغاضبة، وقالت بصوت خفيض:

أمرك يا سيدى .

أين نزار ؟

لقد خرج من الضحى، ولم يعد .

تمالك الأمير غيظه، زفر وتساءل :

حسناً، فإلى أين ذهب ؟

هل اقترف ذنباً أغضبكم ؟ قال بصبر نافذ:

أجيبى يا امرأة، إلى أين ذهب ؟

ازدردت ريقها، ونطقت بصعوبة :

لا أعلم .
زمجر بوجهها:
فما عملك إذاً ؟ ألم أقل لك لا تدعيه يتدخل فى أمر جمال الدين، ألم آمره بألا يغادر المدينة دون إذنى ؟
بكت، وارتعدت بين غضب الأمير، وخوفها من الخطر الذى أحست به حول ولدها، قالت بصوت مزقه البكاء:
لم يستجب لى، نصحته فلم يسمع، ولكنه وعدنى أنه لن يخرج بعد اليوم.
عند هذا الفتى ما يعرفه، هل قال لك لماذا خرج ؟
قال سوف أقضى اليوم حق الأمير علينا.
صمت، وزم شفتيه، ولامست الكلمة قلبه، وزادت بها مكانة الفتى عنده، قال بهدوء :
رباه، ومن قال أن لى حقاً عليكم.
التفت إلى قاسم، وأمره:
إذهب ، وابحث عنه، وأتنى به ، هيا.

***

نزل الأسرى الجزيرة، والمعروفة عند أهلها " بالجزيرة الحمراء " كانت فى قمة البهاء، والرقى، وتحوط الأشجار شوارعها من كل جانب، طرقها ممهدة، ومذللة للسير، ومعشوشبة الأطراف، يمنحها قصر الحاكم الشامخ فى وسطها هيبة ورهبة، يمكن رؤيته من أى مكان فوق الجزيرة، لم يسمع قيس بها من قبل، أمرهم سانتوس أن يقطعوا طريقهم داخل الجزيرة مشياً على الأقدام، فعل ذلك عمداً، لكى يشاهدوا عظمة الجزيرة التى سيكونون عبيد أسيادها، إنها حرب نفسية ليفقدوا الثقة فى أنفسهم، فيقبلوا مذعنين بالعيش تحت الأقدام، ومع توغلهم بين أهل الجزيرة تبين لهم أن لكل منهم حظه من العبودية، والسيادة فى الوقت نفسه، فالسيد فى موقف قد يكون عبداً فى آخر.

ها هو ذلك المتعجرف يتكىء فى ملابسه الحريرة فوق محفة يحملها أربعة من العبيد، يطالع الدنيا من علٍ، وكأنه يمسك مقاليدها، ثم ما لبث أن أمر حملة محفته، فتوقفوا، ونزل مسرعاً ليركع أمام رجل آخر كان يتأهب لركوب عربة تجرها الخيول، مروا بتاجر أمام حانوته يجر أحد غلمانه من أذنه لعمل يريده، ثم تحول عبوسه إلى ابتسامة عريضة أمام رجل جاء ليبتاع منه، فحنى قامته، وسال لعابه، وهو ينظر إلى الذهب يتلألأ فى كيس زبونه، وأدهى من ذلك أن العبيد أنفسهم اكتسبوا تلك الخصال التى فى طباع ساداتهم، فتقمصوا أفعالهم مع العبيد الأدنى أهمية، أو الأضعف قوة، بينما هم فى طريقهم صاح سانتوس، فتوقفوا لمرور موكب الأميرة دارين، تقدمت عربتها محوطة بالجند، وتوقفت أمامهم فخر سانتوس، ومن معه راكعين، فتح أحد الحرس باب العربة، فنزلت الأميرة، وأمأت برأسها فى تحيتهم، فنهض سانتوس، ومن معه، ولكن ظلوا صاغرين، مررت دارين عينيها بسرعة بين الأسرى، ثم استقرت على ذلك الشاب الذى بدا لا يعبأ بمهابة الموكب، ووجودها، كان منشغلاً بالنظر إلى معصمه، يديره فى الأساور التى حوله، ولم ينتبه لها، ولكن عيناً أخرى التقطت نظرتها إليه منذ زمن، رمقته أروى فى حنق وقد شعرت بوخزة فى قلبها، وارتفعت حرارتها بعض الشىء، غمغمت من تحت أسنانها الموصدة "الويل لك " انتبه قيس لنظرتها إليه، والشرر المتطاير منها، فقطب حاجبيه مستفهماً أى "ما الذى فعلته ؟ " ثم انصرفت دارين، وأمرهم سانتوس بمتابعة المسير.

***

كل هذه الفوضى، وتلك الخيانات يقف خلفها فاعل واحد، ليس سواهم يسعى لمثل تلك الدناءة، يتغير القناع ولا يتغير من هم خلفه، لأحبطن سعيكم، وأتركه رماداً منثوراً. دخلت سلاف، وتفاجأت من عودته بهذه السرعة، فانتبه لها وقال بنبرة مستنكرة :

فيمَ خروجك المتكرر دون إذنى ؟

مشت إليه متبسمة، وهمت بالجلوس إلى جانبه، فأشار إليها ألا تقترب، تجاوزت صدَّه لها، وقالت بهدوء :

لقد سمحت لى بهذا، ولكن ما دام الأمر يزعجك فلن أخرج.

إذهبى إلى جناحك . .... قالها وهو كظيم .

اعتدل عندما لمعت أمامه فكرة أخرى، فلقد كان إبراهيم هو من سعى لزواجه منها يوم جاءت لاجئةً إلى المدينة، أرجأ التفكير فيهما، وعاد يفكر فى مصير نزار، تذكر كلمات حنين " قال بأننى سوف أقضى حق الأمير علينا " لم تفشل يوماً فى مفاجأتى أيها الفتى، ولكن من قال أن لى حقاً عليك يا صغيرى، لن أنتظر أكثر. قام، وتنكب سيفه، وقوسه، وقبض حربته وبينما يهم بالخروج دخل قاسم، وبادره متسائلاً بعينيه، التقط قاسم أنفاسه، وقال:

لقد خرج فى إتجاه الشمال .

فلنسرع .

وقبل خروجه من الخيمة دخل إليه أحد الحرس .

سيدى، جرير يطلب لقاءكم.

من جرير؟

إنه فتى شريان، ويقول بأنه قد تذكر أوصاف قائد المهاجمين.

ممتاز، أحدثه عندما أعود .

خرج مسرعاً، وعندما امتطى جواده، وصل كرشاب، وتطلع الأمير إليه، فعلم من ملامحه المنهزمة أنه لم يتوصل لشىء، فقال:

تعال معى .

نزل درجات الخيمة مهرولاً، ثم امتطى جواده، وانطلق ومن خلفه كرشاب وفرقته. استرقت سلاف سمع ما دار فى الخيمة، أخذت تفكر وهى تقرض أظافرها، ثم ذهبت إلى إستراحتها.

***

فى السهول المهجورة قرب الجبال الشمالية للمدينة ضرب جمال الدين معسكره مع من تبعه من السفهاء، وشذاذ الآفاق، إضافة إلى المرتزقة الذين أمده بهم إبراهيم، جلس مع مراد مساعده، وحافظ أسراره، ومعهم جاسم قائد المرتزقة يتناجون فى خيمته، ولم تفارق الضحكة وجوههم، صمتوا ملياً، ثم قال جمال الدين :

الحق أن الشيخ إبراهيم قد فاجأنى، كما أن القائد جسوراً قد تمكن من تدمير شريان دون خسائر، ودون أن يترك أثراً واحداً يمكنهم من تعقبنا.

ماذا عن طلال ؟

ما زلت فى حاجة إليه لبعض الوقت .

أومأ مراد برأسه متفهماً، ثم فزعوا عندما انفتح باب الخيمة على مصرعيه ودخل طلال غاضباً. نظر كل منهم إلى الآخر، ثم قال جمال الدين :

ما الأمر أيها القائد ؟

أحقاً ما سمعته ؟ هل أمرت بإبادة شريان ؟

نهض جمال الدين، وقال مهادناً:

هون عليك أيها القائد، فإننا لا نريق دماً إلا بحقه.

وهل دم الأطفال ... قاطعه جمال الدين فى حزم، وهو يهزُّ سبابته فى وجهه:

ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً يا أخى.

أدرك طلال مصيبته، وأنه قد تم التلاعب به، واستغلاله، فخرج غاضباً إلى صفوف المتدربين، قال مراد:

سينقلب هذا المغفل علينا .

احتاجه فهو يحفظ خطة دفاع المدينة، وحراستها .

ماذا إن همّ بفعل شيء ضدنا ؟

راقبه جيداً، فإذا بدا منه ما يريبك فاقتله.

خرج مراد، ثم دخل من بعده أحد أتباعه، وأعطاه رسالة جاءت عن طريق الحمام الزاجل، فانتفض عندما رأى ختمها، وفض الرسالة، ثم خرج مسرعاً إلى صفوف المتدربين، وظل يمعن النظر فيهم يبحث عن أحد بينهم، لاحظ طلال توتره، وقبل أن يسأله، صاح جمال الدين:

اجلبوا نزاراً إلي فوراً . أين هو ؟ أجابه أحدهم :

لقد خرج منذ قليل مسرعاً على جواده .

صاح جمال الدين فى غضب :

انطلقوا خلفه حتى تجدوه، فإذا وجدتموه فاقتلوه.

صرخ طلال به :

لماذا ؟

لقد خاننا، ووشى بنا عند معاوية .

ما هذا التساهل فى سفك الدماء، أوكلما ضقتَ بأحد سفحت دمه؟

زمجر جمال الدين:

إياك ومناقشة قراراتى، والآن الزم خيمتك، ولا تخرج منها حتى آمرك.

أشار إلى إثنين من المرتزقة، وأمرهما :

كونا معه، فإن خالف أمرى، فاضربوا عنقه وأتوا برأسه إلى.

***

" قد اكتملت دائرة المجرمين، يجب أن أخبر الأمير بهم، وبما أجرموا " أطلق نزار عنان فرسه فى سباق مع الزمن قاصداً المدينة، فركض بأقصى ما يستطيعه، ثم أجبر على إبطاء عدْوِه لتعرق الجواد، فتوقف مضطراً لأخذ استراحة قصيرة، انتحى خلف صخرة، وهو يراقب الجواد، ويحصى عليه أنفاسه. هيا يا جناحى ليس هذا وقت التباطؤ. أوى إلى الصخرة يراقب الأنحاء كى لا يباغته قدومهم، وما لبث حتى رأى سحب الغبار تزحف نحوه، لقد أدركونى، نزل مسرعاً، وامتطى جواده، وانطلق، فراعه سحب

أخرى من الغبار آتية من الجهة التى يركض نحوها، تردد للحظات ثم استبشر، إنه الأمير، تابع السير نحوه، وضاعف المطاردون سرعتهم صرخ قائدهم به " توقف " كانوا أقرب له من الأمير، فلم يلتف نزار لندائه، تقدم الأمير نحوه بسرعة فاق بها من معه بمسافة، ثم صرخ نزار لسهم نشب فى ظهره وبرز من صدره، فاضطرب جواده، عندما قبض على لجامه بعنف يناسب ألمه، وطرحه أرضاً. صرخ الأمير باسمه، حاول نزار النهوض فغُلِب، ووصل إليه قائد المطاردين، وأوشك على قطع رأسه، ولكن رماه الأمير بحربته، فاخترقت صدره، وأرداه من فوره، ثم وصل والتحم مع الباقين. تبعه كرشاب ومن معه، وحاصروهم، قاتلهم قتالاً عنيفاً حتى أفناهم جميعاً ما عدا واحداً منهم بارزه، وأسره، ثم أمرهم " أحكموا وثاق هذا الكلب " ثم هرول إلى الفتى المدد، وزرع سيفه أرضاً، وركع على ركبته وقدمه، وأسند رأس نزار على ساعده، ومسح وجنته وجبينه فى رفق، وهمس به:

ستكون بخير يا صغيرى، لا تقلق .

سعل بوهن، والدم ينبثق من فمه، ثم قال بصوت ضعيف:

سيدى ... أمى .. أمى

لا عليك .. لا عليك .

التقط نزار أنفاسه المتقطعة، ثم سعل مجدداً، وقال:

سيقتلها .. جمال ..... لا تسمح ...... بهذا

لا تقلق ستكونان بخير.

قالها والدموع تلمع في عينيه السوداوين، وتابع نزار:

سامحنى إذ أسأت الظن فيك يوماً.

أجابه بصوت متهدج:

ششششش لا عليك .

انهمر دمعه، فانعجن بغبار القتال، قبّلَ يد الفتى، وهو يراقب انسحاب الحياة من عينيه الذابلتين، ثم ولَّى وجهه، وأغمض عينيه عندما رءاه يهمس موجهاً سبابته للسماء، ثم عادت. أسند جبهته إلى رأس الفتى، وقال بصوت باكٍ مسموع " لآخذنهم بك أخذ عاد " ضحك الأسير شامتاً، وقال :

سيحين وقت إرسالك إلى النار أيضاً.

وقعت كلمته كالجمر فى قلبه، فنظر إليه، ثم أسند رأس نزار برفق، ونهض، وطرحه أرضاً، وانهال عليه باللكمات، حتى ضيَّع ملامحه، وهشَّم رأسه بقبضته فمات، وصرخ متوعداً " لآخذنكم به أخذ عااااااد " ثم نهض وقال لاثنين من جنوده:

احملوا أخاكم إلى المدينة، ولا تدخلوها حتى أرجع . قال كرشاب:

بمَ تأمرنا يا سيدى ؟

لقد أطفأ المجرمون أملاً كنت أعده للمدينة، فلن أرجع حتى انتقم له.

مشى إلى جثة قائد المطاردين، ووضع قدمه على صدره، وانتزع حربته منه، ومسح بوجه كفه دموعه، وامتطى جواده، وراح يقتفى آثارهم.

***

وصلوا سوق النخاسة بعدما أنهكهم السير وسط الجزيرة وضوضائها، وعيون أهلها التى تنبأهم بمصيرهم الحالك، تابعوا طريقهم، ثم توقفوا عند منصة يعتليها رجل قصير القامة، بدين الجسد، ذو صوت جهور ينادى بصفات طفل على يمينه، ويغرى الناس بشرائه، أعاد سانتوس ترتيب الأسرى، وبدأ في دفعهم مثنى مثنى إلى المنصة لعرضهم للبيع، شعر قيس بقلة حيلته، وأن الامور قد انفرط زمامها، ولم يعد أمامه سوى أن يشتريهما رجل واحد، ثم يتولى هو أمر المشترى بعد ذلك. استطاع أن يكون بجانبها أثناء تنظيمهم للعرض.

لا تتركنى .

قالتها أروى بنبرة راجية، وعيناها تحملان تعلق الغريق بطوق نجاته، أحس بخوفها، وأجابها هامساً:

لن أتركك، سأخرجك من هنا، أعدك .

تلفت حوله، وتأكد من انشغال الحرس عنه، وسحب حجابها الملفوف حول ساعده، وناولها إياه، تبسمت فى امتنان، وغطت رأسها، أردف قيس :

عندما يحين الوقت سأعيد قلادتك أيضاً.

أعرف .

قالتها بثقة، وهى تخبىء آخر خصلة من شعرها.

قطع لحظتهم المختلسة قدوم مجموعة من الجند إلى المنصة، فنزل المنادى فور رؤيتهم، ووقف عند ركاب قائدهم، وقال:

سيدى القائد أنطونيو. فسأله الفارس بصلف:

أين سانتوس ؟

قالها قائد الحرس وهو يبحث عنه بين الأسرى والجنود، ولم يكد ينهى تساؤله حتى، وثب سانتوس، وانحنى أمامه.

بين يديك يا سيدى .

سأله انطونيو بحدة :

كيف قتل القبطان لوبيز أيها القائد وهو فى حراستك، وبين جنودك ؟

ابتلع سانتوس ريقه بصعوبه، وقال:

الغدر يا سيدى فى طباع العبيد جميعاً.

ترجل انطونيو، ثم سأله " أين أمانة الحكماء ؟ "

أشار إلى أروى، وأردف " تلك الفتاة يا سيدى " مشى أنطونيو إليها، وسانتوس من خلفه، ثم انحنى لها، وقال محيياً:

سيدتى.

استغربت أروى لفعله، ثم جفلت عندما استل سيفه، واستدار بحركة مفاجئة، وقطع رأس سانتوس، فزع الجميع، وتسارع خفقان قيس، وبدا جلياً أمامه أنهم جاؤوا لأخذها، ماذا أفعل؟ لو علموا صلتى بها سيقتلوننى، ولن أستطيع إنقاذها. أزال أنطونيو سلاسلها، وأشار إليها لتصعد العربة، وبدأ قيس يثور فى سلاسله، وثار معه باقى الأسرى، فظن الجنود أنه يغالب، ويرفض أن يُباع، فتكاثروا عليه، وشدوا وثاقه، فغالبهم، وصرخ، وزمجر وعينه إلى العربة، وهى تبتعد بها عنه، ثم أصعده الجنود بصعوبة إلى المنصة، فتسارع الناس فى طلبه، قبل أن ينادى النخاس بصفاته، ثم أسكت الجميع أحد الرجال يعرض ثمناً باهظاً لشرائه، فسكن قيس، ونظر مندهشاً إليه:

عمر ؟!

إطمأن لخلاصه، وتمنَّى لو أنه بكَّر قليلاً فلربما استطاع إنقاذ أروى، انفجرت ضحكة النخاس لمكسبه، وبدأ ينزع الأغلال من حول قدمى قيس بنفسه من شدة الفرح. انتبه قيس إلى وجود صهيب، وعمرو، والزير بين الحشود. أزال النخاس السلاسل عن قدميه، وبينما يحرر يديه توقف عندما سمع النداء:

أريد هذا.

التفت النخاس، ثم انفرجت شفتيه بابتسامة عريضة، فأمر رجاله بأن يُعيدوا القيود إليه، ونزل من فوق منصته، وقال متملقاً:

الأميرة دراين، كما تأمرين يا سيدتى.

أشارت إلى أحد حرسها فألقى إليه كيساً من الذهب، فصرخ عمر به:

أنا من اشتراه منك أولاً، إنه لى، ولن أبيعه.

نظر إليه النخاس مزدرياً، وقال :

ومن تظن نفسك ليكون لك وزناً مع كلام الأميرة .

انقض عمر على نحر النخاس، وقال بحنق :

قلت لك لن أتركه.

التفت إلى الأميرة دارين، وقال فى عناد :
يمكنكِ أن تشترى غيره.
تبادل كلاهما نظرات متحدية لثوانٍ، ثم صاح به أحد حرسها:
انصرف قبل أن يُراق دمك.
جرَّد الحرس سيوفهم، فأشارت دارين ألا يتدخلوا، ثم أمرتهم بهدوء:
أحضروه .
أسرعوا إلى قيس، وحملوه إلى عربتها، ثم دلفت خلفه، وانصرفت.
ظل صهيب، وباقى أفراد كتيبة العقاب ينظرون إلى عمر في انتظار أوامره، لكنه فضل السكون، ولم يشتبك معهم.

***

احترق طلال من الغيظ، كيف كنت فى هذا العمى؟ كيف تحملت إثم دماء الأبرياء، ذنبى لا يمحوه إلا الدم، سأقتلك أيها الأفَّاق. نادى الحارسين اللذين كلفهما جمال الدين بحراسته " أريد مقابلة جمال الدين " فأجابه أحدهما "قد أمرنا بألا نسمح لك بالخروج" هزَّ طلال رأسه متفهماً، ثم باغتهما، فانتزع سيف الحارس، وقتلهما وخرج، مشى إلى خيمة جمال الدين عازماً على قتله، وقتال من معه حتى يُقتل، وبينما يقترب منها سمع حارس المراقبة خلف المعسكر يصيح مفزوعاً " هناك هجوووووووووم ، السلاح السلاح " خرج جمال الدين، ومراد، وجاسم وحولهم رهط من أتباعهم، فزع عندما رأى النار اشتعلت من خلفهم فى مؤخرة المعسكر، فقد شَرَّد كرشاب بهم من خلفهم، فانحصروا إلى مقدمة المعسكر، وقلبه، وانضمت الأطراف إلي القلب فى فوضى، فصرخ جمال الدين آمراً بالإنسحاب فى إتجاه المقدمة بأقل الخسائر. تسرب إلي قلبه بعض الأمان لإبتعاده عن كرشاب، فولَّى هارباً، ولكن كانت المفاجأة بأن وجد الأمير فى وجهه من الجهة المقابلة، فأدرك الحيلة بعد فوات الوقت، لقد وضعه الأمير بين فكيه حيث أمر

كرشاب أن يأخذ نصف المقاتلين، ويلتف بهم. وقف مشدوهاً، وشُلَّ تفكيره، فلم يصدر لمن معه أى أمر، عاجله الأمير، ومال عليه، فتراجع جمال وسط الجموع متجنّباً مواجهته، فقاتل الأخير وعينه تفتش فى الوجوه عنه حتى اهتدى إليه وسط رهطه، دار بفرسه دورة كاملة وجندل من حوله، ثم انحنى، وانتزع حربته من جسد أحد القتلى، ورمى جمال الدين بها فانبطح عنها فأفلتته، ودقت صدر الذى خلفه، فأسرع الأمير إليهم، وترجل واشتبك بمن حول جمال، قتل بعضهم وفرَّ آخرون، ثم تقدم مراد للدفع عنه، فدحرج الأمير رأسه بضربة واحدة دون مبارزة، انخلع قلب جمال الدين، ثبت السيف فى يده المرتجفة بالأخرى، وفى محاولة يائسة سدد ضربة إلى الأمير، فبتر الأخير ذراعه، ثم هاجم الأمير بعض المرتزقة فانشغل بقتالهم، واستغل جمال الفرصة، وهرب من أرض المعركة، وهو يصرخ متوجعاً. ازداد غيظ الأمير، لإفلاته فأمر من يقتفى أثره، وتابع القتال بضراوة التهب منها نشاط كرشاب، فراح ينهش فيهم كذئب جريح.

كان طلال يراقب القتال، وسيفه لازال مجرداً منذ تحركه لقتل جمال الدين، وفجأة وجد نفسه فى مواجهة الأمير، فحزن لرؤيته، وزم شفتيه، وقال فى ضيق " طلال، الغافل دائماً، هيا تعال " تقدم طلال، ورمى سيفه بين يديه، وركع أمامه، وضع الأمير سيفه عند نحره " هل أنت من درَّب هؤلاء السفلة على قتل إخوانك "

أقسم أننى لم أكن أعلم، لقد خدعنى هذا الحقير، وكنت قد هممت بقتله عندما علمت خبثه لولا وصولكم.

تقهقر أتباع جمال، والمرتزقة، وصاح بهم جاسم " لقد فرّ جمال الدين فاهربوا " تفرق جمعهم بعد مقتلة عظيمة أوقعها الأمير بهم، وتجمع الرجال حوله فأمرهم بتقييد طلال، وجرَّ جثة مراد من قدميه حتى المدينة، وصلبه على أبوابها.

سقطت الشمس وراء الأفق، وبدأ الظلام يتأهب للنزول، ومع نداء المغرب حل وقت تبديل المناوبات بين أطقم التمريض داخل المشفى، كانت الممرات خالية على العكس من غرفة تبديل الملابس، فقد ضجت بضحكات متداخلة لفتيات التمريض، وهنَّ يتبادلن الحديث فى عجالة بين من تنزع ثياب العمل وترتدي عباءتها للمغادرة، ومن تتجهز لتستلم المناوبة، كانت العينان الخضراوان ترقبان المشفى عن بعد من وراء نقابها، وعندما أسرع حارس المكان بالمغادرة لإدراك الصلاة تسللت إلى المشفى قبل عودته. ليس لدى الكثير من الوقت. تفحصت أبواب الغرف فى عجالة حتى وجدت ضالتها فى اللافتة على باب الغرفة الأخيرة " جرير – شريان "، نزعت نقابها، وأرسلت شعرها الذهبى، فانساب كالحرير إلى منكبيها، وطرقت الباب برفق، ودلفت، فاعتدل جرير لرؤيتها، وخفق قلبه لإقبالها عليه متبسمة، فغر فاه، ثم بادلها ابتسامة مرتبكة. إنها المرة الأولى التى يرى فيها فتنة تمشى على قدمين.

كيف حال بطلنا ؟

قالتها وهى تضع كفها على جبهته، ثم أردفت:

حرارتك معتدلة.

ازدرد جرير ريقه متوتراً، لو أن لجبهته يدين لأبقت كفها الحريرى عليه إلى الأبد، سعل فى خجل، وقال متبسماً:

لم أركِ من قبل.

تبسمت فى صمت، وهى تُعِد دواءً فى يدها، تابع متسائلاً:

كما أن ملابسك لا تشبه العاملات هنا.

تحركت إلى النافذة، فلفحته نفحة من عطرها، فلم يُظهر أمامها أى جلد، تابع تحركها بخفة مستسلماً لسطوتها الناعمة من حوله، قالت وهى تغلق النافذة:

أنا مراقبة التمريض هنا.

هزَّ رأسه فى صمت، وهو يراقب تفاصيلها. تحركت إلى طاولة بقربه، وتابعت تجهيز الدواء، واستخرجت زجاجة قانية اللون من جيب عباءتها وقطرت منها داخل الكأس، فقال جرير:

لو أنك لم تجهدى نفسك.

هذا عملى، لا بأس عليك.

قالتها وهى لا تلتفت إليه بينما أخذت تُقَلب الكأس مستعجلة، ثم استدارت إليه وقالت:

ستكون بخير.

أشكرك.

دنت منه، ووضعت يدها خلف رأسه:

هلا اعتدلت من فضلك.

طاوعها سعيداً لاهثاً، فقربت يدها الأخرى بالكأس، وسكبته بلطف داخل جوفه، ثم أخرجت منديلاً أبيضاً من جيبها، ومسحت شفتيه برفق، فتربعت على وجهه تعبيرات بلهاء واهمة، ثم بدأ القلق يدبُّ فى قلبه عندما لاحظ تبدل ملامحها الحانية، واكتساءها بالقسوة والظفر، فارتسمت على شفتيها المزمومتين ابتسامة لم يفهم مغزاها ولكنها أرعبته. لمعت عيناها واخترقت عينيه كأنها ترقب مارداً سيخرج منهما، وما لبث وشغله عنها اشتعال النار فى أحشائه. بدأت مخالب الغدر تنتهش داخله، فتفصَّد العرق من جبينه وانهمر، وتسارعت نبضات قلبه، وتقطعت أنفاسه، الآن فهم، فانقض على ساعدها بما تبقى من قوته "ماذا أعطيتنى؟" اتسعت ابتسامتها، وحاولت التملُّص من قبضته، ثم انتزعت يدها متوجعة " دعنى أيها الشهوانى الأحمق ". تراجعت خطوات تراقبه وهو يتلوى فوق فراشه يسعل، ويزبد، ويصارع ما لن يقدر

عليه، تقلب حتى هوى، واصطدم رأسه بالأرض، فسكن جثة هامدة، والزبد يندفق من فمه بغزارة.
همَّت بالخروج، فسمعت صوت ضوضاء خارج المشفى "ما الذى يجرى؟" أسرعت إلى النافذة، وأزاحت ستارها بحذر بقدر عينيها، ولم تتبين شيئاً وقد بدأ الظلام يكسو الأنحاء، ثم ذُعرت وهى ترتدى نقابها عندما أحست بيد قوية تكمش شعرها، وتسحبها إلى الخلف، وصوت أنثوى يسألها:
من أنتِ ؟ وما عملك هنا ؟ قالت بصوت متوتر :
أنا أخته .... أخته.
بدأت سيلا تخفف قبضتها، ففوجئت بمؤخرة رأس الطارئة تصطدم بوجهها، وقبل أن تستوعب الأمر ثنت الأخرى ذراعها، والتقطت بسرعة خاطفة إناء الماء من على الطاولة، وهشمته فوق رأسها، ففقدت الوعى.
اقترب صوت الضوضاء، وبدا أنه فى حديقة المشفى، وتبينت ما جرى أخيراً لغط أصوات تقول بأن نزاراً قد قُتل، قالت فى نفسها " فعلها أخى، ما أسرعك!" استغلت الظلام والجموع المرتبكة وانسلت من بينهم إلى خارج المشفى.
قطعت العربة الحديقة، وتوقفت عند باب المبنى، وترجل الجنود، وفتحوا بابها، ثم جروا من داخلها محملاً عليه الجثمان النحيف، وتقدم الأمير منه وانحنى إليه، ولامس شعره البنى فى أسى، وعيناه مغرورقتان، فحمله على يديه، ودلف به إلى جناح الطوارىء، ثم توقف عند غرفة التجهيزات، فأسرع قاسم، وفتح الباب أمامه. وضعه برفق فوق فراش تكسوه الشراشف البيضاء، وشدَّ إليه ملاءة حتى أسفل ذقنه، وجرَّ مقعداً، وجلس عند رأسه، وهمس بالحرس:
أغلقوا الباب، ولا تدخلوا أحداً .

***

استفاقت سيلا، ووعت بعد لحظات أنها كانت ممدة على أرض الغرفة لتسرب البرودة إلى جبينها، وأطرافها، فاعتدلت بسرعة، فتوجعت للضربة التى تلقتها فوق رأسها، ووضعت يدها على موضع الألم، فأحست بدفىء يسرى بين أناملها، فأعادت يدها أمام ناظريها، فراعها نزيف الجرح من رأسها، وقامت بصعوبة، ثم استرجعت ما كان عندما رأت الشعر الكستنائى عالقاً فى يدها الأخرى، وقبل أن تتمكن من استجماع نفسها سرت قشعريرة إليها عندما رأته، فصرخت وخرجت كالسهم.

***

كان مسنداً رأسه عند كتف نزار عندما انتبه إلى جدال الحرس مع أحد القادمين، ثم نهض مسرعاً عندما سمع صوتها المبحوح بالدمع:

ألم تعرفنى يا أخى، أنا أمه ؟

فتح الأمير الباب، فدخلت، ثم كتمت بيدها صرخة فور رؤيته.

ماذا فعلوا بك يا ولدى؟ كيف استحلوا دماءك الطاهرة؟

تراجع الأمير فى حزن، وأسند ظهره إلى الحائط، وتركها تأخذ حقها فى بكاء فقيدها، حتى علا صوتها بالنحيب، فتقدم منها، وهمس برفق:

إنه شهيد يا أم نزار، لقد اصطفاه الله وآثره علينا، فلا تجزعى.

رفعت حنين وجهها إليه، وقد حل به من الغضب ما طغى على حزنها، ثم انقضت على تلابيبه، وأخذت تصرخ، وتضرب صدره " لقد وعدتنا بالأمان يوم التجأنا إليك، ... أهذا وعدك لنا ؟ .. لقد حنثت ... إننى أكرهك ... أكره طريقك .. لعنك الله، ولعن يوماً رأيناك فيه " دخل الحرس لصراخها، فأشار الأمير بكفه جانباً ألا يتدخلوا، فتوقفوا فاغرين أفواههم، وهى تضرب صدره، وتلوح بعنف، وتكاد تصفعه " أنا أكرهك ... أكرهك " ثم وهنت، وبدا أنها تفقد إتزانها، فأسرع الأمير بسندها، فنفضت يده من يدها، وجلست منهكة، وقالت بصوت ضعيف:

أريد قصاصه.

أجابها بصوت خفيض:

لقد فعلت، قتلتهم شر قِتلة، وصلبت أحد زعمائهم، وسألاحق كل من تواطأ على هذا ولو بالصمت، أعرفهم، وأعرف من أخرجهم، ويمدُّهم بالمال، لأوقعنَّ بهم وقعةً تعتبر الشياطين منها.

خرج ووقف عند باب غرفة التجهيزات، وقال للحرس فى الممر:

لا تدعوها تحتاج شيئاً، ولا تسمحوا لأحد بالإقتراب منها.

وما انتهى من حديثه حتى رأى ظل الفتاة تهرول نحوه مترنحة فى جزع ينساب الدم بين عينيها حتى تناثر فوق سترتها البيضاء .

ما الخطب ؟ ، قولى.

التقطت سيلا أنفاسها، والأمير يراقبها، وكانت تقبض يدها بإحكام وكأنها تخشى هروب الهواء من بين أناملها.

قُتل جرير .

***

أظن السهم قد أصاب قلبه. قالها جسور قبل أن يسكب كأس النبيذ فى جوفه ويصب لنفسه آخر، وبدى السرور على إبراهيم، وهو يسمع ما جرى، وتناول الإبريق من يدي جسور، وقال:

أحسنت أيها القائد .

ماذا بعد ؟

إن عاش معاوية للغد، فسيعطى قيادة الجيش لك لا محالة، وعندها ستفتح المدينة أبوابها لجيشنا دون أن نخسر قطرة دم .

تبسم جسور، وهز رأسه فى فهم، ثم ارتبكا عندما طرق الباب بعنف، ثم دقَّ برفق بطريقة عرفها إبراهيم، فنزل السلم ومشى فى فناء يؤدى إلى الباب، ورفع المزاليج.

لماذا جئتِ ؟

لم تجبه دلفت، وهمت بنزع نقابها، فأشار إليها إبراهيم ألا تفعل، ثم نادى:

يمكنك الذهاب يا جسور.

تفاجأ الأخير للندائه دون توجس، فنزل ومر بجانبها، وتساءل فى نفسه عن من تكون، وخرج فأنزل إبراهيم المزاليج من خلفه، وعاد إليها. كانت يداها ترتجفان، والعرق يتصبب من جبينها، فهرول إبراهيم، وقدم لها الماء. انتشلت الكأس من يده، ورفعته إلى فمها، فانساب الماء إلى ذقنها وجانبي شفتيها لإرتجافها. راقب إبراهيم توترها فى قلق، فالتقطت أنفاسها وقالت:

كاد معاوية يكشفنى .

كيف ؟

قتلت جريراً، فقد رأى جسوراً عند مداهمة شريان.

أحسنت يا سلاف، أنتِ بطلة النهاية مع هؤلاء الأوغاد.

انقبضت ابتسامته عندما رأى جرح ساعدها، فبادرته:

دعك من هذا، ماذا كان يفعل جسور عندك فى هذا الوقت ؟

قتل قائد الجيش .

صدرت عنها صيحة طرب مكتومة:

عمر؟!

ليته كان، ولكن نائبه ذاك الشقى داود.

هذا جيد.

صمتا، ثم لمعت عينا ابراهيم، وقال:

والآن حان دور العقل الذى يحرك هذه الدمى.

ارتجف قلب سلاف، وقد فاجأها ما يرمى إليه، قالت بصوت خفيض:

كيف؟

ألم أقل إنك بطلة تلك الملحمة .

الأمر ليس بهذه السهولة .

وهل هناك ما يستعصى على نعومتك، أنتِ لن تستلى أمامه سيفاً.

هزت رأسها معترضة، وقالت متضجرة:

أوفٍ يا أخى، إنه لا يأبه لشىء مما تقول، فمنذ مقتل عدى وقد تبدل لشخص لا أعرفه.

لم أفهم.

عادت تتأفف، وقالت بحدة:

لا يقترب منى، يعافنى، يكرهنى، كلما اقتربت منه أشعر بأنى بكل ما أُوتِيته أحقر من الحشرة فى عينيه.

حملق إبراهيم عينيه، وتساءل فى قلق:

هل يشك بك ؟

لا أعلم، ولكن لماذا يبقينى عنده؟ إنه غامض طويل الصمت، يُقْبل بعينيه ويجافى بهما، يعد ويتوعد، يتراخى ويحسم، يبطش ويعفو، يشتد ويرق، يتركك تتخبط فى هواجسك دون أن ينبس ببنت شفة.

نهض، وراح يذرع المكان جيئة وذهاباً، وهو يضرب قبضة يده فى كف الأخرى، فعض أنامله، وساد الصمت بعض الوقت، ثم قال :

يجب أن ننهى أمره الليلة، وسترحلين عن هذه المدينة .

الليلة ؟!

هذا أفضل وقت لنجهز عليه وهو غارق فى المصائب التى أمطرناه بها.

ولكن ...

لا تجادلينى، قضى الأمر، سأنتظر مع رجالنا خروجك إلينا.

وافقت كارهة، وخرجت بعد تأكدها من خلو الطرقات. همس إبراهيم فى نفسه " لقد أخطأت فى تأخير هذا الأمر كل هذا الوقت ".

***

التقى عليٌ طبيب المدينة مع رباح عند مدخل المشفى لاستدعاء الأمير لهما كى يشرعا معه فى التحقيق حول مقتل جرير، تصافحا وتساءلا عن سبب استدعائهما، ووجههما قاسم إلى مكان الأمير، أسرعا إليه، وكان ينتظر وصولهما بفارغ الصبر، وتقف إلى جانبه سيلا قابضة يدها، ولا تجد فرصة لتخبر الأمير بما لديها، قال رباح:

أمرك يا سيدى .

لقد قُتل جرير، الفتى الناجى من شريان.

لم يظهر على رباح أى تأثر بينما فغر على فاه، تابع الأمير:

أردت أن تكونا معى قبل بدء التحقيق فى الواقعة، وستكون سيلا معنا.

فتح الحارس باب الغرفة برفق، فدلف الأمير ومن خلفه رباح يتبعه على وسيلا، وأغلق الباب خلفهم، ثم خفق قلب الأمير وتوقف للحظات عندما اجتاحت أنفه رائحة العطر وما زال المكان عابقاً به بسبب غلق النوافذ، والأبواب، فتساءل على: "هل حدث شيء يا سيدى؟ " هز الأمير رأسه مقراً، وقال: " أريدكم أن تتذكروا تلك الرائحة جيداً "

قال رباح :

هذه الأولى، القاتل امرأة.

اقترب على، وسيلا من جرير، وساعدهما رباح فى قلبه على ظهره، تفحص الطبيب فمه، وعينيه وعاد ينظر إلى الزبد المنبثق من شفتيه، تنهد وقال:

لقد تم تسميمه يا سيدى.

أومأ الأمير برأسه موافقاً، ثم قال:

وقد تنبه إلى خديعته فى أنفاسه الأخيرة، وحاول الإشتباك مع المجرم، انظروا.

كانت الدماء تنساب من أنامل القتيل حتى باطن قبضته.

قال على:

لعله جرح أثناء السقوط.
تدخل رباح :
ليس للدماء منبع فى يده.
حسم الأمير خلافهما:
هذه دماء المجرم، انتزعها جرير من ساعده، أو ربما وجهه، أنظرا إلى الجلد المتحشر فى أظافره، أومأ علىٌ برأسه فى فهم، وتذكر الأمير ظل سلاف خلف الستار، عندما أخبره الجندى بأن جرير لديه معلومات مهمة، فتدخلت سيلا، وقد وجدت في صمتهم فرصة لتُدْلى بما لديها:
سيدى إذا سمحت لى ؟
أومأ برأسه، فبسطت يدها أمام عينيه فلمعت خصلات من الشعر الكستنائى عندما انعكس عليه ضوء المشاعل، فأغمض الأمير عينيه، وأضاف يقينا إلى يقينه، قالت سيلا:
قد سقط فى يدى عندما قبضت رأس القاتلة فى بادىء الأمر، نهض الأمير، وقال:
سيلا اجمعى كل المناوبات، ومن كنَّ فى المشفى ساعة وقوع الحادث. قال على:
يبدو من درجة حرارته أنه لم يمضِ الكثير من الوقت على مقتله، أغلب ظنى أنه قبيل المغرب أو بعده بقليل.
وإذاً ؟
هذا وقت تغيير المناوبات بين الأطقم الطبية هنا.
تعنى أن القاتل تسلل فى هذا الوقت، حسنا سنرى .
التفت إلى سيلا، وقال " اذهبى أنت "
خرجت سيلا، وهى تغمغم " لم تكنَ إحداهن أنا متأكدة "
***

خرج كرشاب يمشط جهات المدينة فى همة ونشاط، والتزم تعليمات الأمير له " لا تتوقف ولا ترجع إلا بأمرى " قسَّم رجاله إلى مناوبتين، ووزعهم بدقة وتناسق وبدأ المناوبة الأولى بنفسه، فكان صهيل الخيل، وخبب سنابكها ينبىء عن ليل طويل لا راحة فيه لأحد، ولم يعد لسكونه وجود بين تلك العواصف.

انتبهوا .

صاح كرشاب آمراً رجاله، فتوقفوا من خلفه عندما رأوا شبح فارس يعترض طريقهم، اقتربوا بحذر شاهرين سيوفهم، ثم التفوا من حوله. كان الفارس منكفىءً على عنق الجواد دون حراك رغم اضطرابه تحته، وعندما اقترب المستكشفون، دقق كرشاب النظر، ثم هاله ما رأى، بينما صاح آخر:

إنه القائد داوود .

ترجل وأسرع إليه، وحمله من فوق الجواد، ومدده أرضاً، تبين السهم الناشب فى صدره مكسور نصله، دنى بأذنه من أنف داوود، وتأكد من هبوب أنفاسه.

لا يزال حياً، سنحمله إلى المدينة بسرعة.

***

تقع غرفة الأطباء فى الطابق الثانى من المشفى، وظل الأمير بها، ومعه علىٌّ يتفقد الأدلة، ويضع احتمالاته، قال على:

من قتل جرير كان يريد أن يحجب شيئاً ما عنا، لحسن الحظ أن القاتل ترك وراءه الكثير من الأدلة هذه المرة، ويبدوا أنه كان متوتراً إلى حد كبير.

استمع الأمير إليه، ولم يجب، فأحس علىٌ أنه لم يأتِ بجديد ففضل الصمت. استخرج الأمير برفق خصلات الشعر الكستنائى، وتأملها ثم أعادها إلى كيسها الجلدى حيث كانت، وزفر بقوة، وناولها علياً. طرق الباب وجاء من خلفه صوت سيلا تستأذن للدخول.

سيدى قد أحضرتهن كلهن .

نهض عندما أتمن اصطفافهن أمامه، وأجال بصره بين وجوههن المتوترة، وسألهن عدة اسأله، ثم ختم قوله:

هل رأيتن أحداً ليس ضمن الأطقم الطبية ؟ أو زائراً أثار استغرابكن وجوده.

نظر إلى سيلا، وقال :

اخضيهن للتفتيش ومن وجدتى فى جسدها جرحاً حديثاً، فاحتجزيها حتى نتبين، وسأجعل الحرس عند الباب ناديهم متى شئتِ.

بدأت سيلا فى تنفيذ مهمتها بينما خرج الأمير، وعلى وراءه، ومشياً فى الردهة المؤدية إلى سلم النزول، توقف عنده، ونظر من نافذة تطل على حديقة المشفى. تنهد وتطلع إلى السماء. راقب على حزنه، وشروده وأنفاسه الضائقة كأنها تتسرب من تحت جبل أطبق عليها، ثم قطع الصمت همس الأمير " لأوقعن بكم وقعة تعتبر الشياطين منها " وعاد الصمت، ثم جاءت سيلا وقد بلغ منها الجهد.

لم أجد شيئاً يا سيدى، قال الأمير بنفسه " كنت أعلم "

شكراً لك يا سيلا، يمكنك الانصراف اذهبى وارتاحى.

عاود النظر إلى الحديقة فانتبه إلى ضوضاء أخرى تقتحم المشفى حول عربة الإسعاف، قال لعلى:

إذهب وانظر.

أسرع على فى النزول، وما لبث أن لحق الأمير به عندما تسلل إلى مسامعه " قُتل القائد داوود " وقفت العربة وانتبه الجميع لصوت الحارس الفظ : " افسحوا للأمير " فتح باب العربة، وسحب اثنان من الجنود المحفة التى يتمدد عليها داوود، وانحنى الأمير إليه، ولامس السهم الناشب فى صدره، وتجاهل صيحات متفرقة بأنه قد مات، واستل خنجراً من خاصرة جندى إلى

جانبه، وقربه من أنف داوود، وترقب فى قلق، ثم استبشر عندما تكثفت أنفاسه على النصل.

لا يزال حياً، هيا أسرعوا به إلى الداخل.

حُمل داوود، وباشر إسعافه على، ولحقت به سيلا وكانت على وشك المغادرة. التفت الأمير إلى أحد الجنود، وقال:

اذهب إلى القائد كرشاب، وأخبره بأن يكون الليلة فى قبة القيادة، ويضع على الكشافة أحد ثقاته.

***

وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال. افعلوا ما شئتم فما دمت أتنفس، فلا أمان لكم فى هذه الدنيا، ولا مطمع لكم فينا، سأخنقكم بحبال مكركم. كان يطالع السماء من إحدى النوافذ فى الممر خارج غرفة الجراحة. لم يستطع مغادرة المكان قبل الإطمئنان على داوود، فلبث ملياً، ثم زفر بارتياح عندما سمع تأووهه لِكَىّ جراحه، وخرجت بعدها إحدى الممرضات، وهى تحمل طبقاً معدنياً عليه ملقط، ومقص، ومدية صغيرة، ورأس السهم المدبب ونصله المكسور، وبعض الأقمشة البيضاء ملوثة جميعها بالدماء، وخرجت سيلا تجفف جبينها بأكمامها، وكفها مخضب بالدم، وكانت منهكة بما تتحمله الكلمة من معنى، فمشت وكأنها لا ترى أمامها، وخرج عليُ وتبسم فى رضا وقال:

سيعيش، لقد نجا بأعجوبة.

قال الأمير فى تقدير وعرفان:

سلمت يمينكم وجهودكم .

صمت للحظات، وقال:

هل تجهزتم لإكرام شهدائنا؟

فعلنا يا سيدى .

مشى إلى غرفة التجهيزات، وفتح الباب برفق، فرأى حنين لازالت تبكى واضعة جبينها فوق كف فقيدها. رنا إليها فى أسى، ثم أعاد غلق الباب بهدوء، قال للحرس من جديد:

لا تدعوا أحداً يقترب منها، ولا تغفلوا عنها للحظة، ولا تتركوها وحدها حتى وإن أرادت هى ذلك.

سار إلى آخر غرفة فى الممر حيث جرير، ووجده فى ثياب ناصعة البياض، يسكن فى هدوء حتى تشرق الشمس، وقف عند رأسه، دعا له وانصرف.

***

دنى مطلع الفجر، وليلة أخرى شديدة الوطأة توشك على الرحيل، طافت سلاف بأركان الخيمة، ونشرت عطرها، وكأنها عنكبوت تنصب شراكها، وتجذب فريستها، فبللت خنجرها بالسم، ووضعته أسفل وسادتها، وظلت فى مجلس الإمارة حتى سمعت قدومه، فأسرعت إلى مخدعها، وتظاهرت بالنوم. دلف الأمير، فاختنق بعطرها الساحر المشئوم، للعطر فعل أمضى من السيف أحياناً، وقد كان بالفعل، وأثبت فتكه منذ قليل مع فتى شريان. جز أسنانه وتأفف، لا يغير العطر من دنس الخنازير، ومشى من مقر الإمارة إلى استراحتها.

سلاف استيقظى.

تململت، وقالت بدلال:

اشتقت إليك.

لم يُعرها قيمة. تلفت حوله، ثم التقط عباءتها، وألقاها على وجهها.

ارتدى ملابسك فستخرجين.

قالت فى قلق، وقد بدأ خفقان قلبها:

إلى أين فى تلك الساعة ؟

هيا تجهزى حالاً.

أتمت إرتداء ملابسها فى توتر، وهى تتساءل:

فقط لو أخبرتنى يا سيدى بوجهتنا.

لقد قُتل نزار، قُتل جرير، وداوود، ومن قبلهم عدي، ولا آمن عليكِ هنا.

ابتلعت ريقها، وقالت :

أريد أن أبقى معك، أين سأذهب بدونك؟

إلى السجن.

سقط قلبها فى قدمها، وبُهت وجهها، وقالت بصوت مبحوح خفيض:

لماذا ؟

لا لشيء، فقط أتهمك بقتلهم جميعاً.

ثم صاح " قاسم " .

كيف تشك بأن أفعل شيئاً كهذالا؟

جلست على فراشها، وانفعلت فى نوبة بكاء، فوقف فى مواجتها، وقال بقسوة:

لدى ما يكفى يا ابنة الخنازير، بدءً من الخرزة التى تفلتت من عباءتك يوم قُتل عدى، وحتى رائحة عطرك المشؤوم فى غرفة المشفى، والجروح التى نحتها جرير على ساعدك قبل موته.

أُسقط فى يدها، وشعرت أنه قد أحيط بها، فمررت يدها بخفة أسفل وسادتها، وسحبت خنجرها، وباغتته، وهو يعيد نداء قاسم، وسددت طعنة إلى صدره، فاستجاب لها بسرعة، وتفاداها وقبض يدها، واعتصرها حتى تخلت عن خنجرها، وأردف:

وهجومك الآن على، وخصلات شعرك فى قبضة سيلا.

دخل قاسم، ومعه الحرس والسلاسل، ثم جعل الأساور فى يديها عندما أشار الأمير إليه " أوثقوها، وأتوا بها أمامى " ، ثم خرج إلى مقر الإمارة، ودخل رباح، وكان الأمير قد أمر بإحضاره:

استدعيتني يا سيدى ؟

لقد وجدت القاتل يا رباح .

تهللت أساريره، وقال بلهفة :

مَنْ ؟ أشار بعينه جانباً فإذا بقاسم يجر سلافاً خلفه فى السلاسل، قال رباح فى دهشة :

ماذا ؟!

هو ذاك، إنها الفاعلة .

ولكن يا سيدى ....

ألم آمرك بأن تتذكر رائحة العطر فى غرفة المشفى، وها أنت الآن تشتمها من حولك، وخصلات شعرها، والجروح التى سببها لها جرير، على كلٍ سأُقدم هذا فى المحاكمة.

بمَ تأمرنى يا سيدى ؟

ستساعدك هذه المرأة، وستعترف بأسماء الظلاميين فى مدينتنا، وعليك أن تتقبض عليهم، ولو عرجوا إلى السماء.

قالت سلاف فى عناد :

لن أنطق حرفاً .

ضحك الأمير، وقال :

هذا ما تظنين. أخرج الآن يا رباح، وانشر رجالك حول الخيمة وانتظر أوامرى. ضع أساورها فى قائم هذا الكرسي يا قاسم، وأشار إلى يمينه.

أسرع قاسم، وجعل أساورها موصودة إلى الكرسى، أشار الأمير إليه فدنا، وهمس بأذنه، فهزّ قاسم رأسه، وانصرف.

***

الفصل الثالث عشر

جلست وجلة، مشتتة الخاطر، تنظر إلى المرآة العظيمة فى الجناح الذى خصص من أجلها فى قصر باليان حاكم الجزيرة. مضى يوم ثقيل منذ افترقها عن قيس فى سوق النخاسة، وذهابها مع أنطونيو وجنوده. يومها كانت الشمس تدنو من الغروب عندما شعرت بتوقف العربة التى تحملها إلى المجهول، وسمعت بعدها بصوت جهور من خارجها يأمر غيره بأن يفتحوا البوابة لوصول القائد أنطونيو، وبعد لحظات سمعت مزاليج تسحب، وصوت صرير صدر عن مصرعى البوابة عند انفتاحها، استأنفت العربة تحركها، ولكن بسرعة أقل، ثم سمعت الصرير نفسه لانغلاق البوابة بعد دخولها، ولم يمضِ الكثير حتى توقفت من جديد وفتح بابها، فوجدت أنطونيو فى وجهها، أخبرها أنهم قد وصلوا، فنزلت ومشت من خلفه فى صمت، ولم يجبها عندما تساءلت عن هويتهم، وسبب اختطافها إلى هذا المكان، توقفت وألحت فى سؤالها، فالتفت إليها بوجه خالٍ من التعبير، وقال بلطف:

غير مسموح لى بقول شيء يا سيدتى، ستعرفين كل شيء من الحاكم.

انتحى جانباً وأشار لها أن تستأنف السير معه. استغربت غموضه، ولهجته ومخاطبتها بالسيادة عليه، لكنها سلمت، ومشت فى الإتجاه الذى أشار نحوه، وصلا إلى ممر طويل على شكل قنطرة يمر من تحتها جدول عبق بروائح الزهور التى نبتت على جانبيه، وانتهى بها إلى باب ضخم يقف عنده حرس لم تتبين ملامحهم للاقنعة الحديدية على وجوههم. أسرع إثنان منهم وفتحا الباب عندما رأوهما يقتربان، ثم انحنى الحرس جميعاً لهما، وأغلقوا الباب بعدما دلفت منه، فأفضى بها إلى فناء رحب دائرى الشكل تتوسطه نافورة للمياه، يلهو حولها مجموعة من الجوارى غضضن أصواتهن عندما رأين

أنطونيو، وتغامزن لرؤيتها، وظللن يرمقنها حتى انتحى طريقها إلى ردهة مقببة تنتهى بسلم صعد بها إلى الطابق العلوى للقصر. مشت بين غرفه وأجنحته، ولاحظت وقوف بعض الحرس المتناثرين فى أرجائه، ثم وصلت إلى قاعة مغلقة يقف أمامها حارسان مدرعان ركعا أمام أنطونيو، وفتحا الباب، وتبين عندها أنها مقر الحكم. استقر فى آخرها عرش الحاكم باليان حيث تعلو أرضيته التى استوى عليها عن باقى المكان بثلاث درجات، انتصب على جانبى درجته الأخيرة عمودان إسطوانيان، ويقف أمام كل منهما حارس يتسلح بدرع، ورمح، اعتدل الحاكم فى مجلسه عند رؤيتها، وأشار لمن فى القاعة بالخروج، فانحنوا فى تحيته، وغادروا المكان، ولم يبقَ سوى أنطونيو وحارسا العمودين. تقدم أنطونيو صاغراً، وركع إجلالاً، ثم نهض وقال :

أمانة كبير الحكماء يا سيدى، الأديبة أروى.

نهض الحاكم، ونزل إليها، اقترب، ودار حولها دورة كاملة، وهى مطرقة، فداعب ذقنه الحمراء، وحكَّ عارضه، وقال وقد علق عينيه الزرقاوين بها :

لم ينل سادتنا مرتبة الحكمة من فراغ، فنصف الفطنة يكمن فى اختياراتنا.

التقط أنطونيو استحسانه لها، فأيده فى خبث، ثم ابتسم فى سماجة إليها وأردف:

أرجو أن تكونى قد استمتعت فى رحلتك إلينا.

من أنتم ؟ ولماذا أنا هنا ؟

ستعلمين كل شىء فى حينه يا سيدتى، أما الآن ......

صفق بحماس، فخرجت جارية من إحدى جوانب القاعة، فأمرها أن تصحب أروى إلى جناحها، وأن تعتنى بها، وتسهر على حاجتها حتى يصل أمير الحكماء أو يأتى خبر منه، ثم أمر أنطونيو بأن يشدد حراستها، وقبل انصرافها أخبرها بأنها ستكون ضيفته فى الإحتفال الشهرى داخل القصر، ثم

عاد وجلس على عرشه وهو يرمق اثرها. أسرَّ أنطونيو فى نفسه فرحة عارمة لما فطن إليه بها جال فى نفس الحاكم وبدا فى عينيه، واستأذن للخروج، فأذن باليان له دون أن يلتفت، وظل شارداً.

***

وقف على مقربة من الأسوار خارج المدينة يرتقب خروجها كما كانت خطته معها، ولكن تأخرها بعث القلق في نفسه، كما أن تأخر جسور أيضاً فى الإتيان إلى مكان اللقاء بعد أن أطلعه على حقيقة سلاف وما ينوى فعله زاد من شكوكه. ما الذى أبطأها إلى هذا الوقت؟ يوشك الفجر أن يطلع، هيا يا أختاه يجب أن تكونى قد أنهيت أمره منذ وقت، قال أحد الملثمين خلفه :

لعلها لم تنجح .

لم يجبه، فقد كان يراوده الشعور ذاته غير أنه يتهرب منه بإختلاق الأعذار لها. صمت برهة، ثم عاد يطمئن على الصناديق المكتظة بالذهب، وشدد على رجاله فى أن ينتبهوا لها كأرواحهم، ثم أعلمهم بأنهم لن يحملوها فى طريق واحد، بل سيفترقوا فور وصول سلاف.

سمعوا خبب جياد تقترب، فجردوا سيوفهم، وتأهبوا لها، فأشار إليهم إبراهيم ألا يقلقوا بعد تعرفه على القادمين. ترجل قائدهم، فتبين إبراهيم ملامحه المكتئبة تحت أضواء المشاعل، فاغرورقت عيناه بالدمع، وقال:

سلاف ؟

طأطأ جسور رأسه، وأومأ فى أسى، تساءل إبراهيم :

هل قتلها ؟

لا لم يفعل، ولكنه اكتشف أمرها وقد استيقظت المدينة للمفاجأة.

داهية خبيث.

يحسن بك يا سيدى أن تغادر المكان، فما تلبث ويجبرها الأمير على الاعتراف باسمكم.

سلاف لا تفعل .

كما أننى أخشى أن يصادفك كرشاب، وفرقته فهم يمشطون الأنحاء دون توقف.

أطرق إبراهيم، وأجهش بالبكاء، تدخل عندها أحد أتباعه:

بإمكاننا أن نهاجمهم على حين غرة، وننقذها.

لم يجبه إبراهيم، لكنّ جسوراً أجابه :

هذا يعنى أن نموت معها، كما أنه لا يمكن أن نعرض حكيمنا للخطر.

وافق رأى جسور تفكير إبراهيم لكنه لم ينطق، فتابع جسور :

سأحاول جهدى أن أجد فرصة لإنقاذها، ولكن أين محمود ؟

قال ابراهيم :

قد انطلق بشطر من الصناديق، والرجال فى طريق غير الذى سنسلكه.

صمت للحظات، ثم امتطى جواده، وقبل تحركه انحنى إلى جسور:

أنت آخر ما فى جعبتنا. تابع ما ابتدأته، وسآتيك بجيش يدكُّ المدينة دكاً، سأتركها أثراً بعد عين.

***

مكثت ساكنة فى سلاسلها وقد خلت الخيمة، ولم يبقَ سوى حارسين على مقربة منها، انهمر دمعها، واعتصرت روحها بين مشاعر متضاربة من الخوف، والحقد، لقد تغلب عليها فى نهاية الأمر، ولم يفلح كيدها، سحقها ومزق شركها، وهى التى لم تُهزم يوماً، ولم تترك عملاً فى منتصفه، ولم يمر الفشل على خاطرها. لقد أعدها إبراهيم كى تتبوأ الصدارة بين الحكماء. لا ينقصها شيء، وأوتيت من كل شيء، جمالاً فتاناً، وذكاءً حاداً وقلباً قاسياً طموحاً، وقد دنت مما طمحت إليه حتى إذا كانت قاب قوسين أو أدنى ظهر معاوية. كم أكرهك أيها الداهية اللعين. مالبث أن خرج إليها من جديد بعد دخوله إلى إستراحتها، فقد دخل يفتش عن شىء توقع وجوده بين أغراضها

وخرج بعدما عثر عليه، فرمقته بحقد يكافىء إبتسامته المتحدية، ثم انتبهت إلى انقباض كفه على شىء، والأخرى على خنجرها. جلس على عرشه وأمر الحارسين بالخروج. ظل ينظر إليها من علٍ، وهى موثوقة تحت أقدامه، فصرفت بصرها عنه، قام وجر مقعداً، وجلس فى مواجهتها.

من أين سنبدأ ؟

تطلعت إلى عينيه القاسيتين فى صمت، وأطرقت، ثم استسلمت أطرافها للإرتجاف، فتابع :

لماذا قتلتِ عدياً ؟ وقتلتِ أباه حسرة عليه ؟

رفع خنجرها، وتساءل:

بهذا قتلته ؟

لم أفعل .

لقد تبينت فى جسده طعنة لامرأة .

هذا لا يثبت شيئاً، قد تكون أديبتكم، أو تلك الثكلى حنين .

صدقتى هذا لا يثبت، ولكن هذه تفعل .

حملقت إلى القلادة تتدلى من يده. زم شفتيه، وراح يدقق فى نقوشها ويلامسها برفق، ثم قال:

القلادة نفسها التى عثرنا عليها يوم مقتل عدى، ظلامية اذاً ؟ أنتِ من جعلتهم دائماً يسبقوننى بخطوة، ولكن لا بأس سوف أصطادكم كلباً كلباً، وسأمزق خيوط مكركم التى نسجتموها حول مدينتى.

هبَّتْ صارخةً بما اجتمع بداخلها من كره، وحقد تغلب على خوفها :

لن تستطيع فعل شىء، فما نلبث أن نصل، سنضربكم بقوة لا قِبَلَ لكم بها، وسنخرجكم منها أذلة، وستهرب أنت مجدداً كما فعلت من قبل.

تبسم غير مكترث لتهديدها، وقال : " أخفتنى " فأردفت :

تظن أنك ستخفى خوفك خلف اللهجة الساخرة، إننا لسنا جيشاً عرمرماً وحسب حتى تفر منه كعادتك، فهناك قوة لا تستطيع التغلب عليها، ولو اجتهدت.

تابع بوحها واسهاب حديثها بإنصات وصمت، فظنت صمته ضعفاً فتشجعت:

من ذا الذى يستطيع خلع قوة خفية عن عرشها أيها المغرور .

لمعت عيناه لما قالت، فتنبهت إلى أنها تحدثت أكثر مما ينبغى فزمت شفتيها، وكبحت لسانها. برقت فى ذهنه أفكار متفرقة، واجتمع برأسه شتات تساؤلاته، لقد دنى خطوة أخرى من إجابتها، كيف تمكن الظلاميون من الوصول إلى قداسة، ولم يخسروا قطرة دم ؟ ما هى تلك الخطة الجبارة؟ كل ما استطاع الوصول إليه بعد كل تلك السنوات أحاديث متفرقة عن اجتماع سرى للحكماء فى قلعة مهجورة سقطت بفضل تنفيذ خطته قداسة، ولكن أى خطة تلك التى تملك من القوة ما تعجز عنه عفاريت الجن ؟ ظل مطرقاً، ثم نظر إليها :

إن كان لديك علم بتلك القوة الخفية، وأخبرتنى بها، فسوف أعفو عنك.

أسرت في نفسها غيظاً لتفلت الكلام منها، أومأت إليه رافضةً، وقالت:

لا أعلم شيئاً، ولو كنت أعلم لما أخبرتك به .

صدق قولها، فلا يمكن أن يصل علمها لشيء كهذا، هذا مبلغها من العلم، أن لهم قوة لا يمكن ردها، تابعت سلاف نكايتها، وقالت بحنق:

لعلك تفكر الآن فى طريقة للفرار .

لا يا عزيزتى، فليس يعجزنى جيش من الخنازير أمزقه، ولكنى سأعترف لكِ بشىء وأنتِ على شفا قبرك. لم يَقُضَّ مضجعى طوال تلك السنين غير تساؤلى حول خطتكم القديمة، وقد أنرتِ لى طريقاً سأبحث فيه وسأجدها،

أعدك بذلك، أما عن فرارى يوم سقوط قداسة فقد كان تحرُّفاً لقتال وليس خوفاً، ولو كان فى موتى نجاة للمدينة لرميت نفسى بين أنيابه ولم أبالِ.
أفحمها قوة منطقه وثقته، ثم جنَّح يديه وتابع :

وها أنا أمامك الآن، كافحت طوال تلك السنين حتى نشرت دعوتى وشددت أزر أمتى، وأعدت ملكاً بعد انقطاعه، وصرت شوكة فى حلوقكم، وكابوساً ماثلاً لكم، ولا أقول أننى أوتيته على علم عندى. فرارى ذاك اليوم كان الفرصة التى اغتنمتها لأكون حرباً عليكم، وقد كان، وسأظل حتى أطهر الأرض المباركة منكم، ومن دنسكم.

صرخت بوجهه:

قوتك لا تكفى .. لا تكفى .. أنت لا شىء، وأقل من أن يقيموا لك وزناً.

أشاح وجهه عنها، وزفر بضيق وقال :

ألهذا طرحوكِ باغية على فراشى ؟

نهض من مقعده، وعاد إلى عرشه، وتركها تتقطع فى غيظ سيفتك بها قبل أن يقتلها بسيفه، وعادت تبكى بحرقة ويأس. لا يؤثر شيء بهذا الموتور. بعينيه شىء يقول بأنه سيحقق ما قاله. ليس كالأخرين. ساد الصمت للحظات، ثم انقطع بدخول قاسم ومن خلفه إثنان من الجنود. وضعوا عند قدميه جوالاً يضطرب بما فى داخله، ويصدر عنه صوت مكتوم، فنظر إلى سلاف، وسألها إن كانت تستطيع أن تحزر ما بداخله، فحملقت عينيها وأسرت فى نفسها كمداً، وحسرة، وعاودت البكاء، ثم قالت راجية :

أرجوك دعه، اصفح عنه، وسنبذل لك ما تشاء، عندنا ...عندنا من المال ما يكفى لكى يحي مدينتك، أرجوك.

انتظر الأمير أن تبوح باسم من يحركها، ولكنها انتبهت إلى حجم الجوال وضخامته، فاستبعدت أن يكون أخوها بداخله، فلاذت بالصمت، ثم اطمأنت بعدما فتح قاسم الجوال، وأخرج من فيه. كان لا يزال يصارع قيوده

منذ تسلل قاسم إلى بيته، وحمله من فراشه مغمض العينين، ومكمم الفم، لا يدرى هوية خاطفه. أخرج قاسم قطعة القماش المحشوة فى فمه، فراح يطلق التهديد، والوعيد، ثم أخرس صوته عندما رُفعت العصابة عن عينيه فرأى الأمير فى وجه. تزلزل قلبه، وشخصت عيناه للمفاجأة. استجمع نفسه بعد برهة، ثم تلفت حوله، وقال مشدوهاً:

الأميرة سلاف ؟!

استدعى الأمير رباحاً من أمام الخيمة، فدلف فور ندائه. نهض، ووقف عند وجه الجاثى أمامه، وسأله :

قل يا نديم، ماذا بينك، وبين هذه ؟

نظر نديم إليها، وهى تهز رأسها ناهية له عن البوح، واختلس نظرة إلى وجه الأمير وغضها فى سرعة، فزمجر الأمير بوجهه :

لماذا تصمت أيها الكلب، ألم تترك لك رسالة فى كيس الغلال ؟ ما كان مضمونها، ولمن سلمتها ؟

تفاجأ كلاهما لمعرفته بأمر الرسالة، كيف عرفها ؟! اعتصرت سلاف ذهنها تُرى من يكون الواشى ؟ لكنها لم تنجح. قال نديم :

لم يحدث شيء كهذا ؟

زفر الأمير، وقال لقاسم :

أدخلوه .

تطلعا إلى باب الخيمة، ثم صُعِقت سلاف عندما رأته، إنه المتسول الذى كان يجلس قرب حانوت نديم ذلك النهار، إذاً لم يكن تطلعه إليها رغبة فى المال، بل كان جاسوساً، لقد رمى معاوية شباكه حولها منذ زمن ولم تنتبه. أُسقِط فى يديها، وتلعثم نديم، فعاود سؤاله، لكنه التزم الصمت، قال الأمير فى حنق :

لا أريد معرفة شيء منك، وجودها فى يدى يكفينى.

مدَّ يده إلى خصر قاسم، واستل سيفه بعنف، ورفعه، فتراجع عندها قاسم خطوة كى لا يتناثر الدم عليه، فصرخ نديم :

حسناً ... سأعترف، لا تقتلنى. قالت فى تلك الرسالة إن نزاراً يعمل معك، وينقل أخبار جمال الدين إليك.

انفجر توهجه عند ذكره نزار، وانتهشته فكرة أن القاتلة كانت أمام عينيه، ولم يستطع حمايته رغم ذلك. صفع نديم صفعة مدوية، فانطرح على ظهره، ووثب خطوة نحوه، ثم داس نحره بقدمه، وهو يسأله :

ولمن سلمتها ؟

سعل نديم بصعوبة، وتشبث بقدم الأمير الجاثمة على نحره، وقال مختنقاً:

لا... اس..تطيع .

زاد الأمير من حمله على خناقه، وقال :

لا أُخَيرُك، إما أن تخبرنى أو تلفظ روحك فوق نعلى.

قالت سلاف صارخة :

إياك وأن تخبره، إيااااك .

قال نديم:

إبراهيم ... إنه إبراهيم مدبر بيت المال .

رفع الامير قدمه عنه، فشهق لاندفاع الهواء إلى رئتيه، وأخذ يسعل ويتلوى، ثم تابع :

إبراهيم ... أميرنا ..... وكبير الحكماء فى المدينة.

صرخت سلاف :

تباً لك من جبااان .

تابع، وهو يشير إلى سلاف بوهن :

وأخوها.

التفت الأمير إلى رباح، وقال بحزم :

تعرف ما يجب عليك فعله. خذ رجالك وأتنى به، تقبض عليه ولو تعلق بالنجوم.
لا يُـفـْـلِـتنك فَيَأْتينا ببائقة .... أشرد يديك به تَـبْـرأْ من السَقَمِ .
***
انطلق كقطعة من النار يفتش المدينة عنه بعد أن أرسل بعض رجاله إلى البوابات ليعلموا إن كان قد غادر المدينة. وصل إلى بيت المال، واقتحمه رغم إبلاغ الحرس له أن ابراهيم غير موجود. بحث فى أرجائه وخرج، وداهم منزله، ومنزل صحبته، ثم داهم بيت محمد، وكاد يدك الباب قرعاً، فاسرع الحرس بفتحه، فاستفاق محمد مذعوراً، ومعه علياء وأخذ سيفه، وهرول إلى الأسفل، فوجد الطارىء قد اشتبك مع حرس بيته واقتحم رغماً عنهم، فاعترضه وهم فى الحديقة، وزمجر محمد بوجهه :
ماذا تفعل يا رباح؟ فيمَ قدومك إلينا فى تلك الساعة بهذه الطريقة؟
سأفتش المكان .
أجُننت ؟ أتدرك مع من تتحدث ؟
اعذرنى يا سيدى، ولكن اتضح بأن مُدّبر بيت المال إبراهيم هو قائد الظلاميين فى مدينتنا، وقد كلفنى الأمير بالقبض عليه.
فغر محمد فاه لما سمع، ثم استدرك :
وتظننى أخبىء مجرماً فى بيتى ؟ لأشكونك للأمير.
أعلم ما بينك وبين إبراهيم من الصحبة والتجارة .
حملق محمد عينيه فى سخط، فأردف رباح مستدركاً :
لا أتهمك بشىء، لكننى لن أترك شبراً إلا وفتشت فيه، ولو اضطررت إلى أن أنبش قبر أبى فسأفعل.
ليتك أظهرت مثل هذا عندما اختُطِفت إبنتى.
لن أكرر طلبى، تنحى من أمامى.

آثر محمد الصمت على أن يصطدم معه وهو فى قمة هوجائه وحزمه، فتنحى ومن ورائه علياء. وزع رباح جنوده، وبحث فى كل مكان، ثم غادر بالسرعة التى جاء بها عندما لم يعثرعلى شيء، وفى أثناء خروجه عاد إليه أحد جنده، وأخبره أن حرس البوابة، قد رأوا إبراهيم، وابنه يغادران المدينة منذ مدة.

***

كفكف دموعه المنسابة فى هدوء، ووضع يديه خلفه، وزحف إلى الوراء حتى أسند ظهره الى قائم الخيمة. أغمض عينيه فسافر خاطره إلى بضع سنين خلت، كان المطر ينهمر بشدة دون توقف وألسنة البرق تضرب الأفق، ولا يكف هزيم الرعد عن خلع القلوب الوجلة. هرعت المدينة إلى اللاجئين إليها من القرى المنكوبة من حولهم يحيط بهم الجنود، فخرج إليهم، ورأى عشرات المشردين قد التجأوا إليه لما سمعوا عنه من العدل والرحمة، فاحتفي ورحب بهم وواساهم .

حللتم أهلا فى مدينتكم. أنتم الآن منا، لكم ما لنا وعليكم ما علينا.

تقدم منه صبى دون العاشرة، له سمرة محببة، وشعر كثيف بنى اللون ينساب إلى ما دون عينين عسليتين هادئتين لا يتماشى هدوؤهما مع ما هم فيه من النكبة، وقال بصوت واثق :

لك اليد العليا علينا اليوم، غير أننا لن نظل تحتها، فلن تندم يا سيدى على إحسانك هذا، وسنرده بما هو أعظم.

حاولت أمه أن تسكته، وكسا الحرج ملامحها، فتبسم وقال:

لا عليكِ، دعيه. ما اسمك أيها الفصيح ؟

نزار.

أزكت الذكرى حرقته فاشتد بكاؤه، آهٍ يا بنى، لقد شطروا قلبى وأجهضوا آمالى المعلقة عليك. عاد إلى ذلك اليوم مجدداً، من بين الجموع وحدها تلك الفتاة كانت لا تكفُّ عن الإرتجاف، وقد انسدل شعرها الكستنائى إلى

خاصرتها، وألصق المطر سوالفه بوجنتها وجبينها، وجادت عيناها الخضراوان، فامتزجت دموعهما بدموع السماء، فأسرع إليها إبراهيم فى إشفاق، ثم التفت إلى الأمير :

لا تزال خائفة يا سيدى، ثم سأل الفتاة :

ما اسمك يا ابنتى ؟ مسحت دموعها، ثم شهقت وقالت :

سلاف .

قدمها من الأمير، فمشت على إستحياء وهى مطرقة، قال الأمير:

أنتِ فى أمان .

تطلعت إلى عينيه بضعف يهون أمامه بطش الرجال، ودعمت جاذبيتها بابتسامة خافتة منكسرة، فصرف بصره عنها، وكرر قوله، وانصرف. ومنذ ذلك اليوم، دوى اسمها فى المدينة، واستهوت الأهالى إليها، وتكرر ذكرها فى مجلسه حتى تمكن إبراهيم من إقناعه بها كزوجة له. والآن بعد تلك السنين تبين أنها ظلامية القلب والروح. تذكر ما قرأه فى تراث الظلاميين فى بعض الكتب التى حكت عنهم عندما كانوا متفرقين فى الأرض ولم تكن لهم قوة ولا شوكة، فقد قرأ فى أخبارهم عن إحدى بناتهم استطاعت أن تتسلل إلى ملك الفرس كإحدى جواريه، ثم تمكنت من قلبه، واستبدت بكيانه حتى صار دُمية فى يدها، ودون أن تخبره طوال ذلك الوقت أنها من قوم عدو له، فاستغلت نفوذها فى قلبه، وخدمت شعبها، وأطاحت بكل من شكَّل خطراً عليهم من بين مستشاريه ووزرائه، ثم أنهت عداوته، وتسلطه عليهم، ومكنت لهم فى بلاده، وملكتهم ما يملكه، كل هذا دون أن تستل سيفاً، أو تريق قطرة دم واحدة. ما أفتك القوة الناعمة، وما أوهى القلاع والحصون أمامها، فما فائدة الجلاميد العاتية للحصون الشامخة إن كان هناك من سيهمس بمغاليقها، فتنفتح أبوابها من داخلها. إنها القصة ذاتها، تتكرر بحذافيرها.

نهض عندما سمع صوت قاسم يستأذن للدخول، وخرج إليه، فعلم منه أن رباحاً قد انطلق فى مطارة إبراهيم خارج المدينة. كانت سلاف فى وثاقها تتطلع إلى ما يقال، ثم اغتم قلبها لفرار إبراهيم، وتركها لمصيرها، فغضت طرفها، وطأطأت رأسها، فالتفت الأمير إليها، وقال:

لقد فرّ وتركك هنا تحت أقدامى. أهذه دماؤكم المقدسة. إنكم تتعبدون بالدياثة.

***

لا يُفـْلِـتنك فَيَأْتينا ببائقة .... أشرد يديك به تَـبْـرأْ من السَقَمِ .

ولو تعلق بالنجوم، لن أعود خالى الوفاض، سأدرككم يا بنى خنزير، يكفي ما فرطت به قبل اليوم، لن أقف أمامه خائباً مرة أخرى. انتهب رباح الأرض باحثاً عنهم فى كل زاوية، وتحت كل حجر، واقتفى كل أثر، حتى اطمأنت نفسه بما وجد. انتبه محمود إلى أن هناك من خرج فى ملاحقته، فكر فى الفرار، لكنهم كانوا قد اقتربوا إلى حد يستحيل معه النجاة إلا إذا تركوا صناديق الذهب وراءهم، وأدركهم رباح، ومزق جمعهم، ولم يُظهر محمود أية جسارة فى القتال، فألقى سلاحه، واستأسر مع إثنين من رجاله. ترجل رباح، ودنى منه، ثم جذبه من تلابيه إليه، وقال فى حنق :

أين أبوك ؟

لم يجب ولاذ بالصمت رغم صفعات رباح له وضربه حتى أنهكت قواه وفقد وعيه. التفت رباح إلى الآخرين، وقد ارتعدت فرائصهم من قسوته، وغضبه، وما إن اقترب منهما حتى وشيا له بكل شىء، وأخبراه عن الطريق الذى سلكه إبراهيم، والمكان الذى اتفقوا على الاجتماع فيه، فأمر بعض

رجاله بحمل الصناديق، والأسرى إلى المدينة حتى يقضى الأمير فيهم، واستأنف المطاردة لإبراهيم، ومن معه.

***

سيق محمود إلى الأمير يائساً خائفاً حتى إذا كان على مقربة من المدينة انقض مجموعة من الفرسان الملثمين على الجنود، وقتلوهم جميعاً، ودنى قائد المهاجمين من محمود، وفك وثاقه، ثم أماط اللثام عن وجهه، فاستبشر محمود بنجاته قبل أن يصل المدينة.

جسور، سلمت أيها الفارس المقدس.

***

وصل إبراهيم إلى المكان المتفق عليه مع محمود، انتظر ملياً حتى سيطر التوتر عليه، وتداولته الظنون عن مصير ولده، ثم استيقن عندما طلع رباح عليه، واصطدم الفريقان، وتناثرت الأشلاء تحت جنح الظلام، ثم دارت الدائرة عليه، وعلى من معه، فقتل رباح حرسه، واشتبك معه، ثم أسره، وجعل السيف على نحره، ونظر فى عينيه متبسماً منتشياً بما حقق، ثم أمر رجاله بتفتيش الصناديق، وحمل ما بها من الذهب إلى الأمير، ثم صاح آمراً:

شدوا وثاقه، لم أرتح لك يوماً أيها الثعلب العجوز، إلى أين تذهب بأمانات الناس وأموالهم .

بادله إبراهيم نظرة حاقدة، وقبل أن يجيبه صرخ رباح متوجعاً لسهم نشب بين منكبيه. وصل جسور من جديد، وأدركهم، ودار قتال عنيف بين جنود رباح، والملثمين ظل سجالاً لم يتغلب أي منهم على الآخر، هرب فى أثناء هذا إبراهيم من ساحة القتال، وقنع بالنجاة بنفسه بعد أن خلف وراءه القناطير المقنطرة. أصر جسور على القتال ليخلص الذهب، ولكنه تراجع هارباً بمن معه عندما تصادف مرور فرقة البرق والكشافة، وانضمامهم إلى جنود المدينة. عامد رباح سيفه أرضاً، وحاول النهوض، ولكنه غُلِب وأغشى عليه، ثم

حُمل إلى المدينة برفقة الكشافة وجنوده، وفى طريقهم إلى المدينة وقفوا على جثث الجنود الذين قتلهم جسور عندما أنقذ محموداً، وحملوهم.

***

مع انبلاج الصباح سوَّر الحرس حول الخيمة أمام الحشود التى صُعِقت للمفاجأة، لو لم يكن الأمير هو المدعى لما صدق أحد، كيف يكون هذا؟ الأميرة سلاف؟ سيدة نساء المدينة، وصاحبة البر والعطاء تفعل هذا ؟ لماذا؟ بماذا تطمح أكثر من خيمة الإمارة تحت ظل أمير فتى شجاع، وضاء الوجه عظيم الفؤاد ؟ لم يخل الأمر من تسلل الفرح إلى قلوب بعض الفتيات اللاتى كنَّ يحسدنها على الأمير ومنزلتها فى المدينة، كثر اللغط، ومصمصة الشفاه بالحكم المأثورة، لا يملءُ عين ابن أدم إلا التراب، ولم يمضِ الكثير حتى أغلقت الأفواه، وشخصت العيون لفتح باب الخيمة، وخروج الأمير ومن ورائه الجنود يجرون سلافاً، ونديماً فى الأصفاد، تطلع إلى عيونهم المتسائلة وخاطبهم :

أيها الناس، قد علمتم أنى ما رجعت عن أمرعزمته، ولا عهد قطعته، ولا ثأر طلبته، وقد عاهدتكم، ونحن فى أول رحلتنا ومنكم من يشهد أن أستأصل شأفت المكر بنا، وهذا أول الغيث، وما كنت لأتهم أهلى وبعضى دون بينة وهو والله على النفس شاق. إنهم يسعون بيننا بفتن كقطع الليل المظلم، وقد كان أميركم أول من ابتُلى بها فاحذروا.

نزل درجات الخيمة فانشقت الجموع أمامه إلى صفين سار بينهما، ومن ورائه الجنود يسوقون سلافاً ونديماً، وسار الناس من خلفهم، ووصلوا دار القضاء، وقبل دخول الأمير اقترب منه قاسم، وهمس بأذنه أن رباحاً قد أصيب أثناء المطاردة، وقد حُمل إلى المشفى بعد هروب إبراهيم، لكنهم قد تمكنوا من استراجاع الأموال التى سرقوها.

كظم الأمير غيظه، ثم نظر إلى محمد، وأمره أن يذهب كى يحصى ما تم استرداده من أموال بيت المال، وأخبره قاسم بعد تردد بسقوط شهداء. فصاح متسائلاً عن الفاعل، لكنه لم يجد جواباً لسؤاله.

***

ما زال ضائق القلب، كاسف البال منذ افترق عنها، شعوره بأنه قد ضييعها، ولم يستطع حمايتها يشطر داخله، ويسحق هامته. بقى فى الغرفة التى ساقه الحرس إليها بأمر دارين، وتطاول عليه الليل يتخبط فى هواجسه. سمع ارتباك الحارسين المتناوبين على حراسته، ثم فُتح الباب، ودلفت إليه متبسمة، ومن ورائها رجل أشقر ضخم الرأس والجسد، تبين أنه حارسها الذى تشاجر مع عمر فى سوق النخاسة، لكنه خرج عندما أشارت إليه. لاحظت وجومه وضيقه لكنها لم تعر ذلك انتبهاً، جلست وأشارت له أن يجلس، فلم يفعل. تطلعت إلى وجهه وقد سور الأرق بالزُرقة حول عينيه، وشحب لونه، وقالت:

تركتك ترتاح من عناء رحلتك، ولكن فيما أرى أنك لم تفعل، هل سبب هذا القلق، والشحوب أنك وقعت فى الأسر؟ لا يبدو لى أنك بهذا الضعف، كما هل رأيتنا نعاملك مثل العبيد ؟

نظر إلى السلاسل فى يديه، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة، ثم صرف بصره عنها. استأنفت دارين :

هذه ستكون لبعض الوقت فقط إلى أن تطمئن إلى، لم أجلبك إلى هنا كونك عبداً والدليل أنى ....

قاطعها بحدة :

أنك سمحتِ بحملى معك فى عربتك، هل على أن أشكرك ؟

تبسمت دارين وضمت كفيها إليها كمن حاز جائزة، وقالت مازحة :

أخيراً تكلمت .

تجاهل انبساطها، وقال بنفس النبرة الغاضبة :

العبودية تبقى كما هى، سواء كانت فى قصر أو فى قبر، وسواء تم جرنا نحوها زحفاً أو حُمِلنا إليها فى عربة الأميرة، فاختلاف الشكل لا يغيير من الحقيقة شيئاً.

قلت أننى لن أتخذك عبداً .

فماذا تريدين إذاً ؟

ستعلم، هل تحسن القتال ؟

لماذا ؟

سأقدمك لأبى كونك حارساً لى .

فكّر قليلاً فى قولها، واستحسن الفرصة، فالحراسة تعنى أنه سيتمكن من حمل السلاح، وسيكون أكثر حرية.

استعجلت رده متسائلة :

ماذا، لم يعجبك ؟

لست بارعاً فى القتال، أى أننى لن أستطيع حمايتك.

لمعت عيناها الزرقاوان لأنه لم يعارض الفكرة فى ذاتها. نهضت ومشت نحوه خطوة، وقالت بحماس :

سأجعل القائد أنطونيو يدربك. إنه أعظم القادة عندنا .

سرت قشعريرة فى جلده لسماع اسمه، ربما يكون اللعين الذى أخذ أروى وذهب، فأومأ برأسه موافقاً على عرضها. نادت الحارس ففتح الباب، وقبل خروجها التفتت إليه مستدركة :

لم تقل لى ما هو اسمك ؟ صمت لحظة، ثم قال :

جيمس .

تبسمت، ولم ينطلِ عليها ما قاله، ولكنها تغابت وتجاوزت .

لا بأس، ما دمت ستجيبنى حين أدعوك به .

امتلأت قاعة المحكمة بالأنفاس المضطربة، والدماء الثائرة، واحتفظ المكان بهيبته ووقاره، واتخذ الأمير مجلسه فى الصف الأول أسفل منصة القضاء والتى كان لايزال مقعدها شاغراً. خلف القفص الحديدى لم يستطع نديم أن يظهر الثبات فى انتظار المحاكمة، فخرَّ راكعاً بخلاف سلاف التى بدت أكثر ثباتاً، وهدوء وإن كانت لم تتوقف عن البكاء، بعد دقائق فتح باب القفص، وأدخل الحرس طلالاً حتى تتم محاكمته أيضاً.
فتح باب القاعة، ووقف فى منتصفه حارس ضخم ينبىء الحضور بدخول الشيخ البيرونى قاضى المدينة، فنهض الجميع لاستقباله، اجتاز طريقه فى هدوء ووقار، وقد حملت أكتافه ثقل ثمانين عاماً، فانحنت ليتواضع جسده كما تواضع قلبه. وصل منصته، وصعد درجاتها، وجلس، سارع إليه أحد الحرس، وصب كأس الماء، وتراجع، وبدأت المحاكمة. أفضى الأمير بكل ما لديه، وقدم أدلته، واستدعى طبيب المدينة، وسيلا وغيرهم، فشهدوا بما كان، ثم دخل عزام وهو جاسوس الأمير فى السوق والذى اكتشف علاقة نديم مع سلاف وشهد به. ابتدأ البيرونى بطلال، وقضى بنفيه خارج المدينة، وكذا قضى بنفى نديم وهو ما لم يوافق رأى الامير حيث أن الرجل يعلم الكثير عن أحوال المدينة ومن الخطأ إفلاته، لكنه لم يعترض، ثم جاء أمر سلاف، وقضى البيرونى فى حقها بالقصاص، ثم قال :

وللأمير معاوية أن ينفذ الحكم بنفسه فى زوجه، أو أن يوكل عنه. نهض الأمير وقال: لم تعد زوجتى، ثم التفت إليها، وهو عاقد الحاجبين، متجهم الوجه، وقال:

أنت يا سلاف أو أيا كان اسمك ... طالق .

لم تجبه، ولم ينتظر منها إجابة، فتساءل القاضي:

هل ستنفذ الحكم بنفسك ؟

صمت، وفكر للحظات لم يكن متأكداً من رغبته فى هذا، ولكن قطع تفكيره، وسكون المجلس:

أنا .... أنا من سينفذه.

التفت الجميع إليها عند مدخل القاعة. تقدمت فى ثوب حدادها متماسكة رغم دموعها، وكان الحزن قد أطفأ بريقها، وخيَّم على ما بقى من شبابها. وقفت عند منصة القضاء، وكررت ما قالته، قال الأمير بنبرة مواسية وصوت خفيض :

كنا سنكفيكِ هذا العناء يا أم نزار .

لم تلتف حنين إليه، ولكنها قالت :

لن أطلب منك شيئاً آخر، فقط أوكل إلى هذا الأمر.

تطلع إليها ثم التفت إلى البيرونى، وأومأ بعينيه موافقاً.

***

مشت فى السلاسل، والناس حولها من كل صوب، استقرت فى ميدان وسط المدينة حيث نُصبت فى منتصفه منصة الإعدام، وقف الأمير يراقب صعودها، تسللت إلى قلبه عاطفة حزن أسرع فى دفعها، وإنكارها، وصعدت حنين من خلفها، وبادلت غريمتها نظرة قاسية، وقالت :

كم مرة يجب أن تموتى ؟

تبسمت سلاف رغم أطرافها المرتجفة، وملامحها الممتقعة، وقالت :

هذا لن يُعيد الصغير .

تماسكت حنين قدر ما تستطيع، ولكن غلبتها دموعها على غير ما ترجو فاستسلمت لها، وانهارت فوق المنصة جاثية عند أقدام سلاف، فوكزتها بقدمها. شدّ الجنود سلاسلها وأسدل قاسم ملاءة سوداء فوق جسدها، ثم وضعوا رأسها فوق خشبة الإعدام، وقرب سيفه إلى حنين، فتعكزت عليه ونهضت، وتأهبت للقصاص، ودقت الطبول، فأغمضت سلاف عينيها،

فتراجع الأمير إلى الوراء مبتعداً عن دائرة الإعدام حتى حُجِبت عنه الرؤيا. قبضت حنين السيف بكلتا يديها، ورفعته حتى لمع بريقه عالياً، ثم انطفأ بحمرة الدماء.

***

ظل داخل عربته منتظراً. لم يرغب فى رؤيتها تموت على الرغم مما فى قلبه من السخط والغضب، لماذا يشعر بالأسى وهو من حفر قبرها بيديه. أنكر على نفسه حزنها على من قتلته خيانته. هل بقى جرم لم تقترفه ؟ كم سراً أفشت، وكم بريئاً قتلت ؟ حضر فى مخيلته كل ما كان منها، يُعرض بتفاصيله تحت أجفانه الموصدة، ضحكها، زيفها، جمالها، قسوتها. " وكيف يتم بأسك فى أناس ــ تصيبهم فيؤلمك المصاب" كيف؟ رباه، لست أدرى ما يبدلنى الساعة، كيف تُدْمينى جروحُ أعدائي، تعالت أنفاسه، وتدافعت ضربات قلبه، إهدأ يا معاوية، لا يليق هذا، استفق، ما تفعله درب من الخيانة، خيانة لأبيك، وخيانة لقداسة. توقفت دقات الطبول، فعلم أن الأمر قد انتهى. فتح عينيه عندما قرع قاسم باب العربة، وأبلغه بتنفيذ الحكم، فأمره أن يتحرك. تفرق الناس، وانساب بعض الشفاء إلى صدورهم، ولكن سرعان ما تذكروا حزنهم، فما انفضوا من حول منصة الإعدام إلا ليجتمعوا فى دفن شهدائهم. تحركت جنازات الشهداء من المشفى محمولة على العربات يشيعها أهل المدينة، وأميرها. انشغل قاسم بتأمين الحركة دون أن يعيقها. وزع رجاله فى جميع الأطراف، وسار بعضهم بين الناس. وصلوا نهاية الطريق، فانحنى الأمير، وحمل نزاراً حتى شفا حفرته، وسلمه إلى اثنين من الحرس، ونزل فى لحده وتلقاه منهم، وسَّده مثواه، وأودعه قبلة بين عينيه "وداعاً إلى حين " راقبت حنين اختفاء نوره بين ظلام التراب. استعبرت، ثم انهارت مغشياً عليها، فأسرع النسوة، وحلقن حولها، وسترت إحداهن ما تكشف منها، وهرولت أخرى لجلب الماء. انتبه الأمير للحادثة، فأمر قاسماً بأن يحملها فى

عربته إلى المشفى، وشدد عليهم أن يتنابوا فى حراستها، ولا يسمحوا باقتراب أحد منها.

***

تهيأ قصر حاكم الجزيرة للإحتفال، وبدأ الأمراء يتوافدون عليه من كل حدب، وفى ذلك الوقت اجتمع انطونيو قائد عسكر الجزيرة برجاله فى إحدى الغرف السرية أسفل قصره، فسادت لحظات من الصمت المهيب قبل أن يبدأ بالكلام. ظلوا واقفين من حوله، وقد عامد سيفه المشهر على الأرض وأسند جبهته على مقبضه لبضع دقائق، ثم اعتدل وناول سيفه إلى سيمنس مساعده وذراعه الأيمن. كان أنطونيو فتياً مهيباً ذا ملامح حادة وعينين خضراوين، وله لحية نصف نامية وشعر أصفر بلون لحيته يدنو من شحمة أذنه.

لقد دنى ما نخطط له، هذا الحاكم الأحمق يوشك أن يلقى روحه تحت أقدامى.

ضيق سيمنس عينيه، وتساءل فى استغراب تخالجه الحماسة :

سنقتله ؟

أجل

لكن يا سيدى ألن يثير قتله غضب الحكماء علينا ؟

تبسم أنطونيو ابتسامة، واثقة ثم أردف :

سندفعه إلى ارتكاب جُرم يبيح دمه .

نظر رجاله إلى بعضهم البعض وقد استعصى عليهم ما يخطط له، بدت الفكرة مقبولة لهم، لكن لم يسأل أحد عن الجريمة التى سيدفعون الحاكم باليان إلى ارتكابها ليهدر الحكماء دمه، قرأ انطونيو تساؤلات أعينهم فعاود الحديث موجهاً إلى سيمنس :

بما أنك من بدأ التساؤل فقل لي، ما الذنب الذى يُبيح قتلَ حاكم تجرى فى عروقه دماء النبلاء؟

استنفر سيمنس حواسه، فكر قليلاً وأدار عينيه كأنه يقلب الجرائم فى رأسه ثم قال:

أن يفشى أسرار حكمائنا، أو يخونهم فى ساحة القتال .

وماذا أيضاً ؟

أطرق سيمنس ولم يجد جواباً، فتدخل جاك وكان يقف إلى جواره:

أو ينتهك شيئاً يعدونه خالصاً لهم.

صاح عندها انطونيو مؤيداً، وامتدح جاك وفطنته، ثم صرَّح لهم بما يفكر:

سأدفعه إلى ذلك دفعاً. أعلم أنه يشتهى الفتاة التى اختصها بنفسه كبير حكماء هذه البلاد، ويمنعه عنها بعض الخوف، ولكن بقليل من إغرائه، ودعمه دون تصريح سوف يقع لا محالة، سواء كان هذا بسبب جرأة اكتسبها تحت وطأة الخمر، أو تحت سياط غرائزه، وعندها لن يبقى لى سوى أن أرفع قدمى، وأسحق روحه النتنة، ويخلص لى حكم الجزيرة.

***

اكتمل الجمع، وتلألأت أرجاء القصر فى زينة الإجتماع. كانت أروى متبتلة فى جناحها ضائقة النفس خافقة الفؤاد، مترقبة متوجسة، لم تستطع النوم إلا خلسة محفوفة بالخوف، فوطَّن السهاد لنفسه حول عينيها السوداوين. مسحت دموعها عندما سمعت طرقات الباب لجارية أخبرتها أن الحاكم ينتظرها لمشاركته الإحتفال، ثم انصرفت، قررت ألا تذهب، ثم ما لبث، وأن جاء بعض الحرس لاصطحابها.

بدأ الاحتفال فور انتهاء الحاكم من كلمة قصيرة بيَّن فيها أن الحفل هذه المرة يُقام ترحيباً بالأميرة أروى فى المقام الأول، ثم أشار بالبدء وتراجع إلى عرشه. أدار الخدم كؤوس الخمر بين الحضور، تتمايل معها القيان حول

السادة، وانفجر سكون المكان إلى صخب اختلطت فيه أصوات المزامير والمعازف مع ضحكات الفتيات القارحات، وأصوات الغناء التى لا يُلقى لها أحد بالاً، لزمت أروى مقعدها مطرقة إلى موضع قدميها تعد أنفاس الزمان لينتهى احتفالهم، بينما عين الحاكم توشك أن تنقض نحوها من محاجرها، فقلب كأسه فى فيه وهو ينظر نحوها بطرف عينه. أعاد يده فسارع الساقى بملئه. نهض ومشى نحوها، وقف أمامها، وقدم لها كأسه، فأشاحت بوجهها عنه، فتراجع بظهره وهو يسكب الكأس فى جوفه، ثم عاد إلى عرشه، واستقر جسده المترهل فوقه. نظر أنطونيو عندها إلى سيمنس، وغمز بعينيه، أى أن هذا ما أخبرتكم به، فبادله الأخير إبتسامة لئيمة بالفهم.

توقفت المعازف لدخول الأميرة دارين، وبدأ الحاضرون فى الإنحاء تحية لها. تقدمت بينهم دون أن تبادل أى منهم نظرة. رمقها أنطونيو وهو يتآكل غيظاً من الشاب الذى يسير خلفها. وقفت أمام عرش الحاكم، فتبسم لرؤيتها، ونهض إليها، واحتضنها، بادلته الود، وقالت:

أبى أحب أن أقدم لك حارسى الجديد .

استهجن الحاكم الأمر، وتساءل :

وهل عجز حرسنا عن حمايتك ؟

تجاوزت سؤاله دون إجابة، ونظرت إلى أنطونيو دون أن تأبه لتجهم وجهه، وقالت:

هل يمكن أن تشرف على تدريبه أيها القائد ؟

بالطبع، ولكنى لا أراه يصلح .

أجابت دارين بنبرة متحدية:

أنا أراه.

لماذا هو ؟ تأففت، وقالت بضيق :

لأنى أريد ذلك.

تبسم الحاكم مغتبطاً بحزمها، ثم سأل الشاب :

ما اسمك ؟

ظل مطرقاً متظاهراً بأنه لم ينتبه إلى أن الحديث موجه إليه، واعتصر ذهنه كى يتذكر الاسم الذى قاله لدارين، فتطوعت دارين بدلاً عنه، وتضايق الحاكم من عدم انتباهه، وقرر فى نفسه أن يسرحه من حراستها، وتبادل نظرة استنكار مع مساعده ريموند، وعاود سؤاله :

هل سبق لك الإندراج فى عمل الجند من قبل ؟

لم يسبق لى .

ما كان عملك اذاً ؟

كنت حداداً .

وبينما أروى لا تبالى بما يجرى من حولها وقع صوته على مسامعها، فارتجف قلبها ونظرت إليه بلهفة لم تتمكن من كبحها، هذا أنت إذاً معى من جديد، ما يزال قيس غير منتبه لوجودها بين هذا الجمع الغفير غير أن قلبه يخفق فرحاً لرؤيته أنطونيو، هذا يعنى أنه اقترب منها إلى حد كبير، انبلج الأمل فى قلبها، ولكن النار قد لفحته، وهى ترى الأميرة دارين تقترب منه وتوشك أن تلامسه، ولا يفصلها عنه سوء برزخ ضئيل من اللاشىء، إنها الفتاة التى كانت ترمقه فى سوق النخاسة، فقد اقتنصته لنفسها إذاً. غضت طرفها عندما وقعت عين دارين عليها. الويل لك أيها الطائش. قبل استئناف الإحتفال اقترح الحاكم أن يختبر الرجل الذى سيكون مسئولاً عن سلامة ابنته، فأمر بمواجهة بينه، وبين أنطونيو:

نريد أن نرى مواجهة بينك، وبين تلميذك الجديد أيها القائد.

أسعدته الفكرة فتبسم فى غرور، وقال معتداً بنفسه: " بكل سرور" تحمس الحاضرون لمشاهدة أنطونيو يقاتل، ولكن اعترضت دارين، وتعللت بأنه لم يتلقَ تدريبه بعد، فأصر الحاكم باليان على رأيه.

استل انطونيو سيفه، وأمر أحد الحرس بأن يعطى قيساً سيفه، فرفضت دارين، وأصرت على أن تكون المواجهة بدون سلاح، وبدأ القتال.
أظهر قيس ما يستطيعه أى رجل قوى، ولكن دون مهارة أو حنكة، راقبت أروى وهى واثقة من تفوقه على أنطونيو فى بادىء الأمر، ثم بدأ التوتر يسرى إليها وأخذت رجلها فى الإرتجاف إذ أنه لم يُبْدِ أى براعة فى القتال، أما أنطونيو فقد صبَّ كامل حقده وغضبه وغيرته، واستمر بلكمه وركله حتى جندله تحت قدمى أروى، فانحنت متظاهرة بإبعاده عن أطراف ثوبها وهمست به:
انهض يا حارس الأميرة.
دبت الحياة فى جسده المهشم لسماع صوتها، ففتح عينه النصف سليمة فى وجهه المتورم بعدما بدل أنطونيو ملامحه، وتبسم ابتسامة خافتة سرعان ما تلاشت، فأسرعت دارين صارخة لإنهاء القتال، وانكبت عليه وهى تأمر أنطونيو بالتوقف، وهو لا يزال متحفزاً، مررت يدها الحريرية فى شعره ولحيته " أنت بخير؟ "
هز رأسه بوهن أى نعم. تجرعت أروى غيرتها، واحترقت فى صمت. امتدح الحاكم قيساً لشجاعته، وعناده وسمح له بالانصراف. مدَّت دارين يدها كي تساعده فى القيام، لكنه تجاهلها، ولملم بعضه ونهض. شعرت أروى بالارتياح من رد فعله، كأن قطعة صغيرة من البرد سكنت لهيبها ولكن تبخرت ونواصى النار لا تزال فى شبابها. تعلم أنه لن يقع فى فاحشة، ولكن لا أمان لرجل فى ليلة ظلماء، تتراقص بها الشموع فى حداق زرقاء، لناعمة شقراء، الأمر بلاء. دافعت خواطرها السوداء، ولكنها اعترفت لنفسها أن دارين خطر، خطر ناعم غض ينساب فى براءة الطفل، له عينان بسعة البحر ولونه، لن يفيق العاقل من تلاطم موجه إلا ويجده قد التهم قلبه، وشتت عقله وغاص فى عمقه السحيق. لم تسمع فى أشعاره أنه تغزل فى هذا اللون

من قبل، فإنها تحفظها كلها، ويمكنها القسم بأن سواد الحداق فتنته، سنرى إن كان صادقاً.

ودعت دارين أباها، واستعد القصر لإستئناف الاحتفال، ومشى قيس مطمئناً بها وجد، ولكن انخلع قلب الحاضرين عندما انفتح باب القاعة على مصراعيه، ودلف العملاق ومن خلفه الجنود، فخر الحاضرون راكعين أمامه، وامتقع وجه الحاكم، ثم تكلف ابتسامة باهتة، ومشى مهرولاً إليه.

القائد جودفرى .. حللت أهلاً.

أهلا بك أيها الحاكم.

تفضل اجلس مكانى.

مشى فى اعتداده وكبره المعهودين، فتحفز قيس بعد صدمته. قاتل أبى، قلّب عينيه فى خاصرة الجنود ليستل خنجراً، فأدركت أروى ما يفكر به، وأشارت برأسها ألا يفعل. فكَّر بها، فتراجع مجبراً عن نيته. مشى جودفرى بين الخاضعين، ثم ابتسم عندما حيته دارين، وهمَّ أن يتجاوزها إلى العرش، ولكن توقف فجأة، وأشار إلى قيس، وكان وحده الواقف بين الراكعين:

من هذا ؟! . قال باليان :

حارس ابنتى .

قطب جودفرى حاجبيه واقترب من قيس حتى كاد يلتصق به، ونظر فى عينيه الكظيمتين بقوة بادله الأخير القسوة ذاتها، فقال جودفرى بنبرة خفيضة كالفحيح:

لا خوف، ولا توتر، أحس بأننى قد رأيت تلكما العينين من قبل .

ظل قيس يتطلع إلى عينيه بقوة وثبات دون أن ينبس، وبدا وكأنه يتطلع إلى جبل سيقع عليه. تابع جودفرى:

أتعرف من أنا ؟

أجل، سمعت عنك من قبل .

ممن ؟

لا أحسب القائد يجهل شهرته .

تبسم جودفرى لرده، ووضع يده على كتفه، فسارع قيس وأبعدها عنه، فغضب جودفرى من جرأته فقبض حنجرته فى كفه: " كيف تجرؤ على هذا أيها الصبى" شدد الخناق عليه. فغر الحاضرون أفواههم لتغير مزاج جودفرى وزمجرته، وعقد الخوف لسان أروى، وتلعثمت دارين، فتبسم أنطونيو، ورأى باليان امتقاع وجه إبنته، فتدخل قبل أن يكسر جودفرى حنجرته معتذراً بأنه مستجد فى شئون الجند، ولم يتعلم بعد آداب التعامل مع القادة، ثم شفع كلامه بالرجاء كى يعفو عنه. نفخ جودفرى ودفع قيساً فطرحه أرضاً مع من اصطدم بهم من الحاضرين أثناء سقوطه، وتقلب متألماً يشهق، ويسعل بأنفاس متقطعة. غالبت أروى دموعها، ثم انهمرت، إلى متى سيظل تحت هذا العذاب؟ لم يبقَ لون من الذل إلا وتجرعه، ثم انتفضت عندما صرخ جودفرى بدارين:

خذى الأحمق من أمامى .

أشارت دارين إلى إثنين من الجنود، فتعكز قيس على أكتافهما، وخرج، ثم أمر جودفرى بفض إجتماعهم وإحتفالهم، فانصاعوا.

***

خلا بباليان ولم يبق معه سوى ريموند مساعده، فأمره جودفرى بالخروج أيضاً. جلس فوق العرش، ووقف باليان أمامه صاغراً، متسائلاً عن سبب زيارته المفاجئة. كم يستثقل وجوده وسطوته. ارتشف جودفرى كأسه، ثم وضعه، وقال :

لقد أعددت العدة لقتال ذلك الداهية الهارب معاوية، وستشارك فى هذه الحرب بما قضيت.

امتقع وجه باليان، وأشفق من أن يلقى برجاله فى أتون الحرب، قال مختنقاً:

بمَ تأمرنى ؟

خمسة آلاف قطعة ذهبية، ورواتب من تشارك بهم من الجنود كاملى التسليح وأقواتهم، وستقدم لى خمسمائة فارس وضِعفهم من الرجالة.

ساد الصمت للحظات، ثم بادر باليان بأنه سيأمر الخدم بتجهيز استراحته، فنهض جودفرى، وأخبره أنه لن يمكث عنده حتى الصباح فلا وقت لديه.

لن أرتاح قبل أن أصلب معاوية كما فعلت بأبيه من قبل.

***

مرت ليال ثقال على كليهما، بحث قيس فيها عن سبيل للنجاة دون إثارة الشكوك حولهما. قضتها أروى بين جدران غرفتها، ومجلس الحاكم عندما يطلب حضورها، وكثر إختلافها إليه فى الآونة الأخيرة لإلحاحه فى إبقائها معه وهو يسير شئون جزيرته. أما قيس فقد ظل يرافق دارين فى أعمالها التى لا قيمة لها فى نظره، واختصرها فى نفسه أنها لا تفعل شيئاً سوى إضاعة الوقت والدعة مع هذا لم ينكر أنها متوقدة الذكاء رقيقة القلب. تبسَّطت إليه مع الوقت، وأفضت إليه بالكثير عنها، وتبين أنها لم تكن بالسعادة التى يظنها من يراها من بعيد. شكت حالها وانعدام هدفها فى الحياة وخوفها وتوجسها من الأيام المقبلة، وخصت انطونيو بقدر كبير من المخاوف، تعلم أنه يريدها ولن يتراجع عن ذلك ولو عنوة إن استطاع، لطالما أشفقت من مصيرها وهى تراه يزداد قوة ونفوذاً يوماً بعد يوم، ماذا سيحدث إن مات أبوها أو سقط من منصبه؟ كل ساعة تمر يضيق الخناق من حولها، اعتاد قيس سماعها باهتمام، ولكن لاذ بالصمت فى معظم أوقاته وكثيراً كان شارداً فى مصيبته. لاحظ فى إحدى المرات نقوش القلادة التى عليها، إنها نسخة مطابقة لما رآه من قبل أثناء رحلته ويوم قُتِل عدى، وقرأت دارين تعلق عينيه حولها مع أنه اجتهد فى إخفائه، فلامست القلادة وهى تقول:

رمز حكمائنا .

كيف ؟

إن العين التى تتوسطها تعنى البصيرة والعلم وإدراكنا بكل ما يجرى حولنا من أتباعنا وخصومنا وقدرتنا على مكافأة الصديق ومعاقبة الخائن، أما تلك الخطوط فهى ترمز إلى الضياء الذى تحمله العين إلى العالم.

تظاهر وكأنه سمع شيئاً جديداً، هز رأسه فى فهم. سكتت دارين ثم أردفت:

هل أبوح لك بسر؟ أنا لا أؤمن بشىء من هذا كله.

تفاجأ لقولها غير أنه لزم الحذر، هل تُراها تراوغه، تنهدت وقالت:

لم أرَ الله فى شيء مما يفعلونه، ولا النور فى شىء من اختياراتهم. يرمزون لأشياء، ويقترفون نقيضها، فما معنى أن الإله قد اختارنا وأفعالنا قد أفسدت الدنيا من حولنا، كله كذب، لا شىء سوى الخيانة والغدر والإفساد، قتلوا أمى لأنها اهتدت لشىء كهذا.

كان قيس ينصت إليها مذهولاً، فاجأه تفكيرها، واتضح أنها أكبر بكثير مما تبدو عليه، وبدأ يشعر بالتعاطف معها. أردفت دارين قبل أن تلوذ بالصمت:

إننا مثل الجراد لا نحط بأرض إلا واستأصلنا شأفت الخير فيها.

امتد الصمت بينهما لمدة، ثم ارتجف قلبه عندما باغته كلامها:

أريدك أن تخبرنى بكل ما تعرفه عن القداسيين وأميرهم.

لم أفهم.

لماذا تظن أننى اخترتك فى سوق النخاسة ؟

الحقيقة أنى ما زلت أتساءل.

كنت أعلم بوصول أسيرة القداسيين إلى القصر، وقد رأيتك وأنت تناولها حجابها فى سوق النخاسة ذلك اليوم.

تابع قيس كلامها مشدوهاً، وشلَّ تفكيره فيما عليه فعله، أردفت دارين :

ورأيت نظرتها إليك حين أخذها أنطونيو، وجنونك عليها.

نظرت فى عينيه، فرأت مشاعر الخطر بادية فيهما، قالت فى ذكاء:

ماذا؟ هل تفكر فى قتلى؟ هل تخشى أن أوقع بكما؟

لو أردتِ هذا لفعلتِ منذ زمن.

أحسنت.

ولكن ماذا تطلبين منى الآن؟

سترتب لي اللقاء بعلماء مدينتكم، وسوف أساعدك على الفرار مع تلك الفتاة.

وزن قيس ما سمع، ولم يجد أمامه سوى تصديقها، فتساءل :

متى ؟

بعد انتهاء الاحتفال.

***

أنهى أنطونيو تعليماته للسَرية المتأهبة للمغادرة. ستلتقون بالقائد جودفرى عند شاطىء الربوات الثلاث. عمد إلى توزيع الحرس المعروفين بإخلاصهم للحاكم، وحرك معظمهم نحو الحرب، ولم يبقَ إلا القليل، قد صار مطمئناً إلى انفراده بالحاكم دون شوكة تحميه، بقى أن ينفذ الذريعة التى سيتخلص منه بفضلها. جاءه أحد الحرس يخبره أن الحاكم يطلبه فى عجل، فذهب من فوره، فوجده ممتعضاً غاضباً. استقرت نفس انطونيو لرؤية أروى فى مجلسه، علم أنه غدا لا يطيق ابتعادها، فتساءل عن سبب غضبه، فأخبره باليان أن هناك عدداً من الجنود قد سارعوا فى الفرار من المعسكر عندما علموا بأنهم سيسيرون إلى حرب معاوية. كما أن هناك اثنين من الحرس الخاص قد تغيبوا ولم يعلم أحد بمكانهم، ولعلهم قد فروا مخافة أن ينضموا إلى جيش جودفرى. نهضت أروى تستأذن للمغادرة، سمح باليان لها فى لطف، وذكرها بأن الليلة سيعقد الاحتفال الشهرى، وقبل مغادرتها دلفت دارين وقيس من خلفها، فاستأذن أنطونيو وخرج وهو يرمق قيساً بمقت. طلبت

دارين إذن والدها فى الخروج إلى الصيد، لكنه رفض فدنت منه تلح فى إقناعه، لكنها فشلت لقلقه، وتوجسه من اختفاء الجنود ودنو الحرب. تقدم قيس خطوة حتى دنى من أروى وهمس خلسة لها " لا تشهدى الحفل، سأخرجك الليلة "

خفق قلبها بين الخوف والأمل، ثم كررت استئذانها وانصرفت .

***

دأب طوال المدة التى قضاها منذ نزل الجزيرة على دراسة حالها، وأماكن ضعفها وقوتها، ومداخلها ومخارجها. اجتمع مقاتلو كتيبة العقاب حوله بمنأ عن العيون، يرمقهم جنديا قصر الحاكم اللذان قام عمر باختطافهما ليعرف تفاصيل المكان من الداخل، وكانا موثوقين خائفين لا يدريان هوية خاطفهما ولا غرضه. ظل رجاؤهما الوحيد أن يفى بوعده فى إطلاقهما بعدما أفشيا له تفاصيل القصر وطبيعة الحركة فيه ونقاط حراسته. كان كلامه همساً لم يتبينا ما يقوله لأتباعه. بدأ الإشارة نحو الأرض بسهم تتابعه عيون رجاله بتمعن، كان رسماً توضيحيا للقصر، وأبنيته وأبوابه، وبعدما انتهى شرحه سأله صهيب :

هل سنهاجم الاحتفال ؟

قال عمر :

سنختطف الأميرة دارين، ثم نساومهم بتركها مقابل أروى .

تساءل عمرو :

وماذا عن قيس ؟

سيكون معنا بطبيعة الحال فقد علمتم أنه غدا حارسها، ولكن لا بد من حيلة كى يسهل علينا ذلك .

الفصل الرابع عشر

لما يكد المشفى يلتقط أنفاسه من ضغوط الليلة الماضية، حتى عاوده إضطرابه بدخول عربة الأمير واجتيازها الحديقة في عجل، خفق قلب عليٍ ومن معه لظنهم أنها تحمل الأمير مصاباً بداخلها، ثم هدأت قلوبهم عندما تبينوا حقيقه الأمر. لم تكن حنين في حالة تدعو إلى القلق، فقد بدأت تستعيد وعيها وتعود إلى واقعها بالدموع التي غابت بها عنه، لا تزال تهذي باسمه، ويمر أمامها تفاصيله الصغيرة، ويقاطعها ابتسامة سلاف تقول بأن الصغير لن يعود. وُضِعت فى غرفة العناية، وأبلغ قاسم علياً بتعليمات الأمير في شأنها، وترك بعض الحرس عند بابها، وأسفل نافذتها ثم غادر. سعى عليٌ في توفير ما تحتاجه، وأولاها عناية كبيرة، وكلّف سيلا بالإشراف بنفسها على حالتها أولاً بأول. إستفاقت لبعض الوقت، ثم فقدت الوعي من جديد. لمست سيلا جبهتها فوجدتها كقطعة من الجمر، أسرعت في العمل على خفض حرارتها، بينما ظلت حنين ترتجف، وتهذي بإسمه دون توقف، انهمكت سيلا في تمريضها بعناية، وإشفاق أدى بها إلى البكاء معها، ومشاركتها شيئاً من نارها. بدّلت قطع القماش الملفوف حول أطرافها، ترفع قطعة لتضع أخرى، بعد أن أغرقتها داخل إناء من الماء البارد، ثم أمرت سراب بتغييره، هدأت حنين وعادت إلى ثُباتها، جلست إلى قربها ترنو إلي وجهها القسيم، وقد اكتست ملامحها الهادئة بالشحوب، وجنة خفيفة السُمْرة متوردة بفعل جريان العبرات الساخنة فوقها، عيون منهكة لم يكسر الدمع كبرها، فظلت رموشها تحمله إلى السماء، وشعر بني اللون يكسو الوسادة حول رأسها، وجسد نحيل يميل إلى الطول، إنها لوحة فنية لجمال مهجور، لقد عضها الدهر بنابه، وهي بعد شابة في مقتبل عقدها الرابع. مدت سيلا كفها برفق، ولمست جبهتها من جديد، إطمأنت لانخفاض حرارتها. مضى بعض ساعة،

فتذكرت أن تجهز لها شيئاً يقوي بدنها، بينما تهمس لإحدى مساعداتها بأنواع الأطعمة سمعت إرتباكاً في الممر خارج الغرفة تعرفه، ثم طرق الباب برفق، أسرعت وفتحته بقدرها.

سيدي الأمير.

كيف حالها ؟

قد استعادت وعيها .

هل يمكنني رؤيتها ؟

بالطبع، اسمحوا لي، سأجعلها تتهيأ.

أسرعت إلى الداخل، ودنت من حنين لترتدى حجابها، غير أنها امتنعت، أعلمتها بأن الامير جاء ليطمئن عليها، فوضعت حجابها جانباً، وقالت بحزم بأنها لا تريد أن ترى أحداً. تسمرت سيلا، واضطرب قلبها للحرج الذي وقع على كاهلها، فحاولت أن تثنيها عن إعراضها، ولكنها يئست من ذلك، فخرجت بخطوات متثاقلة. وقفت أمامه في حرج ولم تتكلم. انتبه إلى قدومها وكان مطرقاً، وهمّ بالدخول لكنها اعترضته بحركة خفيفة بكفها في خجل، فتوقف وتبسم ابتسامة باهتة، قال بصوت خفيض:

ألم تسمح ؟

أومأت برأسها وقد تندى جبينها واحمرّ وجهها لثقل الموقف. أشاح بوجهه ونظر إلى نهاية الممر كأنه يبدد الحرج، وقال هامساً:

كما تشاء، أبلغيها سلامى .

***

كان مستلقياً على جنبه، ولم يسكت عنه الغضب منذ استفاق، ظل شاخصاً عينيه القويتين، تتعالى أنفاسه غير مبال بالممرضة التي تغير على جرحه، وتضع مراهماً لشفائه. تسبب غضبه في سريان التوتر والخوف إليها، فانتهت من عملها، ثم سألته إن كان يحتاج شيئاً، وانتظرت أن يلتفت إليها لكنه لم

يجب، فكررت سؤالها، ثم جفلت عندما نظر إليها فجأة يهز رأسه نافياً، ويعود إلى شروده، لقد أفلتهم، كيف سأنظر في وجهه ؟ كيف؟ لست أدري، ليتني مت قبل هذا، طرق الباب فأذن بنبرة غاضبة بالدخول، ولم ينظر إلى القادم، لكنه انتفض عندما سمع صوته .

سيدى الأمير ؟!

اجتهد كى يعتدل، فأشار إليه ألا يتحرك، ومشي إليه وجلس على كرسي في وجهه، غض رباح نظره في خجل، فقال الأمير مقوياً من عزمه:

لا عليك أيها النسر الشجاع، فقط أخبرني بما حدث .

هدأ رباح لهدوء الأمير، وقص ما كان، فاستمع إليه في إنصات، ثم تنهد وقال: هناك خائن.

***

تململ داوود فى فراشه، وقال بصوت ضعيف :

متى سأخرج أيها الطبيب ؟

تفاجأ علي من سؤاله، وقال :

لا زال باكراً .

لا أستطيع ترك مهامي في ذلك الوقت .

هذا لكي تستطيع أن تكملها، غير ذلك ستَهلك وتُهلك من معك .

استرخى في يأس، وقال :

افعل شيئاً أرجوك .

قلت لك ....

ثم قطع حديثهما الزائر عند الباب

كيف حال بطلنا ؟

استنفر داوود طاقته، وحاول الإعتدال في جلسته .

سيدى الأمير.

أشار إليه أن يظل كما هو، ونظر إليه باسماً، وقال :

هل أنت بخير ؟

الآن أصبحت بخير، أريد الخروج لكن الطبيب ...

لا تشغل بالك الآن، فقط استجمع عافيتك وسنكمل ما بدأناه، سأعود لزيارتك.

ربت على كتفه، وانصرف .

***

قبر له من عباب البحـــر واتده ... النجم زائرة والفلك شاهــــدُهُ

يا مبحراً فوق هذا اللحد مَكْرُمة ... أبلغ سهيلاً بوجْدٍ ذابَ واجِدُهُ

أبلغ سهيلا بأني لستُ أخـــــذله ... وقد دنا لبلوغ الثأر واعــــدُهُ

تنهد شوقه، وغمغم داعياً، ووجهه إلى البحر، وأطال الشرود، كان الحرس من حوله يقفون على مسافة غير قريبة كما أمر، انتبه إليهم وهم يعترضون طريق يحيى، فأذن له، دنا وتبادل التحية معه ثم قال:

توقعت أنك هنا يا سيدي كالعادة .

جئت لزيارة أبي، أرأيت قبل الآن قبراً بهذا الحجم ؟!

عاود النظر إلى البحر، وقال" أقسم بأنني سوف أُسْكِنهم جميعاً حيث سكن"

سيحدث هذا بلا شك.

خيم الصمت، وعاد الأمير يتأمل الأفق، ثم التفت إلى يحيى، وقال:

أتذكر أول يوم نزلنا فيه هذه البلاد ؟

تبسم يحيى في ود :

أجل يا سيدي أذكر.

قد كنت دائماً معي يا صديقي العزيز.

وسأظل حتى تفارقني روحي.

وضع الأمير يده على كتفه، وقال :

هل تذكر يوم قلت لك، ونحن في هذا المكان بأن الزمان سيدور دورته، وسألتقي بجودفرى من جديد؟ لقد دنا الوعد يا صديقي، فكن متأهباً لحرب لم تشهد تلك البلاد مثلها من قبل.

هل هناك شيء محدد يقع على عاتقى؟

هناك خائن بين أفراد الجيش يا يحيى، وهو الذي هاجم رباحاً، وساعد إبراهيم على الهرب.

العفو يا سيدي، ولكن لماذا تظن أنه من داخل الجيش؟

لأمرين، أولهما أن الذين هاجموا رباحاً كانوا بارعين في القتال بشكل لا يتأتى للمرتزقة، والأمر الثانى أنّ الظلاميين ما كانوا ليتقدموا إلى مكان قبل أن يتأكدوا من تغلغلهم داخل جيشه ليسهل عملهم، وقد عاينت ذلك بنفسك معي يوم سقوط قداسة.

عدنان .

أجل، عدنان جديد بين صفوفنا، اجتهد يا يحيى في البحث بين القادة دون أن تلفت انتباههم.

***

قتلوا سليلة الدماء المقدسة، وطردوا أمير حكمائنا في هذه البلاد، وأغمدوا سيوفهم في أجسادنا ودمائنا المختارة، ولم يبقَ غيرنا ورقة رابحة في تلك المدينة حتى يأتي الجيش الذي سيعصف بها، ويقلب أرضها على ساكنيها.

تنهد والغيظ يقفز من عينيه، هزَّ أتباعه رؤوسهم في تفهم، مستشعرين مسئوليتهم، بادر أحدهم وتساءل إن كان هناك ما أوصى به إبراهيم قبل رحيله.

لقد أخبرني أن معاوية يختلف إلى مكان سري، لم يُطلع أحداً عليه خارج المدينة، ويتعمد طمس آثاره، والتمويه كلما قصد ذلك المكان، يجب أن نعرفه، سنتبعه ونُحصي عليه أنفاسه.

شرع في توجيههم على الحال التي سيكونون عليها إلى أن ياتي جودفرى، وضع خطة لتتبع الأمير، واكتشاف سره، ثم ختم كلامه بأن الضربة الأساسية لم تاتِ بعد، أكل التساؤل أتباعه فقال:

سيأتي تيودور.

***

دقت طبول المعسكر لدخول الأمير، ووصل وحدة القيادة بعد أن أخذ جولة بين الوحدات الأخرى، اطمأنَّ إلى وجودهم على أهبة الإستعداد، واستقبله القادة على رأسهم كرشاب عند القبة البيضاء، يقف جسور إلى جانبه بعد أن فضَّ اجتماعه لسماعه صوت الطبول، تساءل الأمير إن كانت الأمور تجري كما ينبغي، أصدر بعض تعليماته دون أن يترجل، وفي نهايه كلامه أمرهم بأن يشرعوا في إجراءات التعبئة العامة، وأن يضموا إليهم كل من كان قادراً على حمل السلاح، وقبل انصرافه أمر كرشاب بأن يأتي معه، ثم أدار عينه بين الجند، والقادة، وأشار إلى جسور أن يأتى.

انطلق ومن خلفه القائدان والحرس، دار بهم دورة كاملة حول أسوار المدينة، ونقاط حراستها، وأشرف على أعمال التحصين التي تجري على قدم وساق، وقصد أعمال حفر الخندق عند البوابة الرئيسية، وأثناء مروره لاحظ بعض الثغرات في الأسوار الغربية، فأسرَّ في نفسه غضباً عظيماً، وانتبه جسور إلى أنه لاحظ الوهن في تحصين المكان، فساءه الأمر، وظل يطلق اللعنات في نفسه.

***

علت أناشيد التشجيع التي يرددها المتطوعون، والجنود أثناء حفر وتوسيع الخندق، وتناغم معها صوت المعاول والألات. يُشرف ربيع من أحد أبراج المراقبة، وهو المكلف بقيادة حرس الأسوار وإدارة أعمال تحصينها، تأقلمت أذنه مع صوت الإنشاد، والحفر المستمرين، فغفى وبدأ يوغل فى النوم إلى أن

أيقظه الهدوء الذي عمّ المكان فجأة، وقبل أن يتساءل عن سبب توقف الأعمال، سمع صوته يزمجر أسفل السور، يسأل عنه:

أين قائد حرس الأسوار ؟

لملم ربيع نفسه، ومسح وجهه، وهرول إلى الأسفل ملبياً نداءه، مرتبكاً لحضوره المفاجئ، ونبرته الغاضبة، ووقف أمام الأمير شاخصاً، فلاحظ الأخير أطلال النوم على وجهه، فتمالك غضبه بصعوبة، وتساءل :

كيف تجري الأمور أيها القائد ؟

ازدرد ربيع ريقه وسعل، اعتذر ثم قال:

على ما تحب يا سيدي، ننتهي من أعمال التحصين، والترميم كما ترون.

تعني أنكم قد انتهيتم، ولم يبقَ غيرُ حفر الخندق وتوسعته.

تردد ربيع، ثم أومأ برأسه مقراً، قال الأمير بصوت خفيض:

أتخدعني ؟ ارتجف ربيع لاتهامه وقال:

معاذ الله يا سيدي.

كأنك لم تلحظ تهتُك الدفاعات في الأسوار الغربية ؟

حملق ربيع عينيه، وانعقد لسانه، ثم تلعثم :

لاحظت، ولكن ...

لاحظت ولكن ؟! هل تنتظر أن تُقتحم المدينة حتى تُعالج الأمر؟

سيدي لقد تأخرت الصخور، والمواد التي طلبتها.

أسألك فتكذبني، تتراخى ونحن في شدة، تنام ورجالك يعملون.

سامحني يا سيدي أنا...

صرخ الأمير بوجهه:

أنت إما مهمل، وإما خائن، ودمارنا في الحالتين محتوم .

ثم صرخ فى الحرس آمراً :

خذوه إلى السجن .

حاول ربيع تبرير موقفه، ولكن الأمير كان قد حسم أمره، ثم صاح من خلفه:

مولعون بالغفلة، وأحداق العدو تتربص.

استقبل الناس من حوله، وخاطبهم وهو يحمل الغضب نفسه :

من كان يعمل خوفاً أو تحرُّجاً فلينصرف عنا، أما أن يُحسب علينا، ثم ينشر الدعة والتخاذل بيننا فهذا ما لن أسمح به أبداً، لسوف أُنكِل بكل من يقصر في عمله، ولن أستثني أحداً.

للشدائد أحكامها وقد لا تُغْتفر الأخطاء التى تُمحي في أيام الرخاء، وضع سيفه عن منكبه، ونزل إلى منتصف الخندق، وشرع في الحفر معهم. أسرع كرشاب وحذا حذوه. تردد جسور، ثم وثب داخل الخندق، فتشجع الجنود والمتطوعون ودبَّ النشاط مشتعلاً، راقب جسور الأمير وقد تعرق بشدة، فهمس في نفسه ساخراً " تجتهد وتجهد نفسك سُدىً، ما نفع الخندق والأسوار إذا كان هناك من سيفتح الأبواب من داخلها ؟! ".

بقى معهم حتى أوشكت الشمس على المغيب، وتوقفت الحركة لنداء الجندي في برج المراقبة بأن هناك قادميين، فتأهب حرس الأمير لحمايته، ولكن أشار إليهم أن يغمدوا سيوفهم، إنهم أهالي القرى التابعة لهم قد امتثلوا لأمره، ولاذوا بالمدينة. توقف اللاجئون عند الخندق، وعجِبوا للأمير يخرج من الخندق، وينفض عنه غباره، بادرهم بالترحيب، وأعلمهم أن أمره باللجوء إلى الحدوة كان لحمايتهم .

وضع كلامه عناء الهجرة عنهم، فدخلوا المدينة وقلوبهم مستبشرة بما سيأتي، وما إن استقروا في الخيام حتى انضم رجالهم إلى صفوف الجيش، وأظهروا همة عالية في التجهيز للحرب، وفي مساء اليوم نفسه اجتمع الأمير بصُناع المدينة، وأصحاب الحرف، وأمرهم بالعمل على مدار الساعة دون توقف، وأن يُقَسموا أنفسهم إلى فرق تتناوب على أعمال التسليح، والصناعات

الأخرى التي يحتاجها الجيش، وأشرف بعدها على مخازن السلاح وعاينها، ثم أمر بشحذ الثلم منها، وإصلاح التالف، أو إعادة صهره وتشكيله، ووجَّه فرقاً من المتطوعين إلى الغابة خارج المدينة، فقاموا باقتلاع الأشجار وتقليم جذوعها، وصنعوا منها نصال السهام تحت عين الخبراء، يحوطهم عدد كثيف من الحرس لحمايتهم. طاف البيرونى بين فرق الجيش يقوى من عزيمتهم، ويحرضهم على القتال. لاحظ الأمير أثناء مروره على ساحة التدريب انضمام شباب الباحثين، وعلى رأسهم عاطف، يثبون في الدروع، وقد غادروا مدارسهم، وعكفوا على التدريب، فأمر أنساً أن يكتب بمنع أفراد البعثات، وطلاب العلم من المشاركة في الحرب، وأي أعمال أخرى سوى دراستهم. تأهبت نساء المدينة وبناتها أيضاً للقتال، فشاركن في التدريب في معسكر مستقل، وسلحن بيوتهن بالحجارة والسهام، ولكن أنفاس الخيانة لم تهدأ فقد كان جسور ينقل أخبارهم أول بأول إلى الظلاميين، ويبلغهم بتحصينات المدينة، وتطويرها، وثغراتها، وقدر المؤن وكفايتها، كما أرسل في النهاية رسالة إلى جودفرى: "لقد استعدت المدينة لحصار طويل، وقد أمَّن الملعون قوتهم ودواءهم وسلاحهم، فعجل بالإنقضاض عليه، وقدموا المجانيق لحسم الأمر دون جهد"

***

اجتمع من جديد لوضع الخطة النهائية، وتحديد ساعة الصفر الموعودة. ظل متكأً علي سيفه لبعض الوقت ثم نهض، وبلل سبابته وإبهامه وأغرق بلعابه قنديلاً يتوسط المنضدة التي تشكل حلقة الاجتماع "هكذا سيتم إطفاء عهد الحاكم، وأسرته " ابتسم سيمنس، وبرقت عيناه متحمساً " هل سننفذ الليلة "

يجب أن نسرع قبل عودة رجاله من الحرب .

كان أنطونيو قد عمد إلي تفريق الجنود المخلصين للحاكم، وإبعادهم عنه بحجة الحرب، وحرَك آخر كتيبة مخلصة للحاكم صباح اليوم، ولم يبقَ في القصر ممن يوالونه سوي ريموند، وحرسه الخاص، سأله جاك :

لكنه لم يخطيء الخطأ الذي ننتظره .

أجابه في ضيق " ولن يفعل فقد أمات الخوف فحولته، لذا سنقتله، ثم نلفقها له" هز سيمنس رأسه موافقاً، ثم قال في خبث " الاحتفال والخمر هو خير معين لذلك "

أجل يا عزيزي، وسنعمد إلي الفتاة في الوقت الذي نذبحه فوق فراشها، وقد أغرقنا جسده النتن بالخمر.

قال سيمنس وعينيه تقدح بالمكر والسوء: هبها لى إذاً.

قهقه أنطونيو، وعصابته، واقترب منه: "هي لك" قالها وهو يضرب بقبضته علي صدره، التفت فانتبه إلي ألبرت، فوجده يطيل الصمت كعادته، وتطل الحيرة من ملامحه الشقراء، فتساءل عندما نظر أنطونيو إليه:

ما الذي يجعل الموت هو عقوبة التعدي علي تلك الفتاة، أو على أي جارية أخري لدي الحكماء ؟ أليسو هم من ... ثم أمسك لسانه ولم يكمل .

فهم أنطونيو ما يرمي إليه وقال :

كلنا يعلم أن حكماءنا قد شرعوا ذلك إظهاراً لعلوهم ورفعة مكانتهم علي من هم دونهم، فهذا عندهم جزاء من يشرب من كأس سيده، أما إذا اقتضي الأمر فلن يأنف أحدهم من إرسال حريمه وبناته إلي مضاجع أعدائه، ما دام يأمل أن يجني من وراء ذلك نصراً، عند المصلحة فقط تتحول دماؤهم المقدسة إلي مرتع يلغ فيه كل عابر.

سكت الجميع، ولم يرغب أحد في أن يشاركه حديثه بالرغم من أنهم يُقرونه في أنفسهم جميعاً، صمت أنطونيو لبرهة، ثم أكمل :

حتي ذاك الحاكم المخمور، لولا تمنُّع ابنته الجميلة، ودلالها لأرسلها في أقرب فرصة إلي، كي يضمن ولائي له .

بدا أنطونيو مبالغاً في آخر كلامه، ولكنهم أقروه بالتبسم والخضوع، ثم قال سيمنس :

ما نلبث، وأن نسوقها لك دون الحاجة إلي إظهار الولاء لأحد .

جِذْها، وأحضرها إلي قبل بدأ التنفيذ .

سأفعل .

سوف نتحرك فور انتهاء الإحتفال .

تساءل ألبرت

وماذا عن ريموند ؟ إنه لا يفارق الحاكم أبداً. حك أنطونيو ذقنه وقال:

سأخبركم .

***

أمر حرس خيمته ألا يدخل عليه أحد، وأشعل الشموع في ركن على يمين كرسيه، وتجرد من ملابسه كلها، فانكشف أمام المشاعل جسده المفتول، بدا كأرض جبلية قاسية التضاريس، لمعت أضواء الشموع فوق صلعته الضخمة، جثى والسوط في يده يتدلى دون أن يلامس الأرض، كل هذا بسبب غبائي، تأخر حلول الإله بين شعبه المقدس، الدماء المقدسة التي سوف تتلافى هذا الخطأ، كل هذا بسببي. تذكر ليلة التكريس، كان مبتهج النفس، يطغى عليه شعور الظفر والنصر ونشوة بلوغ القمة، ما هي إلا ساعات قليلة، ويتم منحه أعلى درجات الحكمة، ويصير مقدساً وحكيماً مقاتلاً، سيتقدم بين كبار الحكماء، سيصعد الدرجات الثلاث في محفل الإستقبال، ويقف بين العمودين العظيمين، ثم يكرر القسم، سيتمم كبير الحكماء قوله، ويُقِر جدارته، وتشرق فوقه النجمة الخماسية، إنه حقاً من عجائب الزمان أن يصل فتىً لقيط مجهول النسب بعد أن تبناه الحكيم

الراحل وأعطاه اسمه فصار ابن يعقوب، انضم بعد ما اشتد عوده إلى صفوف الجيش، وترقى في المناصب حتى تولى قيادته، وكان على يده اقتحام قداسة. جاءت اللحظة الحاسمة، واصطف الحكماء في صفين على يمين ويسار بساط أحمر اللون، ومر بينهم بتؤدة، وارتقي الدرجات الثلاث، ووقف بين العمودين، واجتازهما بخطوتين، ثم جثى أمام الحكيم الأعظم، وهو مطرق صاغر، وطال الصمت، ولم تُشرق النجمة الخماسية فوقه. لقد انهارت جميع أحلامه، وحُرِم من الترقى إلى الدرجة، ظل صاغراً وهو يسمع التوبيخ، وكأنه يسلخ جلده: " بسبب حماقتك يا جودفري، وتقاعسك عن إتمام عملك كبر شأن معاوية ومن معه من الأغيار، وصار لهم قوة وإمارة منعت حلول الإله فينا، وأخرت وعدنا في سيادة الدنيا، لك فرصة أخيرة لتدمر ما صنع، وتسحقه هو وقومه من على صفحة الوجود، فاخرج مذموماً مدحوراً، ولا تعد حتى تنجز مهمتك"

أضرمت الذكرى النيران في قلبه، رفع سوطه وراح يجلد ظهره، ويصرخ باللعنات على معاوية، سأحرقك وقومك، سأقطع أطرافك، وأطعمك إياها أيها الآبق. يصرخ ويجلد نفسه حتى أنهك، فارتمى على بطنه، وتفلت السوط من يده، وانسابت الدماء تقطر من ظهره إلى الأرض. مضت ساعة، ثم استجمع نفسه، وارتدى ملابسه، واستدعى حاجبه، فقام الحارس بتسليمه رسالة جسور بأن المدينة قد استعدت لحصار طويل، وأن معاوية قرر القتال من خلف الأسوار، قبض الرسالة في يده، ثم تساءل إن كان هناك شيء آخر، فابلغه الحارس أن القائد تيودور قد حضر للمثول بين يديه كما أمر. فأذن له بالدخول، دلف القائد بقوته المعتادة، وكان ضخماً أشقراً ينساب شعره إلى كتفيه، وتساءل :

بمَ تأمر يا سيدي ؟

خذ فرقتك، ودمر كل القرى حول مدينة الجسر. لا تُبق منها شيئاً.

حل المغيب وأرجاء القصر في أتم استعدادها للاحتفال الوشيك عند اشتباك النجوم. أضافت العين التي شكلتها المشاعل فوق قبة القصر هيبة ورهبة، وتعلقت بها عيون الناس في الخارج، ويتسلط بداخلهم مهانة العجز وعصرة الحرمان، فها هي الدنيا قد تزينت في أبهي ثيابها، تتراقص أمام أنظارهم دون أن يلمسو حريرها، أو يشتموا ريحها، هذه هي أعمارهم ودماؤهم وشقواتهم قد أعاد الحكماء تدويرها لتثمر ثراءً وترفاً .

قطعت أروي غرفتها جيئة وذهاباً بين الترقب والخوف. قد قال أنهما سيخرجان الليلة، ولكن كيف؟ الحرس يملؤن الممرات في أرجاء القصر وأمام غرفتها، كما أنَّ اثنين من العلوج لا يبرحان مكانهما أسفل نافذتها. وهما كاملا التسليح. ليس في يدها سوي أن تنتظر بصبر. عزمت علي ألا تحضر الإحتفال مهما ألحَّ الحاكم ما لم يكن اضطراراً.

أما قيس فكان قد أعد خطته، وقرر إنفاذ أمرها بعد الإحتفال حتي يكون الخمر معيناً له في مهمة، سيكون الحراس في أقل درجات انتباههم . تظاهر بالإعياء، وطلب الراحة من دارين، فأذنت له، وذهبت إلي استراحتها في حديقة القصر بعيداً عن ضجيج الاحتفال، فلم يكن لها رغبة فيه أيضاً.

دقت الطبول، وبدأ المهرجون في عرض مواهبهم، ودارت كؤوس الخمر بين العمائم واللحي، وطافت القيان حولهم ما بين راقصة ومغنية، وظل الحاكم محتفظاً بوعيه، حابساً نفسه عن الخمر بصعوبة فالمشهد أغلي من أن يفرط بمتعته، ها هم رجال المدينة، وأهل حلها وعقدها قد تحولوا إلي قردة بين نشوة الخمر، وتمايل الجواري، وبذاءة والمهرجين، يظل يرقبهم لثوانٍ معدودة، ثم ينفجر ضاحكاً، ثم يعود فيرقبهم من جديد، ولم يفشل أحدهم في تسليته، لم يمر الكثير من الوقت حتي تحولت قاعة الإحتفال إلي صندوق يضم مجموعة من الجيف البالية عديمة النفع، والقيمة.

وفي سكرة اللهو قدم له أنطونيو أول كأس من الشراب، رفعه الحاكم في الهواء وحيا مهرجيه، ثم سكبه في جوفه دفعة واحدة، تتابع بعدها تدفق الخمر إلي دمه، ثم عاد مجدداً لنوبة من الضحك الهيستري، يغذيه مشهد أحد وزرائه وهو يزحف علي يديه وركبتيه، وقد سال لعابه في ذيل جارية تفننت في إشعاله، ثم تركته يلهث خلفها.

" وزير ... وزير ينادونه بسيدي أنظروا إليه" قالها الحاكم وهو يغالب الضحك، ثم انفجر مجدداً حتي خرَّ علي ركبتيه، وانسكب كأسه بلون الدماء التي توشك أن تتدفق من عروقه المخمورة، تظاهر أنطونيو بمساعدته سيدي يكفي هذا اليوم

لا عليك يا صديقي ريموند، ريموند ؟ صحيح أين ريموند ؟ كيف تأخر عن إجابة دعوتي، سوف أعاقبه؟

انتبه أنطونيو إلي تأخر سيمنس أيضاً، وأعاد الحاكم إلي عرشه، وظل يرمق الباب منتظراً قدوم سيمنس بين الحين والآخر.

بينما كانت ستائر الإحتفال توشك أن تنسدل كان سيمنس لا يزال كامناً حول قصر ريموند يرتقب فرصة كي ينقض عليه .

في الوقت نفسه تحرك ألبرت، ومعه بعض الحراس لإلقاء القبض علي الأميرة دارين في استراحتها، فحاصرها وأمر رجاله أن ينتظروا إشارة .

كانت دارين منهمكة في قراءة كتابها المفضل في مقارنة الأديان قبل أن تذعر من إنفجار باب غرفتها، والذي انفلق علي مصرعيه بركلة ألبرت " أعذريني يا سيدتي" لم يمهلها أن تستوعب ما يجري، وأشار إلي جنوده أن يضعوا الحديد في يديها، ويقودوها خلفه .

" كيف تجرؤن أيها السفلة هل جننتم ؟ أتركوني" ضحك ألبرت ساخراً، ولم يجبها، وأشار إليهم أن يتحركوا. لم تخضع دارين بين السلاسل واستمرت تصرخ، وتصارع " كنت أعلم غدركم أيها القوَّاد أتركني" استدار ألبرت

غاضباً، ثم صفعها فانطرحت أرضاً، ونهضت ممسكة بحجر همت بتلقيمه إياه لولا تدخل الجنود.

" اليوم هو آخر...." ثم صرخ متوجعاً لنشوب السهم في كتفه. لم ينتبه للجهة التي أطلق منها السهم إلا علي ثلاثة ملثمين اشتبكوا مع رجاله فقتلوهم، ولاذ ألبرت بالفرار.

كانت دارين لا زالت متوجسة، ولم تزل أطرافها ترتجف انفعالاً:

من أنتم ؟ التفت إليها قائد الملثمين وقال: " لا تقلقي نحن لن نؤذيك " قالها بصوت عميق ينم عن الثقة والاقتدار، لم تتبين ملامحه بسبب اللثام على وجهه، لكنَّها تذكر انها سمعت صوته من قبل.

***

داخل قاعة الاحتفال بينما يتأكل انطونيو لدخول سيمنس وقد أنهي مهمته، كان الأخير قد اقتحم قصر ريموند، ولم ينتظر خروجه، وكانت الصاعقة أنه لم يجد أحداً داخل القصر.

شعر أنطونيو أن تأخر سيمنس نذير فشل لخطته، ولم يلبث حتي تحول قلقه إلي يقين بدخول ريموند إلي قاعة الإحتفال يتقدم نحوه مبتسماً بمليء فيه، وباسطاً ذراعيه للعناق " صديقي انطونيو، أعلم أنك قد اشتقت إلي كثير سامحني للتأخير، فقد كنت أصطاد فأراً يحوم حول داري"

شخصت عيني أنطونيو، وبدأت رائحة الموت تتسلل إلي أنفاسه. تكلف ابتسامة واهية، ثم حملق عينيه عندما رأى جاك يقف فى ظهر ريموند. حاول أن يجحد رائحة الخيانة، أيعقل أن يفضح جاك خطته ويبيعه لباليان، فتظاهر أنه لم يفهم تلميح ريموند، ونظرات جاك.

سعل الحاكم بشدة، ثم تلفظ بعبارة غير مفهومة، ولسانه يتأرجح في فمه كحال السكاري، فانحني له انطونيو متظاهراً بالقلق عليه.

سيدي هل أنت بخير، هل أحضر الطبيب ؟

أشار إليه الحاكم ليدنو كي يتكأ عليه، فأسرع أنطونيو إليه، ليجد خنجره قد انغرس في أحشائه، ثم فارقها ليستقر في قلبه، نظر في عيني الحاكم، فإذا به في قمة صحوه وانتباهه " أحسبتني لقمة سائغة أيها الخنزير؟ "
اقتحم رجال ريموند قاعة الإحتفال، وأطاحوا برجال أنطونيو قبل أن يفيقوا من صدمتهم. تشبث أنطونيو بتلابيب الحاكم، وياقته في محاولة يائسة لتحقيق بعض النصر قبل أن يسيطر الموت علي كيانه، ولكن دون جدوي.
استمر الحاكم في طعنه إلي أن أراحه ريموند من عذابه، ونحره من خلفه، وأنهي الأمر، ثم صاح بالحرس " أغلقوا كل مداخل القصر، ومخارجه واستعدوا للاحتفال بالخنزير الأخير" يقصد سيمنس، جرجر الحاكم أطراف ثوبه الحريرى بعيداً عن نهر الدماء الذي يتدفق تحت قدميه، وخلع عباءته وقد غرقت بدماء أنطونيو وألقاها عليه.
سأل ريموند مساعده إذا كان قد أغلق الممر السري بين قصره وقصر الحاكم جيداً، وهو دهليز كان الحاكم عكف علي شقه سراً بين قصره وقصر مساعده لكي يتمكن من الوصول إليه ونجدته في الظروف الطارئة، ثم صاح برجاله أن يسرعوا ويحضروا الأديبة ولو عنوة .
" اذهب أنت يا جاك، وأحضرها فوراً، ولو مسحوبة من ناصيتها "
كانت أروي قد وصلت لذروة توترها لإختفاء قيس، وصوت القتال الذي دار في الخارج بين ريموند ورجال أنطونيو، وبعد أن هدأ الضجيج، انخلع قلبها لصوت جاك يطرق الباب بعنف، ويأمرها أن تفتحه، لم ينتظر جوابها حتي عمد إلي ركله كي يدخل عنوة.
لا إرادياً أسرعت، وأمسكت في يدها المرتجفة خنجراً، وظلت متأهبة لكسر الباب " قلت افتحي فوراً، فالحاكم يطلبك هيا"

الباب يوشك أن ينكسر علي مصرعيه، وصوت الحراس يتكاثر خارجه، ثم تهشم من خلفها شباك النافذة لتجده وفي يده سيفاً يقطر الدم منه، وفي الاخري حبلاً معقودة عقلاته.

هيا يا أروي يجب أن نسرع هيا.

اقتحم الأمل أسوار يأسها. أدلي قيس حبله، فانسابت عليه إلي الأسفل بعد تشجيعه واضطرارها، ثم نزل بعدها، تأوهت ثم صرخت، وتعثرت في جثة أحد الحارسين القتيلين أسفل نافذتها.

لا عليكِ فقد اضطررت لذلك .

قالها قيس وهو يسحب حبله من النافذة .

انكسر الباب، ورأي جاك الحبل ينتزع لأسفل، وأسرع إلي النافذة "إنها تهرب، أسرعو لا تدعوها " ثم أمر أحد رجاله أن يسرع، ويخبر الحاكم، وريموند، وأسرع إلي الأسفل فى مطاردتها.

***

كان بدر التمام قد بسط رداءه في السماء الصافية فازدادت رونقاً وجمالاً، وغفت في أحضانه عيون النخيل الباسق، والأشجار ثابتة الأصول، ومالبثت أن فارقت مضاجعها لهبوب نسائم باردة، صفرت بلطف في آذانها فعاود حفيفها الإجابة، فتمايلت أغصانها معها كأنها تراقص بعضها فوق إيقاع الطبيعة في احتفال هادىء لم تتخل فيه عن وقارها. وكأن الطبيعة قد خضعت هنا لقانون المثير والإستجابة، فلم ينقلب الإحتفال بالداخل حتي انقلب إحتفالها هي أيضاً، فتحول صفير الريح إلي عواء، وحفيف الأشجار إلي اضطراب واصطدام وخشوع من قرب اقتلاعها.

تابع قيس، وأروي ركضهما بين الأشجار المضطربة والرياح المعاكسة، والتي تبدو متواطئة مع حرس القصر في رد خطاهم إلي الوراء. خفق قلب أروي

بشدة، وتحس أنه يوشك أن يتوقف بين ضربات الخوف، وجهد الفرار، فتوقفت وقررت أن تسلم نفسها.

لا أستطيع أن أُكمل ... تابع أنت .... إذهب أرجوك.

وقف قيس وانحني، وقبض ركبتيه، ثم التقط أنفاسه، واعتدل، وراعه الدماء التي خضبت يدها " ما هذا؟! " دقق فإذا بالدماء تنهمر من جنبها الأيسر: " متي أُصِبتِ ؟ " أجابته بصوت واهٍ " عند النافذة أثناء النزول ".

حدث وأن توجعت عند نزولها لإصطدامها بجزع شجرة ناتىء، فتق سنه جنبها، فظن قيس صرختها لتعثرها في القتيل فقط

آه يا أروي لماذا تحاملتي، ولم تخبريني؟

لم أشأ أن أعرقلك، والآن أذهب أنت أرجوك، هم لن يؤذوني .

ظل صامتاً يقلب عينه في الظلام المشوب ببعض النور الخافت المتسلل من بين فروع الأشجار المضطربة، فتابعت أروي، وهي تكابد جرحها:

هيا اخرج، وأنا واثقة بأنك ستأتي كرة أخري .... هيا.

لن تكون هناك أخري، إما الآن أو لا للأبد، سوف أحملك.

وبينما يهم بحملها سمع صوت إقترابهم، فأسندها إلي إحدي الأشجار، وأشهر سيفه، وأنتظر.

قيس أرجوك .. لن يتركوك حياً .

وهل سأحيا إن تركتك لهم ؟

***

هدأ اضطراب الأشجار، وانقطع عواء الرياح، وكأنهم انصتوا لصليل السيوف، وخرير الدماء. ما هي إلا لحظات تفصل بينه، وبين مطارديه " ها قد وجدناهما يا سيدي" صرخ بها أحد الحارسين اللذين كانا أول من فطن لمكانهما. وقف قيس رابط الجأش ينتظر حملتهما عليه.

نظر الحارسان لبعضهما وتبسما، دنت منهما مكافأة ليحصلوا عليها مقابل القبض علي الأديبة، لا شك أن العطايا ستكون وافرة من الحاكم، ومن أمير الحكماء عندما يأتي، كل ما عليهما أن يتغلبوا علي هذا المغامر الذي داسه أنطونيو أمام الجميع، ولم يتعد عهده بالسيف سوي أيام .
استبطأ قيس هجومهما فبادرهما، وتفاجئا من قوته، وبراعته، ثم سقطا ذابلين تحت قدميه كأوراق الخريف. نصف الهزيمة أن تستهين بخصمك ونصفها الآخر أن تستهين بنفسك.
التفت إلي أروي، فأدرك أنه لا رجاء في أن تعاود الركض معه، تبدو منهكة، أغمض عينيه يائساً في النجاة. فطن كل الحرس إلي مكانهما لنداء الحارس وصوت قتالهما، والتف حولهما الجنود وقد أعادوا إشعال نيران مشاعلهم التي أطفأتها شدة الرياح .
تكابد أروي في النهوض، ثم تركن خلف ظهر قيس. شعَّب قيس جناحيه بسيفه ودرع سلبه من أحد القتيلين لحمايتها، ووصل جاك. استغرب لمقتل الحارسين " لست هيناً أيها الشقي !"
رفع جاك سيفه في الهواء آمراً:
أقتلوه، وأحكموا وثاق الفتاة.
صرخت أروى متوسلة:
لا، أرجوك دعه يذهب وسآتي معك، أتوسل إليك.
انتفخ جاك وزاد غروره، فنهرها قيس قائلاً:
أروي لا تتوسلي الكلب. لقتلي مئة مرة أهون علي من أن نُذل لهم.
أطرقت متجنبة النظر في عينيه وقد اكتستا بقسوة لم تعهدها من قبل، التفت إلي جاك وقال متحدياً:
هيا تقدم أيها التافة.

أصدر جاك أمره، فانقض الجنود عليه، قاتلهم باستماتة، ليس له درع سوي أنيابه ومخالبه، لن يكون لقمة سائغة بلا شك، ولكنهم كُثُر.
راقب جاك القتال، وشهد سقوط بعض رجاله، دعم يده الحاملة للسيف بالأخري كأنه يثبته فيها، ضيقوا الخناق علي قيس، وأسقطوا سيفه فاحتمي بدرعه، وقبل أن يتموا حملتهم عليه، زمجر من الظلام أحدهم قائلاً:
توقفوا، وإلا تموت الأميرة دارين .
صاح بذلك رجل ملثم، ثم أشار إلي رجاله، وقد عصبوا رؤوسهم بالعصابة البيضاء، والتي يعصبها مقاتلوا العقباب عند القتال لتميزهم فحاصروا جاك ومن معه. تبسم قيس:
أتيت أخيراً، قلبي وروحي، أخي.
استبشرت أروى بوصولهم. رفع عمر اللثام عنه " أشتقت إليك أيها المغامر المجنون " ثم وجه أوامره إلي الجنود " والآن ألقوا سيوفكم في الحال" تردد جاك في الانصياع له، ونظر في الأنحاء عله يتلقي العون من الحاكم، ثم استسلم بعدما تظاهرعمر بأنه يهم بقتل دارين " لا لا حسناً سوف نستسلم" قالها وهو يشير بيده لعمر أن يتوقف، انحني وترك سيفه أرضاً، تذكرت عندها دارين لقاءها به، إنه الشاب الذى تحداها فى سوق النخاسة كى يشترى قيساً.
غادر عمر ومقاتلوا العقاب بعد أن أوثق جاك وجنوده في بعضهم البعض، ثم شدَّ وثاقهم جميعاً إلي جذوع الأشجار. تعانق هو وقيس، وارتمي صهيب وعمرو شوقاً بين ذراعي قيس.

***

جُن ريموند ومن معه لهروب الأديبة ولوقوع الأميرة دارين في قبضة الغرباء، تراه كيف سيبرر الأمر أمام الحاكم، صرخ في رجاله، ثم أفرغ جّل غضبه في وجه جاك، تلقي صفعاته، وهو صاغر يسحقه عاره وفشله:

لن يطلع النهار قبل أن نصلبهم علي أبواب القصر.
تقدم ريموند رجاله بعد أن قسمهم إلي مجموعتين، وأرسل من يطلع الحاكم علي الأمر، ثم افترق بمجموعة، وأوكل جاك بقيادة الأخري.
في ذلك الوقت كانت دارين تشرح لعمر، وقيس كيف سيأخذهما الممر السري في مبني استراحتها عبر نفق إلي شاطيء الجزيرة.

***

وقفت دارين ومن خلفها عمر يقلب عينيه في الأرجاء أمام مرآة كبيرة تحتل نصف الحائط المطلي بماء الذهب، أخذت تبحث خلف المرآة عن شيء ما، أراح قيس أروي علي أريكة مبطنة بريش النعام، وأسرع إلي إبريق ذهبي وصب منه بعض الماء، وسقاها ومسح جبهتها، شيء ما كان يحدثه دائماً بأنه سوف يفقدها، وعقله لا يتقبل مثل هذا أن يحدث.

بقي القليل وسوف نخرج، ستكونين بخير.

تململ ثغرها بابتسامة واهية دون كلام، التقطت دارين مفتاح لخزانة أسفل المرآة ظهرت عندما أزاحت عنها ستاراً كان يبدوا عليه أنه جزء من الحائط، وليس منفصلاً عنه، أدارت المفتاح ببطء، وشدت باب الخزانة إليها، نظر عمر من خلفه إلي قيس متعجباً، لكنه وجده منهمكاً في مصابه، أخرجت دارين من داخل صندوق في خزانتها مفتاحاً آخر، وأخذت بعض الأوراق الصفراء العتيقة وهى تهمس لنفسها:

يجب أن تكون تلك الوثائق معي لن أتركها للخونة.

سألها عمر:

ما المكتوب في تلك الأوراق البالية؟

تجاهلت دارين سؤاله، وتوجهت إلي الحائط الآخر المتعامد مع حائط النافذة، فنحّتْ ستاراً آخر، وأدخلت مفتاحها فى ثقب داخل الجدار، فانفتح باب يفضي عبر بضع درجات إلي أسفل.

سننزل من هنا إلي ممر ينتهي إلي ثلاث مداخل، كل مدخل منها يؤدي إلي طريق مختلف، علينا أن نختار المدخل البيضاوي الشكل في كل طريق يقابلنا حتي نصل إلي شاطئ الجزيرة.

قال قيس:

أميرة دارين، رافقي أروي أرجوكي.

بدأ عمر في إنزال رجاله يتقدمهم صهيب، ثم نزلت دارين وأروى يتبعهم قيس، ثم نزل عمر.

خارج الاستراحة دنى ريموند من الأرض، وقرب مشعله تقصياً لآثار الأقدام " إنهم في الداخل اجتموا"

اقتحم ريموند استراحة الأميرة كثورهائج، ثم بدأ يشعر بخيبة سعيه حين لم يجدهم، أمر رجاله أن يقلبوها رأساً علي عقب فعندها قد انتهت آثار الاقدام.

" سيدي هناك شيء يجب أن تراه " قالها أحد الجنود .

نزل ريموند إليه فرأي الباب السري، صرخ:

اللعنة كيف لغرباء أن يعلموا هذا.

سكت لحظة وأردف:

الأميرة دارين ... الأميرة دارين قد خانتنا.

جمع رجاله، وأسرع خلفهم بعد أن أمر أحد الجنود أن يبلغ جاك بحراسة شواطيء الجزيرة، ولا يسمح لأحد بالإبحار. خرج عمر، ورجاله ليجدوا أنفسهم علي شاطيء الجزيرة في ميناء مهجور بعيد عن الطرق المعتادة إلي البحر.

كيف أصل إلي ميناء النخاسة ؟

سأل عمر دارين، فهناك كان الزير، ومن معه بانتظار وصوله، لينفذوا باقي خطة الهروب.

سآخذك إليه.

لا، ولكن دُليني عليه، فقد يحدث قتال هناك.

أطاعت دارين، وبعد أن انتهت من وصفها، أمرعمر قيساً بقيادة الرجال حتي يعود.

***

اجتمع جسور من جديد مع عناصره، وأملي عليهم تعليماتها وأطلعهم على بعض ما وصل إليه حديثاً من جودفرى، وخطته فى اقتحام المدينة. أصبح يقيناً أمام عينيه بعد الإجراءات الأخيرة التي اتخذها الأمير أن المدينة قد اختارت الدفاع من خلف الاسوار، وأنها استعدت للحصار، بقى لنجاح خطته ألا يفتضح أمره قبل الأوان، وأن يظل موضع ثقة عند الأمير. ألقى خنجره فوق الرقعة التي تمثل رسماً توضيحياً للمدينة وتحصينها، ثم صمت برهة. تدخل أحد رجاله متسائلاً عن رد فعل الأمير تجاه الهجوم على رباح، ومن معه وإنقاذ إبراهيم ومحمود فظل صامتاً، فتساءل آخر بأنه من العجيب أن يلتزم الأمير الصمت، ولا يسعى خلف الأمر، عندها تكلم جسور:

ومن قال إنه لا يسعى خلف الأمر ؟ إن الداهية يدرك أن الفاعل من بين وحدات الجيش، ولهذا لا يريد أن ينقض على أحد قبل أن يستيقن، حتى لا يبث الفرقة بين وحدات جيشه.

أدرك رجاله وجاهة رأيه، فزفر جسور عندها في ضيق وأردف:

إنه قائد محنك، يعرف متى يقدم، ومتى يحجم .

أتظن أنه يشك بنا ؟

لا أظن، ولكن الحيطة أولى، لا تغفلوا عنه أبداً، كما علينا أن نعرف المكان الذي يختلف إليه بين الوقت والآخر.

استمر إجتماعهم حتى بزوغ الشمس ثم أنهاه جسور قبل أن ينتبه أحد أفراد الوحدات الأخرى إلى إجتماعهم غير المعلن، فعاد كل منهم إلى وحدته، ومكانه.

***

انبلج الصباح وكاد القلق يأكل قلب الزير، ومن معه لتأخر عمر، فأخذ يشحذ سيفه، وهو ينظر ناحية القصر " سوف ننتظر حتي الشروق، فإن لم يأت خبر من الأمير عمر، فسوف نبحر إلي المدينة كما أمرنا"
وقبل شروعهم فى العودة رأوه يركض نحوهم سليماً معافى " هيا أسرعوا سنبحر الآن "
عمد المقاتلون إلي السفن الراسية في الميناء، وأخذوا يقطعون الحبال التي توثقها في مكانها، وأفلتوها من مراسيها، وأطلقوها للرياح تذهب حيث تشاء، وبينما هم كذلك صاح بهم عمر أن ينتبهوا لقدوم حراس القصر كي يمنعوهم من الفرار، أمر عمر بعض رجاله بأن يستمروا في إفلات السفن، والقوارب، ثم اشتبك مع الحرس بباقي العقبان، وسحقهم دون خسائر.
عندما انتهوا من إطلاق السفن بعيد عن الميناء استقلوا السفينة الأخيرة الباقية، وأبحروا في محازاة الشاطي حتي يلتقطوا قيساً ومن معه.
وصل بعدها الحاكم بنفسه علي رأس جنوده، فعجز عن مطاردتهم بحراً لعدم وجود ما يحملهم، فتحرك موازياً لهم بطول الميناء.
فكَّر عمر في أن يضلل وجهته، فأبحر مبتعداً عن الميناء كأنه يرحل، فيئس الحاكم من مطارته لعدم وجود السفن معه، وفجأة ظهر سيمنس الذي ظل كامناً بعد مقتل أنطونيو، فهاجم الحاكم، وجنوده انتقاماً لقائده، ودفاعاً عن وجوده في الجزيرة، فانتهز عمر اشتباكهم، وولي أشرعته جهة قيس.

***

لم يكن النهار فوق الميناء المهجور يشبه الليلة البارحة في عصفها وجنونها بل كان رائقاً مشرقاً، ولكن لم يشعر قيس بشيء من الجمال فيه، داخله لا يزال عاصفاً بالقلق والخوف. قالت دارين:

إن حالتها تزداد سوءً، يجب أن نوقف نزيف الجرح.

استجاب قيس لها، وأمر بإشعال النار لكييها، فخلع عباءته وفعل المقاتلون مثله، ثم نصبوا رماحهم، وصنعوا ساتراً فاستطاعت دارين أن تنزع عن أروي ثيابها دون حرج .

ناولها قيس الخنجر من خلف الستار بعد أن احمر جنبيه من النار، وضعت قطعة من الحطب بين فكي أروي ثم تششششش.

صرخت أروي لإلتهام الحديد الساخن دماءها، وكان المسكين مغمضاً عينيه قابضاً يديه، وكأنه يُكْوي معها، ثم انتبه بعدها إلي صهيب، يركض نحوه محذراً:

لقد أدركونا.

وصل عمر إليهم فوجدهم في اشتباك عنيف مع ريموند، وجنوده، ونزل بعد أن أمر بانقسام رجاله، وجعل جزءً بالنبال عند السفينة ليأمنوا انسحابهم، وانطلق كالصاعقة بالقسم الآخر. التهب حماس الرجال لوصوله، وبدأ تساقط رجال ريموند، ولكن غيَّرَ دفة القتال وصول الحاكم، ومقاتلوه بعد أن تغلبوا علي سيمنس الذي لاذ بالفرار مجدداً.

احتدم القتال، وزادت وطأته علي العقبان، وأميرهم، ولكنهم قاتلوا بصبر، وبراعة.

أمر عمر الزير بأن ينسحب بأروى ودارين إلى السفينة، ولم تنتبه دارين لوجود أبيها على رأس المقاتلين، فتقدم صهيب ومن تحت إمرته فغطوا انسحابهم حتي يكونوا في مرمي رماة السهام قرب السفينة، ثم صعدوا.

" أيها الأمير انتبه .. " صرخت بها دارين أثناء انسحابها محذرة عمر من النبال الذي استهدفه، ولكن استقر السهم في جسده قبل أن ينتبه لتحذيرها، ثم أصابه آخر، فكتم عمر ألمه وهم بأن يحمل علي رامي السهام، فتراجع النبال بعيداً، وأسرع ريموند ليجهز عليه بعدما رأى إصابته .

" سيدي ... سيدي " صاح صهيب، وأسرع لينقذه فاصطدم بجاك.

خرَّ عمر علي ركبتيه، ثم عامد سيفه أرضاً محاولاً النهوض، فرفع ريموند سيفه، وهوي به، وجاهد عمر، واحتمي بسيفه، ثم طُرح علي ظهره إثر ركلة ريموند له في صدره، خار بها ما تبقي من قواه، فتبسم الحاكم وهو يراقب مشهده، وقد بات الظفر قريباً، وهوي ريموند بسيفه من جديد فحال سيف قيس بينه وبين عمر فى اللحظة الأخيرة، واندلع بينهما نزال ضارٍ. وبدأت مقاتلى العقاب تضعف لسقوط عمر، وبدأ الوهن يدب في نفوسهم ومعاصمهم، ولا يزال صهيب منهمكاً في مصارعة جاك حتي زرع سيفه في قلبه وأرداه قتيلاً، ثم أسرع إلي جانب أميره الطريح، أما قيس وريموند فلم يحسم نزالهما حتي اللحظة. أمعن قيس عقله ومعصمه فى القتال، تذكر قول الأمير:

لا يصرفك عن خصمك شيء ولو رأيت السماء تتشقق من فوقك، ولو رأيتها تنطبق على الأرض فالتنطبق وأنت متغلب عليه.

وما بين صد ورد، ومراوغة وهجوم، ودفع وطلب، ارتجف كيان الحاكم للسيف ينغمد في حنجرة مساعده، ثم ينجرد منها وقد جندله صريعاً.

استعاد العقبان حماسهم بعدما وزن قيس ميزان المعركة بقتله ريموند، وهوي إلي عمر، وأفزعه السهم الناشب في صدره، ثم عمد إلي السهام، فكسر نصالها، ونادي لمساعدته في حمله، وإيصاله إلي السفينة، ثم عاد للقتال. بدا هذا القتال أنه لن ينتهي إلا بفناء أحد الفريقين أو كليهما، ولكن أتي الفرج، فمن جديد يعود سيمنس ليهاجم الحاكم مباشرة، ويشتبك مع حرسه

الخاص، فلا أمل له في الحياة إلا بقتل الحاكم وإلا فهو في تعداد الأموات، تتكرر الفرصة التي اغتنمها عمر منذ ساعات ليغتنمها قيس أيضاً فينسحب برجاله من المعركة إلي السفينة ويبحر راجعاً ويتركهم ينهشون بعضهم.

***

الفصل الخامس عشر

لم يتوقف كرشات منذ حل مكان داوود في قيادة الجيش عن تجهيزه، والدأب على تقوية ضعفه، وتزويد المقاتلين بما يحتاجونه، كان يُطلع الأمير أول بأول على آخر أوضاعه، ويرفع إليه التقارير اللازمة، وفي إحدى المرات أثناء مروره على معسكرات التدريب لاحظ تأخراً في إنجاز مخطط التدريب المُعَد لإحدى السرايا التابعه لقيادة جسور، فأمر أحد الجنود باستدعائه إلى قبة القيادة، فأبلغ الجندى جسوراً بأمر قائد الجيش فتلكأ عن تلبيته، ثم ذهب متثاقلاً في نهاية الأمر، لاحظ كرشاب تأخره، وعَدَّ ذلك قلة اكتراس من جسور واستخفافاً بقدره، ولكنه صرف همه إلى سبب استدعائه، وإن فشل في أن يواري عن ملامحه الحنق، والضيق فقال :

لقد رأيت أثناء مروري على معسكرات التدريب تأخراً في مخطط التدريب الخاص بسراياك، فما السبب ؟

تنهد جسور، وقال فى ضيق :

هناك أمور أخرى قد انشغلنا بها.

قال كرشاب في هدوء :

وما هي ؟ لماذا لم تعلمني وأنا قائد الجيش ؟

لن يكون من المناسب أن أطلعك على كل صغيرة وكبيرة أقوم بها.

لإن تكرر هذا الأمر فسأعاقبك .

نظر إليه جسور، وقال متحدياً :

لا تستطيع، أنت تسد الفراغ إلى أن يعود عمر، ليس أكثر .

قالها وخرج مكابراً، فأضمر كرشاب فى نفسه الإيقاع به، ومعاقبته.

***

تحرك الموكب وسط الطرق المهيئة لمروره، وتزينت الشوارع بلافتات الترحيب، وتبرجت الجدران بباقات الزهور، عند أبواب المدينة تقدم صفان من الجند إلى خارج الاسوار يتقدم كلاً منهما جندي يعلق في جيده حبلاً ينتهي آخره بدف إسطواني الشكل، لحق بهما باقي الموكب والأمير في مقدمته، أجال بصره في الأنحاء، وانتظر. وما هي حتى ظهر الزائر الذي ينتظرونه، إنه غانم سيد القبائل المتاخمة على حدود مدينة الجسر، كان سبب دعوته أن الأمير رغب فى عقد صفقة لتوريد الحبوب، والمواد الغذائية للمدينة في وقت الحرب. ترجل الرجلان وتصافحا بحرارة، وتبادلا ابتسامة متفائلة بجدوى الإتفاق بينهما.

السيد غانم حللت أهلاً ، ونزلت سهلاً .

أهلا بك أيها الأمير معاوية، لطالما اشتقت إلى لقائك.

تجاذبا الحديث، وتبين الأمير من كلامه أنه غير مدرك لما تنتظره هذه البلاد من حرب طاحنة أثناء تحاورهما، واتضح قصر سمعه، واستخباراته عن أخبار الظلاميين، وتجهيزاتهم لغزو الحدوة، فكان مقتنعاً كغيره أن الذي أحرق شريان هم الخارجون عن حكم معاوية، لهذا قرر الأمير أن يطلعه على بعض تفاصيل الأمر كي لا ينكث عهده إذا بدا له غير ما كان يرجو .

دلف غانم خلف الأمير إلى خيمته، وامتدت أمامهم مائدة طويلة، جلس غانم وصحبته، واتخذ الأمير مجلسه عند ناصيتها ومعه وحوله بعض أهل الرأي، في مقدمتهم يحيى. عرض على الضيوف أخذ قسط من الراحة في المنازل المهيئة لاستقبالهم، لكن غانم فضل التحدث في النقاط الرئيسيه لاتفاقهم، فأجاب الأمير طلبه وأشار إلى أنس، فاتخذ مكانه ليضبط محضر النقاش.

علمت أني سعيت لضم أهل القرى والقبائل التابعة لي إلى داخل الحدوة.

أومأ غانم برأسه في تفهم، وأضاف :

بسبب غارات الخارجين، والمرتزقة.

ليس هذا فحسب، إن المنطقة بأسرها على أعتاب حرب طاحنة مع الظلاميين.

اتسعت حدقة غانم لما سمع، أردف الأمير :

أعلم أنك تسمعه لأول مرة، لهذا أردت أن أعلمك به قبل أن تعقد اتفاقاً معي.

لاذ غانم بالصمت، وتشوشت أفكاره، فتبسم الأمير وقال مطمئناً :

سنتناقش في مشروع الإتفاق، ثم أترك لك الوقت الكافي لتزن رأيك، وترى مصلحتكم.

أراحه أن اكتسب الوقت لتداول الأمر مع أهل رأيه، وبدأ الأمير في عرضه، وتناقش في آلية تنفيذه، ضمن دفع مقابل المؤن والحبوب مقدماً، وتأمين القوافل، وفي نهاية الأمر عرض عليه أن يأخذ جولة معه داخل المدينة ومرافقها فقبل غانم بسرور.

***

انتشر الحرس في حديقة المشفى، وحول مبنى العلاج، رافق الأمير ضيفه في التجول بين أرجاء المكان، ومعهما رئيس الأطباء علي، قابل رباحاً وأثنى على شجاعته، ومر بغرفة القائد داوود، ثم عاد بعدها الجرحى، ومصابي الحرب. سعد الأمير لاهتمام غانم بأمور المدينة، وحرصه على الوحدة معها، ولكن تقلصت ابتسامته عندما وقف أمام غرفة حنين، شيء ما بداخله كره أن يراها الرجل، فكر صرفه عن هذا، ولكنه تَحَرَّج في نهاية الأمر، فتساءل الرجل عن إن كان يمكنه الدخول بعد أن قرأ اسمها المكتوب على اللوحة بصوت مرتفع، فأومأ الأمير برأسه موافقاً. طرق عليٌ البابَ برفق، فلم يجب أحد، فأعاد استئذانه، وأثار الصمت قلق الأمير، ففتح الباب، وهاله أنها غير موجودة، فالتفت إلى علي غاضباً، وقال :

ألم آمركم ألا تتركوها وحدها، أين ذهبت ؟
لم يجد علي ما يجيب به فأطرق، تابع الأمير بذات النبرة الساخطة:
أرسل من يسأل حرس البوابة إن كانت قد غادرت.
قالها وزفر بشدة، ثم تكلف تبسمه في وجه غانم الذى يتابع موقفه ببعض الاستغراب. استأنف مروره بين غرف المشفى وعيادة أفراده يصغى إلى كلمات غانم بنصف عقل. لم يكُف غانم عن الثناء على الكفاءة الطبية للمكان وأردف :
آمل أن تسمح بالإستعانة بأطباء مدينتكم في بناء دار الشفاء عندنا .
أنهى غانم كلامه منتظراً إجابة الأمير، غير أنه لم يجبه، فأعاد طلبه، ثم تساءل هل لديكم مانع؟ انتبه الأمير إليه، وكان كاسف البال حول تغيب حنين فأجاب بلطف :
بالطبع ليس هناك مشكلة سنرتب لذلك .
وأثناء خروجه من مبنى الشفاء إلى الحديقة جاءه أحد الحرس، وأبلغه أنها لم تخرج من المشفى ولم يرها أحد من الحرس على البوابة، فتساءل " أين هي إذاً؟ " ثم استقرت نفسه عندما رءاها تتريض بصحبة سيلا في الجهة المقابلة. تجول وغانم وانتهى مسيرهما حيث تجلس، فولت وجهها عندما رأته يقترب، وقف خلفها متبسماً، وقال بلطف :
لعلكِ الآن أحسن ؟
لم تجب، مشى غانم حتى دنا، ووقف في وجهها، قال بوقار يخالجه التلطف: " عزائي لك في مصابك سيدتي ".
رفعت عينيها الزجاجيتين إليه، وهمست بشكره، فانخطف غانم لها وقد زادها الحزن جاذبية وجمالاً، التقط الأمير ما جال في نفسه، فقال:
يمكننا الذهاب.
انحنى غانم لها مودعاً، وانصرف الأمير ضائق الصدر بإعراضها عنه.

قضى غانم ليلته يفكر كيف يبنى لنفسه إمارة كالتى رأى. أدهشه معاوية وما استحدثه في بلاده. ظل يفكر ثم انتشله من تدابير الحكم تذكره حنين، إنها لوحة منسية لجمال مهجور، لا مطر يرطب ظمأها، ولا صاحب يؤنس وحشتها، ربما كان من الأفضل أن ينتظر حتى تنهي حدادها، أو تنتهي الحرب التي تحدث الأمير عنها، عاد يفكر من جديد في جدوى الصفقة معه، وهو يعادي أقوى جيش عرفته الدنيا، وذاع صيته بأنه لا يُقْهر، فربما جرَّ ذلك حنق الظلاميين إليه، فدمروه معه، ولكن ربما نجح الأمير معاوية في هزيمتهم، أو مهادنتهم وعندئذ لن يتوقف قبل أن يضم بلادي اليه، فهي العمق والظهر القوي لمدينته، فأمر خادمه بأن يحضر شيوخ القبائل إليه، وطرح عليهم الأمر، وتناقش معهم هل يقبل العرض أم لا، ثم استقر أمره بأن يمد معاوية بما يحتاجه سراً ولا يعلن الصفقة، بهذا يأمن غضب جودفرى، والظلاميين من جهة، ويكون معاوية سنداً لهم عندما يبدأون تأسيس إمارتهم الخاصة بهم من جهة أخرى.

***

عند انبلاج الصباح كان الأمير ينتظر قدوم ضيوفه كي يعلموه بقرارهم حول عقد المعاهدة، قدَّر أنهم لن يرفضوا، ولكنهم سيستغلون ذلك في صالحهم بشكل يتعدى الربح التجاري، أبلغه قاسم بحضورهم فأذن لهم بالدخول. جلس غانم ورهطه عن يمينه، وأبدى إعجاباً وانبهاراً بتنظيم المدينة وتقدمها، ولمس الأمير منه ومن لغته أنه ينوي أن يؤسس إمارة بمن تحت حكمه من القبائل، فوجد في نفسه شيئاً من إقامة إمارة إلى جواره، فتجاوز الأمر، وظل يستمع لهم ، ثم تساءل :

وما ردكم على عرضنا ؟

لا شك عندنا أنكم تدركون خطر اتفاق كهذا على قومنا وتجارتنا إن علم جودفرى بها، ولكن لتطلعنا إلى أن يكون معنا حليف قوى، وصادق مثلكم، فنحن موافقون على أن تكون سراً بيننا.

فطن الأمير إلى أنهم يمسكون العصا من الوسط ، مع ذلك ليس سيئاً، كتب أنس العقد، ووقع الأمير، وغانم، ووضع كل منهما ختمه عليه، لاحظ كلاماً في عيني غانم يستثقل نطقه، فبادره بالتساؤل إن كان هناك شىء يرغب في إضافته إلى العقد، أو أي شيء آخر، قال غانم:

لا شيء يخص اتفاقنا، بل يخصني بصفة شخصية .

لم يحتج الأمر إلى توضيح، وجد الأمير ما توقع، إنه يريد حنين، ولعله ما وافق على العقد إلا لأجلها، فتكلف ابتسامة باهتة وتساءل عن طلبه. تردد غانم بين نظرات أتباعه ولم يكونوا على علم بما سيطلبه.

أريد أن ندعم ترابطنا بصلة الزواج.

دنا الامير منه خطوة، وربت على كتفه باحتفاء، وقال:

هكذا إذاً ؟ لقد أسعدتني يا صديقي العزيز .

تهلل وجه غانم، وقبل أن ينطق اسم من يرغب بها، أردف الأمير :

ولكن لندع هذا إلى ما بعد الحرب .

انقبض جزء من ابتسامته، وقال:

أخشى أن تطول أيها الأمير .

ربت على كتفه مجدداً، وقال :

لا تخش شيئاً، فإنَّ غداً لناظره قريب .

***

رافقتها سيلا حتى أوت إلى غرفتها، فالتقطت أنفاسها بضيق، ودارت عيناها في المكان مستوحشة أرجاءه من دونه، هل ذهب حقاً ؟ لم يمضِ سوى لحظاتٍ حتى استعبرت، فحاولت سيلا التخفيف عنها، وباءت محاولتها

بالفشل. طلبت حنين منها أن تدعها وحدها، فرفضت رغبتها في بادئ الأمر، ثم اضطرت للمغادرة لإصرارها، انتظرت حنين، ثم نهضت عندما سمعت صوت صرير باب المنزل بعد خروج سيلا، فمشت ودارت في أرجاء المنزل، وكأنها توزع حزنها بين أركانه، ثم دلفت إلى غرفة نزار فانفتق جرحها قبل أن يندمل.

حبيبي كيف حتى غِبْتَ عني ... أتعلـمُ أن لى أحداً ســـــــــواكَ
يعز علي حين أديـــــر عيني ... أفتـش فـي مكـــانـــــك لا أراكَ
لقد عجلت إليك يـــــد المنايا ... وما استوفيت حظك من صباكَ.

مِتَّ أنت، وتركتني أموت عليك حزناً عدد أنفاسي. كانت لا تزال متكئة عند الباب تنظر إلى فراشه، وطاولته المزدحمة بالكتب، والأقلام، والقراطيس، وكأنها تراه منهمكاً في كتاباته، ودروسه، لا يزال المكان عبقاً بروحه، وبراءته، وهمته التي كانت تفوق الجبال، دنت من الطاولة، وراحت تلامس أشياءه الصغيرة فوقها، ثم استقرت عينها على قصاصة ورق محشورة بين كتابين، فتذكرت يوم سألته عن سر انهماكه في الكتابة فأجابها بأنه يراجع دروسه قبل أن يغادر، ترددت ثم سحبت بأطراف أناملها الورقة، وارتجف قلبها، وتجمدت الدموع فى عينيها، وهمست باكية:

أهذه هي دروسك يا بني ؟

***

جلس مغمضاً عينيه، ومسنداً رأسه المثقل بالأفكار، والهموم إلى ظهر كرسيه، مربعاً ساعديه أمام صدره، من أين خرجتِ لي؟

تذكرها والأحداث التي تشاركا فيها، ولم يلتفت لها باله. وجودها أمامه في تلك الساعة المتأخرة من الليل تحت المطر المنهمر، تقول بأنها رأت حلماً،

وأحست بأنه ليس بخير، ارتجافها حين رأت إصابته، ومحاولتها مساعدته رغم إعراضه عنها، إسراعها إلى المشفى، واصطدامها بذلك الغريب، ثم القاءها بنفسها أمامه كي تحميه بعد أن خارت قواه أمام المهاجمين، تحملها قول السوء فيها بصمت، عينيها اللتين تنقدحان بالحب كلما رأته، كل هذا وغيره أشعل في صدره عاطفة لم يستطع كبحها. اعتدل، ثم حنى ظهره للأمام واضعاً ساعديه على ركبتيه، ومشبكاً كفيه، من أين خرجتِ لي يا حنين؟ أنا نادم على كل يوم نظرت إليك فيه، ولم أبصرك. كيف كنت بهذا العمى ؟ حتى غانم كان أكثر فطنة مني منذ رآكِ لأول وهلة. خائب يا معاوية، خائب. قطع خلوته دخول قاسم يطلب الإذن لها بالدخول. اعتدل في مجلسه، وأذِن.

دلفت بالحزن والإعراض المعهودين في الآونة الأخيرة، وقف لاستقبالها، ومشى خطوة، وهو يقول :

حللتِ أهلاً .

مدت يدها إليه بقصاصة من الورق، وقالت :

وجدتها في غرفة ولدى الشهيد .

اكتست ملامحه بالأسى لذكرها نزاراً، فالتقط الورقة وطواها دون أن يقرأها، ثم قال بصوت خفيض :

تفضلي، وارتاحي، إذا شئتِ.

هزت رأسها بالرفض، وهمت بالخروج، فاستوقفها قائلاً:

لماذا ؟ هل تحملينني إثم ما جرى ؟

لن يغير هذا شيئاً أيها الأمير، دعني وشأني أرجوك.

انصرفت دون أن تنتظر ما هم بقوله، فعاد إلى كرسيه، وراح يقرأ ما جاء في الورقة بعناية.

***

الوقت يمر، والبركان يوشك أن يبصق حممه على الدنيا من حوله، جميع من بالمدينة يكتم أنفاسه متخوفاً من مصير مجهول، واضطراب لا يستكين ومخاوف غير معلنة، جحدها اللسان، وتولت العيون أمر البوح بها .

كان جبلاً ينصب هامته وسط المدينة، ويمنع أن تميد بأهلها، فلم يحنِ الثقل ظهره، ولم يرف له أمام المخاطر جفن أو يرتجف له قلب، رغبة جامحة بداخله تجعله يتطلع إلى يوم اللقاء، لا يطيق عليه صبراً، شحذ همته، وتوكأ على نار الثأر في دمه، ظل ينظر خارطة أمامه، وفي كفه الأخرى قصاصة حنين. تراجع، وأسند ظهره إلى الوراء، ثم دعى قاسماً، وأمره أن يجلب إليه كرشاب وجسوراً.

ما لبث القائدان حتى مثُلا أمامه وانتظرا أوامره بانصات واهتمام، أشار إلى أنس بالخروج، ثم نهض بعد أن أسند سيفه إلى قائم كرسيه الأيمن، أثار صمته وتطلعه إلى عيون القائدين هواجساً وقلقاً حرص جسور على أن لا يظهرا على ملامحه.

بادل الأمير نظرته بثبات ينافي حدود الأدب معه، ويدفع التهمة عنه في الوقت نفسه إن كان يشك فى شيء.

لقد استدعيتكما لأمرين، أولهما هو أننى أشك بوجود خائن بين صفوف الجيش ساعد إبراهيم، وابنه على الفرار.

التزم جسور الصمت، وأبدى دهشته واهتمامه بالأمر بينما، وتساءل كرشاب:

العفو يا سيدي، ولكن ما الذي جعلكم تشكون في أن المهاجمين من أفراد جيشنا ؟ أعنى لما لا يكونون من المرتزقة المنتشرين في الجزر، والجبال حولنا ؟

استبعد هذا لبراعتهم وسرعة حضورهم فقد كانوا على جاهزية للأمر لا تتأتى لغريب عن المدينة ؟ ما رأيك أنت يا جسور ؟

كان يومئ برأسه موافقاً الأمير في رأيه، ثم نطق مؤيداً عندما وجه السؤال إليه، وأضاف :

علينا إيجادهم قبل وصول الظلاميين إلينا كي لا نطعن في ظهرنا .

أحسنت، لهذا ستتولى أنت إعداد فصيل سري منفصل عن قيادة الجيش، تكون مهمته اكتشاف الخونة، ومن يتعاون منهم مع أعدائنا.

وجم كرشاب، وأسر فى نفسه ضيقاً من تولي جسور المهمة، وتبووئه هذه المكانة، وتلك الثقة واكتفى بالتساؤل عن الجهة التي سينقاد لها الفصيل إذا خرج من قيادة الجيش، تراه سينضم إلى شبكة الإستخبارات، فأعلمه الأمير بأن أمر هذا الفصيل سيكون إليه مباشرة، انبسط وجه جسور وقال بحماس:

سأكون عند ثقتك بي يا سيدي، أعدك .

لا شك في هذا، وإني أمنحك الصلاحيات الكاملة لإنتقاء رجالك، وإلقاء القبض على من تشكون به دون الرجوع إلى أحد، ثم أردف:

ولكن لا تسفك دماً ما لم آمرك أنا بذلك.

الأمر لك يا سيدي .

اختلس جسور نظرة إلى كرشاب، وقرأ الضيق الذي كسا ملامحه، ازدرد كرشاب ريقه، وتساءل:

والأمر الثان يا سيدي ؟

قطب الأمير حاجبيه مستنكراً استعجاله أمراً لم يبدأه، ولكنه أجابه في ضيق:

ألاَّ يعلم أحد بأمر هذا الفصيل سواكما، ولا تتدخل أنت بصفتك قائد الجيش فيما يقوم به جسور.

أنهى الأمير حديثه، وسمح لهما بالانصراف، ثم استوقفهما قبل أن يغادرا منادياً كرشاب :

لا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرى .

ارتبك لنبرة الأمير الغاضبة، وأنه اعتبر تساؤله إساءة للأدب، فقال:

العفو يا سيدي الأمير لم أقصد أن ......

يمكنك الأنصراف .

قالها الأمير بحسم، وصرف بصره عنه، خرج الاثنان يتقدم جسور بخطوة، وقف كرشاب أمام الخيمة مطرقاً، فتوقف جسور وعاد اليه، ثم قال :

يجدر بك أن تفرح لأجلى .

ماذا تقصد ؟

لم أحسدك حين كلفك الأمير بتلك المهام منذ قيادة الكشافة، والإنابة في قيادة الجيش لتحسدني أنت الآن على تلك المهمة.

ما الذي تهذي به ؟

تبسم جسور حتى بانت نواجده، ثم قال وهو ينصرف:

أرجو أن أكون واهماً، ولكني سأثبت لك ولغيرك أني جدير بما حزته، وسترى كيف تكون القيادة.

***

تقلد سيفه القاطع مع تسلل أول شعاع للشمس من نافذة قصره، انهمك مساعده في عقد سواعده، وشد الدرع إلى جسده، تقدم أحدهم وجثى صاغراً أمامه، ورفع يديه بالمغفر، فالتقطه في صمت دون أن ينظر إلى الجندي، ووضعه بهدوء فوق رأسه. كادت عيناه الصغيرتان أن تختفيا تحت ظلاله بعدما سقطت حلقتاه فوق وجنتيه.

سأنتقم لك ياهاتورلي، سأمزق ذلك الملعون، وأفرق جسده بين السهول والجبال.

مشي إلى النافذة وأطلق بصره في الآفاق البعيدة. كانت تراقب صمته، وحزنه دون محاولة لتخفف عنه ما يجده، فتقدمت ولامست كتفه وهي تهمس " لا شك أنه الغدر يا أخي، لا يتغلب أحد على هاتورلى إلا غدراً " تنهد حرقته، وقال وهو لا يزال شارداً نحو الأفق .

أنا أوتامى، مَنْ دوَّخ الملوك، وضربت رهبته الجبال، لم استطع حماية ولدي، فقدته.

استأذن أحد الحرس، وانحنى له، ثم أعلمه بأن المقاتلين قد تجهزوا للخروج.

بسط كفه المقبوض مشيراً إليه بالانصراف .

أربعمائة مقاتل من البوشي قد تجهزوا لأخذ الثأر لقائدهم، خرج أوتامى فجثوا فور رؤيته، وأومأ إليهم، فنهضوا متطلعين إليه .

لم يحدث في تاريخنا أن فقدنا أحد مقاتلينا في بلاد أعدائنا، وهذا الملعون معاوية لم يكتف بقتله بل مزق جسده وتركه رماداً منثوراً، أوامري لكم ألا تعودوا قبل أن تقضوا عليه وتمزقوا أهله وأبناءه، وتأتوني بجثمانه مجروراً خلف حوافر خيلكم.

التهب الحماس في المقاتلين، وعظمت نار الغيظ فيهم، ثم صاح "ميجى" تقدم المقاتل ملبياً النداء، فمدَّ أوتامى يده، وأعطاه مرسوماً، وقال :

القيادة لك .

***

دجى الليل، وتبرجت السماء لأعين المتطلعين إليها، واحتلت الصدارة من بين النجوم مجموعة بنات نعش، وهي سبعة نجوم على شكل مطرقة في مجموعة الدب الأكبر، يقابلها سبعة أخرى على نفس هيئتها وهي نجوم بنات نعش الصغرى في مجموعة نجوم الدب الأصغر وفيها النجم القائد أكثرها لمعاناً وهو نجم إتجاه الشمال. أخذت الأمواج تنحصر وتمتد حتى تلامس قدميه، ثم تنحصر من جديد، تلاطمت وعلا مع سكون الليل اصطفاقها، ولجبها، وهو معرض عنها وشارد إلى السماء، شاركه البيرونى شروده، ومعه يحيى، والتزما الصمت حتى التفت إليهما من جديد. تنهد ولا يزال يتطلع الى النجوم، ثم قال وهو يشير إلى الأعلى:

نجوم بنات نعش الصغرى، وهذا النجم الفائق اللمعان في مقدمتها هو قائدها، وهو دليل الدنيا ومرشدها إلى الإتجاه الصحيح، إنه نجم إتجاه الشمال، رباه كم أفتقد مثل هذا النجم ليدلني على تدبير الظلاميين علينا، كم أفتقد نجم إتجاه الشمال فى مشروعنا، النجم القائد الدليل الذي يأخذني إلى الخطة التي دبرها الظلاميون علينا كي يسقطوا قداسة، منذ سنين خلت، وأنا أنقب بكل ما أوتيته علّني أهتدي إلى سر قوتهم الخفي، والخطة التي أمدتهم بها، ولكن لا شيء سوى إجتماع سري في قلعة مهجورة، ولا شيء آخر.

قال البيرونى :

إذا كُتب لنا النصر في المعركة، فلربما استطعنا أسر عدد من حكمائهم، أو كبار قادتهم، ونجبرهم على الإفصاح عن هذا .

صمت الأمير، وفكر ثم قال :

ربما .

قال يحيى :

ألا يوجد خبر عن قيس، وأروى، أو حتى عمر وكتيبة العقاب.

أومأ برأسه نافياً، ثم همس بصوت خفيض: وهو على جمعهم إذا يشاء قدير.

عاود النظر الى نجوم بنات نعش، وقال :

أترون النجمات الأربع التي يشكلن حملة النعش؟ إنهن يشبهن مدينتنا حدوة الجسر، أليس كذلك ؟

قال يحيى :

ولكن يظل ثلاثة من النجوم السبع لا تملك مثلهم مدينتنا .

وهذا ما سنفعله كي لا تقع المدينة تحت وطأة الحصار، سأنشىء حرماً لها على ثلاث نقاط خارجها يكون أول ما يصد الظلاميين، وإذا لم يقدر لنا النصر وانكشفنا سيكون بإمكاننا التراجع إلى النقاط التي خلفها، أو إلى

المدينة، وبهذا يكون عندنا فرصة لإعادة تنظيم صفوفنا، كما لا تشتكي المدينة من طول الحصار المباشر حولها.

صمتا وبدى أنهما قد اقتنعا بروعة الفكرة، وأضاف البيرونى :

ويسهل وصول المؤن والإمدادات من خلفكم .

وهذا أيضاً، ولكن أكتما هذا الآن، ولا تخبرا به أحداً.

***

انعقد اجتماع أهل الرأي، ودارت الشورى حول إجراءات الطوارئ في فترة الحرب. كان بداية الأمر أن يتولى يحيى قضاء المدينة، ويحل البيرونى محل الأمير في إدارة شؤونها الداخلية، وبعد لحظات من الصمت وقبل أن ينطق الأمير بتصديق القرار طلب يحيى الكلام، واعتذر عن تولي المنصب وأنهى حديثه :

لا يمكنني المكوث هنا وأنت في ميدان القتال .

قدَّر الأمير ذلك له، وهو ما كان يتوقعه من يحيى، ولم يتفاجأ بما قال، فهذا رفيقه منذ بداية الطريق لا يفارقه كظله إلا مُكْرهاً، فاستجاب له وولى القضاء أحد أفراد عصبة البيروني، وهو القاضي معين، كان زاهداً ذا عقل راجح. شهدت له الخاصة والعامة، في الخمسين من العمر له شعر رمادي ولحيه بلون رأسه، نحيل الجسد أبيض البشرة، واستمر محمد على رأس الخزانة والاستثمار وبيت المال. حضر داوود بعد أن تعافى من إصابته وسلمه كرشاب أمانته، وعاد لقيادته فرق البرق والكشافة، وأثناء الاجتماع استاذن قاسم واضطرب المجلس لدخوله ومعه أحد الجنود ملهوفاً، بدا أن كارثة حلت، قطب الأمير حاجبيه متسائلاً :

ما الخطب ؟

لقد هاجم الظلاميون القرى الشرقية يا سيدي، وأحرقوها .

قال يحيى :

قد أصبت يا سيدي بجمع أهالي البلاد إلى داخل الحدوة .
تابع الجندى :
لم يقتلوا أحداً فقد وجدوها خالية من أهلها، ولكن .....
قال الأمير في صبر نافذ :
ولكن ماذا ؟ تحدث .
قد اشتبك الظلاميون مع إحدى سرايا الكشافة والبرق وأبادوها .
نهض غاضباً، وانتفض المجلس، وبدأ اللغط وأصوات الذعر تتعالى، لكنها كُتِمت في صدور أصحابها عندما أشار إليهم أن لا يتحدثوا.
تردد الجندي، ثم رمى آخر مصيبة يحملها، وقال :
وقُتل سليم قائد الكشافة، قتله قائد المهاجمين ويدعى تيودور، وتركني كي أنقل لكم إسمه، وفعله.
يكاد الغضب أن ينفجر من عينيه فتوزع على وجنته المشتعلة، وأنفاسه المتعالية .
كيف حدث هذا ؟
لقد كمن لنا في طريق عودتنا، ويبدو أنهم كانوا على علم بتحركاتنا.
صاح الأمير :
كرشاب
أمرك يا سيدي
ليكن أول عمل لك هو رأس ذلك الغادر تيودور، ولكن كن حذراً، ولا تتقدم دون أن تحمي ظهرك، واحذر الكمائن .
أمرك يا سيدي
تساءل داوود :
تيودور ؟ أظن أني سمعت باسمه من قبل .
قال الأمير والغضب يخنق صوته :

إنه مساعد ذلك اللعين جودفري، ويده اليمنى .

***

تركت أخبار القرى التي أُحْرِقت، واستشهاد سليم وسرية الكشافة أثراً سيئاً، وحزناً كبيراً في المدينة، فتجلد وكتم حسرته. كان جالساً عند آخر درجة أمام خيمته يخط الأرض بقدح في يده، التفكير لا ينقطع، والتدبير مستمر، والجهد موصول. التراخي عند الشدائد هو الخطيئة الكبرى كما قالوا. قد بات يواصل الليل بالنهار، ولا ينام إلا خلسة من الزمان. استبشر لقدوم رباح، وخروجه من المشفى.

أهلا بك أيها النسر الشجاع. كنت سأرسل فى طلبك.

أهلا بك يا سيدي، جئت استأذنك بأن أعود إلى مهمتى.

بالطبع، ولكن كيف حال جرحك ؟

ليس بي شيء يذكر، لقد برئ.

حسناً تعال واجلس .

جلس رباح وهو يشعر بأن هناك ما سيطلعه عليه، أشار بالقدح إلى المخطط الذي رسمه على الأرض، ونظر رباح فوجد سبع نقاط متفرقة أربعة منها متصلة في شكل مربع ناقص ضلع، والباقيات متفرقات عنها، تساءل في نفسه، ولم ينطق فبادره الأمير :

إنها كوكبة نجوم بنات نعش التي تراها في سماء ليلك .

أمعن رباح النظر، ولم يفهم المغزى من ذلك، فأردف الأمير وهو يشير إلى النجمات الأربع :

ألا يذكرك هذا بشيء ؟

مدينتنا .

أحسنت يا رباح. قد علمت بالغارات التي لا تنقطع من الظلاميين علينا تاره بفرق مدربة، وتارة أخرى بالمرتزقة، لذا سأنشيء حرماً للمدينة من ثلاث مراكز قوية تمنع إقترابهم .

لماذا لا نطاردهم بقوة تفوقهم، ونوفر على أنفسنا الجهد المبذول في إعداد، وتعبئة تلك المراكز ؟

هذا عين ما يريدونه تشتيت قواتنا، وأن يكون تحركنا مجرد رد فعل لهجماتهم، يريدون استنزافنا عبر حرب العصابات، لهذا أمرت بسحب جميع الأهالي، والمزارعين، والتجار من القرى المجاورة إلى داخل الحدوة، فليكن لهم الخلاء يمرحوا فيه كيف شاؤوا، لن نخسر قطرة دم أخرى بعد إنشاء تلك النقاط.

ولكن ربما استغلوا خلاء المساحات الشاسعة من قواتنا، وأنشاؤوا لأنفسهم نقاط دعم، ومراكز لهم أيضاً.

لهذا سنحصر قواتنا، وننشر عيوننا، وكلما تثبتنا من وجودهم في مكان سنضربهم فيه، ونعود إلى أماكننا، المهم أنك ستشرف على إعداد تلك المراكز يا رباح.

كما تأمر .

قطع الصمت بينهما قدوم أحد الجند مسرعاً :

سيدي لقد رصدت عيوننا تحركاً لعناصر غريبة بالقرب من المدينة.

نهض الأمير، وقال:

إنه تيودور، فلربما كان يكمن لفرقة الكشافة التي خرجت للمطاردته.

نادى قاسماً أن يجلب سيفه، وأسرع آخر لجلب حصانه، ثم جمع حرسه وهم بالتحرك، فقال رباح :

دعني أرافقك يا سيدي .

أنت ستبقى، ولكن استعد لما أخبرتك به.

انطلق إلى خارج المدينة لا يلوي على شيء، وسرعان ما تناثرت الأخبار عن خروجه للقاء المرتزقة الذين أحرقوا القرى، وأبادوا إحدى سرايا الجيش والكشافة، وامتلأ بها حديث الأزقة، ودبَّ الذعر بأنهم قد اقتحموا المدينة، وآخرون يرددون بأنهم على مقربة منها. كانت حنين غارقة في كمادها عندما سمعت حديث الناس أسفل نافذتها " لقد خرج فى حرسه فقط " انتشلها من حزنها، وغضبها عليه ذكر الحرب، والخطر، والموت، فلربما يموت هو أيضاً. بدء قلبها الحقيقي يعود إليها، فاستعادت من جديد خوفها عليه، فاستعبرت وهي تردد بصوت مبحوح:

كفى بربكم، كفى، لا أريد حروباً..... لا أريد.

***

كان كرشاب على رأس سرية من البرق يمشط الطرقات، ويقتفي آثار تيودور، ولكنه عجز في نهاية الأمر، ولم يستدل على موقعه ومكمنه حول المدينة، فرأى بعدها أن يعود ليستجم، ويعيد ترتيب خطته، كما أن بعدهم عن المدينة قد يغري عصابات المرتزقة بمداهمة حدودها، وعمل غارات خاطفة عليها، وعندما كان على مقربة من الأسوار نشبت السهام في نحر الرجل عن يمينه، وصدر الذي على يساره، فصاح محذراً " كمين انتبهوا ".

ترجل المقاتلون، والسهام تحصد بعضهم، اجتمعوا، واحتموا بدروعهم شكلوا جداراً منها، استمر تراشقهم بالنبال لمدة، ثم ظهر الأشقر الضخم تيودور، وأمرهم بالهجوم، فأمر عندها كرشاب من معه، وانقضوا نحوهم، ودار القتال. بدأت الدائرة تدور على القداسيين، لكنهم استبسلوا، ووزنوا الكفة معهم، ظل القتال سجالاً حتى ظهر جسور، وأتباعه ملثمين في زى المرتزقة، وهاجمهم ودحرهم، فتراجعت صفوفهم، وبدأ فحول الجند في السقوط، رأى كرشاب خلاص أمرهم في قتل الأشقر، فلربما خارت عزائمهم لمقتله، فتحين الفرصة، ثم اشتبك معه فور اقترابه منه، فتبارزا

بشراسة، وأثناء ذلك انسحب جسور بمن معه فجأة من القتال عندما رأى سحب الغبار تقترب من جهه المدينة، واستمر النزال سجالاً بين القائدين، ولكن استطاع تيودور أن يجندل كرشاب بمباغته خاطفة، إذ راوغ ضربته، واقتص قدمه فهوى الأخير، ثم نزل بسيفه عليه، احتمى كرشاب بدرعه، وصد ضرباته وهو طريح.

شتت انتباه تيودور وصول قوة من المدينة، اشتدت عزيمة القداسيين عندما رأوا الأمير على رأسها، فتراجع تيودور، وانشغل عن كرشاب بحضور الأمير إلى ساحة القتال. اتزنت الكفة من جديد، ثم بدأ تيودور يفقد السيطرة ويتكبد الخسائر، فأعطى تعليماته، وسد ثغرات دفاعه، ثم وجده في وجهه :

أنت إذاً معاوية ؟

أشار الأمير إليه أن يتقدم في صمت، فوجد تيودور في نفسه رهبة تغلب عليها، تلفت حوله وانتشل رمحاً من جسد أحد القتلى إلى جواره، ورمى الأمير به، ولكنه أخطاه إذ مال عنه. زمجر تيودور، ورفع سيفه وهوى به، فصدَّ الأمير حملته، ودَكَّ وجهه بقبضته، بصق تيودور الدماء من فمه بعد أن تراجع خطوات، ثم عاود حملته، تلقاها الأمير، ورد بضربة كشطت كتفه، فصرخ تيودور متألماً، وتراجع صارخاً بالإنسحاب وهو يقبض جرحه المنفجر، هَمّ الأمير بملاحقته، ولكنه انشغل بإنقاذ أحد جنوده كان يوشك أحدهم أن يقتله.

***

دخل المدينة، وأهلها مترقبون. سار ببطئ بينهم دون التفات، كان واجماً أشعث أغبر، انعجن الغبار بعرقه، والتصقت بعض خصلات شعره بجبينه، يتبعه الحرس، وجنود الكشافة على رأسهم كرشاب، يرفعون على أسنة

رماحهم رؤوس الظلاميين بعدما أمرهم بقطعها، والسير بها أمام الناس، ويجرون وراءهم أخرين تم أسرهم .

" اقطفوا رؤوسهم، وأتوا بها على أعين الناس لعلهم يعرفون أننا قادرون عليهم، وأنهم بشر يخافون، ويموتون. ذلك أدعي بأن يذهب الضعف عن نفوسهم " هكذا قال بعد أن هرب تيودور، وترك خلفه أسرى وقتلى، وأثناء سيره اعترض طريقه صوت نحيب علا من بين الجموع :

يكفي إلى هذا الحد، لا أريد حروباً ..... لا أريد.

التفت إلى الصوت، ورفع يده للجنود خلفه فتوقفوا، وتفاجأ بظهورها. أراحه أنها عادت تعترض طريقه، وتسمع أخباره، فترجل ومشى نحوها:

حنين، هذه أنتِ ؟

قالت متوسلة:

يكفي أيها الأمير ما ضاع، كفى دماءً، سيقتلونك، لن يتركوك.

وأنا لن أتركهم أيضاً.

دعهم وشأنهم، ولا تتحداهم، وسيصرفون بطشهم عنك وعنا.

ليته كان كما تصفين .

لم تقوَ على مجادلته، ولكنها عاودت مناشدتها باكية بأن يتوقف، وبأنها لا تريد الحرب. قال لسانها لا أريد الحرب، وقالت عيناها لا أريد فقدانك.

لم يفلح في تهدأتها، رأى قلباً يتحدث، وليس لساناً، قلباً خائفاً لا يزال جرحه يدمي، فأشار براحتي كفه مهدئاً كمن يحايل طفلاً :

حسناً لا بأس، حسناً لا حروب ..... لا حروب ..... اتفقنا.

****

الفصل السادس عشر

كان يتابع أخبار تيودور، وإغارته على قرى مدينة الجسر، وأعمالها في سعادة بالغة إلى أن أغمَّه خبر انكساره في مواجهة القداسيين قرب أسوار المدينة، وفراره من القتال. مزيج من الحقد، والغضب أشعل قلبه، وزاد غليله من معاوية.

لم تعد الدنيا تطيق أنفاسنا معاً أيها الأمير الآبق، إما أنا وإما أنت.

استأذن تيودور في الدخول عليه، ثم مَثُـل أمامه صاغراً مطأطأً منكسراً. استقبله بوجه واجم، وقد برزت العروق في صلعته وجبهته، وانتبه إلى إصابته فتساءل :

تُرى من الفارس الذي استطاع التغلب على أقوى قائد لدي ؟

ابتلع تيودور ريقه، وقبل أن يجيب، قال جودفرى :

دعني أخمن. لا يقدر على هذا سوى معاوية، هل تبارزت معه ؟

أومأ برأسه مُقِرَّاً فى أسف، فتساءل من جديد :

كيف وجدته ؟

لم أرَ مقاتلاً مثله .

حملق جودفرى عينيه، وانقدح منهما الحقد والغيرة، وشعر بأن تيودور قد أساء الأدب حين امتدح خصمه فى حضوره، فاستدرك الأخير خطأه، وأردف :

لم أرَ مقاتلاً مثله سواكَ أيها القائد، وحدك من يمكنه التغلب على ذلك العنيد.

فهم جودفرى أن هذا ليس ما يعتقده تيودور حقاً، ولكنه ارتاح لنفاقه، ثم قال:

اذهب وارتح، وجهز رجالك لهجوم أقوى، سوف نرهق قوته قبل أن نصل إليه.

***

احتشد الأهالى فى الطرقات حول المنادى فيهم بتعليمات الأمير. كان رجلاً جهور الصوت نحيل الجسد، يمتطى جملاً، وفى يده مضرب يقرع الطبول به، ويرافقه اثنان من الجنود. ظل يدق الطبول حتى يجتمع الناس من حوله، فيستل من خاصرته كتاب الأمير، ويقرأه.

" نظراً لظروف الحرب، وحرصاً منَّا على سلامة أبناء القبائل والجزر المقيمين فى مدينة الجسر، قررنا الآتى :

على كل أبناء الجزر، والقبائل المجاورة الإستعداد لمغادرة المدينة مع القافلة المعدة لذلك، وسيكون موعد تحرك القافلة يوم الجمعة القادم، وهو آخر تحرك سيسمح به إلى خارج المدينة حتى انتهاء الحرب"

كررها المنادى فى كل مكان، وانتشر غيره ينادون فى كل الميادين .

***

تسربل وتنكب سيفه، ودلف قاسم إليه، وأخبره بأنهم أسرجوا فرسه، التقط قوسه وجعبة سهامه، وطلب قاسم مرافقته إلى حيث يذهب، لكنه رفض. امتطى فرسه وخرج من المدينة منفرداً، فتعقبه ثلاثة فرسان على رأسهم جسور، وعزم أن يكشف المكان الذى يختلف الأمير إليه قبل الحرب مهما كان الثمن. قد أطلق الجواسيس خلفه عدة مرات من قبل، لكنهم فشلوا فى التوصل إلي شيء، كل مرة يخرج فيها منفرداً يفشلون فى تعقبه إذ ينقطع أثره، كما أن الغريب فى الأمر أنه لم يسلك نفس الطريق مرتين، وبينما هم فى تعقبه فقدوا آثاره من جديد داخل أحد الأحراش غرب المدينة، قال أحدهم "هنا توقف". أمره جسور أن يترجل ويتفحص الآثار، ثم انتفض عندما نشب السهم فى نحر الفارس عن يمينه. ترجل جسور واحتمى بفرسه، وتراجع

الآخر إلى جانبه، وجردا سيوفهما. نظر جسور إلى المصاب فوجده طريحاً قد رفع لثامه، وبصق الدماء من فمه وانتهى، همس جسور:

لقد أحس بتعقبنا له.

ثم ظهر أمامهما.

تأكد جسور من إحكام اللثام على وجهه، فضرب فرسه فابتعد وصار الأمير معهما وجهاً لوجه. تأهب جسور لمبارزته، وأما مرافقه فكان لا يتوقف عن ابتلاع ريقه، وتثبيت السيف فى يده، فاقترب الأمير منهما، فأومأ جسور برأسه للذى معه كى يهجم، فهزّ رأسه موافقاً، ثم هرب لا يلوى على شيء " ارجع يابن العاهرة " أسرها جسور فى نفسه، ثم بدأ المبارزة.

صدَّ الأمير حملاته، وراوغه، وطرحه أرضاً مرتين، واستجمع جسور نفسه، وعاود الهجوم، ثم لاذ بالفرار عندما أسقط سيفه.

لم يطارده الأمير، وإنما انتظر حتى تأكد من فرارهما، ثم عاد إلى حيث ترك فرسه، وانطلق .

***

يقول حسنا لا حروب. يظنني غبية يسهل خداعي، وهل مثلك يترك عملاً في منتصفه ويرضى بالذل، وبأن يطأطئ رأسه لأحد ؟ إن من ينظر إلى عينيك يعرف أنك تحسد النجوم في أفلاكها. لن تتوقف أيها العنيد حتى تدمي قلبي من جديد. ستسعى خلفهم، وسترد الضربة بالضربة، والطعنة بالطعنة، وستحرق قلوبهم، وسيحرقون قلبك، سيكيدون لك وستكيد لهم. ستبقى صامداً وسيبقى مكرهم تزول منه الجبال، وسيُطحن بينكم الضعفاء أمثالي، ولن أطيق العيش في أرض سمعت فيها نعيك، سأكون أثراً بعد عين، سأرحل عن هذه البلاد، سأهرب من أخبارك، ومن الخطر المحدق بك، ما دمت لا أستطيع دفعه عنك فسأرحل، لقد استنزفتني هذه الحروب وتلك المخاوف.

ظلت تتخبط في هواجسها وترقبها من وقوع المصائب وهي تطالع سقف غرفتها بعين شاخصة. كانت متمددة على فراشها دون حراك، سأهرب من أخبار فقدك، سأرحل .

اعتدلت جالسة عندما بزغت في رأسها فكرة الخروج مع القافلة. ربما لا تتاح لى هذه الفرصة مرة أخرى . إنه آخر تحرك إلى خارج المدينة حتى انتهاء الحرب. لن يكون الأمر خطراً، فستخرج تحت حماية الجند إلى وجهة القافلة الاخيرة، ثم تنتقل بعدها إلى مكان أبعد. ستظل تبتعد حتى تصل إلى بلاد لم تسمع به، ولا تعرفه، ولا يهمهم أخبار الظلاميين، ولا تطاله سطوتهم، هذه هي فرصتها الأخيرة كي تهرب من الشقاء، فستبتعد وتبتعد عن بؤرته، والوقت كفيل بأن ينسيها ويضمد جراحها، ومن يدري ربما بدأت حياة جديدة.

أي حياة ؟! ليس مهما الآن المهم أن تبتعد .

***

ضاعف تيودور هجماته على أعمال المدينة، وطرقها، ولكن بلا جدوى. فشلت جميعها، وذهبت سدى. جميع النقاط التي استهدفها كنت خالية تماماً. في ذلك الوقت انبرى الأمير في إعداد الثلاثة مراكز التي عزم على إنشائها لتكون حَرَماً للمدينة ودرعاً لها، كما تكون فرصة أخرى لإعادة الكر إذا حصل شيء غير متوقع تسبب في إنكسار جيشه.

جعل كل المراكز في شرق المدينة حيث نزل جيش جودفري، واستقل كل مركز بمؤنته، وذخيرته، وعُدته، وجنوده. امتدت فرق من الحمام الزاجل والفرسان المهرة كحلقة وصل بين المراكز وبعضها، وبينها جميعاً وبين الأمير والقيادة المركزية، ستظل هذه المراكز على حالها حتى تتم التعبئة الكاملة للجيش، ويخرج في مواجهة الظلاميين دفعه واحدة، عندها سينضم ثلاثة أرباع قوتها إلى الجيش والباقي سيبقى تحسُّباً في ظهورهم.

علم جودفرى تفاصيل ما يجري، وفهم أن الأمير قد غرر به حين أوهمه أنه سيقاتل من خلف الأسوار، فجعله يصطحب ألات الحصار والنقب والمجانيق مما أبطأ حركته، ومنح الأمير الوقت الكافي لتعبئة رجاله، واختيار أرض المعركة، لعن جسوراً، وقرر معاقبته لعدم دقة معلوماته، كما أنه أحجم عن غارات العصابات بعد أن أوقع به في عدة كمائن، وتكبد الخسائر. تكرر أن فرق العصابات تقطع الوديان، والصحاري تهيم دون أن تنال شيئاً، ثم ينقض عليها الكشافة فجأة لانتشار الرصد في الأنحاء، ومعرفة القداسيين بالطرق، والمسالك المختصرة، وأماكن ينابيع المياه، والمناطق التي يسهل نصب الكمائن فيها.

أتم رباح إعداد المراكز على أفضل وجه بعد أن أناب على أعماله فى المدينه من يثق به، وبدأ حشد وتعبئة المتطوعة وتوزيعهم على المهمات بشكل لا يعرقل عمل الجند النظاميين، وأنشأ الأمير كتيبة من الرماة المهرة والأكثر دقة، وأطلق عليهم "رماة الحدق". أوكل إليهم عمل المهمات الخاصة، وكان أغلبها اصطياد عصابات الظلاميين عن طريق نصب الكمائن، ثم يثخنون فيهم بالنبل دون اشتباك مباشر، وكان لهذه العمليات المباغتة، وبراعة الرماة الفائقة أثر كبير في بث الرعب في قلوب العصابات، كان يكفي أن يظهر طرف الثوب لأحدهم من خلف الدروع أو الأشجار كي تخترقه السهام، فاضطر تيودور إلى طلب الدعم من جودفري كى يمده بفرقة من صفوة الرماة، ولكن الأخير ماطل في طلبه خيفة أن يفقدهم قبل المعركة، فأشار عليه هيليوس كبير المعبرين وغيره من القادة بأهمية إرسالهم كي تتزن قوتهم، فرفض أن يفعل، وانتظر أن يتلقى تقريراً من جسورعن مدى مهارتهم، وإن كان عندهم من يجاريهم، ولم ينتظر كثيراً حتى وصل الزاجل بأنه لم يكن يعلم بأمر هؤلاء الرماة، ولا متى تم إعدادهم وتدريبهم وأين ؟ أغلب الظن أن هذا هو سر المكان الذي يختلف إليه الأمير بين الوقت والآخر، ولم يطلع عليه

أحداً، فقد كان يدربهم بنفسه خاصة وأنه نفسه بارع في الرمي، ومن رماة الأحداق أيضاً، وقد خلع عليهم اسمهم، لأن هذه صفة فيه، وقدرة يملكها .

مزق جودفري الخطاب، واشتعل حقداً على حقد، ولم يدرِ على من يغضب ويصب ناره، على الأمير الذي سد طريقه إلى الصدارة ؟ أم على تيودور وهو من كلفه بمهمة فوق طاقته ؟ أم على جسور الذي لم يتوصل إلى معلومات حول اختفائه، والمكان الذي أعد فيه الرماة، ومكانه السري حتى جاء بمصيبه على قواته ؟

***

تجهزت القافلة للرحيل، وعلق نعيم وهو أحد مقاتلى البرق والكشافة شارة القيادة على كتفه وصدره، وأشرف قاسم على احتياجها وتأمين المقاتلين الذين سيخرجون معها إلى وجهتها الأخيرة. ستمر بمحطات مختلفة تنزل فيها رعايا الجزر والقبائل الأخرى. حملت القافلة أيضاً البضائع التي نصت عقود المدينة مع بعض الجزرعلى توريدها، كما حملت أموال الشروط الجزائية لفسخ المدينة عقودها نتيجة لظروف الحرب التي طرأت على البلاد.
جمعت ما تحتاجه، وضربت برقعاً فوق وجهها واندست بين صفوف المسافرين، لم ينتبه القائم على حصر الأفراد والأسر لدخولها بينهم حيث وافق ذلك الإحصاء الأخير. لا تحتمل دقات قلبها فى اللحظات الأخيرة التي تنتظرها قبل الرحيل، ولم تفهم ماذا ينتظرون وكل شيء جاهز. أبلغ قاسم نعيماً بتعليماته، ثم انخلع قلبها عندما أنهى قاسم حديثه بأن الأمير قادم ليودعهم وبعدها سوف يتحركون .
سوف يكتشفني، سيمنع خروجي، وسيجبرني على البقاء. كيف سأبقى ؟ أو ربما غضب لرحيلى على غفلة منه بعد ما أبداه لي. كيف أتحمل نظرة سخط او خيبة أمل منه. تحسست نقابها تتأكد أن ملامحها تم اختفاؤها وانتظرت

متوترة، تنبهت إلى أن عينيها تظلان من وراء النقاب بارزتين، سيعرفها، لم يكن في نقابها ما يحجبهما، اجتهدت أن تكون في غمار الناس بين من هم أكثر طولاً، وأضخم حجماً. تعالت دقات قلبها عندما وصل وحياهم ممتناً ومعتذراً، ثم ترجل وألقى خطاب وداعه، ولكنه لم يلتفت وقبل انصرافه توقف فجأة، فظنت أنه قد انتبه إليها، فانتقد تأخر الرماة عن سير القافلة، فأمر قائد القافلة بتوزيعهم بين الحرس وأن يكونوا من بين يديها ومن خلفها، ودعهم مرة أخيرة وامتطى جواده ثم انصرف. اختلست النظر إليه، ثم حجب صورته فيض مقلتيها بالدمع. كفكفت ما انساب منهما وتوَلَّت.

***

ابتعدت القافلة، ولم يلحظ نعيم ولا أحد من جنوده حركة غير مألوفة، كانت تعليمات الأمير أن لا يترك الحذر، ويتجنب السهول، والأحراش خشية الكمائن، ومع استمرار الهدوء انخفض تأهب الجنود. سمح نعيم للقافلة بأخذ قسط من الراحة، ثم بدأ يتفقد أحوالهم، انتبه لتقلقل حال مساعده رائد وكأن هناك ما يرغب في قوله، تساءل فقال رائد بصوت خفيض:

أعلم أيها القائد أن الأمير قد أمرنا بتجنب السهول، والوديان غير أن الطريق سوف يطول، ولا نأمن هجوم الظلاميين ونحن في مكان مكشوف لا يمكننا فيه الدفاع ولا الهجوم، ومعنا النساء والاطفال.

حك نعيم ذقنه، يزن ما سمع ثم قال:

أخشى أن يغضب علي إذا علم بأني خالفته.

لن يغضب، المهم عنده سلامة القافلة، وهو أمر متروك لك أيها القائد، كما يتراءي لك، فأنت ترى ما لا يراه وهو في المدينة.

سكت نعيم وفكر، ثم سأله " بمَ تشير؟"

أن تأخذ الطرق المختصرة بين السهول شرط أن لا يكون لنا توقف فيها، وبذلك نُقصر الوقت، ونأمن الكمائن .

حسنا فليكن، مُرْ الجنود بأن الإستراحة قد انتهت، وسوف نغير طريقنا.

كانت حنين مسافرة في أحزانها، وأفكارها، لقد تركت قلبها، ونفسها في المدينة، تُراها أخطأت في اتخاذ قرار البعد بهذا الشكل، ألا يستحق الحبيب أن يشاركنا مخاوفنا، ألا يستحق فرصة كي يهدهدها، ويبث الطمأنينة في قلوبنا. تنهدت نارها في صمت، وهى تنكر الدنيا ومن فيها، حبذا لو تنفذ الأنفاس دون ألم وينتهي كل شيء. أعادها من شرودها الواجم صوت فزع دوى فجأة، وخبب جياد تقترب، ثم أحد يصرخ ويصيح " هناك هجوم ".

اضطربت القافلة، وانفرط عقدها، وكثر الهرج، ثم ظهر تيودور.

حاصر القافلة أثناء مرورها من طريقها الجديد وجاء متأهباً، فصاح نعيم :" السلاح السلاااااح " ولكن الدائرة دارت حولهم كالرحى ولا شيء غير الموت يطحن ما يأتى عليه.

مال تيودور على نعيم، جرد سيفه وتقدم، فانتبه نعيم إلى قدومه فاستعد للقتال، ثم تسمر صارخاً عندما اخترق سيف رائد ظهره، قهقه تيودور، وحملق نعيم فى عينى رائد عندما فطِن إلى طعنة الغدر من مساعده " أيها الكلب " ما كانت مشورته بتغيير مسار القافلة إلا لهذا. أدرك نعيم أنه قد خُدع، ولات حين مندم. جز رائد أسنانه وانتزع سيفه من ظهر مغدوره. رأت حنين ما كان، فصرخت به "خائن ... وضيع " تقدمت وبيدها قناة، وهوت بها عليه، فقبض رسغها في يده، ثم صفعها بالأخرى فانطرحت أرضاً. أهذه أنتِ أيتها البائسة ؟ التفت إلى تيودور، وقال:

إنها من أنفذت حكم معاوية، وقتلت سلافاً.

انفجر الغضب من عيني تيودور، وتقدم منها وقبض خناقها وقال من بين أسنانه الموصدة :

لسوف ترين عقوبة إراقة الدماء المقدسة أيتها السافلة .

ضيَّق خناقها، فحاولت التخلص من قبضته، وأنفاسها تضييق، سعال متقطع، حشرجة، وعين دامعة، ولعاب يسيل، واستل بيده الأخرى خنجراً وهمَّ بطعنها، فأسرع رائد قائلاً :

لا تفعل، فهي من ستمكنك من روح معاوية .

استغرب لقوله، وتساءل :

كيف ؟

سيأتي بنفسه متى علم أنها معنا، وعندها يسهل عليك اصطياده .

فكر تيودور، واستحسن الفكرة، فدفع حنين بقوة، فتقهقرت وأرتمت أرضاً، وتقوقعت متألمة عندما ركلها فى بطنها وهو يصيح " خذوها مع باقي الأسرى وأحكموا وثاقها، وإياكم أن تغيب عيونكم عنها " قال رائد :

لن أعود إلى معاوية مرة أخرى، سأبقى معك .

حسناً، ولكن أرسل من هؤلاء من يخبر معاوية بأمر القافلة، كم كنت أتمنى رؤيته حين يعلم بما فعلته بقومه ورجاله .

***

أرضاه ما رأى منها. لم تتغيرى يا حنين، عادت إليك تلك النظرة الدافئة، لم يكن إعراضك كرهاً، لن أكرر خطأى، الآن أبصرتك، ولن أضيعك، كان ينتظر حضور قاسم بخبر عنها بعد أن أرسله إليها كي يعلمها أنه قد كلفها بإدارة الأمانة فى بيت المال. كان غرضه أن يلهيها عن أحزانها، وتتعافى مما مرت به من أيام قاسية، دخل قاسم فسأله إن كانت قد قبِلت، فأعلمه أنه لم يجدها، فانقبض انبساط وجهه متسائلاً "ماذا تعني أنك لم تجدها ؟ "

بقيت مدة أطرق الباب يا سيدي فلم تجب، ثم سألت عنها جيرانها فأخبروني أنهم لم يروها منذ مدة.

نهض غير مستبشر، وأسرع قاصداً بيتها. اجتمع الناس والجيران حول المكان وحرس الأمير يطرقون الباب بقوة. خفق قلبه عندما قال أحدهما " لعلها ماتت في الداخل" أمرهم بكسر الباب ثم صعد ومعه قاسم، لقد رحلت.
لما يبق من متاعها شيء، لقد غادرت المدينة دون رجعة، ذبلت ملامحه الوضّاءة، وأطبق الكمد على جوانحه، وضاقت به أنفاسه.
قال لقاسم بصوت مختنق :
انتظرني في الأسفل .
جلس فوق المقعد جوار مخدعها، ولا يزال المكان عابقاً بأنفاسها، كأنه يراها تبتسم، لماذا يا حنين ؟ أي عقاب هذا الذي اخترتِه لي؟ ولماذا العقاب؟ ألأنني لم انتبه إليك في ما مضى؟ أم لاستشهاد نزار؟ ما زلتِ ترين ما حدث بسبب تقصيرى في حمايتكم. آهٍ لو عاد بي الزمان .
لاحظ طرفاً لقصاصة ورق أسفل وسادتها، فسحبها برفق وهدّه ما جاء فيها. إنها تلك التي كتبتها فى ذلك اليوم وأسبلت مشاعرها فوقها قبل أن تعلم بمقتل نزار بلحظات. طالعها مرات، وكل مرة تشعله أكثر من التي قبلها. دققت عيناه في كل حرف.
" ما دمت لا أستطيع إليه سبيلاً، وما دامت النجوم قد طُبِعَت في قلبه ولا مكان لي فيه، فلا بأس أن أبوح لكِ ببعض ما له عندي. شغفني حباً، وأذهلني عن نفسي. عذاب أستلذه ولن أحيا بدونه. يكفي أنه حي بيننا. أحبه كما لم تحب إمراة رجلاً من قبل، أحبه ولن اقترف إثماً، حسبي ثواب صبري على النار في قلبي.
عشقت .... كتمت .... وصبرت .... بقى أن أموت على هذا. أحبه وأعلم أنه سيصل إلى ما يريد، سيستعيد مدينته، وسيطفيء نار قلبه، لست أدري أي قلب هذا الذي يكره معاوية ؟! أي صنف من البشر هؤلاء الظلاميون

كي يكرهوه ؟! لو أنني أستطيع إقناعه بترك كل هذا، وأن يذهب إلى أقصى الدنيا ويعيش بسلام. أعلم أنه لن يفعل، ولن يترك ما بدأ.

ودّع الصبر مُحِبٌ ودعكْ ... ذائع من سره ما استودعكْ

يا أخـــا البدر ثناء وسنـا ... رحـــم الله نهـــــاراً أطلعكْ "لابن زيدون"

قرأها وقلبه يخفق بعدد حروفها .

انتهت الرسالة بقولها :

" أحبه، ولكن ما كل ما يتمناه المرء يدركه ... حنين "

سندرك ونستدرك. طوى الورقة ونزل إلى الجنود منفعلاً :

ابحثوا عنها في كل مكان حتى تجدوها، لا تتركوا شبراً من الدنيا إلا وبحثتم فيه، هيا.

وقبل تحركهم جاء أحد الجند وبرفقته آخر جريح " أدركنا أيها الأمير" ضيق عينيه متفحصاً، ثم تبين أنه من حرس القافلة، قال الجندى :

لقد دُوهمت القافلة، وقُتل معظم الجنود، وأُسِر الباقون.

كيف حدث هذا ؟

القائد رائد، إنه يعمل لصالح الظلاميين يا سيدي، وقد قتل القائد نعيماً غدراً، وسلم القافلة لتيودور، وقد أطلقنى تيودور لأوصل الرسالة .

مدَّ الجندي يده، والتقطها الأمير، وقرأ ما بها.

"هذا أول الغيث يا معاوية. قتلت جنودك، وذبحت رعاياك، ومعي تلك الساقطة حنين"

ارتجف قلبه، فعاود قراءتها مكذباً عينيه، وقبض الرسالة في يده وأمر قاسماً باستدعاء أهل الرأى.

***

الفصل السابع عشر

أساس تيودور مركزاً لإطلاق هجماته بفضل الأسرى الذين في يده. فمنذ أن أنشأ الأمير المراكز الثلاثة شرق المدينة، وبث العيون والرصد لم يتمكن من عمل مركز لإدارة عصباته. كان يتعرض للهجوم قبل أن يشتد وتكتمل قوته، أما الآن فبيده ما يمنع هجوم القداسيين عليه.

استعاد الظلاميون ثقتهم من جديد، كما وصلت إليهم الكتائب التى كان ينتظرها جودفرى كى يبدأ الزحف، ووصل قائد الوحدات الطبية وكبير الأطباء فى المملكة (إلياس)، وكان طبيباً فذاً، نال أعلى الدرجات لدى الحكماء بعد تمكنه من الوصول إلى كبير أطباء قصر الأمير سهيل فيما مضى، وتبوّء الصدارة عندما قتله قُبيل هجومهم على المدينة، لم يكن إلياس طاعناً في السن على ما وصل إليه من مناصب، وما حققه من انجازات، فقد أهله لهذا ذكاؤه المتوقد، وطباعه المتطلعة إلى رأس الأمور دون النظر إلى طريقة الوصول إليها، والغاية عنده تبرر الوسيلة.

وصل أيضاً القائد ميجى على رأس مقاتلى أكيرا كي يثأر لهاتورلي، وقد اقتصرت مهمته على أن يوجه فرقته إلى قتل معاوية عند بدء القتال، ثم ينسحب. وجاء جونسون مع مقاتليه من الجزر التابعة لهم، وعيَّنه جودفرى قائداً للفرقة التي أرسلها بليان حاكم الجزيرة .

أرسل الأمير إلى جودفرى يطلب الإفراج عن الأسرى مقابل الفداء، لكنه رفض بشدة، فأشارهيليوس بالموافقة إذا رضي الأمير بتدمير نقاط دفاعه الثلاث خارج المدينة، وانسحب بقواته إلى داخل الحدوة، قال جوفري :

لكنه لن يفعل .

أجابه هيليوس في ثقة :

ليس له حل آخر .

فكر جودفري، ثم وافق .

ليكن هذا .

***

لم يُرخ له جفن، ولم يذق من الطعام غير ما يبقيه حياً. زاده أمر الأسرى حملاً على أحماله. اجتمع بأهل الرأي في عدة جلسات، وتشاوروا في أمر إنقاذ الأسرى، ولكن لم يفضِ اجتماعهم إلى قرار حاسم. كان يعلم أن عليه أن ينتزعهم من بين أيدي الظلاميين انتزاعاً، ولكنه لا يزال يفضل دفع الفدية كى لا يعرض سلامة أرواحهم للخطر. جودفرى لن يتورع عن ذبحهم جميعاً. رعايا القبائل والجزرعنده، وشهداء وأسرى من خيرة المقاتلين. العدو يكتمل حشده ويتفاقم خطره، وأنشاء مركزاً لهجمات العصابات، ولم يستطع منعه وفوق ذلك لا يوجد خبر عن مقاتلي العقاب. أبطال صنعهم على عينه في ضباب الغياب ..... وحنين.

انعقد من جديد اجتماع أهل الرأى، وقبل بدء حوارهم دخل قاسم يستأذن لرسول جودفرى، فتقدم الرجل بزهوة من يعلم أن له الغلبة، وبجرأة من ضمن أنه لن يُعاقب. لم يرتح الأمير لجرأته وحديثه قبل أن يأذن له، ولكنه أسرّ هذا في نفسه، فقال الرجل باعتداد :

أنا جان، أرسلنى القائد المعظم كى أخبرك بأنه موافق على فداء الأسرى شرط أن تُخلى المراكز التى أسستها شرق المدينة، وتنسحب بقواتك إلى داخل الحدوة، هذا وإلا فإنه سيقتل الأسرى جميعاً .

تنهد الأمير وزفر ضيقه، وتبادل النظرات مع البيرونى ويحيى، ثم قال للرسول :

سأتشاور مع مجلسى. انتظرني ساعة، وسأعلمك بقرارى .

انتظر يحى خروجه، ثم قال :

لا عهد لهم يا سيدي، حتى وإن نفذنا ما طلبه فسوف يقتلونهم .

أقره البيرونى :

كما أننا يجب ألا نعرض المدينة للخطر بترك نقاط دفاعنا، علينا أن نختار أهون الشرين .

قال الصراف محمد :

الرأي عندي أن ننسحب إلى داخل الحدوة، هذا أضمن ويمكننا الصد والدفاع من خلف الأسوار .

صمت لمدة غير قليلة والعيون تتطلع إلى قراره ثم قال :

سننسحب إلى داخل الحدوة، فلن أُعرّض حياتهم للخطر.

أمر قاسماً بإحضار كرشاب وجسور ورباح إليه من خارج الخيمة. وكانوا في انتظاره حيث أرسل إليهم قبل بدء الإجتماع، امتثل القادة أمامه وقبل أن يعطى أوامره، أبدى يحى اعتراضه على الإنسحاب مرة أخرى.

المعذرة يا سيدي، ولكني لا أرى أنه من الصواب أن ننسحب ونهدر كل ما بذلناه، كما أنه لكل حرب خسائر و.....

أشار الأمير ألا يكمل .

أعلم أن لكل حرب خسائرها، ولكنها تكون رغماً عنا، وليس لنا يد فيها، أما أن يكون بيدي إنقاذ روح فرد واحد منكم، فسأنقذها ولو وضعت الدنيا فداءها .

سيدي ...

قضى الأمر يا يحيى. سننسحب بقواتنا إلى داخل الحدوة.

أسر جسور فى نفسه فرحة كبيرة بالنصر، واغتم رباح حتى ضاقت أنفاسه، أما كرشاب فلم يحسم رأيه حول صواب القرار، وليس له غير التنفيذ، والطاعة. قال الأمير :

رباح، تولى ترتيب أمر انسحابنا إلى الحدوة، وسينضم إليك جسور بعد أن يُنهي ما كلفته به .

أمرك يا سيدي .

قالها رباح بصوت مختنق، وتابع الأمير:

وأنت يا كرشاب جهز فرقتك، فستذهب لإستلام الأسرى.

أمرك يا سيدي .

يمكنكم الانصراف جميعاً.

انفض المجلس على غير رضا من قرار الأمير، وأثناء خروجهم استبقى جسوراً ولم يسمح بذهابه، فرماه كرشاب بنظرة حسد لكثرة انفراد الأمير به في الآونة الأخيرة، وخرج دون كلام، وقف جسور في ثبات تمثال، وقال بثقة :

أمرك يا سيدي .

لقد تأخرت في اكتشاف الخونة، والوقت يمضي وأنا واثق من أن الخائن الذي لم تستطع الوصول إليه حتى الساعة هو من سرّب أمر القافلة إلى تيودور.

أرجو عفوك يا سيدي، لكن الأمر معقد، وعندنا كثير من الظنون حول بعض القادة، ولكن ليس لدي بعدُ دليل، أريد أن أجد دليلاً أقدمه لكم يؤيد ما سأقوله ؟

مَنْ ؟

تردد جسور، ثم قال :

رباح .

كيف ؟!

يكون هذا تصرفه فى بعض الأوقات لا أدري إن كان يفعل ذلك عامداً.

أشار الأمير بيده أن يتابع حديثه، فاستأنف :

منها أنه تلكأ في إعداد مراكز الدفاع، ثم استبشر اليوم بإخلائها، إن كل شيء يصب في مصلحة الظلاميين يسره .

فكر الأمير وهو يداعب أطراف لحيته، زفر ثم قال :

أريد دليلاً أيها القائد، وليس انطباعاً شخصياً.

سأقدمه لكم في القريب العاجل .

حسناً، سأضمك إلى جانبه في أعمال الإخلاء، وأضيف إليك تلك المهمة إلى مهمتك الأخرى، فهل يثقل هذا عليك ؟

لو كلفتني بنقل جبل فلن أتوانى، سأكون عند ثقتك بى.

لا أشك في هذا، يمكنك الانصراف .

***

لطالما كُتب الشقاء علي بسبب غباء أحبتي. سنتعاتب في وقت لاحق يا حنين. يطالع خارطة أمامه ويتفحصها ممعناً نظره فيها. استأذن داوود وكرشاب في المثول أمامه تلبية لطلبه. سمح لهم فتقدم القائدان من الطاولة، فأشار إلى موضع على الخريطة، وقال :

هنا في سفح جبل البوار قد استقر جودفري، وأنشأ معسكره، إنه اختيار موفق، إذ جعل الجبل في ظهره، فلن يباغته أحد.

حركا رأسيهما في فهم، فأردف وهو يشير إلى نقطة أخرى :

وهنا على مسافة ميل أنشأ تيودور مركزه، وجعله حرماً لمقدمة جيش جودفرى ووتراً لإطلاق عصاباته، وبهذا لكى تصل إلى جيش جودفرى سيكون عليك أن تجتاز مركز تيودور أولاً، وسيجد جودفرى عندها الوقت الكافي ليستعد لنا كما أنه سيرسل الدعم له .

قال داوود :

يبدو الأمر وكأننا نواجه كتلة مصمتة لا ثغرة فيها .

لذا فإن إنقاذ الأسرى لن يتم بالقتال، كما أننا نعلم أنه لن يتم بانسحابنا داخل الحدوة.

قال كرشاب :

بمَ تفكر يا سيدي ؟

لا يوجد في هذا كله سوى ثغرة واحدة، ولن تستمر إلا لبضع ساعات من ليل الغد .

تساءل القائدان عن تلك الثغرة، فقال:

سأعلمكم، أريد منك يا داود ألا توزع من انسحب من جنودنا من المراكز إلى الحدوة احفظ أماكنهم ليسهل تعبئتهم عندما نعيدهم، سنُظْهِر أننا ننسحب لنكسب الوقت، وإذا انتصف ليل الغد تعالَ إلى خيمتى، واجلس مكانى، أما أنت يا كرشاب، فستكون معي .

***

بدأ رباح في العمل على سحب القوات من نقاط الدفاع على غير رغبة منه، ويصاحبه جسور كظله، فشعر الأخير أن خطته تسير على ما يرام، مسألة وقت وسيوجه الطعنة القاتلة، أما الآن فقصر جهده على نصب الكمائن والمكائد لكي يثبت للأمير خيانة رباح، بهذا يفقد الجيش قائداً فذاً من الممكن أن يصنع فارقاً في الشدائد .

جاء أحد الجند يبلغهما بالمثول أمام الأمير لأمر مهم، فاستغرب رباح استدعاءه، أما جسور فقد ضاق بما وجد في نفسه، لربما قرر الأمير ألا ينسحب ويطلبهم لوضع خطة لينقذ الأسرى. عادا إلى المدينة حتى وصلا إلى خيمة الإمارة، وقبل دخولهما الخيمة اعترض قاسم طريقهما، وطلب أن ينتظرا حتى يفرغ الأمير من عمل لديه.

طال الوقت بهما واقفين عند الخيمة، وأخذ رباح يذرع المكان جيئة وذهاباً، ومسح وجهه في ملل، ثم دنى من قاسم وسأله إن كان الأمير قد فرغ من أعماله، فقد دنى السَحَر، ولم يؤذن لهما، أجابه بفتور:

عندما ينتهي فسوف يناديني .

تدخل جسور، وقال بصبر :

اهدأ أيها القائد، فليس من اللائق استعجال الأمير في شيء لم يبدأه بنفسه.
سكت رباح، وكظم ضيقاً من جسور، فهو يخبره بما يعرفه، كما أنه لم يطلب استعجال الأمير في شيء، هناك في حديث هذا الرجل ما يلقي بالخطأ عليه دائماً، تجاهل كلامه، وعاد حيث كان .

***

بقى قليل من الوقت، وينتصف الليل ويكتمل القمر، وتبدأ الليلة المقدسة، وسنذبح تحت أنواره القرابين، وسنجعل من أراق دماءنا المقدسة دماء تسيل وأشلاءاً تتناثر، وعندما يمتزج لون الدم القاني مع نور القمر الفضي سيولد فجر جديد يسجد للشعب المقدس، سيولد منها الشمس التي تحرق الأغيار، وتبعث الدمار، وتُرْكِع لنا الأقطار. لقد خُلِقْنا لنكون أسياد العالم، وأسياد الأنام، لا تبدلنا الساعات ولا الأيام، سنبقى صموداً وما سوانا حطام حطاااااام .
أثار صوته حماساً عظيماً في نفس جودفرى وقادته. انتظر حتى يفرغ من ترنيمه، ثم قال :

لعل الغد يكون يوماً مباركاً للسير إلى الحدوة أيها المعبر هيليوس.

قال هيلوس بنبرة الترنيم ذاتها :

بالطبع إنه النهار الذي يعقب ليلة التمام على قمة الجبل .

ألا يمكن أن نُقيم الطقوس في المعسكر ؟

قال هيليوس بنبرة مستنكرة اقتراح جودفرى:

لا يمكن أن نخاطب أعلى جرم في السماء، إلا من أعلى نقطة في الأرض.

سكت جودفرى، ولم يَرُق له ترك المعسكر، ثم قال بضيق " حسناً ".

***

كانت تجلس في كمد بين الأسرى المتكدسين من حولها، أسندت ظهرها إلى عمود فى أقصى ركن من الخيمة، وتقوقعت على نفسها، وضمت ركبتيها إلى

صدرها، وخبأت رأسها بينهما، فانساب شعرها البني حتى لامس الأرض من حولها، لقد ضاعت كالشاة التي فارقت القطيع فسهل اصطيادها. أرعبها مقدار الحقد الذي رأته في عيني كل من علم أنها قاتلة سلاف، وباتت بين النظرات المترصدة، والأنفاس الملتهبة، والأنياب المتعطشة لدمائها، والتى عبرت عن بعض مكنونها بلكمات في وجهها وجسدها. عندما يحل الظلام ستكونين أول دم يراق في ليلتنا المقدسة ولن ينفعك معاوية. هكذا توعدها هيليوس ومن بعده جودفري . ولن ينفعك معاوية، معاوية ؟ تُرى أين هو ؟ لو كان يعلم ، فلن يتركنى أكيد، لو كان يعلم. صرخت عندما شدَّ شعرها قبضة قوية جذبتها لأعلى" لقد حان الوقت " سحبها الجندي، وجرها خلفه وسط العيون الشاخصة، والأنفاس المكتومة. إلى أين تأخذني ؟ دعني .

صهٍ .. لا أسمع أنفاسك.

قادها الجندي إلى خارج الخيمة، ثم رمى بها تحت قدمي جنديين آخرين ينتظران عند عربة ذات قفص حديدى، فحملاها بالقسوة نفسها، وألقياها داخل العربة، وسمعت بعدها صوت السياط تقطع الهواء، وتحركت العربة بسرعة إلى أعلى الجبل، كانت أطرافها ترتجف وأعصابها قد تهاوت، فحاولت أن تتبين طريقها، ولكن حجب التوتر الرؤية عنها، فلم تعرف وجهتها، كانت تنظر ولا تبصر، ولم تفهم سوى أنها ستموت بعد قليل، خسرت صغيرها وسوف تخسر روحها في صراع لم تختاره، ولم تدرك يوماً أنه موجود. قداسة، القداسيون، جودفري، ظلاميون صرحاء وأخفياء، سلاف، السيطرة على العالم، مالها وللسيطرة على العالم ؟! ما لها وللدماء تترقرق في الآفاق من حولها ؟ لم تنعم بالهدوء يوماً، ولم ترتح يوماً، فقدت أبويها وهي في المهد، ثم كفلتها خالتها، وقاسمتها شظف العيش والفقر، الفقر الذي دفعها إلى تزويجها لأول من طرق بابها، ولم يختلف حالها عن ما

كانت عليه إلا أنها انتقلت من المركب الخشن إلى مركب أكثر خشونة، لقسوة طباعه وطمعه، ثم تخليه عنها عندما علم بحملها " لا يمكنني تحمل نفقات طفل " هكذا قال، ثم غاب ولم تعلم عنه شيئاً. عادت إلى خالتها، ثم جاء نزار وخفف عنها، وأعطى حياتها معنى وجعل أيامها أكثر لطفاً، وأخف روحاً، ثم ماتت خالتها مقتولة في إحدى غارات القبائل التي لا تنقطع، ففرت به من مكان لآخر حتى سمعت عن أمير الحدوة، أمير شاب ينعم من عنده بالعدل والأمان فلجأت إليه، اسمه معاوية. معاوية؟ لو أنه كان يعلم بأمرى، لطالما أشفقتُ من سماع خبر موتك، وها أنا أموت قبلك، وداعاً أيها الجريء الجميل. انتبهت من شرودها عندما توقفت العربة، ثم جاء صوت خشن يتحدث بلهجة آمرة " انزلي " أدارت بصرها في المكان، وكان القمر قد اكتمل.

عند مدخل الكهف الذى يرتفع عن ساحة المكان قليلاً جلس جودفري وإلى جانبه اثنان من قادته، وإلياس كبيرالأطباء، ويقف خلفه بضعة رجال أقوياء البنية ملثمون. يطالع من أعلى مراسم الإحتفال، بدا الأمر كحلبة مصارعة رومانية والجميع متحمس لدخول الضحية إلى الميدان، بعدها سيطلقون النمورعليها، سيكون مسلياً جداً، مضحكاً جداً، ومؤلماً جداً.

في منتصف الساحة نُصبت خشبة الإعدام، يقف عندها رجل ملثم ببرقع أسود اللون، كان ضخم الجسد، عاري الصدر، يمسك في يمينه فأساً كبيراً يلمع كلما انعكس ضوء القمر عليه، ووقف هيليوس وبدأ في ترديد بعض الترانيم.

من أعلى بقعة في الأرض سنخاطب أعلى قوة في السماء .

وفي أرض الميعاد، ستبارك سيادتنا الأسياد .

دم مقدس مختار، الويل للأغيار .

سيغسل الدم غبار الهم .

انصت جودفرى لكلامه باهتمام تكلفه، هو لا يحبه، ولكنه مجبر على احترامه لما له من مكانة عظمى لدى الحكماء، فهذا الخرِف بإشارة منه يُحرك جيوشاً.
انتهى هيليوس، ثم أشار إلى الجندي فأخذ حنين بالقوة وأركعها، ووضع عنقها في تجويف يتوسط خشبة الإعدام، أغمضت جفنيها في هدوء، ووقف من ورائها ذلك الضخم، وقبض فأسه بكلتا يديه، ثم نظر إلى هيليوس منتظراً إشارته. دقت الطبول، فأغمض هيليوس عينيه منسجماً مع ترانيمه، وقرع الطبول من حوله، ثم أشار إلى الجندى أن يُنهي الأمر، وخطر لجودفرى أن يحرقها بعد إعدامها. رفع السيَّاف فأسه في الهواء عالياً وهوى بكل قوته على رأسها، ففتح هيليوس عينيه مفزوعاً لصوت التصادم بين الفأس ودرع حال بينه وبينها، وخرّ السياف على ركبتيه عندما ثقب سيف المهاجم قلبه. فغر هيليوس فاه للذى تسلل فى زى جنودهم وانقض كالبرق، وشاهد السياف وهو يخور كالثور، وجثته تتمدد على الأرض. ترك المهاجم درعه، وانحنى إلى حنين، ثم اجتذبها بين ذراعيه بسرعة خاطفة، فطوقت خصره بساعديها، ودفنت رأسها في صدره، وهى ترتجف، ثم همست :

أميرى.

أنتِ في أمان.

نهض جودفرى، ثم أحس هيليوس بيد قوية تجذبه للخلف، وتضع خنجراً على نحره. صاح جودفرى " هناك هجوم " ثم حملق وجز أسنانه وقال :

معاوية ؟!! ... أق...

وقبل أن يكمل أمره تراجع عندما رأى عنق هيليوس على حد خنجر كرشاب. تراجع الأمير وفي يده حنين حتى التصق بكرشاب الذي أحكم قبضته على هيليوس، وتكاثر الحرس وطوقوهم. يكاد جودفرى يميز من الغيظ. ها هو عدوه اللدود بين يديه ولا يستطيع قتله، فلا يستطيع المغامرة بروح هيليوس وهو كبير المعبرين في المملكة، فلن يغفر الحكماء ذلك. لو

أنهم يعرفون النصر في قتل معاوية لهان عليهم ألف رجل مثل هيليوس، لو أنهم يعرفون. نزل شاهراً سيفه بيد وفأسه بالأخرى حتى صار وجهاً لوجه مع الأمير. سادت لحظات من الصمت الرهيب، والتقى الخصمان أخيراً، تبادلا نظرات يهون أمامها قرع السيوف. انتبه الأمير إلى وجود إلياس، وكاد الأخير يذوب رعباً عندما اتصلت عيونهما، فتراجع بين الجنود وغاص في غمارهم. الجند يتطلعون إلي جودفرى في انتظار أوامره، وهيليوس يرتعد خوفاً من قراره ويحذره من أن يضحي به، وذكَّره ألف مرة بأن الحكماء لن يسامحوه، فزمجر الأمير متحدياً :

لقد انتزعت ما يخصني من بين يديك أيها الخنزير، وسأخرج من هذا المستنقع رغماً عنك، ومعي ذلك العجوز الأحمق، وأمهلك حتى الصباح لتترك جميع الأسرى، وإلا فإننى سأقطع رأسه، وأرسله إلى اجناتيوس.

زمَ جودفرى شفتيه. سيفتك الحنق بأحشائه، فغض بصره عن نظرات هيليوس المتوسلة بألا يتركه يموت، فقال هيليوس بصوت مرتجف:

فيمَ تفكر أيها القائد ؟ أعطه ما يريد، ودعه يذهب .

أومأ جودفرى إلى الجنود فافسحوا الطريق، فأمسك الأمير كف حنين في يساره، وقبل أن يتحرك نظر إلى جودفري، وأشار بسيفه الملطخ بدم السياف، وقال :

سأسلخ جلدك في يوم آخر.

ثم التفت إلى باقي الجنود، وخاطبهم :

أهلا بكم في قاع الجحيم. سأقتلكم جميعاً شر قِتْلة. أعدكم بالموت ينهش قلوبكم، ويعتصر أرواحكم.

تراجع فى حذر حتى نزل الجبل، والتقى بمن كان ينتظرونه من الجنود. استعادت حنين بعض دلالها، فانتزعت يدها من يده، وقالت :

يمكنني السير وحدى .

التفت إليها، وضيق عينيه متسائلاً، فأمالت رأسها جانباً، وتطلعت إليه ثم أردفت :

ومن قال أني سآتي معك ؟.

لم يرَ عينيها، ولا أسيل وجهها من تلك الزاوية من قبل، ولكنها جاذبة رغم الكدمات والجروح التي بها، تبسم ثم قال :

اعتبريني خاطفك إذاً .

استسلمت شفتاها لمزحته، وتبسمت حتى شحمتي أذنيها، وعادت إلى عينيها نظرة الشغف التي يعرفها، فأردف :

كما أنني جئت لأعيد لك ما يخصك في مدينتي.

ما هو ؟

دسَّ يده في درعه، واستخرج قصاصة الورق التي وجدها تحت وسادتها، برقت عيناها، وفغرت فاها " أين وجدتها ؟! "

تبسم ومشى .

***

نفخ لقاؤه بجودفري في رماد السنين الخوالي، فتناثر وبعث النيران من جديد. لم تنطفيء يوماً، ولكنها عادت إلى شبابها، كأن قداسة قد سقطت اليوم. ظل شارداً يزم شفتيه. كان قاب قوسين من سيفي، هو وذلك الخائن إلياس، لولا حنين، والأسرى ما عصمها مني شيء ولو جعلا الجبال دونها لنسفتها، لكن لا بأس ... لا بأس، لا ريب في لقائنا من جديد ؟

جلست تتأمله. كان فمها مفتوحاً بعض الشيء، ولا تبالي بالدم الذي ينساب إليه من جرح في أنفها. لم تجلس قريبة منه لهذا الحد من قبل، ما أوسمك، ما أبهى وضاءة وجهك، ما أصلبك. تحركت شفتاها بابتسامة خفيفة عندما رأت دم وجهها مطبوعاً على صدره. ليتهم اختطفوني منذ زمن، رباه أنا أحلُم، أهو حقاً ؟!

انتفضت لقدوم أحد الجند بقطعة قماش وقربة ماء، فانتبه الأمير من شروده أيضاً، وتبسمت عندما نظر إليها. تناول من الجندى ما قدمه وأشار إليه بالإنصراف. راقبته وهي لا تفهم. راح يبلل القماش ويعتصره، وظلت تنظر إليه في بلاها، ثم خفق قلبها عندما مدّ يده يضمد جراح وجهها برفق، وصمت. ستفقد وعيها فرحاً، أنا أحلم. من جديد يبلل القماش ويكرر فعله، ثم أعطاها القربة، وأشار إليها فأخذت تصب الماء على يديه. أشار إلى الجندى، وناوله القربة، والخرقة الملوثة، وهو يقول :

عانيتِ كثيراً يا حنين .

ها ؟.. لا بأس لم يقع سوء.

انتبهت إلى أن جروحها قد هدأت، فتحسست أنفها، ثم نظرت إلى أناملها، ولا يوجد دماء، تحسسته مرة أخرى " تباً، توقف أنفي الأحمق عن النزيف " نادى الأمير كرشاب، وأمره أن يتجهزوا لمتابعة القفول إلى المدينة .

***

تأخر الوقت. أوي رباح ومن ورائه جسور إلى أحد الأركان حول الخيمة وأخذا قسطاً من الراحة دون نوم .

بدى الأمر شديد الغرابة، فكأن الأمير يرغب في احتجازهما، وحبسهما بلطف دون مصارحة، فقد منع قاسم بعض الجند الذين حاولوا الوصول إلى جسور من الإقتراب منهما، وفكر جسور " إن الداهية يحيك أمراً ما ولكن ما هو ؟"

بعد مدة وجيزة وصل قائد الجيش داوود، ودلف إلى الخيمة فور وصوله، وجد رباح في نفسه ضيقاً، واغتاظ جسور لجهله بما يجري. إن استدعاءه داوود في هذا الوقت يشي بالكثير، ربما يخطط لمباغتة جيش جودفري.

قرر أن عليه التصرف قبل فوات الوقت، فعزم على المغادرة، ولكن أدهشه قدوم الأمير من الخارج في رفقته كرشاب وبعض الجند. حملق عينيه عندما

رأى حنين، وارتجف عندما انتبه إلى هيليوس يجره أحد الجنود في وثاقه. داهية خبيث، لقد غرر بنا، ولم يكن في خيمته من الأساس. كان يتلاعب بي طوال هذا الوقت. لاحظ الأمير عزمه على المغادرة، فسأله:

أين تذهب أيها القائد ؟ ألم يُعْلِمْك قاسم بأمرى أن تنتظر؟

ما كنت أغادر يا سيدي وإنما ....

لا بأس، تعال معي، وأنت يا رباح أيضاً تعال.

وقبل أن يدخل خيمته، أمر قاسماً باستدعاء الطبيب علي. تبعته حنين، وكرشاب، ثم رباح ومن بعده جسور بعد تردد. استجمع نفسه، وداري حنقه، ولم يلتفت إلي هيليوس.

هبّ داوود واقفاً فور رؤيته الأمير، وكانت الخطة أن يُوهم الجميع ولا يعلم أحد بخروجه كى لا يتسرب الأمر عبر الخونة إلى جودفري، فاستدعي جسوراً ورباحاً، ثم أبقى داوود في آخر الأمر كى تتم المكيدة ولا يرتاب أحد. وضع سيفه عن كاهله، وأسنده إلى قائم كرسيه، وجلس وأشار إلى حنين فجلست عن يمينه، وجلس باقي القادة.

لقد أمهلت الخنزير حتى الصباح، فإما أن يطلق سراح الأسرى أو يأخذ رأس هيليوس.

دار النقاش حول تنفيذ مهمة استلام الأسرى، ووصل الطبيب علي فأمره باصطحاب حنين إلى المشفى، وأن يوظف لها من يرعى جروحها ويداويها. قالت بأن الأمر لا يستدعى المشفى، فرفض، ثم أمر بدخول هيليوس، وخروج الجميع .

***

بقي خاضعاً في سلاسله، والخوف يزلزل قلبه، ماذا لو لم يجبه جودفري إلى ما يريد ؟ سيقتلني، أدار عينيه في الخيمة الخالية، هنا ينتصب عرش يقف وراءه مكتبة عظيمة، تُرى أي تلك الكتب قد أخبر معاوية بارتقائنا الجبل في ليلة

تمام البدر، لقد جعل العلم حامياً لعرشه من السقوط، هناك توجد طاولة مستطيلة تمدد بطولها، وعرضها خارطة عظيمة لمكان ما، ويتعلق على عمود جوارها قوس وجعبة سهام، هناك درع وسيف في الجهة الأخرى. إن لم تترك جميع الأسرى حتى الصباح فسوف أقطع رأسه، هكذا توعد جودفري، ولا أراه يخلف وعيده، ظل مطرقاً، تداهمه الهواجس من كل مكان، ثم انتبه على دخول الأمير وقد تبدل مظهره، فيبدو أنه قد اغتسل، وبدل ثيابه، وأزال عنه غبار الطريق، ووعثاءه، جلس ثم قال:

أهلا بك أيها المعبر هيليوس .

نادى الحارس، ثم أشار إلي هيليوس بالنهوض، والجلوس على أحد المقاعد على يمينه. تردد في النهوض كأنه لا يصدق، فقام الجندي بحمله إليه، ثم سمح الأمير للجندي بالانصراف، وتساءل :

من أين سنبدأ ؟

نبدأ ماذا ؟

في إحدى ليال الشتاء في قلعة مجهولة اجتمع نفر منكم، ووضعوا خطة لاقتحام قداسة. نفذت تلك الخطة بحذافيرها ونجحت. ما كان فحواها ؟

لست أدري، لم أسمع بهذا من قبل .

أنت تكذب، ما كان لمثلك أن يجهل هذا على قربه من الحكماء.

صدقني أيها الأمير، هذا ما ينتهي دونه علمي .

كيف استطعتم الوصول إلى قداسة بين كل تلك الشعوب التي تؤمن بأنها إحدى مقدساتها.

التزم هيليوس الصمت تارة، والإنكار تارة أخرى. استمر استجوابه حتى طلع الصباح، ولم يتوصل الأمير معه إلى نتيجة، فتركه مكرهاً حفاظاً على حياة الأسرى .

الفصل الثامن عشر

اكتملت تعبئة الجيش. شرح خطته للقادة، أعاد قائد مقاتلى أكيرا التأكيد على أن مهمته تقف عند قتل معاوية، وليس لهم في القتال ناقة ولا جمل، فطاب جودفري نفساً بوجودهم، فعرضهم ليس سيئاً على كل حال، وتحرك الجيش الجرار في تؤودة، وثقة إلى المدينة، يتقدمه ذلك الضخم، فبدى في درعه الكامل كأنه جبل يسير على الماء، وضرب معسكره أمام أولى نقاط الدفاع للمدينة "نقطة القائد" حيث احتشد جيش القداسيين عندها، وسيكون القتال دون حصار، تواجد في القلب يعقبهم وحدات الدعم ، ولكل قسم واجهة مدرعة من المقاتلين الأشداء، والرماة المهرة.

أما جيش القداسيين، فقد قام الأمير بتقديم الرماة، والجنود النظاميين في الصفوف الأولى، وجعل من ورائهم المتطوعة كى يتلقى الضربة الأولى الجنود المحترفون في القتال، ولأنها ستكون الضربة الأقوى، والأشد وطأة، وليس عند المتطوعة من الحنكة ما يؤهلهم لردها، فسيخسرهم فقط. امتدت نقاط الدعم والإمداد بينه وبين المدينة، ووزع فرقة رماة الحدق إلى سرايا داخل كتائب الجيش، وتذكر عندما رأى جيش الظلاميين يتقدم كسحب ظلماء قول الشاعر :

أتــوك يجـــــرون الحــديد كأنــهم ... سروا بجياد ما لهن قــــــوائم

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه... وفي أذن الجوزاء منه زمازم

فلله يــــــوم ذوّب الغشَ نــــــــارُه ... فلم يبقَ إلا صـارم أو ضبارم

جاء يحيى، وهو ينظر جهة الظلاميين، ويقول "اقترب الوعد الحق"

تبسم الأمير، وقال :

لم يخالجنى الشك لحظة واحدة، وما هي إلا أن تشرق شمس غد أو بعد غد، وسنرى ما انتظارنا أعواماً، ما أسرع الأيام!

هل سننتظر هجومهم أم سنبادرهم ؟

سنبادرهم في طلب المبارزة الفردية، وسننتظر زحفهم الكامل.

بمَ تفكر يا سيدي ؟

تنهد، وكأن شيئاً يقلقه .

لقد اشتممت رائحة الخوف والرهبة بين الجنود، وتسرب إلى قلوبهم صيت الظلاميين، وما زاع عنهم، وعن قوتهم. لهذا سأكسر هذا الخوف بالقتال الفردي، وسأدعو جودفرى للنزال، وعندما اقتله ستخور عزيمة جيشه. وجد يحيى في نفسه خيفة من تلك المواجهة، يعلم مثل الجميع براعة الرجل وصلابته، وطباع البطش والفتك التي فيه، فقال بخجل :

المعذرة يا سيدي، ولكنه ليس لقمة سهلة، إنه أعظم مقاتل عرفه الظلاميون.

صمت، ثم أردف عندما لمح ضيق الأمير :

أرجو عفوك، ولكن ثبات الجيش مرهون بوجودك على رأسه .

لا تخشَ شيئاً، لن يحدث إلا الخير .

***

شحذ المقاتلون سيوفهم وثقفوا رماحهم، وبات كلا الفريقين يرى غريمه رأي العين، وبقيت سويعات وينجلي الليل ويستبدل سكونه بصهيل الخيل، وصليل الصوارم، وصوت الآهات، ستصطدم الخيل بالخيل، وينعجن الحديد في الحناجر والقلوب.

كان في قبته مع القادة، وتم الإتفاق على حسم المعركة من الجولة الأولى، فسيقدمون الفرق المدرعة، ويكون في قلبها مقاتلو أكيرا، ومعهم أسرع الخيل. سينقضون على راية القيادة، ويقتلون الأمير، وبعدها يعمل جودفرى على نحر القداسيين وقد وهن عزمهم، وتفرق شملهم بمقتل أميرهم في بادىء الأمر. أسر جودفرى غضباً عظيماً لتأخر ميجى قائد أكيرا عن لقائه،

ولولا ظروف الحرب لفتك به لقلة اكتراسه، ثم حضر بعد فترة غير قصيرة فقال جودفرى :

لقد استقر رأينا بالموافقة على عرضكم .

شرع جودفرى في شرح خطته، وكيف سيبدأ الهجوم، واستمر اجتماعهم إلى منتصف الليل ثم انفض.

***

عمّ السكون في أرجاء المعسكر المترهل الأطراف. تم نصب المشفى الميداني على مقربة من الساحل، وأشرف إلياس على تجهيزه بعناية، وتولى قيادته وإدارته كالعادة، وبعد يوم شاق أنهكه التعب، فقصد خيمته لينال قسطاً من الراحة قبل يوم غد.

تميزت الأطقم الطبية بالرداء الأحمر القاني، والعمامات البيضاء، ومثل باقى وحدات الجيش هدأت الحركة فى المشفى، ولم يبقَ سوى الحرس المناوبين. جلس الحارس على إحدى الصخور فى مواجهة البحر يغالب النوم، تسقط رأسه حتى يلامس ذقنه صدره، ثم ينتفض. كان الطقس زمهريراً، فتزمل بعباءتين، ولا يزال الهواء يخترق عظامه مثل النبال، انتبه إلى اقتراب قارب صغير، فتجرد من عباءتيه، ونهض. استل سيفه، وتأهب، وتلفت حوله علَّ أحداً من الحرس يمر ويدعمه، ثم اطمأن عندما تبين ملابس القادم، إنه أحد أفراد المشفى، ولكنه كان يرتدي عباءة سوداء، مسدلة على الزي الأحمر الموحد للأطباء. قفز من القارب مسلماً، وبدا في جسده المفتول، وحركته الواثقة غريباً عن أفراد التمريض والعلاج. أغمد الحارس سيفه، وطالعه وفي قلبه رهبة منه. فضَّل أن يصدق ما قاله الرجل الطارىء عندما سأله عن وجهته، فأشار إلى حقيبة تتدلى من كتفه، وقال :

لقد جمعت الأعشاب من الجزر القريبة، فسنحتاجها في إعداد العقاقير ومداواة الجرحى.

قرر الحارس أنه من الأفضل أن يصدق ولا يُحدث مشكلة، فسأله الرجل :

هل يمكنك اصطحابي إلى كبير الأطباء ؟

تساءل الحارس متوجساً :

لماذا ؟!

أجابه الرجل بنبرة مطمئنة :

هو من أمرني بجمع الأعشاب، والمثول أمامه فور وصولي.

لقد خلد إلى النوم، ولا آمن غضبه إن فعلت، كما إنني لا أستطيع ترك المكان في نوبة حراستى .

زم الرجل شفتيه كمن خاب أمله، وقال برفق :

لا بأس، ولكن دُلني على قبته، وأنا أذهب.

أشار الحارس إلى قبة يرتفع عليها علم بشعار الظلاميين، ثم أردف :

يمكنك أن تطلب من حارسه أن يستأذن لك.

***

كان إلياس غارقاً في النوم، وعلا غطيطه بعد أن بلغ منه الجهد. استيقظ مفزوعاً لهمس خفيض شعر بأنفاسه قرب أذنه:

عزيزي إلياس، استيقظ .... استيقظ لتموووت.

حملق إلياس عينيه، وفغر فاه، وظل طريح فراشه، انعقد لسانه، وابتلع ريقه بصعوبة، وعيناه معلقة على الرجل، وقال :

ماذا تريد ؟

أجابه بنبرة خفيضة أشبه بالفحيح :

وماذا يريد الأمير من طبيب قصره ؟ أريد علاجاً لقلبي الموتور.

تنهد إلياس، وتعالت دقات قلبه، وأجهش بالبكاء "لا تقتلنى أرجوك" قبض الأمير شعره المجعد حتى أوقفه، والتف من خلفه واضعاً خنجره على

نحره، ثم مشى به حتى باب الخيمة، فشهق إلياس فَزِعاً عندما رأى حارسه مذبوحاً داخل خيمته، وابتل سرواله، فهمس الأمير :

أنا من جلبه إلى الداخل، أشفقت عليه والبرد قارس، تحرك.

انصاع إلياس، وهو يرتجف. خرج الأمير وأغلق الباب بهدوء. مشى متشبثاً فى يمين إلياس بيساره، وقد ضم يمناه إلى جنبه الأيسر بالخنجر في خاصرة إلياس، فعجز الأخير عن التفكير للرعب الذي جثم على عقله، ومشى في الطريق الذي همس به الأمير حتى وصل الجندي الذي يحرس الساحل، فوثب الجندى عندما رآهما، وقال متملقاً :

هل تأمر بشيء يا سيدي الطبيب ؟

تأخر إلياس فى الرد، فضغط الأمير على الخنجر في خاصرته، فأومأ برأسه أنه لا يريد شيئاً، فحياهما الحارس بابتسامة عريضة، وراقبهما وهما يمشيان في الماء حتى وصلا القارب، وبعدما ابتعدا حك الحارس رأسه متعجباً، وقال :

فيمَ خروج كبير الأطباء معه؟! لعله فضَّل أن يجمع الأعشاب بنفسه.

***

انتفض المعسكر لصراخ الجندي الذي ذهب للتناوب على قبة إلياس، وصعقته رؤية زميله مذبوحاً داخل الخيمة، ولم يجد الطبيب في الداخل، وطار الخبر إلى قبة القيادة، فخرج جودفرى يطلق اللعنات، واتهامات الخيانة على جميع الجنود المناوبين على حراسة المشفى الميداني، فاستدعاهم وأمر باصطفافهم عند قبته. لقد ذُبح الحارس، واختفى كبير الأطباء، ليس غيره يملك القلب لفعل هذا. الأمر واضح كالشمس. لقد بدأ الأمير معاوية في إدراك ثأره. أطلق بصره بحدة في عيونهم المنكسرة، فلم يتمالك نفسه الجندي الذي رأى إلياس مع

الأمير أثناء مناوبته، فانهار مرتعداً عندما سقطت عين جودفرى عليه، فاستدعاه إليه، وقبض خناقه، وقال وهو يجز أسنانه :

هناك ما تعرفه، هيا قل .

بصعوبة راح يقص ما جرى بصوت متهدج، وفرائص مرتعدة، وأنفاس متقطعة، فطرحه جودفري أرضاً، ووضع قدمه على صدره، وسأله :

كيف كان هذا الغريب ؟ صفه لي .

اعتصر الجندى ذاكرته، فاستبطأ جودفرى رده، فزاد الضغط على صدره حتى كاد يُطْبِقه. قال الجندى :

شعره أسود، لحية سوداء ... معتدل القامة، مفتول .... يرتدي ملابس الأطباء عندنا.

صرخ جودفرى بعدما بصق فى فمه :

إنه معاوية أيها الأحمق، وأقسم أنك لم تُخدع في هُوية الرجل، بل فضلت أن تنخدع لخوفك من مواجهته، لا أريد مقاتلاً جباناً.

أرجوك سامحني . أقسم ...

حطت قدم الضخم على عنقه، فشبث يديه بساقه، وربت عليها طالباً العفو، ولكن دون جدوى. رفع جودفرى رجله بعدما لفظ الجندى روحه فوق نعله، والتفت إلى الجنود الشاخصة أبصارهم، وقال :

خذوه، واحرقوه، وانثروا رماده في البحر.

***

عاد الأمير بإلياس إلى المدينة. وبعد أن شوهت اللكمات ملامحه امتثل عند رغبة الأمير في أن يقص عليه كيف قتل أباه الأمير سهيلاً. ظل يستمع إليه، وهو يقص الحادثة بأحرف مرتجفة. احمر وجه وتعالت أنفاسه، وغلبته عبرة فانسابت من عينيه الأبيتين، وهو ينصت، ويربط الأحداث ببعضها، ويتصور مشاهدها، فتابع الياس :

كانت الخطة أن يتم الهجوم قبل رجوعك إلى المدينة لخوف الحكماء من أن تصنع فارقاً في القتال، ولكنك أتيت في اللحظة الأخيرة. صحيح أنك لم تمنع

سقوط المدينة، ولكنك استطعت أن تنقذ البذرة التي صنعت منها إمارتك المستعصية، وأعترف لك بالقدرة، والحنكة على كرهي لك ولأبناء جلدتك. قد انتهى الأمر كما قلت، ووضعت في علاجه ما يدهور صحته ثم خنقته بيدي لما دنى وقت الهجوم وهو لم يمت، والباقي تعرفه.

مسح الأمير دموعه ثم قال :

وعدنان كيف خاننا، وهو قائد الجيش ؟

تردد إلياس ثم قال :

إنه من المئات الذين نزرعهم في أي أمة نريد اختراقها، فينشأون ويتدربون على العيش بهويتين، إحداهما تكون ظاهرة توافق القوة السائدة في المكان، والأخرى خفية وهي الأصل. بها يُخلص السليل لدمائه المقدسة، ويدرك أن دوره الصبر حتى يتمكن من الأغيار، ويختبر عوراتهم ثم يفتك بهم. ومن هؤلاء كان عدنان، وأبوه من قبله، وجميع أسرته.

عدنان ، وأنت ، وسلاف ، وابراهيم ، وقائد آخر في الجيش. آه يا أبناء الشيطان أي مكر هذا ؟!

لا قِبَلَ لك بنا أيها الأمير فاختر السلامة، وصالح جودفري على الجزية، وتنعم بما بقي من حياتك، فما تزال فتياً، وشاباً، فاغتنم هذا واستمع لصوت العقل .

أجابه الأمير قائلاً :

هذا نهج أبناء الزنا أمثالكم، وغيركم من المرتزقة، أما أنا ومن معي فقد خلقنا للغاية الكبرى، وأدركها تمام الإدراك، وسأظل خلفها حتى آخر رمق في حياتى، وسأطهر الأرض من دنسكم، وإن لم أشهد هذا بنفسى، فسيفعله من يأتي بعدي.

تطلعت عينا إلياس كأنه ينظر إلى الموت، فنهض الأمير وقال :

والآن حان وقت القصاص .

أرجوك، أتوسل إليك دعني أقبل حذاءك إن أردت، لا تقتلنى أرجوك.

استدعى قاسماً، وأمره باقتياده أمام الخيمة حتى يراه الناس، فاجتمع عدد من الجند، والأهالى، وعرفوا قصته، وشاهده بعض قادة الجيش من بينهم جسور، وتقطع غيظاً وهو لا يستطيع له شيئاً، وظل إلياس يرتعد حتى ضرب الأمير عنقه، وأمر بصلبه في الساحة الفارقة بين الجيشين كي يراه الظلاميون، وقبل عودته إلى الخيمة رمق جسوراً واستدعاه بنبرة غاضبة .

تعالَ إلي حالاً .

لم يستبشر لغضبه، ولكنه خضع للأمر. دلف فوجده مولياً ظهره للباب، عاقداً ذراعيه خلف ظهره، وكان يمسك قصاصة ورق في يده، لم يتبين جسور ما تضمنته، فبادره الأمير :

ماذا صنعت فيما كلفتك به ؟ من الخائن ؟

الحقيقة يا سيدي ....

يا هذا، الحرب ستنشب بين عشية أو ضحاها، والخونة لا يزالون بيننا .

أنا ورجالى نعمل دون توقف يا سيدي، أقسم لك .

ضحك الأمير متهكماً من ضعف منطقه، وقال بصبر نافذ :

لقد اصطفيتَ لنفسك عدداً غير قليل من ذوى الخبرات، ولا أراك تفلح في شيء، ورغم أني أطلقت يدك، ومنحتك من السلطات ما لا تتأتى إلا لقائد جيش ثم ماذا ؟ .. ها ، ماذا ؟ ... لا شيء .

لاذ جسور بالصمت، فأردف الأمير :

اجمع لي فرقتك، سأحدثهم بنفسي هيا .

خرج جسور، وهو يحدث نفسه بالنصر، وقد زال عن وجهه قناع التأثر بتقصيره " أعدك بأنك لن تعرف الخائن إلا عندما يطير رأسك أيها الأمير"

***

بينما كان جودفرى، وقادته مجتمعين لتباحث الشكل الأخير الذى سيكون عليه الجيش، استأذن حاجب خيمته لدخول فريدريك .
وهو مصارع ذائع الصيت، استدعاه لمهمة محدودة " ستدعُ معاوية لنزال فردي، وتمزقه أمام جيشه " أذن بدخوله، ونظر بإعجاب لمن حوله من القادة، فدلف الرجل فأكبر الحاضرون منظره، وكان ضخماً، مفتول العضلات، أشقر الملامح مع حده قاسية فيها، لحيته كثيفة غير مشذبة، وشعره ينساب إلى كتفيه العريضين. لم يُظهر جودفرى ما بداخله من إعجاب، وأشار إليه فتقدم، وركع أمامه .

سيدي العظيم جودفري، أنا رهن إشارتك .

تعلم ما استدعيناك من أجله ؟

أجل .

أتري نفسك قادراً على هذا ؟

سترون ما يثلج صدوركم .

عندما يحين الوقت ستخرج، وتَدْعُ معاوية للنزال.

أمرك.

يمكنك الإنصراف.

أنهى جودفرى حديثه " سننتظر خبراً من جسور بخطة معاوية النهائية، وبعدها سنقرر" .
تساءل تيودور :

هل سيظل جسور بينهم ؟

أجل، وسينفصل بمن معه عندما يصير معاوية في ساحة القتال، عندها لن يفطن معاوية لخديعته إلا بعدما يكون قد انتهى كل شيء .
قال هيليوس :

رجل مثل معاوية لا يُشْرِك أحداً في تفاصيل الأمور .

فأجابه جودفرى محتداً، وقد ضاق ذرعاً من تدخلاته :

مع توقيرى لكم، ولكني أعلم الناس به، فهو العدو القديم .

مع ذلك كن حذراً، فالحكماء لن يغفروا لك خطأ آخر، لهذا أرى ألا نبادرهم القتال صراحة، بل أرسل من يعرض عليه دفع الجزية، وله الأمان، فقد يقبل بهذا لتضرره وخسائره الأخيرة، وإدراكه ضآلة حجمه مقابل جيشنا.

فكرة تبدو جيدة .

وعندما نصير في الداخل ......

أكمل جودفرى :

نفتك به على حين غرة، حسناً أيها المعبر العظيم .

***

جمع جسور فرقته، وذهب على رأسهم للقاء الأمير، فأمر بعضهم أن يتخلف عن الحضور تحسباً كى لا يلقى بهم كلهم فى بوتقة واحدة. اعترض قاسم عند الخيمة طريقهم، وطلب منهم تسليم أسلحتهم، وانتظر المقاتلون إشارة من جسور، ثم امتثلوا للأمر. قال قاسم :

انتظروا حتى يأذن الأمير لكم .

قال جسور بصبر نافذ :

هو من طلب حضورى .

تجاهله قاسم، ونظر إلى بعيد مترقباً كأنه ينتظر أحداً. وبدأ إحساس الخطر يتسلل إلى جسور، ولكنه ظل رابط الجأش حتى خفق قلبه عندما رأى رباحاً يسوق فى القيود رجاله الذين تخلفوا عن الحضور، " لقد خُدعنا " قالها جسور لنفسه، وقبل أن يفكر فى حل لمأزقه، ظهر كرشاب على رأس مقاتليه وأطبق عليهم وحاصرهم، وانضم إليه قاسم مع حرس الخيمة متأهبين بالسهام، فتقوقع جسور ورجاله حول أنفسهم. رأوا الموت يحدق، وقد

أحاط بهم سرادقه، ولا مفر. سادت لحظات من الصمت حتى فُتِح باب الخيمة، وخرج الأمير متنكباً سيفه، وفي يده قصاصة الورق التي سلمتها حنين له بعد مقتل نزار. تطلع جسور إليه وهو ينظر إليهم بسخط لم يروه من قبل. أمر رباحاً بأن يحكم وثاقهم، فقال جسور متفاجئاً، ورباح يوثق ذراعيه من خلاف:

هناك خطأ يا سيدى الأمير، ما الذي أجرمناه ؟

ضحك الأمير ساخراً، وقال: " ستعرف الآن "

أشار إلى كرشاب، ورباح، فأمرا رجالهما وأركعوا جسوراً ومن معه.

قال الأمير بصوت جهور :

هل تذكرون النور الذي كنت أعده للمدينة وأطفأتموه ؟ أتذكرون نزاراً ؟ الشهيد الذي راح ضحية خستكم، كم مرة يا جسور اختلست النظر إلى تلك القصاصة في يدي؟ الآن أخبرك بما جاء فيها. لقد ترك نزار أسماءكم، وأخبرني كيف خنتم، وكيف أحرقتم أيها الكلب شريان، وكيف تعاونت مع جمال الدين فى كل بوائقه، وما كنت لآخذك قبل أن استوثق من حقيقة أمرك. أنت أيضاً من الظلاميين الأخفياء، ومساعد الخنزير جودفري، ومن قبله إبراهيم، لكم انتظرت هذه اللحظة، واستخدمتك بما يكفي، ولا فائدة منك الآن.

وقعت حجة الأمير على مسامعه كالصاعقة، إذاً كان يعلم بأمره منذ زمن. لقد استخدمه ليوصل إلى جودفرى ما يشاء من معلومات تضلله، استبقاه ليجمع رجاله في سلة واحدة، وكلفه بالمهمات خِدَاعاً وكيداً، ولهذا استدعاه يوم ذهب لينقذ الأسرى، ولهذا أبعده عن المدينة، ولهذا كلفه بالاستخبارات السرية، كي يعلم ثقاته من قادة الجيش، ومن يعملون معه. لقد انتهى كل شيء. سأله الأمير :

هل لديك ما تقوله ؟

إن كان الموت لا محالة، فاجعله مبارزة بيني وبينك .

دنى الأمير حتى صار عند رأسه، ثم قال وهو يُطل بعينى جسور من علٍ:

ما أشد وقاحتك !! ومن تظن نفسك حتى تكون نداً لى أيها الغِر؟! كما أنك قد اختبرت حظك معي حين تعقبتنى في ذلك اليوم، وكنت أعرف أنك أنت رغم تبرقُعك وقد صرعتك مرتين ولو شئت لقتلتك، ولكني أمهلتك إلى حين.

لماذا لم تقتلنى وقتها ؟

ضحك الأمير، وأشار إلى رجال جسور من ورائه وقال :

تركتك كى لا يتبعثر هؤلاء الجرذان من بعدك، ويصعُب اكتشافهم، أما الآن فقد كفيتنى أنت هذا الجهد، وجمعتَهم، وما كنتُ لأفَرّق شملاً بعد اجتماعه. خُنْتم معاً، وسأرسلكم إلى جهنم معاً.

طأطأ جسور رأسه، وتعالت أنفاس الخوف وكلمات التوسل من رجاله، فأغمض عينيه. تراجع الأمير واعتلى درج خيمته، ثم أمرهم:

اضربوا أعناقهم جميعاً، وأرسلوا رؤوسهم إلى قائدهم .

***

هدأ الصخب الذي ضج حول إعدام جسور ومن معه. عاد الأمير إلى خيمته فاستأذن رسول جودفرى بالدخول. تقدم المبعوث، وأخرج رسالة التقطها أنس منه، ثم قدمها إلى الأمير. قرأها بعينيه، ثم نظر إلى البيرونى ويحيى وقال :

يعرض الأمان مقابل مبلغ من المال ندفعه.

تدخل الرسول :

إن القائد جودفري يري .... .

ششششششش من أذن لك بالحديث.

امتقع وجه الرجل، فأردف الأمير :

على كلٍ نحن موافقون، أساساً الصناديق جاهزة لتُحمل إليه. قد كفيتنا أنت مؤونة الذهاب، يمكنك أن تأخذها .

فرح المبعوث لنجاح مهمته، وتوقع المكافأة عليها، غير أن شيئاً ما غامض فى الأمر. نادي الأمير قاسماً وأمره أن يرسل الصناديق معه، فخرج الرسول إلى معسكر الظلاميين، ومعه خمسة صناديق ضخمة محملة على ثلاثة أُتْن تحوى بداخلها ثلاثين رأساً دامية .

ساق الرجل الصناديق حتى ابتعد عن معسكر القداسيين، ثم توقف فى منتصف الطريق وقد حدثته نفسه أن يَغُل منها، وفتح أحدها وهو يلهث لرؤية الذهب، ثم فزع عندما رأى ما بداخلها، فأغلق الصناديق وطار بها حتى وصل إلى جودفرى، فقرأ خيبته فور دخوله، وتساءل:

هل رفض ؟

أجل يا سيدى وقد أرسل معى .....

ماذا ؟

صناديقاً لرؤوس مقطعة.

هرول جودفرى إلى الخارج، وفتح الصناديق، واحداً تلوا الآخر، وقلب فى الوجوه، ثم توقف عندما رأى جسوراً. أخذ يزمجر بصوت أرعب من حوله:

اللعنة عليك أيها الآبق، اللعنة عليك. لقد اكتشف رجالنا داخل مدينته، لا وقت للمخادعة بل القتال سفاحاً.

***

حسم كلا الفريقين أمره، واكتمل جمعه، سنقاتل غداً.

انضم جمال الدين بمن معه من الخارجين إلى جيش الظلاميين، وأطلق على من معه " كتيبة ابن الفُجاءة " تعجب القداسيون من فعلتهم، ولم يتعجب الأمير، قال بأن طعنهم في ديننا لم يكن سوى وسيلة تأخذهم إلى الحكم،

وعندما خاب سعيهم لجأوا إلى من صنعهم، وأمدهم بالمال ليكونوا شوكة فى ظهورنا.

تفقد أحوال المدينة قبل الخروج إلى قيادة الجيش، فمرّ على معسكرات التدريب التي أقيمت في أماكن كثيرة متفرقة داخل المدينة وخارجها، ولاحظ استعداد فتية البعثات عاطف ومن معه للخروج إلى القتال، فأمر داوود بمنعهم من الإنضمام إلى المعركة .

ذهب إلى المشفى، واطمأن على المصابين، ثم قصد غرفة حنين ولما لم يجدها نزل إلى الحديقة فرآها شاردة، وقد عاد إلى وجهها بعض نضرته. تبسمت عندما رأته ونهضت، ثم انقبضت أساريرها عند رأته في درع القتال.

كيف حالك الآن ؟

أراك قد تجهزت للخروج .

أجل فعلت، ولكن لم أشأ الذهاب قبل رؤيتك، هل تحسنتِ ؟

سأكون بخيرعندما تكون أنت كذلك.

لن يحدث سوء.

هيمن الصمت لمدة، وذاع فيها ما يُكِنُّ كل منهما للآخر. استعد للمغادرة وقبل ذهابه همس باسمها، فأسرعت في تلبيته :

مُرْنى .

إذا قُـدّر لنا النصر ..... ثم صمت ولم يكمل .

تطلعت إليه متسائلة، فأردف :

أعني لقد جئت اليوم كى أطمأن عليكِ، وأخطبك لنفسي .

كتمت صيحة المفاجأة بيدها، وانعقد لسانها، وتوردت وجنتاها، فتابع:

فكرى يا حنين حتى عودتي كي تبلغيني بقرارك، فإن كان كما أرجو، عقدنا القران.

انتظر أن تقول شيئاً، ولكنها لم تنبس ببنت شفة، فانعقد لسانها، وقلبها لا يتوقف عن الخفقان. تبسم الأمير، ثم ودعها وانصرف.

***

قبل خروجه من المدينة جلس يُمعن النظر في الشكل الأخير الذي سيكون عليه الجيش. سمع صوت قاسم يتجادل مع أحد يُلِح في الدخول عليه.

قلت لك لن أذهب حتى أقابل الأمير .

إنها أوامره أيها الفتى .

همس الأمير لنفسه " أهذا أنت " دخل قاسم مرتبكاً :

العفو يا سيدي إنه .....

صاح الفتى من الخارج :

أنا عاتف يا سيدي .

قال الأمير " عاتف قبل المعركة، هذا لا يبشر بالصمود " ثم سمح بدخوله وقال بضيق :

ما الأمر أيها الفتى ؟

سيدي لماذا منعتنا من الدفاع عن مدينتنا ؟

سأله بهدوء :

ألهذا جئت ؟

أجل .

لأنك وأصحابك علماء هذه المدينة، ولا أريد خسارتكم .

سامحني، ولكن هذا استبداد .

رفع الأمير حاجبه، وفغر قاسم فمه لجرأته.

أنا مستبد يا عاطف ؟

أطرق الفتى ولم ينطق. لم يترك قوله أى سوءٍ في قلب الأمير، فتنهد ثم قال :

اسمعني يا بني، الحرب ليست بالسواعد، والسيوف فقط. هناك دور كبير منوط بك أنت، وبمن معك، وهو العلم، أنتم نورنا، وجودكم بأمان أشد نكاية للعدو، وأشد بأساً، وأكثر نفعاً للمدينة. بعلمكم ستربون أطفالنا، وتأمنون غذاءنا، وتطورون سلاحنا، وستحيون الأرض التي تحرقها الحروب. أنا أسعد الناس بك، ولا أشك قيد أنملة في إخلاصك وشجاعتك، ولكن كل ميسر لما خُلِق له .

استمع إليه الفتى وقد سكنت ثائرة نفسه بعض الشيء، فاستأنف الأمير :

وأنت قد رُزِقت ذهناً حاضراً، وذاكرة حديدية ويسهل عليك تحصيل العلوم، والجمع بينها. أنتم مستقبلنا، فلا تطلب مني أن أجازف بكم. تفهمني يا بني أليس كذلك ؟

نزل كلام الأمير على قلبه برداً وسلاماً، فأحس بدوره كما لم يشعر من قبل. قال في حياء :

سامحني إن أسات الأدب والفهم .

لا عليك. لم أغضب منك، أفهمك وأحب أن تعلم أني أفتدى قطرة دم منكم بنفسي، لا تنس هذا .

غرق الفتى في عواطف العرفان، فلم يتمالك نفسه، اجتاحه الامتنان فجأة، ولم يدرِ بما يجيب، فتقدم إلى الأمير وانحنى ليقبل يده، فنزعها الأخير مسرعاً، وهو يقول :

لا ينحني العلم لأحد وإن كان الأمير، ثم اجتذبه وضمه، وقبَّل رأسه وهو يقول " هيا اذهب وتابع عملك "

لن أخذلك ما حييت.

ربت الأمير على كتفه، وقال :

أعرف .

تقبل اعتذارى للمرة الثانية .

تبسم الأمير وقال مازحاً :
إتس أوكيه .

***

الفصل التاسع عشر

أيملك الملك والأسياف ظامئة ... والطير جائعة لحم على وَضَمِ

اصطف الفريقان، وبرقت السيوف الظامئة، وحامت الطيور الجائعة، وما هي إلا دقائق ويتحول النهار الرائق إلى سحب من النقع تحمل في بطونها صيحات الوغى. سيستقي النهار بالدماء حتى يثمل، ثم يتولى ليحل الظلام، ويتحول الميدان إلى أرض مذئبة تنهش أجساد القتلى.

برز جودفري في درع أسود على رأس جيشه المتسربل بالسواد، يقف إلى جواره تيودور، وعلى يساره فريدريك .

تقدم الأمير في ثوب أبيض، ودرع أحمر اللون تميز به عن سائر جيشه إذ كان زيهم أبيضاً، ودروعهم كذلك.

سار داوود عن يمينه، وكرشاب ورباح عن يساره، وقاسم على رأس حرسه. مرَّ بين صفوف الجيش يثبتهم ويُعْلي من عزائمهم ويشعل روح الثأر وطلب النصر. جاء يحيى وأخبره أن المدينة متأهبة كذلك لقتال طويل . بدأ الأمير يوجه قادته :

داود ستكون معي وتنوبني في القيادة، كرشاب ستظل على رأس فرقة البرق كقوة دعم متحركة، تسد بها الثغرات إذا ما احتاجت إليك أطراف الجيش، ورباح على الميمنة ويحى على الميسرة، وأنا فى القلب.

عزم على رفع معنوياتهم بعدما وجد فى بعضهم خوفاً من الظلاميين وقوتهم بسبب ما أحرزوه من انتصارات في الأيام السابقة.

تقدم على جواده الكُميت، ونادى:

أنا الأمير معاوية بن سهيل أدعوا جودفري للقتال.

كرر النداء ثلاثاً، ولم يجبه أحد. فقال تيودور :

إنه يحرجك أيها القائد .

لقد أعددت له من سيسكته .. فريدريك .... أجهز عليه .

خرج العلج مختالاً. ظنه الأمير جودفرى في بادىء الأمر لتقارب جسديهما، ثم تبين بأنه لم يخرج، فتقدم فريدريك على فرس أحمر اللون ووقف أمام الأمير، ونشب رمحه فى الرمال ، ثم قال :

أنا لك .

أجبن قائدكم ؟

ترجل فردريك وقال :

عليك أن تتجاوزنى أولاً .

ترجل الأمير بدوره، وبدأ القتال. بادر فريدريك بحملته، وراوغ الأمير ضرباته، ولم يُجرد سيفه بعد. سدد فريدريك طعنة إلى صدره مال الأمير عنها، ثم انحنى متفادياً ضربة أخرى مرت من فوق رأسه، وأعاد فريدريك ضربته فقبض الأمير رسغه بقوة، وبسرعة خاطفة ضرب مفصل مرفقه وكسره. صرخ فريدرك متوجعاً، وتخلى عن سيفه، فالتف الأمير من ورائه، وركل خلف ركبته فأركعه، ثم قبض بكفيه ذقنه ورأسه وقسم رقبته.

اضطربت صفوف الظلاميين لمقتل صنديدهم، ولم يجرد أمامه سيف. أطرق جودفرى، وامتطى الأمير فرسه وعاد إلى صفوف جيشه بعد أن كرر نداءه جودفرى، ولم يخرج له.

أمر جودفرى بالهجوم، فهجم الظلاميون كالسيل العارم. يطلقون صيحات مدوية يعلوها صوت طبولهم وكاساتهم. قاد تيودور الهجوم بينما وقف جودفرى في موقع المراقبة.

إنهم يقتربون، هل نهجم ؟ سأل داوود الأمير، فأومأ برأسه "لا"

انتظر حتى اقتربوا أكثر، فأمر داوود بأن يرفع بيرق الرماة فتقدموا، رفع الأمير يده، فوضعوا سهامهم، وشدوا أوتارها حتى لم يعد في القوس منزع، فانتظر حتى غشيهم العدو، ثم أنزل يده يشق الهواء بها صائحاً "الآاان".

حصدت السهام أرواحهم، وأحدثت بينهم اضطراباً عظيماً، فتراجع تيودور، وقدم معه جودفري فرقاً مدرعة بالحديد عن آخرها، فأصاب منهم رماة الحدق عدداً لا بأس به، ثم جاء إذن الأمير بالهجوم العام، وكان هو على رأسه، ولم يستجب لرأي داوود بأن يقود المعركة من موقع المراقبة، قائلاً " سأتلقى الضربة الأولى معكم ثم أعود، هذا أفضل "

أظهر المدرعون صلابة شديدة، ومهارة فائقة في القتال مما اضطر الأمير للثبات في ميدان القتال دون الرجوع إلى نقطة المراقبة، وكان ميجى يتابع أمور القتال عن بعد وهو يترقب.

منع الأمير المتطوعين من الإشتباك المباشر لعلمه بعجزهم عن مباراة الفرق المدرعة، فلم يسمح لهم بالتعمق بين صفوف العدو، وإنما يقفون كظهير للفرق المدربة، ويسدون الثغرات ويدعمونهم من خلفهم . عاد الأمير إلى نقطة المراقبة، وتولى داوود قيادة القلب، نظر جودفري إلى ميجى وأرسل إليه من يأمره بالهجوم حيث الأمير، فقال :

لا يمكننا فعل ذلك الآن، ولا تزال قوتهم ترتكز حول القلب، ولن نستطيع الخلوص إليه.

فكّر في الأمر، ولكن ما الحل ؟ فالدفاع من البديهي أن يرتكز في الوسط، وفي القلب، حتى وإن ضعفت قوات القلب نفسها سيدعمها بشكل تلقائي محاربو الميمنة، والميسرة، وفوق هذا فلقد أنشأ الأمير معاوية دفاعاً يصعب اختراقه.

كان ميجى يرتكز بقوات أكيرا على مقربة من ميمنة جيش القداسيين، فأمر جودفري الميسرة بزيادة الضغط على الميمنة، وأمدها بفرق الدعم، فبدأ تساقط الشهداء يزيد في الميمنة، فوجه الاميرُ كرشابَ لدعمها، فسد بفرقته العجز، وخفف الضغط عنها.

عاود جودفرى الكرة ذاتها، ولكن نحو الميسرة، فتحرك كرشاب وسد الثغر بمن معه. لاحظ جودفرى أنه لن يتمكن من زعزعة القلب عن طريق الضغط على أحد أطراف الجيش، لوجود فرق الدعم المتحركة، لذا سحب قواته، واستعد لهجوم أكبر على الميمنة، والميسرة في آن واحد .

إنه يريد إضعاف القلب.

قالها الأمير وهو يراقب تحركات جيش الظلاميين على هذا النحو. أعاد جودفري كَرَّته على الميمنة والميسرة، ولم يفلح كرشاب هذه المرة فى إعادة التوازن على الجانبين في الوقت نفسه. أسرع داوود، وأشار على الأمير أن يُخفف من قوات القلب، ويرسلها لدعم الأطراف فرفض معللاً :

هذا ما يريدون.

تفاقم الأمر، وزادت الوطأة على جانبى الجيش، وبدأ الظلاميون يطوقونه من أطرافه، وتزايد سقوط الشهداء، ففكَّر الأمير فى طريقة يخفف بها الضغط عن طرفى جيشه، فنزل من جديد فى حرسه بعد أن استدعى كرشاب، وفرقة الدعم وانقض بهم على قلب جيش الظلاميين، وركز هجومه حيث تيودور، فأربك قواته، واستحر القتل فيهم، وبدأ قلب الظلاميين يتقهقر، فشاهد جودفرى أزمة القلب، لكنه انتظر أن يصمد تيودور حتى يكتمل الالتفاف حول جيش القداسيين من الأطراف، ولكن اشتبك الأمير مع تيودور نفسه، وجندله، ففر الأخير من أمامه، فاعترض طريقه داوود وبارزه ثم قتله.

بدأت قوى القلب في الإنهيار بعد مقتل تيودور. اضطر جودفرى إلى دعمه من الميمنة والميسرة، فتنفس جيش القداسيين وكان يوشك أن يحاصر من جانبيه. جمع جودفرى في القلب دعم الأطراف، وضم إليهم جمال الدين ومن معه، وهاجم قلب القداسيين بقوته. قاد الهجوم بنفسه فتقهقر جيش القداسيين من جديد. استبسل المقاتلون، وحاول رباح جاهداً أن يحفظ توازن الميمنة بعد أن أرسل دعماً منها إلى القلب، وفعل يحى نفس الشيء على

الميسرة، ولكن الأمر يزداد سوءاً. أشار جودفرى إلى الاحتياط في جيشه وزاد بهم الضغط على القلب أيضاً. ثبت الأمير، ومن معه، غير أن عدد الشهداء يتزايد، وتحولت أرض القتال إلى بؤرة من الجحيم، فطاشت الدماء وتناثرت الأشلاء، وعلا قرع السيوف، وآهات الطعن، ودهس الموت الجريح، والصحيح. الدائرة تدور من جديد، وكفة الظلاميين مائلة إلى الرجحان. قاتل يحيى ببسالة في ظهر أميره، حدث أن رماه أحد الظلاميين بسهم كاد يخترق نحره لولا حال الأمير بدرعه، ولا تزال كفة الظلاميين فى الرجحان حتى دنت الشمس من المغيب، وقبل انفصال الجيشين لحلول الظلام حدث انكسار كبير إذ قُتل داوود، تسلل جودفرى من خلفه وشق ظهره بالفأس حتى إذا خرَّ على ركبتيه اقتص عنقه بالسيف. رأى الأمير مشهده وهي المرة الأولى التي يلتقي فيها بجودفري. كان قبل اللحظة يشعر كل منهما بأنفاس الآخر دون مواجهة، فصرخ باسم داوود وهب نحو جودفرى، واندلع بينهما قتال ضارٍ. انقدح ثأر السنين وضغائنها. لم ينلْ أحدهم من الآخر. قاتل جودفري بسيفه وفأسه، والأمير بسيفه ودرعه. وانقدحت النار في كل ضربة بينهما، وقعقعت الصوارم، سيف وفأس، سيف ودرع، سيف وسيف. أحدث كل منهما جروحاً متفرقة في جسد الآخر لا تحسم النزال، ثم تفرقا عن بعضهم، واشتبكا مع آخرين، وضاعا مرة أخرى بين الأمواج المتلاطمة من الجنود. بحث الأمير عنه فلم يجده. أضعف سقوط داوود نفوس الكثيرين. عَدَلَ جودفرى عن التراجع بسبب المغيب، وقرر أن يحسم النزال ولا يمنحهم فرصة لالتقاط أنفاسهم حتى يوم الغد. راقب جودفرى الأمير وهو ينهش فيهم بعد أن انكشف مكانه في أرض المعركة، وقلّ من حوله، رآه يضرب بقوة كالعاصفة، وسرعة كالبرق، لا يقوم له أحد.

ومُدَجَّج كَرِه الكُمَاةُ نِزَالَه ... لا مُمْعِن هرباً ولا مستسلم (عنترة)

فأشار جودفري إلى قائد قوات أكيرا كي يهجم عليه.

استعد ميجى قائد قوات أكيرا، وبدلاً من أن يهاجم الأمير انسحب من أرض المعركة، فتبلد عندها جودفرى مشدوهاً لخيانة ميجى، وقبل أن يستفيق من صدمته، صاح الأمير برجاله آمراً برفع بيرق أزرق، ودقت الطبول بوتيرة مختلفة، فظهر هاتورلي على رأس فرقة كان قد دربها من أبناء الحدوة على أساليب قتال أكيرا وهجم بهم.

حملق جودفري عينيه، وصعقته المفأجاة. قال، وهو لا يزال مشدوهاً:

كيف هذا ؟ هاتورلي ؟!

لم يكن أحد يعلم بأنه لم يمت سوى الأمير وقاسم ورجا، وقلة قليلة ممن يقومون على حراسته. في تلك الليلة عندما ذهب هاتورلى لاغتيال الأمير ثم فشل، وطلب منه أن يساعده في تنفيذ إعدام نفسه " هيرا كيرا" كما جرى في عرف مقاتلي أكيرا، هوى الأمير عليه بقبضة سيفه، ولم يقتله. أفقده الوعى، وحمله إلى خارج المدينة. وجعله في شريان في بادئ الأمر عند رجا، ثم غيَّر مكانه مراراً بعد ذلك. وجد هاتورلى نفسه أسيراً في يد رجا، وقد تأخر الأمير في الحضور إليه لأنه أُصيب في الليلة نفسها، وبعدما تعافى ذهب إليه، وعرض عليه التعاون معه، فرفض هاتورلي في بادىء الأمر، ثم انشرح صدره لمحالفة الأمير لما رآه من شجاعته ونبله. اتفق معه على إنشاء فرقة جديدة يدربها على أساليب قتال أكيرا، وأسلحتهم، وجعل ذلك سراً، وقوة كامنة إلى حين. وهو المكان الذى كان يختلف إليه بين وقت، وآخر، ولم يعلم أحد عنه شيئاً. كانت المعركة هي الوقت الأنسب للإعلان عن وجوده. وقبيل المعركة تواصل هاتورلى مع ميجى سراً، وشرح حقيقة أمره، ودبّر مكيدة انسحابهم، وترك جودفري في ساحة القتال. اكتفى ميجى بالانسحاب لأنه ليس مأذوناً لهم القتال في غير المهمة التى جاؤوا لأجلها.

لا يزال جودفري غير مستوعب كيف يحدث هذا؟

هاجمه هتورلي، وضرب جيش الظلاميين بقوة لم يشهدوها من قبل، ومزق أبطالهم، فتعادلت الكفتان من جديد، ثم تفرق الجمعان لحلول الظلام.

***

كان يوماً قاسياً شديد الوطأة. حُسِب مجملُه فى صالح الظلاميين.

جمع رأس داوود إلى جسده، ووسده لحده بيديه. شهد دفن الشهداء جميعاً، وعاد الجرحى. ظل متجلداً يكبت وجعاً يفت فؤاده، ونحيب الثكلى، والمترملات لا يتوقف. أوى إلى قبته، وضمد جروحه بنفسه، وراح يغتسل، واختلى بدمعه. سكب على رأسه الماء، فعاد يُبصر مصارع رجاله، لقد صنعهم على عينه، وأنشأهم فى أحشاء الغربة، وحرّ الكفاح. سقط خيرة المقاتلين وسقط داوود، سقط القائد الفذ والصديق المخلص. أسقطه الكلب غدراً كعادته. لأجعلن الموت أقصى أمانيك، ستبحث عنه ولا تجده.

اجتمع بالقادة، ونظر معهم فى هيئة الجيش فى قتال الغد. أشار بعضهم بالإنسحاب إلى الحدوة تحت جنح الظلام، ورأوا أنه من الأفضل بعد كسرة اليوم، والخسائر التى تكبدوها، فرفض الأمير أى اقتراح بالانسحاب، وأعاد ترتيب السرايا، ووزن توزيع القوات، ووضع كرشاب مكان داوود، واتخذ هاتورلى موضع كرشاب على رأس فرقته وفرقة البرق معاً.

***

اصطدم الجمعان من جديد. بدأ الأمير القتال بنفسه. دارت رحى الحرب تطحن ما يقع تحتها من الطرفين. تولى جونسون قيادة القلب مكان تيودور. احتفظ الأمير بقوات هاتورلى بعيداً عن القتال، ثم أمرهم بالهجوم بعدما طال النهار، واستنزف القتال الطرفين. انهمك الأمير بعدما توازنت القوة أن يزيد الضغط على أطراف جيش الظلاميين، فوجه هاتورلى بفرسانه لدعم رباح في الميمنة ونجحوا فى الالتفاف حول ميسرة الظلاميين، وأُرْغِم

جودفرى على إرسال قوة الإحتياط من القلب إلى الميسرة، وفي هذه الأثناء حدثت المفاجأة.
طغى على صوت الوغى خبب الجياد تنهب الأض، وتتقدم من بعيد نحو الميدان. تحرز كلا الفريقين من وجود كمين أو دعم لعدوه، ثم كانت البشرى إذ ظهر عمر على رأس كتيبة العقاب عاصباً رأسه، فكانوا كالجلاميد التى حطها السيل من عالٍ.
عصف مقاتلو العقاب بقلب جيش الظلاميين عصفاً، ومزقوهم شر ممزق. أطاح عمر بعدد من القادة، واستبسل قيس، ومزق أبطالهم، وفتك صهيب بكل من لقيه، وملء الزير أرض القتال صياحاً وهو ينشب نباله في نحورهم، شاهدهم الأمير وتبسم حتى ظهرت نواجذه، رفع رأسه إلى السماء شاكراً.
بدأ جودفري يفقد السيطرة، فأمر بعودة قوات الإحتياط من الميسرة لدعم القلب ولكن هذا الأمر أضعف ميسرته، فتمكن رباح وهاتورلى من الالتفاف منها إلى القلب.
لمح قيس جونسون يقاتل ببراعة، وصلابة من يعلم أنه لا درع له سوي سيفه. انتبه جونسون إليه، واستعد لمواجهته، ثم تبين ملامحه، وتذكره " العبد الشقي " تبارزا بقوة وحقد، إلا أن ضغينة قيس كانت أكبر من أن يصمد جونسون أمامها، فسرعان ما خرّ قتيلاً لطعنة اخترقت قلبه. تمدد جثة هامدة، فانحنى قيس يفتش في درعه، وثيابه حتى انتزع قلادة أروى منه، ونهض.
كان جودفرى خلف قيس يراقب قتاله مع جونسون، وعرف أنه الفتى الذي صادفه في قصر باليان " صدق ظني عندما قلت أني رأيتك من قبل " أتم نحر رجل كان على حد سيفه، ثم مشى إلى قيس دون أن يراه الأخير. وصل إليه، وسدد طعنة إلى منتصف ظهره فحال الأمير بينها وبين قيس وأسقط

سيف جودفرى. تذكر المشهد القديم لمقتل الصياد بنفس الطريقة يوم سقوط قداسة .

" الخسة نفسها، والغدر نفسه، وطعن الرجال من ظهورهم " قالها الأمير، وهو يهاجم جودفرى من جديد. انتبه قيس، وهم بالهجوم لكنه توقف عندما أشار الأمير إليه. تلفت جودفرى من حوله فرأى مصارع رجاله أينما نظر. أمر جنوده بمهاجمة الأمير وهرب، اشتبك الأمير معهم، وهو ينادى:

لا نجاة لك، فارجع.

و بينما تطحن رحى الحرب الرؤوس العنيدة، انتبه الأمير إلى ملثم يخترق الصفوف بإقدام أعجبه، لكنه بدا متهوراً جداً، منفعلاً جداً، غبياً جداً، لا يوجد لديه أدنى مهارة في استخدام السيف. تُرى من هذا الأحمق؟! وسرعان ما تبارز مع أحد الظلاميين، فأسقطه الظلامي، وطرحه أرضاً. أدركه الأمير قبل أن يجهز عليه، ومد يده للملثم فتعكزعليها، ونهض تساءل الأمير بعينيه عن هويته، ثم اندهش عندما أمعن النظر فى عينيه، هذه أنتِ ؟ ماذا تفعلين هنا يا حنين ؟!!!!!!!

أقاتل .

صاح منادياً كرشاب " خذها إلى خارج الميدان واحرص عليها، هيا" تابع انصرافها، وهو يغمغم " سأُجَن ....سأجن "

انسحب جودفرى إلى نقطة المراقبة، وحاول إعادة التوازن. ابتُلِي القداسيون بأحد مقاتلى جودفرى لا يصمد أمامه أحد. كان قصيراً بديناً، وله رأس ضخم أصلع، ويمسك سيفاً عريضاً بيد وخنجراً بلأخرى. التف حوله بعض المقاتلين وانتبه الأمير إليه، وإلى فعله فيهم، وراقبه وهو يقاتل. كان يراوغ ضربة السيف، ويدك رأسه في صدرغريمه. رآه الزير وهو لا يكف عن تهشيم الوجوه برأسه، كان ينطح دون توقف فهاجمه وهو يصيح : خروووووووووف.

الزير يراوغ، ويبارز، ويقاتل في عناد ، ثم أووووووووع .
نطح الأصلع بطنه، وقبل أن يقتله أدركه عمر، فقاتله ثم شق صلعته نصفين. تبسم الأمير لمشهد الزير، ثم انتبه إلى أن جودفري يجمع حرسه من حوله، فأمر هاتورلى: " إياكم وأن يجد جودفرى طريقاً للفرار"
تهاوت قوات الظلاميين تماماً، وبدا الجُبن جلياً في تصرفاتهم، كثيراً ما تركوا سيوفهم، وفروا دون قتال. لم يُظْهِروا الشموخ، والشجاعة اللذين يكونان منهم عندما يتأكدون من تفوقهم في العدة، والعتاد. اختفت الشجاعة التي تظهر أمام الأطفال، والعُزَّل، وانهار سد دمائهم، وهم من كل حدب يفزعون كالفئران المذعورة. لاحت بشائر النصر في الآفاق، وبقي قليل القليل. قاتل قيس ببراعته المشهودة، ثم تفاجأ بأنه يحارب ظهراً لظهر مع رباح. انتبه كل منهما للآخر، وحملق رباح عينه فيه، فقال قيس :
يمكنك أن تتقبض علي في وقت آخر.
فضحك رباح، وتابع القتال.
حاول جودفرى الفرار، فسد عليه هاتورلي بفرقته الطريق، وأطبق كرشاب، وضيق خناقه، ففر بعض رجاله، وقُتل معظمهم، وهرب هيليوس المعبر. وجد نفسه وحيداً في سيفه، وفأسه، ثم وصل الأمير، وترجل لمواجهته .
تقدم من جودفري دون أن ينبس ببنت شفة، ثم كان من جودفري ما أدهش المقاتلين جميعاً. لقد ترك سلاحه، وركع أمام الأمير معاوية دون قتال. الآن تطلب الأمان ؟ الآن ظهر خوفك وجبنك وحقيقة معدنك. أين الشجاعة والهيبة التي تبدو صارخة أمام الأبرياء، والعزل ؟ أين السطوة والجرأة ؟ لا شيء، وكأنها لم تكن. لا شيء أمامه سوى تعلق مُخْزٍ بالحياة، أي حياة، وإن كانت تحت أقدام عدوه، يود لو يعمر ألف سنة، ولكن انكساره الآن ما كان ليزحزحه من العذاب. لكمه الأمير، فكاد يكسر أنفه. طرحه أرضاً، وانهال عليه باللكمات والصفعات، فسالت الدماء من فمه وأنفه، وسورت اللكمات

حول عينه بالزُرقة، وهشمت قبضة الأمير بعض صلعته الضخمة، فنهض من عليه، وأمر رجاله أن يشدوا وثاقه. نمى عنه صوت ضعيف " أرجوك سامحني، واعفُ عني " .

وضع الأمير نعله على صدره، وانحنى إليه قائلاً " إذا سامحتك الآن، أكون قد قتلت أبي بيدي "

أحكم المقاتلون وثاقه، فأمرهم بأن يصلبوه من قدميه. تماثل أمام ناظريه مشهد أبيه معلقاً من قدميه، وجودفرى يقطع أوصاله، ويمثل بجثمانه، قال: لقد مثلت بأبي ميتاً أيها الخنزير، ولسوف أُمَثل بك الآن حياً.

توسل جودفرى " لا، أرجوك اقتلني ... أرجوك اقتلني"

جاء قاسم يجر من خلفه جمال الدين، فقال الأمير " لقد خرجت علي بحجة كفري، فهل هذا هو إيمانك ؟ أحرقت الأبرياء وتحالفت مع الظلاميين على أهلك وقومك. هل دفعك الإيمان على أن تحالف أعداءنا ؟" أطرق وغض جمال الدين بصره ولم يجب، فتابع الأمير " لم يكن إلا طلباً للملك، وقد استغل الظلاميون ضعف نفسك " ثم التفت إلى قاسم " اصلبوه إلى جوار جودفري، وأتوني بحنين "

لم يتوقف جودفرى عن التوسل. دنى منه الأمير، وهمّ بتقطيعه أوصاله، فظهر البيرونى ينهاه " لا يحق لك أن تمثل به، أحسن القتلة أيها الأمير" وجد الأمير في نفسه غيظاً شديداً، وغضباً عارماً، فقال أيها النقيب " قد كنت شاهداً على أفعاله بنا يوم ظهر علينا، ألا يحق لي شفاء قلبي ؟ "

" بلى يحق لك ذلك، إذا أردتني أن أفصّل لك ديناً " بدأ الخلاف يشب بينهما لأول مرة، فتمسك البيرونى برأيه، وثابر عليه حتى لان الأمير، وعدل عن التمثيل بجودفري، فطعنه طعنة نجلاء غارت في صدره ثم قال " دعوه هكذا إلى أن يتعفن جسده " وبعدها وصلت حنين، فقال الأمير "هذا يوم الوفاء يا أم نزار .. دونك قاتل ولدك فاقتليه " قالها، وهو يقدم لها خنجره

الدامي. التقطته، وراحت تطعن جمال الدين وهي تصرخ، ولم تتوقف حتى خارت قواها.

انتهى اليوم بفرحة غامرة. انكسر لأول مرة عزم الظلاميين، وانهارت سمعتهم بأنهم لا يهزمون. تعانق الجميع، وارتمى عمر، وقيس بأحضان الأمير. كانت المعركة هي أول خطوة فعلية لاسترداد قداسة. غنموا ما لا يحصى من الغنائم، وعدداً وافراً من الخيل والأسلاب. وكان أعظم غنيمة حصل عليها الأمير هي الأوراق التي خلفها هيليوس وراءه، فسلمها إلى البيروني وطلب منه تمحيصها، ونقاشها معه حول ما جاء فيه.

الفصل العشرون

ازدهرت المدينه بزينة النصر، وانتشرت الإحتفالات في كل نواحيها. زال البأس، وهدأ الخوف، وعادت الأحلام إلى أصحابها بعد أن دنت من الزوال لجثوم شبح الحرب فوقها. إنَّ الأمة التي لا تجيد صناعة الموت لن توهب لها الحياة. كذلك قالوها من قبل، ورددها الأمير في أثناء خطبته في أهل المدينة.
التقت أروى بأبويها. وأذابوا الشوق فى ساعات من العناق والبكاء، وقصَّت عليهم ما كان، وعادت تُرتب لإعادة انعقاد ندواتها الأدبية، فأرسلت الدعوات إلى كل من عرفت له ميولاً في العلم والأدب.
كافأ الأمير قادة الحرب والمحاربين، ومنهم الزير، فضمه إلى كتيبة العقاب، وتحقق طموحه في أن يكون أحد أفرادها، ثم جعله على رأس فرقة رماة الحدق لما عرف عنه من المهارة، والموهبة النادرة في الرماية .
ترأس قيس كتيبة العقاب، وأما عمر فقد تبوء موقعه في قيادة الجيش. انبري في عمله، وباله معلق بالأميرة دارين، حيث استقرت في المدينة بعدما وصلت إليهم أخبار الجزيرة، وعلمت بمقتل أبيها الحاكم باليان. سيطر سيمنس على مقاليد الحكم فيها، وأقره الحكماء على حكمها. قضت فترة حدادها منقطعة آيسة. وفَّر لها الأمير ما تحتاجه حتى خرجت من حزنها وعادت لطلب العلم والتحصيل. هنأت المدينة في هدوء وسعادة تُوّجت بزواج الأمير وحنين .

***

قضت دارين وقتها في تفقد أحوال المدينة، وحال أهلها، خالطتهم وفهمت عاداتهم وخبرت أخلاقهم، وعكفت على مكتبة المدينة، وأدهشها ما حوته من المعارف، والعلوم، وأعجبها أن الأمير يتولى أمر الإنفاق عليها، والقيام بأمرها والحرص على تزويدها بآخر ما يتوصل العلم إليه في شتى المجالات.

زاد احتكاكها بعصبة البيروني، ومعهم وجد شغفها بالطب مكانه، فاستقت منهم ما يزيد ولعها بالعلم.
كانت تترقب الأيام التي يجمع النقيب البيرونى المثقفين، وطلبة العلوم. اندلع بداخلها صراع عنيف لا يهدأ، ووجدت إجابات كثيرة عن أسئلة حيرتها منذ زمن أثناء مطالعتها، ومقارنتها بين العقائد والأديان. انتهت إلى السؤال الذي كانت تهرب منه بينها وبين نفسها. تُرى من أولى بالإصطفاء الإلهي ؟ هل نحن المختارون أم غيرنا ؟ أم إننا حقاً ظلاميون كما يطلق علينا أبناء قداسة ؟ الحق أن هناك بوناً شاسعاً بين النص عندنا، وعالمه. أي إصطفاء هذا الذي يُحيل الجنان الغناءة إلى رماد، وكيف يكون ونحن نوشك أن نودي بالبشرية؟ كيف يكون وقد وضعنا الإنسان على شفا حفرة من النار؟!! لن أتجادل مع الحكماء مرة أخرى، لن أسألهم لماذا قتلتم، واغتصبتم، وأحرقتم؟ ولا لماذا أسكلتم، ورابيتم، وأكلتم السحت؟ إن كنتم مصطفين حقاً. لن أسألهم بأي حق تجرون الناس في سلاسل العبودية ؟ لن أعود لأستمع إلى الترهات القديمة. سيقولون الغاية تبرر الوسيلة، سيقولون ليس علينا في الأغيار سبيل، سيقولون نحن المصطفون نفعل ما نشاء، سيقولون سنصلح الأرض بعد أن يكون لنا السيادة ؟ ويكونون قوماً صالحين بعدها.
ما لهم بذلك من علم إلا إتباع النفس، وشهوة الملك، والحكم.
فكرت ... قدرت .... ثم هدأ اضطرابها وحسمت وجهاتها.

***

لن أتأخر .
قالها، وهو يلامس وجنتها ملاطفاً بعدما حاولت استبقاءه. قبَّلت يده، ثم أراحت خدها في كفه، وأسبلت جفنها، وهمست دون أن تتحرك :
أميري
ماذا ؟

عدلت رأسها، تطلعت إليه، و تساءلت :

وماذا بعد ؟

ضيق عينيه متسائلاً ، فأردفت :

أعني لقد انتهت الحرب، وأخذت بثأرك منهم. سنعيش بسلام أليس كذلك؟ لا توجد حروب بعد الآن، صحيح ؟ تبسم لبراءتها، وقال :

لن يكون إلا الخير، فلا تقلقي .

اتسعت حدقتا عينيها بالقلق، وتساءلت مجدداً :

يعني أن الأمر لم ينتهِ بعد ؟

مازلنا نجهل خطتهم لإسقاط قداسة يا حنين. لن نكون في أمان قبل أن نكشفها.

أي خطة ؟

أراح كفه على وجنتها، وقال :

سأخبرك لاحقاً. أما الآن ، فأهل الرأى ينتظرونني .

أومأت برأسها متفهمة، فقبّل ما بين عينيها، وخرج.

***

لم يتخلف أحد من أهل الرأي عن حضور المجلس، اتخذ الأمير مكانه، وشردت عينه إلى عمر الذي كان مطرقاً، وبدا أنه غارق في تفكيره. قال الأمير في نفسه "عند هذا الفتى ما يهمه " ثم صرف بصره عندما انتبه عمر إليه، فتبسم الامير ، وقال :

هل نبدأ ؟

سعل عمر في حرج، وأجاب " الأمر لك يا سيدي "

حسناً، لقد جمعتكم اليوم كي أثير التساؤل القديم حول الخطة التي وضعها الظلاميون كي يسقطوا قداسة. الأمر أكبر من صهيل الخيل، وبارقة السيوف، وأكبر من فعل الجيوش الجرارة .

قال البيرونى :

أوافقكم الرأي. لقد فحصنا الأوراق التي وجدناها في خيمة هيليوس. جميعها أكد ما توصلنا إليه من قبل، اجتماع سري في قلعة مهجورة في مكان ما، ولكن الأوراق أضافت شيئاً، وهو أن الخطة لا تزال مكتوبة في تلك القلعة، ولا يسمح لأحد بالإطلاع عليها سوى الحكماء، ولمرة واحدة فقط تكون عند تولي أحدهم منصب الحكمة. يدخل إلى القاعة منفرداً، ويطلع على الخطة، ثم لا يدخلها أبداً بعد ذلك إلا إذا تولى منصب الملك.

وبينما يتباحثون الأمر دخل قاسم، وأعلم الأمير أن دارين تطلب لقاءه. اعتدل عمر في جلسته، ولمعت عيناه لاستقبالها، ثم خالجه القلق، لربما قررت الرحيل عن المدينة. وقفت أمام الأمير وحيته، كانت تضع على كتفها حقيبة جلدية حمراء منقوش عليها العين، والشعاع.

أهلا بكِ أيتها الأميرة، تفضلي .

أشار إلى مقعد على شماله، فاعتذرت عن الجلوس، فتساءل إن كان لها حاجة. ترددت، واختلست نظرة إلى عمر، ثم قالت :

أعتذر لأني قطعت اجتماعكم، ولكنني أحببت أن تكون يا سيدي أول من يعلم بما سأقوله .

ترقب منتظراً ما ستأتي به، فقالت بعد أن اختلست نظرة أخرى لعمر:

لقد تبرأت من كل ما كان عليه قومى، واتبعت ما أنتم عليه .

حقاً ؟!

قالها عمر، وهو يثب واقفاً فرِحاً بما سمع. أشار الأمير له أن يجلس دون أن ينظر إليه، وقال :

أهلا بك بيننا أيتها الأميرة، ولكن هذا ليس قراراً تتخذينه بتلك السرعة .

إنه صراع نشب في نفسي منذ سنين خلت يا سيدي، وليس فكرة طارئة .

أحس الصدق، والإصرار في قولها ، فتبسم وكرر ترحيبه بها.

قالت دارين:

تعلمون يا سيدي أن جدي كان أحد الحكماء، وقد ورث أبي عنه نفوذه وما يملكه غير أنه لم يصل إلى مرتبة الحكمة.

أجل أعلم .

نزعت الحقيبة عنها، وأخرجت مخطوطات قديمة ملفوفة حول بعضها، شديدة الصُفرة، يفوح منها رائحة الورق العتيق، وكأنها تحمل الماضي السحيق بين سطورها. اعتدل الأمير إذ سرت بجسده قشعريرة تجلد في إخفائها، وشعور همس بقلبه بأن ما يبحث عنه يقترب. استأذنت دارين أن تدنو منه، ثم تقدمت إليه :

وليكن هذا هو أول ما أقدمه لمشروعكم .

مدت يدها بالأوراق، وهي تقول :

هذه مذكرات جدي التى ورثها أبي عنه لعلها تفيدكم .

انتشلها الأمير دون محاولة لإخفاء لهفته، وبسطها بحذر، وطالعها بتأني، ولكن خفت بريق عينيه بعد مدة وجيزة، إنه لا يفهم شيئاً مما جاء فيها. أشار إلى دارين بالجلوس، فجلست إلى يساره في مقابل عمر. أعطي المخطوطات للبيرونى، وتساءل عن اللغة التي خطت بها الأوراق، فأجابته دارين بأنها كُتبت باليديشية، وأقرها البيرونى، قال الأمير:

هل تتحدثين هذه اللغة ؟

مع الأسف لا.

التفت إلي البيرونى، وسأله السؤال ذاته. فقال :

ماعندي لا يكفي لتلك المهمة، ولكن عندنا بعض الشباب يتدارسونها.

اجلبهم إلي، وسيكون مقامهم معي في تلك الخيمة حتى ينتهوا .

شكر دارين وأعاد ترحيبه بها، وأذن بفض المجلس بعد أن أكد على سرية أمر المخطوطات. استوقف عمر قبل خروجه، وانتظر حتى خلت الخيمة تماماً، ثم سأله:

ما بك ؟

لا شيء يا أبي .

حسناً، ولكن تمهل يا بني ولا تترك العنان لقلبك.

لا أفهم يا أبتِ .

ششششش لا تراوغني. كما تشاء، ولكن إياك أن تستخف بك الفرحة مرة أخرى. ما معنى أن تثب واقفاً كالطفل عندما قالت أنها انضمت إلينا ؟ وكيف تسألها عن شيء في حضوري دون إذني ؟ هل يليق هذا بقائد جيش ؟

العفو يا سيدي .

دنا الأمير منه، قال وهو يضرب وجنته برفق:

لكل شيء حين أيها الفتى الأحمق. تحل بالصبر، فحسبي ما ألقاه من أخيك، لا أطيق أن يصير معي طائشان.

ضحك عمر، وربت الأمير على كتفه، فقبّل يديه وخرج. تابع الأمير خروجه، وقلبه لا يزال منتعشاً بما قدمته دارين. قبض المخطوطات في يده، ثم دلف إلى استراحته، فنهضت حنين فور رؤيته. لم تتوقع عودته بهذه السرعة. مشى إلى طرف الخيمة، ووضع المخطوطات في صندوق خشبي، فمشت خلفه في خفة، فاستدار نحوها، فقالت باسمها :

لم أتوقع قدومك بسرعة، أسعدتني، لم أراكَ منشرحاً هكذا من قبل.

نظر إلى عينيها البريئتين، ثم اجتذبها إليه، فسكنت تستمع إلى دقات قلبه المتسارعة .

أنت منفعل يا حبيبي .

لقد دنا ما أنتظره يا حنين .

همست، وهي لا تزال بين ذراعيه :

أريد أن أكون معك فيما يشغلك. أحببت قداسة لحبك لها، ولكني أريد أن أشاركك، أريد أن أفهم، سأكون عوناً لك.

ضحك، وكفه تنساب على شعرها :

حسناً سأحكي لك .

***

وقف الفتية منتظرين خروج الأمير لهم. كان عاطف على رأسهم، ويوشك قلبه أن يطير فرحاً. أخيراً جاء دوره فى مهمة يتولاها الأمير بنفسه. خرج عليهم، ثم تبسم مندهشاً عندما شاهد عاطفاً على رأسهم .

أتُتقن اليديشية أيها الفتى ؟

أجل يا سيدى الأمير .

إلى أى درجة ؟

لدرجة أءمن بها مكر أهلها .

تبسم الأمير وقال :

إجابة حصيف، أسعدتنى .

سنكون عند حسن ظنك .

لا أريد ترجمة الحروف فقط، بل أن تغوص في نفس صاحبها. أريد ترجمة تعكس مزاج كاتب هذه المخطوطات .

***

عكف عاطف علي رأس الفتية، واستبقاهم الأمير في خيمته طوال الوقت، ووفر لهم ما يحتاجونه من سبل الراحة، ومع حلول المغيب كانوا قد أنهوا ترجمة المخطوطات. فأذن الأمير في خروجهم إلي استراحة أعدها قرب خيمته علي أن يعودوا في الصباح الباكر لتنقيحها، وإعادة ضبطها. أراد أن يكون الأمر على أكمل، وأدق ما يكون، وقد كان. جاءوا في اليوم التالى بها.

فأجزل لهم العطاء، وكان أحد شروط اتفاقه معهم قبل أن يطلعوا على الأوراق، ويدرسوا ما فيها أنهم لن يغادروا المدينة لمدة عام، ولا يحدثوا أحداً بما رأوه، وسوف يُجري عليهم النفقات طوال هذه المدة. اجتمع مع البيرونى، ويحيى، وقرأ معهم المذكرات مرة أخرى غير التي قرأها منفرداً فطالعوا بدقة العبارات التي حددها الأمير أثناء قراءته.

" وفي الليلة التي كان البَرَد يتساقط دون توقف، توجت قلعة العهد قمة الجبل الجليدي، وهو آخر ما عرفناه من الدنيا. ينساب بانحدار شديد إلى غابة في سفحه لا ترى الشمس أبداً، اعتادت الظلام لأنها استبدلته بنور أفكارنا، وفيها ينزل نبض القلعة، ومنها يخرج إلى الأغيار " .

أسر كل منهم تساؤلاً. تُرى أين تقع القلعة، وتلك الغابة الظلماء؟ ثم استأنفوا القراءة :

" انتظرنا ملياً، نتقطع شوقاً لمعرفة الخطة التي وعدنا اجناتيوس بها. وكانت المفاجأة أنه عندما جاء لم يشرح لنا شيئاً، بل أخرج كتاباً عرفناه جميعاً، ووضعه في منتصف الطاولة التي نقف حولها. وأشار إليه حتى تعلقت عيوننا عليه، وأخذ الكتاب وقَلَبَه، ثم انصرف بعد أن قرأ في وجوهنا الفهم لما يقصد".

تساءل يحيى " أي كتاب هذا ؟ " قال البيرونى :

لعله ذكره في موضع آخر من تلك الأوراق .

قال الأمير، وهو يمسح وجهه : " لا لم يفعل "

تابعوا القراءة حتى وصلوا إلى عبارة :

" الحق أنني لم أكن على تمام الإقتناع بجدوى تلك الخطة، رغم أني متشرب كباقي الحكماء بهذا الكتاب، وعلى دراية كاملة بما فيه، وبما يستطيع فعله، ولكنني كنت عجولاً، فرأيت أن السيف أمضى، وأشد فتكاً، ولكن لم أَبُحْ لأحد بما أعتقده، كما أن الأيام قد أثبتت خطأي، وكانت هذه المرة الأولى

والأخيرة لي في الدخول إلى تلك القلعة، وما زال الكتاب في مكانه، يدخل كل من ترقى إلى مرتبة الحكمة ليراه، ويفهم مغزى خطتنا ثم يخرج "
تابعوا القراءة في شغف انقدحت به عيونهم، وكلما طوى الأمير صفحة زاد تلهفهم إلي التي تليها .
" يوجد في تلك القلعة كما نص القانون عدد لا يتجاوز الخمسين من الجند. وهم صفوة الصفوة، ويقومون على حراستها، وغير مسموح لأحد الصعود إليها أو النزول إلى الغابة إلا لفرد واحد فقط تم اختياره بدقة، اجتمع فيه المكر والذكاء والعلم المحيط بخطتنا وبباطن الأمور. يقوم دوره على تحويل الخطة إلى حياة واقعية عن طريق الذين يسمعونه في الغابة، ويسوقهم بأفكارنا، ثم يعيدهم إلى بلادهم كي ينوبوا عنّا في تدمير شعوبهم، ويفتحوا الطريق أمامنا. ولهذا الرجل اسم داخل جمعتنا يعرف بالزاجل"
" ما كان للخطة أن تُثمر سوى بأبناء بلاد أعدائنا. كان المقاتلون من أبناء الدماء المقدسة يختارون من كل بلد يحتلونها، ويخضعونها لسيادتنا خمسة فتية من النابهين، وهم لم يختبروا الدنيا بعد. يطوفون بهم في بلادنا، ويغمسونهم في الشهوات، وملذات الحياة، ويقنعونهم بتفوقنا، وعظمتنا ثم يسيرون في نهاية المطاف إلى الغابة حتى يتشكل وعيهم، ويندلع بقلبهم حب النفوذ، والسلطة والتغيير، ثم نعيد شتلهم في بلادهم بعد أن صاروا يرون الدنيا كما نشاء لهم أن يروها، وصاروا يخدمون خطتنا ويدمرون ثوابت قومهم بغير علم أحياناً، وبوعي أحياناً "
فجَّرت المذكرات أمام الأمير نوراً لم يكن يحلم بأن يراه دفعة واحدة. لقد فعلت هذه المذكرات ما لم يفعله طوال السنوات الماضية. بقي التساؤل ما هو هذا الكتاب ؟ وما سر قوته الخارقة ؟ أين تقع هذه القلعة ؟..... أين ؟

***

نقّبَ العلماءُ من عصبة البيروني وعلى رأسهم إدريس، وهو رحالة موسوعى في علم الخرائط وطبائع البلدان. بذلوا أقسى ما عندهم كي يستدلوا على مكان قلعة العهد. استعانوا بما جاء في المذكرات، ومعالم المكان الذي ذكرها المتحدث فيها. جبل جليدي في سفحه غابة لا تصلها الشمس، آخر ما عرفناه من الدنيا، ولكن دون جدوى. لم يهتدوا إلي شيء. فكّر بعضهم أن المتحدث ربما يكون قد تعمد التضليل، وأن هذه الصفات مَجَازية، وليست حقيقية .

***

كان الأمير ينتظر نتيجة بحثهم على أحرّ من الجمر، ولكنه رغم استبطائه الأمر لم يُظهِر عجلة في شيء، مكث فى مجلسه يطالع وصف القلعة، والمكان الذي أُنشأت فيه.

" وفي الليلة التي كان البَرَد يتساقط دون توقف، توجت قلعة العهد قمة الجبل الجليدي، وهو آخر ما عرفناه من الدنيا. ينساب بانحدار شديد إلى غابة في سفحه لا ترى الشمس أبداً، اعتادت الظلام لأنها استبدلته بنور أفكارنا، وفيها ينزل نبض القلعة، ومنها يخرج إلى الأغيار "

قرأها مراراً ، فكر وقدر واعتصر ما عنده من العلم، ولم يفلح. كانت حنين إلي جواره تطالع ما يُطالع. حاولت جاهدة مساعدته، غير أن الأمر كان أكبر من أن تُقدم فيه شيئاً يصنع فارقاً .

تأخر الوقت، ورأى الأمير إلى الإجهاد قد أسدل ستاره فوق وجهها. ترك المخطوطة من يده، ثم قاله وهو يمسح عينيه ووجهه:

لقد تأخر الوقت، إذهبي وارتاحي.

لمست ذراعه برفق، وقالت :

لا أجد رغبة في النعاس، سأظل معك .

تراجع بظهره إلى الوراء، وأغمض عينيه، قال بضيق :

الأمر قد طال، والوقت ليس في صالحنا، وأخشى أن يغيروا مكان الكتاب إن تسرب إليهم الأمر.

لم تجد ما تقوله، فاكتفت بالربت على كتفه وكفه، ثم ضربت حجابها عندما استأذن أحد الحرس بالدخول، وأعلمه أن علماء عصبة البيرونى يطلبون لقاءه. اعتدل في مجلسه، ونهضت حنين واقفة على يمينه. خاب أمله لما رآه على وجوههم من علامات الفشل، فتساءل :

هل توصلتم إلى شيء ؟

نظر بعضهم إلى بعض، ولم يجيبوا. زمَّ إدريس شفتيه ثم قال :

لم نتوصل لشيء، لا جديد .

انفجرت الدماء في وجهه، والغضب من عينيه، وصرخ فيهم :

فيمَ قدومكم إلي في تلك الساعه إذاً ؟! هل جئتم لنتسامر؟! قولوا لي ما نفع تدارسكم طوال تلك السنوات ما دام لم ينفع علمكم في تلك اللحظة الحاسمة.

تحت وطأة غضبه، وتقريعه نبس إدريس بصوت خافت :

لا يوجد مكان فى الدنيا بمثل تلك المعالم .

أغمض عينيه، وتساءل بصبر نافذ :

ماذا تعني ؟

تلك الأوراق زائفة .

زاد الكلام من غضبه وانفعاله، فنهض ومشى نحوهم. دوى صوته مزمجراً:

هراء، كل ما تقوله وضعته دُبُرَ أذنى وتحت أقدامى، أبعد كل الذي بذلناه تقول هذا ؟

يا سيدي ...

أنا علي يقين بأن الأمر ليس كذباً. كل الظروف التي أتت بتلك الأوراق إلي تقول بأنها ليست كذباً. لا راحة لأحد في هذه الدنيا حتى ينكشف لي هذا المكان.

أشفقت حنين عليه من انفعاله، واضطراب أنفاسه، فدنت من خلفه، وقالت :

هوّن عليك. لا تُهْلِك نفسك سوف ...

رفع يده آمراً ألا تتحدث، فحملقت في وجه كفه المرفوعة في وجهها، وابتلعت كلماتها، وتراجعت. عاد إلى عرشه، وقال :

توقف الزمان بالنسبة لى ولكم. لا ليل، ولا نهار حتى ينجلي الأمر.

قال إدريس :

نحاول من جديد .

الأمر بسيط، والمكان واضحة معالمه.

التقط الورقة من جانبه، ثم قال :

هل يصعب عليكم إيجاد مكان مفضوحة معالمه كهذا ؟ جبل جليدى في سفحه غابة لا ترى النور، آخر ما عرفناه من الدنيا.

قال إدريس :

أقسم أننا تقصينا ما جاء فيها بالحرف، وجمعنا آخر ما توصل العلم إليه، وآخر بقعة عرفها الإنسان، ووصلت الحياة إليها.

صمت الأمير وقبل أن يسمح بخروجهم التفت إلى حنين متعجباً، وكانت تردد :

آخر ما عرفناه من الدنيا ... آخر ما عرفناه من الدنيا .. آخر.. من الدنيا.

كظم غيظه، وظل يرقبها وهى تقرض أظافرها، وتنظر إلى سقف الخيمة متأملة الكلمات، والجملة، ولا تتوقف عن ترديدها. يبدو أنها لا تنوى أن تسكت، فسألها :

أنتِ بخير ؟
التفتت إليه، وقد استنار وجهها بابتسامة ظفر، ولمعت عيناها، وقالت :
هل تسمح لي بقول شيء ؟
هز رأسه موافقاً، فقالت:
قد أخبرتني بأن الظلاميين قد عرفوا مكاننا، ومكان الحدوة بسبب الكشوف الجغرافية التي قاموا بها بعد زمن طويل من سقوط قداسة.
تبسم الأمير، وبزغ في عقله ما تريد قوله، فأومأ برأسه مصدقاً لقولها وقال:
أجل أخبرتك، أكملي فداكِ نفسي .
زادت ضربات قلبها، وانبثق الدم فى وجنتيها، ثم تشجعت وقالت :
لذلك فإن آخر ما عرفه كاتب هذه الأوراق من الدنيا يختلف عن ما نعرفه نحن الآن .
سرت قشعريرة في رأس إدريس، وانفلق النور في أبصارهم، وقلوبهم. نظر بعضهم إلى بعض في فرح، واندهاش كيف لم ينتبهوا إلى ذلك. احمر وجه حنين، وكاد الخجل أن يلتهمها، وعين الأمير تنظر إليها وهي تفيض بالإعجاب. حاولت ألا تبتسم، فسألها :
وإذاً أيتها الأميرة حنين، بمَ تشيرين علينا ؟
قالت بلهجة سريعة يدغدها الضحك :
نستخدم الخرائط القديمة كي نجد المكان، ثم ركضت إلى استراحتها هاربة من عين إعجابه.

***

لم يمض الكثير منذ اهتدوا إلى استخدام الخرائط القديمة حتى توصلوا بها إلى الغابة المظلمة، وكانت حقاً على أطراف العالم القديم.
بدأت مرحلة أخرى أكثر عناءاً، فما زال يحتاج قدراً كافياً من المعلومات حول المكان، وطرق الوصول إليه، ويريد معرفة طبيعة الحياة هناك، وكيف

يمكن التسلل إليها، وكيف السبيل إلي اقتحام القلعة. لو حرك جيشاً نحوها فلسوف يدرك الظلاميون، ويبطلون عمله.

اختار ثقاته من أهل القدرة، والحنكة. وضع على رأسهم إدريس لجلب المعلومات، ورسم الطرق، وتحديد أسرعها إلى هناك، وأءمنها. كانت مهمتهم سرية لم يعلم أحد سواه بحقيقة الأمر .

كان يدرك بأن عملاً كهذا يتطلب مدداً لا ينقطع من الأموال يرفد له، فأرسل إلى محمد، وطلب منه توفير النفقات اللازمة، وعدم الإفصاح عنها في دفاتر الخزانة. طال حديثهم، وخرج محمد من عنده، وفي نفسه كراهية لما طُلِب منه، ولكنه انصاع له في نهاية الأمر. أرسل بعدها في طلب قيس غير أن الأخير كان قد عاد إلى سالف عهده بالتسكع، والابتعاد عن شؤون المدينة. لبث ملياً حتى عثر عليه حرس الخيمة، وأخبروه بأن الأمير يطلب مثوله بين يديه. ذهب متثاقلاً ، وكان يكدره أن أمر زواجه من أروى لم يعد أحد يعبأ به، لا الأمير ولا أبوها .

دلف إلى الخيمة فطلب الأمير من حنين أن تتركهما. سأله، وهو يطالع كتاباً في يده :

أين كنت ؟

في الصيد .

دون علمي ؟

لم أشأ أن أشغل وقتكم بى .

ترك الأمير كتابه، وقال بضيق :

لا أهتم بك أيها الأحمق، ولكنك قائد كتيبة العقاب، فما معنى خروجك دون علمي ؟

سكت قيس، فقال الأمير:

نعم، لقد عدتَ لسالف عهدك من الدعة.

فكر قيس أن يبوح بما يفكر، ويعكر صفوه :

العفو يا سيدي ولكني ...

حسناً يمكنك الخروج

أما كنت تريدني ؟

كنت، أخرج.

***

كان الصراف محمد وزوجته يتهامسان، وفي يده رسالة تلقاها من خارج المدينة من مجهول: "يقول أن الوقت قد حان" ثم توقفا عندما سمع خطوات أروى تقترب نحوهما. فهمت أنهما قد أنهيا الحديث بسبب قدومها. خبأ محمد الرسالة عنها. لقد كثر تناجيهما، وتعمد إقصائها عن مشاركة الحديث في الآونة الأخيرة. تدرك أن هناك شيئاً ما يحيكانه دون علمها. نظراتهما توحي بأن شيئاً غير مرغوب على أعتاب حياتها.

إنها قادمة ... اقترب الوقت .... يجب أن لا يعلم أحد .... وغيرها من عبارات الترقب، والخوف. ورغم هذا لم تتساءل. إنما جاءت اليوم للتحدث فيما يخصها صراحة. أمر زواجها و قيس، فلقد طالت خطبتهما بلا مبرر. حاولت إخفاء ضيقها من جفائهما لها، ثم تساءلت :

هل يمكنني أن أحدثك بأمر يا أبي ؟

لو أرجأتِ هذا إلى وقت آخر، فلدي كثير من الأعمال.

لن أطيل .

نفخ الضيق، ووافق على مضض .

أسمعك

ترددت، واستثقلت الحديث في أمر زواجها، فقررت أن تتراجع عنه، ثم علا صوت الحارس يعلمه أن الأمير يطلبه، فخرج وهو يقول:

نتحدث في وقت لاحق.

وجد الأمير يجتمع بأهل الرأي. سلّم، فلم يرد الأمير سلامه. همّ باتخاذ مكانه، فأشار إليه أن لا يجلس وسأله :

ماذا فعلت فيما كلفتك به ؟ هل المال جاهز ؟

استغرب الحاضرون حال الأمير معه. كتم محمد ضيقه، وأجاب بصوت مختنق:

ليس بعد .

أمهلك يومين، وتكون قد نفذت مع أمرتك به، وإلا عزلتك.

العفو يا سيدي، ولكن الأمر يحتاج إلى وقت.

لن تعلمني كيف أدبر لمدينتي، إن كنت عاجزاً فقل.

كما تأمر.

أشار إليه الأمير أن يخرج دون أن يلتفت نحوه، خرج محمد متجنباً النظر إلى أحد من الحاضرين ، فقال البيرونى :

لعلكم قد قسوتم عليه.

زفر الأمير وقال :

لقد تبدلت أحواله في الآونة الأخيرة، ولكن لا بأس لنصبر حتى نرى.

***

الفصل الواحد والعشرون

انهمك محمد فى إرسال الرسائل، واستلامها من خارج المدينة. قال أنه أمهلنى يومين لأنجز الأمر، حسناً. تابع تهريب صناديق الذهب ليلاً إلى خارج المدينة، ووضع عليها ثقاته من الرجال. كانت علياء زوجته تعد الساعات مترقبة خائفة، فخطأ واحد قد يضيع كل شيء. مسكينة أروى، ستحتاج إلى زمن حتى تتقبل حقيقة أمرهم، وتسعى إلى ما يسعون إليه. ستحتاج إلى زمن كى تُشفى من قيس. قد تكون عنيدة بعض الشىء، لكنها ستختار طريقهم المقدس فى نهاية الأمر. الأهداف الكبيرة تتطلب تضحيات كبيرة. المهم أن نفصل بعزمنا، ولا نلتفت. لا تزال منهمكة فى التجهيز لندوتها الأدبية. لا بأس، فسيكون من الأفضل تركها حتى تأتى الساعة المرتقبة، فهذا يدفع الشكوك عنا.

***

ارتدي قميصه، وهو ما زال شارداً أمام المرآة، صورتها لا تفارق مخيلته، وأحداث الأيام القريبة السالفة، ورحلتهما معاً في سلاسل الأسر، وكيف حمي كل منهما الآخر. تمثلت أمامه صورتها، وقد كتمت جراحها كي لا تعرقله، وصوتها الباكي وهي تطلب منه النجاة بعد أن أنهكها التعب، وتوسلها كى لا يقتلوه. أغمض عينيه فراراً من ذلك المشهد، وتناول قارورة عطره، وتأكد من أناقة مظهره " لن أتأخر عن ناديها اليوم" بينما يخرج سمع أنساً يستأذن " الأمير يطلبك "

***

انعقد نادي الأدبية بعد انقطاع دام منذ اختطافها. تابعت أروي تنظيمه بنفسها. كانت تشتعل نشاطاً، وتسترق النظر جهة الباب بين الحين والآخر. توقعت حضوره باكراً، ولكن توشك الندوة علي البدء وهو لم يحضر .

توافد جميع الأدباء من أنحاء المدينة، ومن خارجها. بادلوها التحيات، وتهاني السلامة قابلتها أروي بالترحيب. جلس الجميع، واتخذت مكانها علي ناصية المجلس. رمقت الباب لمرة أخيرة ، وقد ضايقها تخلفه عنها. انتبهت لعيون الحاضرين ترقبها في صمت، فتبمست في محاولة لإخفاء توترها. تحسست أطراف حجابها، وأدارت خاتمها، ولامست قلاتها، وقبل أن تبدأ دق الباب برفق.

اعتدلت عندها، وقالت متلهفة " تفضل ... تفضل" وسرعان ما بُهِت وجهها عندما دخل الأديب راشد مضطرباً يلهث فى عرقه "اعتذر جداً لتأخري" أومأت برأسها متفهمة. دلف مرتبكاً تاركاً باب القاعة مفتوحاً على مصرعيه. بحث لنفسه عن مقعد فلم يجد، فستأذن في الجلوس إلي جانبها فأذنت له تحرُّجاً . جلس مسروراً، وتمدد جسده المترهل ليحتل معظم الأريكة.

***

دخل قيس خيمة الأمير، فوجده غاضباً يصرخ في إثنين عرف من زيهم أنهم من جنود المنطقة الشمالية .

طلبتني يا سيدي .

خذ سرية من العقبان، وتوجه بهم إلي تخومنا الشمالية. بلغني أن قوة ليس كبيرة من الظلاميين تُغِيْر علي أعمالنا هناك، وقد تباطأ الحمقي في رفع الأمر إلي.

احمر وجه قيس، وتمني لو كلف بها غيره، فهذا يعنى تأجيلاً آخر لزواجه. لاحظ الأمير تبدل ملامحه، وانقباض أساريره، فقال :

كأنك قد كرهت الخروج يا بني ؟

سيدي قدم علمت أني .... أقصد أروي ....

أه نعم، عُد سالماً غانماً، ولن يكون إلا الخير.

سيدي لو ...

تحرك بعد ساعة من الآن .

حسم الأمير الموقف، وقد عاد السخط إلي وجهه. حياه قيس، وخرج وهو كظيم.

***

دارت الندوة بشكل جيد. تبادل الحاضرون أراءهم، وأشعارهم، وبعضاً من القصص، والنوادر، ثم تطرق النقاش إلى إمريء القيس شاعر المعلقة، وآثاره في الشعرالعربي .

بدا راشد متوقد الذهن في مناقشة ما يتعلق بإمريء القيس، فجمع شتيت الآراء، والانتقادات حول أشعاره، وختم كلامه بنقد شخصى. أخرج من حقيبته مخطوطاً، وقدمه إلي أروي قائلاً فى اعتداد:

قد ورثت هذا عن أبي. إنه المخطوط الأصلي لمعلقته .

اندهشت أروي، والحاضرون لذلك، وتطلعوا بشغف إليه. تناولته في لهفة، ولمعت عيناها، وهي تنظر فيه " مذهل ... مذهل.. لا أصدق، ولكن هناك بعض الكلمات غير واضحة " قالتها وهي تشير إلي أحد الأبيات في المخطوط. تطوع راشد، ومال بجسمه نحوها، وقرَّب يده من يديها علي المخطوطة، ثم قال وهو يوشك أن يلامسها: " نعم نعم هذا بفعل الزمن ولكني احفظ البيت يقول: وقد أغتدي والطير في وكناتها .. " احمر وجهها خجلاً، وتزحزحت بعيداً عنه. بدا أن ذلك الجِلْف لن يفهم، فسعلت في حرج، ثم قالت في ضيق " معذرة هلا أفسحت؟ "

عفواً .. ماذا ؟

هلّا ...

ارتجف قلبها لرؤيته واقفاً عند الباب يرمقهما في صمت. كان عاقداً حاجبيه، وعينه تقع حيث يد راشد قرب يديها. ابتعد راشد فور رؤيته وتصنع ابتسامة، ثم قال :

أهلا ببطلنا الفارس الشاعر، سعدنا لحضورك .

ابتلعت أروي ريقها بصعوبة " أهلا بك قيس، تفضل واجلس".

ظل واقفاً، ولم يجبها. تبسمت الفتيات، وهمزن لبعضهن لرؤيته يتآكل من الغَيرة. رشف راشد كأس الماء الذي أمامه، ثم قال " نتناقش عن قيس فجاءنا قيس" قهقه بعدها، ثم ابتلع ضحكته عندما رأي قيساً ينظر إليه في حنق. أغلق الباب خلفه بعنف، ثم مشي في الممر الفاصل بين مقاعد النساء، ومقاعد الرجال. تطوع أحدهم لأن يجلسه، فأشار إليه ألا يبرح مكانه. أسند ظهره إلي الحائط في نهاية القاعة، وعيون الحاضرين نحوه تنظر في استعجاب.

ما بكم ؟ هيا تابعوا نقاشكم.

أدركت أروي أن الغيرة قد أشتعلت فيه من جديد همست في نفسها " اللهم احفظنا. هذا ليس جيداً " انتبهت إليه، وهو في الدرع، والسيف بين منكبيه كأنه خارج للقتال. بدأ راشد من جديد :

كما قالت أديبتي إن إمرأ القيس ...

من أديبتك؟ تساءل قيس بصوت مختنق وهو يقبض يده ويبسطها.

ولي راشد وجهه ناحية أروي، وهو يقول " ومن غيرها " ثم تابع :

كما أنني أرى في أشعار امريء القيس بعض التناقض، بعضها في القصيدة نفسها، وهو شيء يدعو للغرابة كما أنه ...

مثل ماذا ؟

تضايق راشد لمقاطعة قيس لحديثه، ولكنه أسرَّ ضيقه، وقال :

كثير كقوله في المعلقة .

فإن كنتُ قد ساءتكِ مني خَلِيقة ... فَسُلي ثيابي عن ثيابك تُنسلي

أغـــــــرَّكِ مني أن حبك قاتلـي ... وأنك مهما تأمري القلب يفعلِ
هنا تناقض ملحوظ بين قوته وحزمه في البيت الأول، ورقته وضعفه في البيت الثاني. ضحك قيس متهكماً، ثم قال :

أليس عاراً أن تكون علي ناصية المجلس، وأنت لا تفهم من الشعر إلا ظاهره .

بدا الاضطراب، والغضب جلياً علي راشد، فتساءل وهو يضرب بقبضته علي الطاولة :

ماذا تقصد ؟

أعني أنك تقول هناك تناقض في البيتين الذين ذكرتهما، ولم تفهم أن الشعر مرآة لما نشعر به، أما غير ذلك فهو تصَنُّع كما يفعل أمثالك. التأرجح بين الرضا والغضب، والقوة والضعف هو ما يعرفه كل من صدقت مشاعره، وهو ما ظهر جلياً في كل الشعر الجاهلي، لأنه يصف واقعاً، ولا يتقمصه .

أولاً لا أسمح لك بأن تتعدي حدود النقاش الأدبي وأن تصفني بالمتصنع، ثانياً ...

صرخ به قيس :

لست متصنعاً فقط، بل كاذباً أيضاً .

تدخلت أروي :

انظر لما تقوله يا قيس. لا أسمح بإهانة أحد ضيوفي .

زاد اشتعال قيس، وصرخ بها:

ماذا ؟! تدافعين عنه ؟

أجابته بنبرة مرتجفة :

أجل ما دام في ضيافتي .

أنتي لا تفهمين شيئاً .

تدخل راشد :

لا تحزني نفسك يا أروي. تقول أني كاذب فما سبب غرورك، وادعائك هذا ؟

يوشك قيس أن ينفجر. تمالك نفسه بصعوبة، وبلل شفتيه بطرف لسانه، وجز نواجذه، ثم قال :

أروي إذاً ؟ لا بأس.

أقول لك ما سبب رميك لي بالكذب ؟ أم انعقد لسانك.

تقدم قيس نحوه، ثم قال :

تقول أن هذه مخطوطة المعلقة التي ورثتها عن والدك، وأحب أن أقول لك لعلك لا تعلم أن تلك المعلقة كتبت في العصر الجاهلي، والمخطوطة التي أتحفتنا بها من الورق الذي تم صنعه بعد ظهور الإسلام بمدة طويلة. بُهِت راشد، وكثر اللغط في القاعة، وانتبهوا إلي الحيلة التي حاكها ليكسب ود الأديبة. صمت قيس حتي استقر كلامه في عقول الحاضرين، ثم قال :

لست كاذباً فقط، بل غبياً أيضاً. هيا اخرج من هنا .

تدخلت أروي :

اهدأ قليلاً .

لا تتدخلي أنتِ .

قلت لا أسمح بإهانة أحد في بيتي .

سأخرج أنا إذاً .

انتفضت من مكانها مستدركة:

لا، لا .

أسرعت أروي لتحول بينه وبين الباب. وقفت أمامه، وشعبت يديها لتمنع خروجه.

إهدأ إهدأ. أرجوك افهمني يا قيس.

ابتعدي من أمامي .

قيس أرجوك، افهمني.
تدخل راشد :
دعيه يذهب إلي الجحيم .
فاض بأروى كيل راشد وحماقته فقالت له بيأس :
يا أخى ألا تعرف كيف تصمت .
وقع كلام راشد فى قلب قيس مثل الجمر، فوضع السيف عن منكبه، وألقاه أرضاً، ثم رجع إليه :
ماذا قلت ؟
قالت أروي وهي تحاول منع الشجار :
لا بأس، فهو لم يقصد .
لم يلتف إليها. هاجم راشداً، وكاد يشتبك معه لولا أن حال الحاضرون بينهما، وأخذوا راشداً إلي الخارج. جلست أروى على الأرض وسط القاعة، وقد عمت الفوضي أرجاءها، ثم فرغت من زوارها. ظلت صامتة وأجهشت بالبكاء. اقترب منها، وقد انكشف عن ملامحه الغضب. أغمض عينيه يعاتب نفسه، وتنهد بعمق، ثم جثى علي ركبتيه، وهمس برفق وهو يمدّ يده إليها بكأس من الماء :
لا تبكي .. لم أقصد أن أحزنك .
شهقت، ومسحت مخاطها بطرف ثوبها، وقالت بصوت ممزق :
دائماً ما تُعكر فرحتي ... دائماً.
أنا أسف، فلم أتمالك غضبي. لقد استفزني .
ظلت صامتة، وهو ينظر إليها برفق .
دخل عندها صهيب، وقال :
قيس لقد تأخرنا .
سآتي حالاً .

انتبهت أروي، فمسحت دموعها، وقالت بصوتها الباكى :

إلي أين ؟

الظلاميون .

فغرت فمها، وتسلل إليها القلق، فاستأنف قيس :

قد أغاروا علي حدودنا الشمالية، وسأخرج لردهم.

ولكن لماذا أنت ؟

هكذا قضى الأمير. لن أتأخر .

شهقت أروي بالدمع من جديد، وهو يلتقط سيفه، وقالت بصوت خفيض :

لا تذهب وأنت غاضب .

لست غاضباً. سامحيني لأني أفسدت فرحتك. سأعوضك عن هذا اليوم، أعدك .

يكفي أن تعود سالماً .

تبسم، وخرج متثاقلاً، وهي في إثره، ثم امتطي جواده وقال :

كوني بخير.

وأنت كذلك. لا أخجلك الله.

تكلف الجلد أمام رجاله وودعها، ثم انطلق في طريقه.

***

كان الليل قد انتصف، وهدأت الأنفاس في بيتها. لم تستطع النوم. ارتسمت ابتسامة علي شفتيها، وهي تسترجع أفعاله، وكيف حولته الغيرة إلي ذلك المجنون. إنه طفل بلحية وشارب.

يغضب، ويثور، ويضطرب كأمواج البحرالهائج، ثم يرخي يديه أمامه، وتهدأ عواصفه، ولا تبكي ... سامحيني .. لم أتمالك نفسي ... لا تبكي ... لم

أقصد ... قد ... إنني .... لا تبكي ....إنه هو من ... لا تبكي .. حسناً...
إهدأي ... لن أكررها ... لا تبكي.
ضحكت بصوت مرتفع، وقالت " لن يتوقف أبداً "
مَن ؟!
جَفلت لصوت والدتها تقف أمامها في استغراب.
أمي ؟!
هل جُننتي يا بنت ؟
لا يا أماه إنني ...
دخل أبوها فجأة مضطرباً، وفي يديه بعض الوثائق، وقال وهو يلهث:
جيد أنك مستيقظة ... هيا تجهزوا .
قالت مستغربة " لم أفهم شيئاً " . قال مستعجلاً :
هيا لا وقت لدي سنرحل الليلة عن المدينة .
حملقت أروى عينيها، وبدأ قلبها يخفق مضطرباً :
إلي أين يا أبي في هذا الوقت ؟
ستعلمين لاحقاً .
لا مستحيل، فلا يمكن أن أرحل .
نظر إليها غاضباً، وقال بحسم :
إن لم نرحل الآن فسيقتلوننا جميعاً .
مّن ؟
ليس هناك وقت. هيا يا علياء أما زلتِ واقفة ؟!
سري التوتر إلي أطراف أروي، وبدأت ساقها ترتجف :
أمي قولي بربك شيئاً. ما الذي يجري ؟
يجب أن نرحل يا ابنتي وإلا سيكون قيس أَول من يسعي لضرب أعناقنا.
خفق قلبها، وشخصت عيناها، ولمعتا بالدمع، وقالت مستنكرة :

قلتِ قيس سيقتلني ... أبي كيف تقول هذا؟
قالت علياء :
هذا ما سيحدث عندما يكشف أمرنا .
أمرنا ؟! لا أصدق أن يده تمتد إلي بسوء.
هذا ما تظنين .
صرخت أروى بحزم :
لن أذهب إلي أي مكان، ولن ...
ثم فقدت الوعي لضربة خلف رأسها. صرخت علياء " كيف فعلت هذا ؟"
ستعرقلنا تلك الحمقاء، وما تلبث أن تستفيق، فهيا أسرعي.

***

استيقظت المدينة علي خبر خيانتهم، وانتشر بين الناس كالنار فى الهشيم. الأمير يصرخ فى المقاتلين أمام خيمته "جدوهم ولو عرجوا إلي السماء، أو غاروا في الأرض. لا تدعوا حجراً ولا شجراً إلا وبحثتم عنهم فيه " اندهش عمر من غضبه، فلم يره هكذا من قبل. أشفق عليه أيضاً.
لا عليك يا أبتِ. لم يبتعدوا كثيرا سآتيك برؤوسهم.
صرخ الأمير به :
أريدهم أحياءاً. دمهم حرام علي غيري، سأكوي جرح الخيانة بيدي. المهم أن تأتوا بالوثائق التي سرقها، والأموال التى انتهبها من الخزانة .
أمرك يا سيدي.
نظر إلي كاتبه :
وأنت يا أنس اكتب بخبرهم إلي جميع الأنحاء، واستخرج من سجل الأفراد لوحاتهم الشخصية، وانسخ منها نسخاً، وعلقها علي حدود القري وفى الميادين، وفوق الأسوار.

أمرك يا سيدي .

وأبلغوا الجميع أن الأمير قد وضع جائزة تعادل وزن الخونة ذهباً.

***

شكَّل عمر فرقاً للبحث عنهم في جميع الأنحاء. واشتعلت الهمم في الأهالي والمقاتلين علي السواء بين من يسارع لينتقم من الخونة، ومن يفتش عنهم تحت حبات الرمل لينال الجائزة.

خرج عمر بنفسه علي رأس بعض الفرق، ومسح الجهات الأربعة حول المدينة، ولم يترك أثراً إلا وتعقبه، ولكن لم تُفلح محاولاته .

عند غروب اليوم العاشر من البحث كانت عزيمة المدينة قد وهنت، وتسلل اليأس إليهم. أين ذهب هؤلاء كأنهم قد تبخروا في الهواء. نزل عمر عند الربوة الغربية للمدينة، وأمر رجاله أن يستريحوا ، وانتابه الضيق عندما تذكر قيساً. أشفق من وقع المصيبة علي مسامعه. تُري كيف سيكون حاله ؟

" لك الله يا أخي " راقب الغروب في ضيق، ثم امتطي جواده ورجع للمدينة.

***

كان يمعن النظر في كتاب يحمله برفق بين يديه، ولم ينتبه إلي دخول عمر ووقوفه لمدة. لم يشأ عمر أن يقطع انشغاله، فظل واقفاً في صمت. تنهد الأمير وهو يطوي دفة الكتاب " وأن الله لا يهدي كيد الخائنين " كررها ثلاثاً، ولامس أطراف لحيته وظل مطرقاً. قال عمر وعلي شفتيه ابتسامة واهنة :

وأن الله لا يهدي كيد الخائنين .

أنت هنا يا بني ؟

تقدم عمر وقبل يده.

هل اهتديت لشيء؟

خفض عمر طرفه في خجل، وعقد حاجبيه :

للأسف لم نعثرعلي أثر .
نهض الأمير، ودنى منه ومد يده، ورفع وجهه إليه ، فقال :
سامحني يا أبي .
لا عليك، فسأجدهم .
كيف ذلك ؟
ذلك وأن الله لا يهدي كيد الخائنين .
قالها الأمير بهدوء، وربت علي صدر عمر، ثم قصد الباب وقبل خروجه قال لعمر:
سيكون ذلك ثقيلاً علي قيس حين يرجع ؛ لا تتركه وحده.
لا تقلق يا أبتِ سأبذل جهدي لكي يتخطي الأمر .

***

مضت مدة والمدينة تضج بالحديث عن خيانة الصراف محمد وأهله، ولم تُفلح جهود عمر ومن معه في القبض عليهم .
كان الجنود المناوبون علي أبراج الحرسة عند أبواب المدينة يأخذون أماكنهم بنشاط وانتباه لشيوع الخبر بأن خطة الدفاع والحراسة كانت ضمن الوثائق التي سرقها الصراف قبل هروبه. يُلَطِف ساعات حراستهم هبوب نسائم خفيفة أدي تداولها إلي سقوط إحدي اللوحات الثلاث المعلقات فوق السور. أسرع الجندي ونزل لالتقاطها، وأخذ يثبتها من جديد، وقبل أن ينتهي جفل لتحذير أحد زملائه " انتبه .. هناك هجوم" نظر خلفه فإذا مجموعة من الفرسان تقترب مسرعة، فألقي اللوحة أرضاً، وأسرع وولج، وأغلق البوابة. رفع رحيم قائد المناوبة يده للرماة، فاستعدوا، ثم هدأ روعهم عندما تبينوا الرايات المرفرفة حولهم. أمر رحيم الحارسين الواقفين عند مزاليج البوابة :

" افتحوا البوابة بسرعة " وخرج الجندي ليعيد اللوحة. حياه قائد الفرسان مستغرباً اضطرابه، وهو ينحني ليلتقط اللوحة فتساءل :

فيمَ اضطرابك ؟

تلعثم الجندي، ولم يجب .

ما المرسوم علي هذه اللوحة ؟ ألم تسمعني ؟ هل ستجيبني ؟

تردد الجندي، ثم عدل اللوحة، ورفعها أمام ناظريه .

ارتجف قلب الفارس لصورتها مكتوب فوقها " من يقبض عليها له وزنها ذهباً " ترجل والغضب يتفجر من عينيه، وأطبق قبضته علي ياقة الجندي واجتذبه بقوة " كيف تتجرأ على هذا ؟ " حاول الجندي توضيح الأمر ولم يفلح، فنزل رحيم مسرعاً، وجعل ساعده بين الفارس وياقة الجندي .

سيدي قيس هو لا ذنب له .

ماذا تعني ؟

إنها تعليمات الأمير.

انخطف وجهه، وابتلع ريقه وهو يرخي يديه عن ياقة الجندي .

لم أفهم .

لقد اكتشف الأمير خيانتهم، وعملهم لدى الظلاميين .

تمالك نفسه بصعوبة، ثم تساءل :

هل تدرك ما تقول ؟

قيس ... انظر .

قالها صهيب وهو يشير إلي اللوحتين الأخريين.

تراجع قيس، وامتطي جواده مسرعاً، وانطلق كالسهم داخل المدينة. إنها بداية كابوس يفضل الموت علي أن يعيشه .

***

اخترق المدينة كالسهم المارق، ولم يبالِ لضيق الناس، وتزمرها من سرعته، وقد أوشك علي دهس بعضهم تحت سنابك فرسه. تابع الناس أثره في صمت، فوجهه يوحي بغضب يجدر بالعاقل اجتنابه .

اجتمع الأمير بأركان جيشه، وقد عزم علي تغيير خطة دفاع المدينة وحراستها. قال وهو يشير بسهم إلي الخريطة :

أفكر في تغيير مجري النهر ليمر من أمام السور، ثم نبني جسراً بين البوابة، والضفة الأخري يكون علي جانبيه قلعتين تمنعان من عبوره.

نظر عمر ملياً يمعن فى الخارطة، وقال كرشاب:

ولكن ماذا لو لم تصمدا عند هجوم كبير، فالمنطقة لا تسمح ببناء قلاع ضخمة ستكونان أقرب لأبراج المراقبة.

قال عمر بهدوء :

سنقطع الجسر

تبسم الأمير وهو يكافيء عمر بنظرة إعجاب.

بالضبط، ففي حالة الحرب لن ننتظر تدميرهما، وإنما سوف نقطع الجسر بينهما وبين المدينة، ونجعل تعبأتنا وراء النهر بين القلعتين وعلي جانبيهما.

قال يحى :

ماذا لو احتاجوا الي مدد من المدينة ؟

أجاب عمر :

يمكننا استخدام القوارب لتقوم مقام الجسر في إمداد قواتنا وراء النهر.

أومأ الأمير برأسه مؤيداً. فُتحت أبواب الخيمة بغير إذن، ودلف غاضباً، ليقف أمام الأمير دون تحيته. كان شعره أشعث مغبراً، والعرق ينحدر من جبهته إلي ما بين عينيه. ظل يطالع الأمير في غضب لا يخلو من التبجح. قابل الأمير نزقه بنظرة هادئة، ونظر الحاضرون لبعضهم في استغراب. همّ

كرشاب لينهاه، فوقف بينه وبين الأمير، فأمسك الأمير كتف كرشاب برفق، وسحبه خلفه، وتقدم خطوة ناحيته.

سيدي أنت أمرت ب ......

اتركونا وحدنا. قاطعه الأمير بهدوء .

خرج الحاضرون ببطيء وهم يرمقونه في استنكار. دنا عمر منه قبل خروجه، وربت علي كتفه، ونظر إلي الأمير كأنه يستعطفه، فهزّ الأخير رأسه متفهماً، واستدار وخطي خطوتين، وجلس علي كرسيه ثم قال :

أسمعك.

سيدي كيف صدقت ذلك فيهم.

لأنهم كذلك.

لا أصدق.

تكذبني ؟!

العفو يا سيدي، ولكن ...

أتظن أن مصابك فيهم أعظم من مصابي ؟ أتظن أن ذلك سهل علي؟ أنت أكثر من يعلم بمكانة محمد عندي. إن كنتَ قد خسرت فرداً فقد خسرت أنا ثلاثة. أحدهم اعتبرته أخاً لي، وقاسمته خبزي، وأودعته سري، ومكَّنت له في مدينتي، ثم ماذا؟ حالف الظلاميين علي وطعنني في ظهري.

أبي لا شك أن هناك خطأ ما ؟

الخطأ الوحيد في ذلك هو أنا.

ماذا ؟

لأني لم انتبه لزيفه، فأعماني بعلمه وكرمه وأعماك بابنته.

ارتجف قلب قيس لذكرها في موضع الخيانة. تجرع ما سمع ، وظل صامتاً وقد احمر وجهه، ولمع في عينيه دمع جاهد في حبسه، فانحني وحيا الأمير بصمت، وتراجع بظهره، ثم خرج مسرعاً لا يلوي علي شيء. لم ينتبه لنداء

عمر، وكان يرتقب خروجه أمام الخيمة في قلق. هرول خلفه لخطوات ثم تراجع، ودخل خيمة الإمارة.

***

رجع مقاتلو العقاب بعد أداء مهمتهم إلي ثكناتهم. تسارع إلي مسامعهم ما كان من شأن مدبر بيت المال، وأهله قبل أن يريحوا أجسامهم من أثقال السلاح. دخل قيس إلي معسكرهم، وهو لم ينفض غبار السفر. انتبهوا لقدومه، فأمرهم دون أن يترجل :

تجهزوا.

ضاقت صدور المقاتلين الذين كانوا معه في مهمته الأخيرة، فلم يستريحوا بعد من عناء الطريق.

تابع قيس :

صهيب جهز سرية منهم، ولا تختر من كان معنا في المهمة الأخيرة . دعهم يذهبوا إلي أسرهم.

أمرك.

بعدها ابتعد قيس عنهم، وترجل، وظل صامتاً يصارع الأفكار، والغموض في داخله، ولم يطل الوقت حتي قطع أفكاره صوت صهيب:

جاهزون .

امتطي جواده، وتقدم السرية المصطفة في انتظار أوامره :

كلكم قد سمع بما كان من مدبر بيت المال وابن .. وأهله وإني لن أتوقف حتي أقبض عليهم، وأقف علي حقيقة أمرهم.

وبينما يستعد للتحرك قدم أنس وتبدو عليه العجلة، فبادره قيس :

ما وراءك يا أنس ؟

اقترب منه، وأعطاه رسالة وهو يقول " الأمير يطلبك "

انتشلها من يده، وفتح فوهة الحافظة، وسحب الورقة الملفوفة داخلها بأطراف أنامله، وبسطها. لاحظ المقاتلون ملامحه تتبدل، والسخط في عينيه وهي تتنقل بين سطورها. أبعد ناظره الي الأفق، وقبض الرسالة بغِل. أوشك أن يلقيها أرضاً، ولكن ضبط نفسه.

***

راقب عمر الأمير وهو يذرع الخيمة جيئة وذهاباً .

استأذن أنس للدخول، فسأله الأمير:

هل قرأ قيس كتابي ؟

أجل يا سيدي

وماذا فعل ؟

بدا عليه الضيق ولكنه لم يتكلم. طوي الرسالة وأمر المقاتلين بالعودة إلي أماكنهم.

قال الأمير غاضباً:

وهل كان ينوي الخروج بهم ؟

اعتقد أنهم كانوا علي وشك التحرك، وقد أخبرني بعضهم أنهم كانوا سيخرجون للبحث عن الامير محمد وأهله خارج حدود المدينة.

نظر الأمير إلي عمر، وقال :

هل وعيت الآن قولي؟

خفض عمر طرفه بعد أن ظهرت حجة الأميرعليه، حيث كان الأمير قد عزم علي عزل قيس من قيادة العقبان، وعارضه عمر بشدة .

تابع الأمير :

ما كنت لأترك أرواحهم أمانة لديه، وهو في هذا الحال .

ثم نظر إلي أنس وقال :

هل أخبرته بالحضور إلي؟

أجل، ولكن يبدوا أنه سخط من قراركم بعزله، فانطلق إلي خارج المدينة.

***

" سأجدكم بنفسي، فلست بحاجة إلي أحد "

أطلق العنان لفرسه ينتهب الأرض، ويطوي بعدها. أجفل الحارسان عند أسوار المدينة لرؤيته وهو يمرق بين مصرعي البوابة، وهي تغلق بعد دخول عربة للغلال منها. صاح قائد العربة :

ما هذا الجنون ؟!.

أجابه أحد الحرس :

انطلق في طريقك يا أخي، ولا تتورط معه.

ركب علي حافة عربته، وهز لجامه فتحرك البغلين في مقدمتها، وهو لا زال يرمق غبار قيس في غيظ.

انقضت أيام طويلة، وهو يواصل الليل فيها بالنهار دون كلل. توقف عند مدخل الغابة، وأجال بصره في المناطق من حوله، ثم ترجل وجرَّ فرسه ببطيء بين الأشجار الملتفة. نزل عند جدول صغير تصطف علي جنبيه أشجار التفاح، ويكسو أرضه حشائش تتخللها بعض الزهور. سقى فرسه وغسل وجهه وشعره. تردد في أذنه صوت الأمير " وأعماك بابنته "

أغمض عينيه وهمس وأصابعه تمشط شعره المبلل للأعلى :

الويل لكِ إن صح ما يتناقله الناس.

جلس أسفل شجرة تفاح، واتكأ علي ساقها، فشعر فجأة بالإعياء وقد بلغ منه الجهد والجوع. التقط ثمرة يانعة سقطت بجانبه، ومسحها في ثوبه وقضمها بوهن.

***

بدى الارتياح علي وجه الأمير وهو يطوي رسالة رفض حاملها تسليمها لغيره. تبسم، ثم قال :

أبلغه سلامي .

قالها الأمير، فهز الرسول رأسه في ذكاء ثم انصرف.

تبسم عمر متسائلاً :

أضحك الله سنك يا أبي، ماذا جاء في هذه الرسالة ؟

نهض الأمير، ومشي إلي المكتبة خلف مقعده :

أين قيس ؟

فهم عمر أنه لا ينوي الإفصاح، فأجابه :

لم يظهر بعد .

قال وهو يمعن النظر في رقعة تبين عمر أنها خريطة لمكان لا يعرفه:

جده، وأحضره لي .

***

احتضنت الغابة ضيفها، وبدى ترديد الطيور للألحان فيما بينها كحفل ترحيب تولَّت الطبيعة ضبط إيقاعه. فتح عينيه عندما وشي صوت غصن يابس بخطي الأقدام فوقه. وجدها تنظر إليه وهي تتراجع بظهرها في خوف، ثم تركض قبل أن ينهض.

أنتِ ؟! انتظري.

لم تأبه لندائه، فأمسك قوسه وجعبته، ونهض وراءها مسرعاً، وعندما أصبحت في مرمي سهامه توقف وشد وتر القوس، ولكنه تراجع عندما أيقن بقدرته علي إصابتها. تابع الركض، وهو يهمس في نفسه " صحيح إذا ما يُقال، لن أفلتكِ " رمى من يديه قوسه وجعبة سهامه فزادت سرعته.

لاحظ وقد أوشك علي إدراكها وجود جرف علي مقربة منها، وهي لا زالت تركض بأقصي ما عندها. صاح محذراً :

أروي انتبهي ... انتبهي .

تداركت نفسها علي حافة الجرف وقلبها يخفق لرؤية الهاوية أسفل قدمها. يئست من الفرار، واستدارت لمواجهته. تسارعت دقات قلبها، وضعت يدها فوق ترائبها تلتقط أنفاسها المتقطعة. لا خيار لديها، إما الموت مهشمة علي الصخور، أو مذبوحة علي يديه. قالت بصوت متقطع يشوبه البكاء :

أحقاً ستقتلني ؟

اقترب منها، وهي تنظر إليه في ضعف متمسكنة متذللة. كانت سافرة الشعر، مرسلة جدائله. زادها تداول الرياح عليه رونقاً وجذابية، فبدأت نعومتها تسري إلي ملامحه القاسية، فتخلت بهدوء عن الحنق والحقد. أغمض عينيه هرباً من نظرتها الخائفة، وصوتها المبحوح بتوسلها " لا تقتلني " يدغدغ روحه، ويوهن عزمه.

لماذا ؟ لماذا فعلتِ هذا بي ؟

كان سؤاله أقرب للعتاب منه إلي السخط. مدَّ يده، وأحكم قبضته علي يمينها، وهي ما زالت ترتجف. اجتذبها نحوه، وأخذ ينظر فى عينيها المتطلعة إليه في توجس بينما حطت يده الأخرى في شعرها، واستقرت فوق وجنتها.

قولي إن هذا لم يحدث .

لا زالت صامتة ترتجف. ها هي حسنته المفضلة تستقر في مكانها فوق خدها الأيمن قرب شفتيها، حدثته نفسه بتقبيلها، إنه علي شفا الإنهيار. مال نحوها، وهمس بأذنها، وهو يشعر بوهج أنفاسها المضطربة تلفح رقبته :

مرارة فقدكِ لا تُطاق.

ثم استجمع نفسه فجأة، وعادت القسوة إلي عينيه.

ولكن لا، فلا رحمة لخائن.

ابتعد عن وجهها، وتحرر من سطوة عطرها، ويده تعتصر معصمها.

قالت متوجعة :

قيس اتركني. أرجوك .

سوف...

انقطع صوته، ويدها الطليقة ترتفع بالخنجر لينغرس في نحره.

انتفض مذعوراً، وضوء القمر يتسلل إلي عينيه من بين الأغصان الوارفة من حوله. تحسس نحره، ثم همس ودقات قلبه تتسارع، وصوت أنفاسه يتعالى :

مرارة فقدك لا تُطاق

***

مضي الليل، وعينه الساهرة تتقلب بين القمر والنجوم من حوله. حرَّك صوت القمري النائح علي الأشجار همْس الشجن في نفسه. ها هو يختبر بنفسه ما قرأه في حياة السابقين.

ماذا فعلت لأستحق هذا ؟

تنهد وهو يقبض موضع قلبه وقد ضاق به. تحرك ناحية الماء، وأغرق رأسه، ولحيته. التقط سيفه، وجرده، ثم دنا من جواده، والتقط حقيبة جلدية بجانب سرجه، واستخرج منها حجرين صغيرين وقطعة حديدة، ثم عاد إلي مكانه ودقَّ الصوان، فانقدحت النار في الفروع اليابسة. عامد سيفه فوق الأرض، ثم أماله إلي صدره، وبدأ يمرر القطعة الحديدة فوق شيفرته. صمت القمري للجلبة التي أحدثها احتكاك الحديد، كأنه شعر بأنه لم يعد أحد يسمعه. لم يمضِ الكثير حتي تسلل النور إلي الأفق. قبض سيفه ومرر أنامله بحذر فوق نصله، ثم أغمده وأسنده إلي الجزع بجانبه. تمدد علي ظهره، ثم تقلب ذات اليمين وذات الشمال حتى أثارت ريح خفيفة رماد النار علي وجهه، فاعتدل.

قيس .. أيها القائد .

انتبه لصوت صهيب يتفقده.

تعال ... تعال

أسرع إليه صهيب سعيداً لرؤيته، عانقه بحرارة لم يبادله قيس مثلها، وظل مرسلاً يديه، تساءل صهيب :

ءأنت بخير ؟

تجاهل قيس لهفته، وقلقه. قال بلهجة غاضبة وهو عاقد حاجبيه :

ما جاء بك ؟

تبدلت ملامح صهيب، وانخطف وجهه :

ما زلنا نبحث عنك منذ أيام. لقد قلقنا عليك.

ومن قال أني ....

أيها القائد .

قاطعه قدوم الزير وعمرو، قال الزير مازحاً :

أخيراً عثرنا عليك .

ظل قيس واجماً، ثم قال موبخاً :

وهل كنت ضائعاً ؟ ما تفعلون هنا ؟

قال صهيب وقد كسا الأسي وجهه :

جئنا لأجل قائدنا .

ما عدتُ قائداً لأحد .

قال عمرو :

أنت قائدنا .

لا تطيلوا الأمر، فما عدت قائداً لأحد.

قال الزير:

أنت تظلم نفسك وتظلمنا معك.

قال قيس بضيق ونفاذ صبر :

ليس لأحد حق عليَّ فأظلمه. هل أعترف لكم بشيء ؟ لقد أحسن الأمير حين عزلني.

اندفع الزير قائلاً :

كل هذا لأجل فتاة خا ...

أمسك لسانه بعد أن انتبه لنظرات صهيب إليه مستنكراً. احمر وجه قيس غضباً، وقبض ياقة الزير وقال :

لولا الذي قد كان بيننا من الصحبة ....

تدخل صهيب :

لم يقصد أيها القائد .

صرخ قيس بوجهه :

قلت أني لستُ قائداً لأحد .

دفع الزير بعنف وهو يأمرهم :

هيا اغربوا عن وجهي .

تسمر ثلاثتهم أمامه، ثم انفضوا عنه لصياحه بهم "هيا"

الفصل الثانى والعشرون

وكيف عرفتَ أنه قد قُتل ؟
تساءلت هامسة ورأسها متوسد ذراعه كعصفور ينعم فى دفء عشه. تنهد وقال :

رأيت دماً ينساب ببطىء من وراء أذنه، قد خنقه الكلب.

أخذ يقص عليها ما كان يوم سقوط قداسة بعد أن ألحت عليه. لطالما تجنب الحديث عن هذا اليوم ما وسعه ذلك. ظلت تسمعه، وتعيش ما يقوله كأنها تراه. كانت مستمعة جيدة. يستطيع صمتها أن يجتر الماضى السحيق إليها. أنفاسها الهادئة، وكفها الذى يربت برفق على صدره ذوَّب مغاليق الكتمان فى قلبه.

تبينتُ فى ذلك اليوم أن المصائب حقاً لا تأتى فُرادى. لم أَفِقْ من مصيبة موته حتى وجدتنى أمام مصيبة قتله، ثم اقتحام المدينة، وخيانة من هم حولى، وضياع كل شىء. فى طرفة عين تحولت من أمير إلى مطارد، ثم ضائع فى لجج البحر، ثم لاجىء إلى قوم لم أسمع بهم من قبل. مضى من الزمن ما ينسى فيه من نسى، ولكن لا شىء تغير داخلى. كأنى أرى جودفرى الآن يمثل بأبى، وينثر رماده. لقد نقش اللعين اسمه بين أضلاعى. مرّ زمن يمثل لى مشهده كلما غفوت، حتى صرت أحمل هم اللحظة التى سيُنهك فيها عقلى، ويستسلم جفنى. كنت أخاف النوم يا حنين. كان هذا إحدى مرتين تسلل الخوف فيهما إلى قلبى.

اعتدلت، ونظرت فى وجهه، وكأنها لم تصدق أنه قد خاف يوماً، وتساءلت :

والمرة الثانية ؟

صمت برهة، ومسح بأنامله دموعها المتدفقة لحديثه، فأعادت سؤالها، فقال :

يوم أُسِرْتِ .

مضت زمن والأمير يتلقى أخبار أدريس، ومن أرسلهم إلى الغابة الظلماء. اجتمع عنده سيل من المعلومات حول المكان، وطبيعته، ولكن لم يستطع إدريس، ومن معه معرفة الزاجل. يحتاج الآن لشخص يمكنه التغلغل بينهم، ويقنعهم بنفسه. كان يعلم بوجود ذلك الشخص لكنه الآن يهيم على وجهه فى ظلمات الصدمة، لا تزال أروى تطبق الآفاق من حوله. ما أتعس من تكون سعادته مرهونة بوجود شخص. سيخسر، سيُسحق، ولا عزاء لواهن.

لقد طال ضياعك يا بنى فارجع .

***

سُحِبَ البساط ولـم أزلْ مُتَعَلّقَاً ... لا أرتضى فقداً ولا أتنـازلُ
وأنا الذى شـقَّ الحجارةَ قلبُـهُ ... سحقت رُبَاه جدائلٌ وخلاخلُ

كان قيس منقطعاً فى بطون الوديان، والأحراش ينظم الأشعار، ولا يهمه من الدنيا شىء سوى أن يلقى محمداً ويمزقه إرباً. سيُعَلق علياء من شعرها، أما أروى فقد جهز لها موتاً يليق بها. تساءل كثيراً عن قِتلة تليق بالخيانة، وتشفى الصدر فى الوقت نفسه. هل يحرقها حية ؟ أم يقطع أطرافها ويطعمها إياها ؟ لعله لن يقتلها، هناك ما هو أنكى من الموت على الأنثى، أن تصير ذميمة المنظر، سيصب على رأسها الماء المغلى، فيتساقط شعرها، ويتآكل شحم وجهها القسيم. ظل يتنقل بين ألوان العذاب التى سيُصليها إياها حين تقع فى يده. كان شجاعاً فى خياله جباناً فى أن يعترف لنفسه أنه لن يستطيع هذا وإن قَدِر .

تنكب سيفه، وقوسه، وانطلق يبحث عن طريدة. مرت أمامه بعض الطرائد تجاوزها لاشتهائه لحم الغزلان. طال بحثه، ولما لم يجد قنع بأرنب يقرض الحشائش قرب غدير. اقترب بحذر وهو يكتم أنفاسه، ويمشى بخفة كأنه

يسير على الماء، ولما رضى عن المسافة بينهما شد وتره وسدد السهم نحوه. انقدح الشرر فى رأس السهم لاصطدامه بآخر أسقطه، ففزع الأرنب واختبأ داخل تجويف فى جزع شجرة. التفت قيس إلى الرامى .

عمر ؟! أضعت طريدتى .

ضحك، وقال :

لا تحزن جلبت لك طعاماً.

ترجل عن جواده، وتعانقا ثم جلسا. قال عمر :

اشتقت إليك .

ماذا جلبت لى ؟

لحم غزلان .

أحبك يا أخى .

أخذ قيس يفتح السرة، وقد بلغ الجوع منه، فظل يأكل بنهم. التزم عمر الصمت حتى أنهى طعامه، ثم قال :

إلى متى ستظل هكذا يا قيس ؟

حتى أتعافى .

ومتى ؟

لا أعرف .

أكتست ملامح عمر بالجد، وقال :

أترى هذا لائقاً بك ؟ أن تترك القضية التى ربانا عليها أبونا لمرورك بتجربة فاشلة، وهل تترك أمتك لغدر خونة ؟ ما الفرق بينك وبينهم إذاً ؟ كلاكما باع قضيتنا، وأقرَّ عين عدونا .

لا تثقل على يا أخى أرجوك .

لست أخاك حتى ترجع، فأخى الذى أعرفه لا يدير ظهره لأمته، وهى فى حاجته.

استشاط غضب قيس لتقريعه، فقال معانداً:

هل جئت إلى هنا لتُسْمِعنى هذا ؟ لا أحد منكم يفهمنى. لا أحد يدرك أننى لم أعد أصلح لشىء. أنت لم تختبر مثل الذى اختربت أنا.

زمّ عمر شفتيه، وقال " أحمق تافه "

نهض قيس، وصرخ بوجهه :

حسنا أنا كذلك، فاغرب عنى، ولا ترينى وجهك مرة أخرى كى لا يصيبك منى أذى .

ضحك عمر فى حنق. نهض وقال :

أتهددنى ؟!

جرَّد قيس سيفه، وصاح به " قلت لك اذهب "

وتُشْهِر سيفك فى وجهى ؟! أقسم لولا إشفاقى من حزن أبى عليك، لفتكت بك الساعة .

ساد الصمت بين عينيهما الغاضبتين، ثم أردف عمر :

سأنصرف، ولكن أريدك أن تعلم أن هذه آخر مرة أبحث عنك فيها، سأضعك حيث وضعتَ نفسك. لن أدافع عنك أمام أبى مرة أخرى، وسأُقِرُّه على ما يراه مناسباً فى حقك. يكفى بأنك قد خيبت آماله، ولم ترعَ حقه عليك. سأمضى معه فى طريقنا، ولن التفت لضعيف مثلك. سأتركك تتقلب فى حياة الأنعام هذه .

امتطى عمر جواده. وقف قيس يراقب انصرافه واجماً دون أن يتكلم. التفت عمر إليه، وقال مستدركاً :

ها صحيح، هذا السيف الذى أشهرته فى وجهى يجدر بك أن تُعِيْدَه إلينا، فنحن لم نستقطع ثمنه من أقوات الناس لكى تتسكع أنت به.

وخز جواده، وانصرف. تابعه قيس حتى غاب، ثم جثى على ركبتيه، وانهمك فى نوبة بكاء شديد. استعان عليها بأن أغرق وجهه بالماء، ولكنه لم يُجْدِ فظل ينتحب.

***

حكى عمر ما كان بينه، وبين قيس، ولكنه أخفى طيشه حين رفع السلاح عليه. ظل الأمير يستمع فى ضيق. قال عمر :

أخشى أننا نخسره يا أبتِ .

تنهد الأمير ثم تساءل:

ماذا ترى أن نفعل ؟

لقد قسوتُ عليه، واسمعتُه كلاماً شديداً .

صمت، وتردد ، ثم قال فى حرج :

فحبذا لو حدثته بنفسك.

أطرق الأمير، وصمت برهة، ثم قال " سنرى "

استأذن رباح للدخول. دلف وحيا الأمير، ثم قال وهو يمد يده برسالة لم يُفَض ختمها :

وصلتنا من أصحابنا فى الغابة .

التقطها، وفض ختمها، وأمعن النظر. ظل عمر يرتقب معرفة ما جاء فيها .

طواها الأمير وهو يقول :

يقولون إن الوضع جاهز لاستقبال مبعوثنا إليهم .

تساءل رباح :

هل قررتم يا سيدى من سيذهب فى تلك المهمة ؟

تبسم الأمير حتى بانت نواجذه، وهو ينظر إلى ما وراء عمر، ورباح جهة الباب، وقال :

أجل قررت ... هذا الطائش.

التفت عمر، فإذا بقيس يقف خلفه. انفجرت فى قلبه فرحة عارمة. أسرع قيس إلى الأمير وهوى يقبل يده، وهو يعتذر، فنهض الأمير وعانقه بقوة، وقال :

كنت أعلم أنك سترجع، الأمير معاوية لا يخيب ظنه.

أعلم أننى لطالما أحزنتك بزيغى عن طريقنا. أعدك بأننى لن أحيد مرة أخرى. سأجعل حياتى فداء لك ولمشروعنا.

ربت الأمير على كتفه، وقرت عينه به، ومشى إليه عمر وعانقه. قال قيس:

وأنت سامحنى يا أخى. لقد أخطأت فى حقك .

لا عليك، فالمهم أنك رجعت .

أسر رباح فى نفسه تعجباً " ما سر تعلقهم بهذا الفتى الذى لا يكف عن جلب المصائب ؟! "

***

أطلع الأمير قيساً على محدثات الأمور. أعلمه بأمر الغابة الظلماء، وقلعة العهد. علم أن دوره سيبدأ كمبعوث إلى الغابة لا يعرف أحد حقيقته. تقوم مهمته على اكتشاف الزاجل بين القلعة، والغابة، ومعرفة أفضل طريقة لاقتحام قلعة العهد، والوصول إلى الخطة. ظل يدرس خرائط المكان، وعادات الناس هناك، وطبيعة الحياة، وطرق التواصل بينه وبين الأمير طوال مدة مهمته. وفى أثناء ذلك صدر ديوانه "المُعَذّبون" عن مكتبة المدينة. وطارت فى الآفاق شهرته. كل الذين عرفوه علموا أنه يصف تجربته من الألف إلى الياء. اقتصر الديوان فى مضمونه على الغزل. فى حفل توقيعه شرد وهو يوقع نسخ قرائه. تُراها تمسك نسخة منه ؟ هل تبحث عن نفسها بين حروفه ؟ هل تتمايل ضاحكة لهذا الأحمق الذى خدعته، ونال بجدارة وسام " مغفل " أم إنها تحزن لمأساة تولت كِبرها، وأهدرت بلا رفق دماءها ؟! لو كان الأمر بيدى لحجبته عنكِ، فأنتِ لا تستحقين حرفاً مما جاء فيه، ولا

تستحقين تخليداً كهذا، ولكنه كان. قد انتزعتيه بأنيابك ومخالبك. أنا مجبر عليكِ. لا أستطيع كتمانك، ولا إنكارك، فكيف سأكون إن لم تكوني؟ وكيف أنكرك فأنكر بعض نفسى، وأجحد شيئاً جرى بدمى، وفار بأنفاسى ؟ لا بأس، فسوف أتوج هذا بالقصاص منك، وممن هم على شاكلتك، وسأريح الدنيا من ظلامكم وظلمكم، وهكذا يُولد الخير من رحم الشر كما يُخْرِج الله اللبن السائغ من بين فرث، ودم . أرقدي ملعونة بين السطور إلى أن يأتيكم عذاب يوم موعود لا أُخلفه .

أعاده من شروده الهدوء الذى خَيَّم فجأة فى المكان، وقبل أن ينظر ليفهم، وضع أحدهم نسخة أمامه، وقال :

وقِّع لى أيها الفتى .

هبَّ قيس واقفاً، وظل مشدوهاً فاغراً فمه .

أبيِ ؟!

ماذا ؟ أم أنك لا تريد ؟

ابتلع قيس ريقه، وقال مضطرباً :

لا لا العفو ... أفديك يا أبتِ .

وقَّع ديوانه فى ارتباك، ثم وضعه فى يد الأمير، وقبَّلها. جذبه الأمير إليه، واحتضنه برفق" مبارك لك يا بنى " استدار إلى الحضور، وأشار اليهم أن يجلسوا، ثم اتخذ مكانه على مقعد شاغر فى الخلف .

طلب منه الحاضرون إلقاء شيء من ديوانه، فتساءل :

أى قصيدة ترغبون فى سماعها ؟

تباينت الآراء، ثم اتفقوا على قصيدة " جدائل "

تبسم الأمير حين وقف قيس واستقبل الناس. اشتعل المجلس عندما وصل لقوله :

لم أقتنع فى بُعْـــــدِكم بحلاوة ... ما دون جنتـــكم نعيـم زائلُ

سُحِب البساط ولم أزل متعلقاً ... لا أرتضى فقداً ولا أتنازلُ .

قاطعه بعضهم بالثناء عليه، ثم أعاد البيتين وعاد الصمت، والإنصات حتى ختم قصيدته :

أمشى وترمقنى العيون غرابة ... هذا الذى كان الجبال يُنَازِلُ ؟!

فأنا الذى شقَّ الحجـــارةَ قلبُه ... سحقت رُبَاه جدائل وخلاخلُ

حيوه بحرارة ثم تساءل أحدهم :

وهل كان ذلك ؟ أعنى هل قُضى عليك فعلاً ؟

راقبوا رده، وترقب الأمير قوله، ثم ضحك والحاضرون عندما أجابه قيس:

إن أعذب الشعر أكذبه، فما عاش ولا كان .

***

الفصل الثالث والعشرون

خرج ليلاً في صحبته صهيب، وعمرو، والزير. سار في اتجاه الغرب حتى وصل نقطة اللقاء. وجد إدريس في انتظاره في مرفأ مهجور، ومعه رجل نحيف الجسم، له لحية كثيفة رمادية اللون غير مشذبة، وشعر أبيض مجعد. كانوا مستعدين للإبحار، منتظرين وصوله. تذكر قيس تعليمات الأمير وهدفه من هذه الرحلة:

" هناك ملتقى داخل الغابة يشكل النواة التي يبث فيها الزاجل أفكاره، جِد هذا المكان، وعِش في تفصيله. هناك مصنع للفخار خارج الغابة غرب النهر ستترك عنده ما تتوصل إليه. لا تستعجل جمع المعلومات قبل أن تتأكد من كسب ثقة ناثان. لن يكون معك أحد سوى من اصطحبتهم. سيتركك الربان عندما تصلون إلى اليابسة، وسيتركك إدريس قبل مدخل الغابة. وأخيراً يا بنى إذا وطأت قدماك اليابسة فاستحضر فى قلبك أنك وقداسة على ساحل واحد، فاشحذ بأنفاسها عزيمتك، واجعلها نصب عينيك، وأقرىء أرضها، ورمالها، وسماءها، وجبالها منى السلام. قضى الله أن يكون ميلادك فى ذلك اليوم البعيد هو آخر عهد لنا بساحلها، والآن قضى بأن تكون أنت على بشائر إعادتها "

***

رست سفينتهم على الساحل، وقال إدريس مخاطباً قيس :

أتعلم أيها القائد أن قداسة هنا على طول هذا الساحل .

قالها، وهو يشير جهة الشرق .

ماذا بعد، أين النهر ؟

سنقطع هذه المسافة على الأقدام كي لا ينتبه أحد .

كان الجهد قد بلغ منهم عندما وصلوا مصب النهر بعد ميلين من السير الدؤوب.

وعند مدخل الغابة قال إدريس :

هنا ينتهي عملي. ستدخل وحدك وعليكم أن تعتادوا ضوء المشاعل طوال الوقت، فالشمس لا تصل أشعتها إلى أرض تلك الغابة إلا قليل .

***

سار الفتية في بطن الغابة دون أن يعترض طريقهم أحد. هناك عدم اهتمام بمن يدخل، أو يخرج يبعث التساؤل. وجد داخلها أعمدة كثيفه للإنارة بها مشاعل موضوعة بعناية بين جذوع الأشجار الوارفة أحالت ظلامها إلى نهار دائم. يقوم عدد لا يحصى من العبيد على تنظيم وقودها، ومراقبة المشاعل، وحمايتها من الوصول إلى ما يمكن أن يُضْرِم حريقاً أو يشكل خطراً. كانوا يقتصون جزوع الشجر اليابس، ويتخلصون من الأوراق الذابلة. كما أعجبه سهولة التنقل بين أنحاء الغابة عن طريق النهر الذي ينحدر من الجبل القائم خلفها، ويجتازها حتى البحر خارجها، فقد شق القائمون على تنظيم أمورها عدداً كبيراً من القنوات تصل إلى أي مكان داخلها عن طريق القوارب الصغيرة، ووظفوا أيضاً عدداً كافياً من العبيد يقومون على تنقية المياه من العوالق وإزالة الحشرات، وقتل الزواحف إن وُجدت. انتشر علي جانبي النهر، والقنوات المتفرعة عدد كبير من المتاجر التي يأخذ جميعها تصميماً واحداً أشبه بكوخ صغير هرمي الشكل. اقتصر معظمها على بيع الخمور، والمسكرات، والأفيون. كما يوجد متاجر أخرى للأعشاب، والمقويات الجنسية، وأخرى تعرض بداخلها غلمان، وفتيات شبه عرايا. يُلْصق على أكتاف الغلمان ونهود الفتيات ما يطلب القَوَّاد من النقود في مقابل أحدهم، كما صادف طريقه عدداً من الشبان اليافعيين يمشون منبهرين فى صحبة

رجل لا يكف عن إطلاق النكات، وتذكر كلام الأمير عن أنهم يجلبون إلى المكان فتيان البلاد التى يحتلونها، ليعيدوا بناء عقولهم.

" ضعوا قداسة نصب أعينكم، واصرفوا جهدكم إلي إنجاز مهمتكم، وإياكم أن تلتفتوا إلى ما سواها " قالها الأمير موصياً قيس قبل رحيله .

توقف عندما أشار الزير له عند كوخ هرمى الشكل مكتوب عليه "الدليل" خرج منه شاب أشقر نحيف الجسد، وتساءل إن كان يمكنه مساعدتهم، فقال قيس :

نريد مقابلة ناثان .

تفاجئ الشاب لطلبه وقال متهكماً :

ناثان مرة واحدة ؟! إنه عملاق هذا المكان، وأمواله هي التي تُجري الحياة في شرايين الغابة.

فقط دلني على مكانه، وسوف أجزيك .

قال الشاب، وهو يفتح كفيه في وجهه :

سآخذ عشر قطع ذهبية .

وأعطيك ضعفيها إن يسرت لي الدخول إليه .

حك الشاب لحيته، ووزن عرضه، ثم وافق . طلب منه الإنتظار، ثم نادى على صبي خرج من بطن الكوخ لم يكن قيس قد انتبه إلى وجوده. أوصاه بالبقاء حتى يرجع. استقل قارباً دفع قيس أجرته، وجرى بهم في إحدى القنوات حتى خط النهر الرئيسى. أمره بالنزول، واستقل بهم قارباً آخر كان أكبر حجماً، وأخذهم إلى الضفة الأخرى. كان خط النهر الرئيسى هو المكان الوحيد داخلها الذى تنكشف صفحته لضوء الشمس .

وهناك ساروا في إتجاه الجبل حتى وصلوا إلى مكان مسردق بالحديد. وقف الشاب عند بوابته، ولم يحاول الحرس اعتراضه بعد أن خبأ يده بالمال في كف أحدهم، وهو يقول " إنهم أعضاء جدد "

كان السُرادق مقسماً إلى قطاعات مستطيلة الشكل يتوسطها ميدان كبير. كل قطاع يقدم شيئاً يختلف عن غيره. قطاع المعرفة، وقطاع الفن، وقطاع المتعة والترويح، وكان الغريب أن كل قطاع مكتظ بالرواد عن آخره، معظمهم من الشباب اليافعين. قطع الفتي تأمل قيس وسأله:

ما أسمك ؟ أنا بيتر .

وأنا جيمس .

عرفت أن هذه المرة الأولى لك في هذا المكان منذ رأيتك .

هز قيس رأسه، ولم يتكلم . تابع بيتر:

كل قطاع مررنا عليه يختص بنشاط يتم السماح له .

ومن يسمح أو يمنع هنا ؟

ليون .

تعجب قيس، وقال :

في علمي أن ناثان هو المسيطر على الأمر

ناثان يسيطر من الناحية المالية، أما ليون فمن الناحية الإدارية. المهم أن كل قطاع له نشاط، فمثلا قطاع المعرفة يحتوي خطباء، ومعلمون حول كل العلوم الإنسانية، وقطاع المتعة تجد فيه كل ما تشتهيه من النساء والغلمان، والرجال إن أردت وقطاع السلوان ينشط على توفير ما يريح الرأس من التفكير، والهم بالخمر، والأفيون، وغيره. وكثيراً ما يشترك رواد المكان في أكثر من قطاع .

كيف؟

كأن ينتقل رواد قطاع السلوان إلى قطاع المتعة .. وهكذا .

توقف بيتر أمام بيت يختلف تصميمه عن سائر المنشآت، كان يتكون من عدة طوابق. تم نحته داخل شجرة عملاقة يمتد على جذوعها غرف المبنى الخشبية وسلالمه. يحتشد أمام البيت عدد ليس قليلاً، ينتظرون السماح لهم

بلقاء ناثان. وعندما تساءل قيس عن سبب وجودهم أخبره بيتر أنهم جلبوا أموالهم كي يستثمرها لهم مقابل عائد سنوي يقسط لهم على شهور السنة .
تقدم بيتر من حاجب البيت، وهو ينظم القادمين، فعرفه فور رؤيته، وأومأ برأسه موافقاً، ودعه بيتر، وعاد إلى قيس، وقال :

حسن يا جيمس ما تلبث أن يسمح لك الحاجب بالدخول .

مد يده في انتظار باقي اتفاقهما، فاخرج قيس كيساً جلدياً، وعدّ له قطع الذهب. أخذها بيتر، وانصرف.

انتظر قيس بعض ساعة، وظن بيتر قام بخداعه، وأنه أخذ المال وانصرف، ولكن الحاجب أشار إليه بالدخول قبل أن يغرق في وساوسه، وينوى الإنتقام منه. دلف إلي المنزل، وصعد الدرج، ووصل مباشرة إلى غرفة في مواجهته، فدخلها .

كان واقفاً ووجهه إلى النافذة، وظهره إلى الباب، فانتظر قيس، وظن أن الرجل لم ينتبه له، فسعل لتنبيهه، ولما لم يلتفت الرجل إليه قال :

اسمي جيمس .

تفضل

تلفت حوله، فوجد مقعداً خشبياً على يساره جلس، وانتظر . استدار ناثان، وتبسم عندما رأى الإستغراب في عين قيس. فقد كان ناثان شاباً في مقتبل العمر. أهذا يملك كل هذه الأموال، والسلطة ؟! كان أبيض البشرة حليق اللحية، له عينان زرقاوان، وأنف حاد، وفم غليظ بعض الشيء. كان وسيماً إلى حد كبير، وله ابتسامة محببة. قال ناثان :

لا تستغرب يا صديقي، فقد بدأت هذا الأمر منذ نعومة أظفارى.

الذكاء الذي أراه في عينيك قد أزال تعجبي .

أشكرك . كيف أساعدك ؟

أريد الانضمام إلى محافلكم في هذه الغابة .

تبسم ناثان، وقال في دهاء :

ومن نحن ؟

أعرف عنكم القدر الذي يكفيني .

وما هو ؟

مجموعة من رواد الأعمال الموهوبين، واسعي النفوذ، تُحيلون الكلمات إلى ذهب، والفحم إلى نجم ساطع تطبق شهرته الآفاق .

صمت ناثان لمدة، ثم قال :

أظنني الآن عرفتُ ما لديك، هل أنت شاعر؟

وأرغب في أن أجعل موهبتي تحت يديك .

رفع ناثان حاجبه، وزمَّ شفتيه وهو يهز رأسه. تناول إبريقاً وصب كأساً لمشروب أخضر اللون، وارتشف منه، ثم قال :

يجب أن تعلم إنك إذا انضممت إلي فإنه لن يكون هناك أي قيمة لما تؤمن به أو تعتقده، فستكون طوعاً لما آمرك به، ستكون سهماً أرمي به من أشاء وقتما أشاء، هذا إذا قبلتك معي، قد تضطر إلى أن تقذف أمك، وتهجو أباك.

فكر قيس، ثم قال بحسم :

أوافق

جلس ناثان، ثم قال :

وماذا تطلب مني مقابل هذا ؟

كما قلت لك، أن تحيل كلماتي إلى ذهب يملأ جعبتي، ولا يظل مكان لا يعرف اسمي.

هذا سهل . أمهلني يومين، وعد لأخبرك بقراري .

***

خرجا للتريض، ثم انتهى مطافهما على رمال ساحل المدينة، ومشى بها داخل الماء حتى بلغ خاصرتها. كانت متشبثة بذراعه، ولا تكف عن تحسس الرمال تحت قدميها خيفة الغرق.

يكفى إلى هنا. أنا أخاف البحر .

كنت أنوى أن أعلمك .

حسناً، لا أخاف ما دمت معى .

كل ما عليكِ أن تسترخى تماماً، وتتركي نفسك للماء، وعندها سيقوم برفعك. انظرى هكذا .

نفذ أمامها كلامه ببيان عملى. مدد جسده على الماء مسترخياً، وطفى فوقه لولا أن اجتاح الماء أنفه، وفمه حين جذبته للأسفل "يكفى، انتبه، ستغرق" اعتدل، وراح يسعل، وينثر الملح المشتعل فى أنفه. فاستأنفت :

ها رأيت ؟ قلت لك ستغرق .

نظر إليها متعجباً " حقاً ؟! " . أومات برأسها باسمة .

هيا جاء دورك، استرخى تماماً .

فعلت حنين كما قال لها، فغاصت فى الماء لتشنج أطرافها، وراحت تستنجد. أخرجها، وهى تصرخ، وتسعل. تلفت ليتأكد من ابتعاد الحرس عنهما، وهى لا تكف عن تأنيبه :

كدت أموت، لا أريد هذا .

أخبرتك أن تسترخى، وسيرفعك الماء، فهذا قانون الطفو .

أجل .... سيرفعنى للذى خلقنى .

ضحك، وقال " هيا نتابع " سكتت ثم رفعت حاجبها، وهى تنظر إليه بارتياب. ضييق عينيه متسائلاً ، فقالت :

لماذا جلبتنى إلى هنا ؟ لتُغْرقنى صحيح ؟ هل تنوى الزواج بأخرى ؟

لم يبدُ على ملامحها أنها تمزح. ظل مشدوهاً لهذا الاستنتاج الغريب. ثم صرخت عندما قبض رأسها، وأغطسها فى الماء وهو يقول :

عبقرية يا حنين .

أخرجها فشهقت الهواء إلى رئتيها، ثم أغطسها مجدداً وهو يقول: "لقد مللت العيش معكِ" أخرجها، شهقت، ثم أغطسها "وسأغرقك أنتِ، وغباءك دفعة واحدة" أخذت تبقبق، فأخرج رأسها "هل ستتعلمين؟" بصقت الماء، وهى تهز رأسها موافقة. تركها فشهقت، ثم أردفت :

سأتعلم، ولكنى غير مقتنعة بقانون الطفو هذا.

اللعنة على أرشميدس. كيف يكتشف قانوناً لا يُقنع الأميرة حنين؟!

عادت إليها نظرة الشك نفسها، وعاد حاجبها يرتفع، ثم تساءلت بارتياب :

أرشميدس ؟ أهو أبو العروس ؟

أغمض عينيه، وزمَّ شفتيه " هيا سنخرج. عدلت عن تعليمك. كانت فكرة فاشلة " خرج وهى تضحك من ورائه " كنت أمازحك "

جلسا حتى دنت الشمس إلى المغيب. قالت وهى تسند رأسها إلى كتفه:

متى ستغادر ؟

تعجب لسؤالها، فأردفت :

أعلم أنك ما فعلت كل هذا إلا لكى تعوضنى عن مدة غياب، صحيح ؟

لن يطول .

اعتدلت، وقد اغرورقت عيناها ثم أردفت :

خذنى معك .

لا أستطيع، فالرحلة محفوفة بالمخاطر .

قطع حديثهما استئذان أحد الحرس لأمر مهم، ثم تقدم وأعطى الأمير رسالة وانصرف عندما أشار الأمير إليه. قرأها فانقبضت أساريره واغتم قلبه، فتساءلت حنين فى قلق :

ما الأمر ؟
نفخ الأمير وقال فى ضيق :
غانم، سيد القبائل المتاخمة على حدودنا ما زال يجمع حوله الرجال والسلاح ويبطش بكل من لا يرغب فى سيادته. وأكره السفر قبل أن أحسم أمره.
تساءلت حنين :
هل تتوقع منه غدراً ؟
إن به جموحاً نحو الإمارة على الرغم من ضآلة قدراته الشخصية. كما أن خزائنه التى لا يحصى ذهبها يبعث على التساؤل، من أين له بكل تلك الأموال
.
لاذت حنين بالصمت ، فأردف قائلاً :
لقد رأيتِه من قبل يا حنين ...
أمسك لسانه دون أن يخبرها بما كان من الرجل نحوها، ولكن حدس المرأة قلَّما يغفل عن ما تعنيه نظرات الرجال. فهم الأمير من صمتها وتبسمها أنها على علم بذلك فضاق صدره، وزم شفتيه وأشاح بوجهه ناحية البحر. ظل صامتاً فأمسكت حنين بيده، وقبلتها ثم توسدت كفه بوجنتها وقالت :
والذى نفسى بيده ما كنت لألتفت إلى سواك ولو ظللت العمر كله أنتظر.
تبسم وقد أثلجت كلماتها الصادقة قلبه، فضمها إليه، وساد الصمت حتى أسدل الليل ستاره، ثم قفلا إلى المدينة .

***

مضى يومان وافق بعدها ناثان على انضمام قيس إلى محافله، وعرَّفه بليون الذي قام بتخصيص منصة له في قطاع المعرفة، وآخر في قطاع الفنون. صار من حقه أن يتجول بين القطاعات، وخارج النادي وقتما شاء. طلب ناثان

قصيدة في مدحه، وأخرى في مدح النادي. برع قيس في كسب إعجابه، فاصطحبه معه في لقاءاته، وجعله يقدمه، ويمهد له العقول والأسماع قبل أن يخطب في الناس.
علت مكانة ناثان أكبر من ذي قبل. فصار معه من يمدح خصاله، ويدحض بالحجة المنافسين. قضي قيس ليالٍ طوال يتنقل، ويجمع ما يستطيع جمعه ولكنه لم يهتدِ إلى الزاجل. تُرى هل سيكون ناثان أم ليون ؟.
اكتمل القمر. عرف أنه في تلك الليلة يجتمع في ميدان النادي أعضاؤه للاحتفال حتى ضحى اليوم الذي يليه. يجتمع ناثان، وليون، والأثرياء من كل صوب، ومعهم كل من له نزق إلى الشهوات. أصر ناثان أن يحضر قيس معه الحفل، ولما أظهر عدم الرغبة في الحضور ضحك ليون، وكان ينصت إلى حديثهما وقال :

دعه فهو لم يرَ سالي، وسيسيليا .

ألح ناثان عليه، فوافق مكرهاً .

***

في نهار يوم الإحتفال حدثت مشكلة عكرت مزاج ناثان. لقد تأخر مورد الوقود، وأواني الشراب في تلبية احتياجات الحفل. فأمر بإحضار قيس إليه. ولما جاءه، وتساءل عن سبب غضبه قال :

اسمعني يا جيمس لقد تأخر مورد الوقود، والفتائل، وأواني الشراب عن توريد ما تعاقدنا عليه. أريدك أن تذهب إليه خارج الغابة، وتنقل له تهديداً على لساني. قل له بأني سوف أسحق تجارته إن لم يفِ بها وعد .

ذهب قيس، وهو يتساءل : لماذا كلفني هذا الشقي بتلك المهمة ؟ وما شأني أنا بذلك ؟ أتراه يشك بي ؟ أم أنه فعل هذا لأنه يريد رجلاً سليط اللسان كي ينقل تهديده ؟ تحرك في صحبة حاجب بيت ناثان إلى متجر المورد، وكان يعرف باسم ياقوت، تساءل قيس :

أهو عربي ؟ قال الحاجب :

أصوله كذلك .

وصل إلى المتجر، فوجد الفتائل، وعبوات الوقود تم تجهيزها، فسأل البائع:

هل أنت ياقوت ؟.

بل مساعده.

رأى قيس أنه لم يعد هناك ضرورة لتهديده. أمر الحاجب من يحمل البضاعة إلى الغابة، وتحرك. كان ياقوت يسمع كلامهم من وراء ستار، وخرج بعد ذهابهم.

***

قرب بدء الاحتفال تم إطفاء جميع المشاعل، وعم الظلام، وتلاشى في أحضانه المنصة التي تتوسط الميدان، وغابت عيون المترقبين عن بعضها، فقط أصوات همسات، وأنفاس لا تطيق صبراً. وزع قيس أصحابه بين الحضور عدا الزير، فقد أمره أن لا يدخل الاحتفال معهم لما فيه من ضعف، وخفة فى أى أمر يتعلق بالنساء. منعه خيفة أن يبطل عملهم. دق ناقوس من قبل المنصة، فانتبه الجميع. سمع صوت خطوات تتحرك بسرعة من مكان ما، ثم انكشف المسرح بعدها للقمر. سقط نوره بعد أن قام عدد من العبيد بسحب الحبال المعقولة للأسفل فتباعدت فروع الاشجار، ثم ظهرت سيسليا .

انكشف المسرح عن فتاة لا تقل وضاءتها عن البدر في شيء، وسرعان ما دوت صيحات الإعجاب والترحيب، فقالت بصوت شجي:

اليوم موعدنا المعهود، ولا نخلف لأحبائنا موعد. استمتعوا، واطلبوا تنالوا ما تشتهون .

تسلقت إليها النظرات المحرومة، والرغبات المكبوتة. الكل يعرف مثلها أن ما يشتهونه لا يُطال. الكل يشكر كرمها، ولكن لا أحد يجرؤ، ويطلب ما

يشتهيه حقاً. ستمر بينهم مرحبة، وسيحنون رؤوسهم، ويردون لطفها وتحيتها، لكنهم مخادعون، لن يفصحوا عم يشتهونه أبداً .
ستنقضي الليلة الماجنة، وسيصطحبها كل فحل إلى داره. ستشعل خلوته، وتحتل تخيلاته. هناك حيث لا حدود، ولا قواعد، ولا طبقات. بوسع العبيد أن يصطحبوها إلى هناك أيضاً. لقد وحدت سيسيليا بين السادة والعبيد. كلاهما يكتم جذوة الرغبة في قلبه، وينطوي عليها. ماذا لو طلب الحاضرون ما يرغبون به حقاً ؟ ماذا لو اندلعت ثورة مثلاً، وصار بمقدور الطامح أن يصل إلي ما يصبو إليه ؟ ستموتين سيسيليا. ستصبحين أثراً بعدَ عين .
أنهت كلمتها، وانكشف المكان من جديد للمشاعل، وبدأ الصخب. خرج بعد مدة شاب إلى جوار سيسيليا، وهى تتمايل مع دقات الطبول، وبدأ الشاب يغني، وهو يطوف من حولها. عرف قيس من نداء الناس له أن هذا هو سالي. الفتى لا يملك أي دليل على فحولته، ولكن صوته شجي أيضاً.
من منهما سالي، ومن سيسيليا ؟
التفت قيس إلى سائله، وبرقت عيناه بالغضب، قال وهو يجز أسنانه:
ماذا تفعل هنا. ألم ءأمرك ألا تأتي ؟
أوصاني الأمير ألا أفارقك، كما أنني لن أفوت احتفالاً كهذا.
اغرب عن وجهي.
انتهت سيسيليا. اعتلى أحدهم المنصة، وشدَّ سالى من خاصرته، ونزل به وانصرف. تبين قيس أن ناثان هو من أخذه. سار به بين الحاضرين يقبله بين الحين، والآخر. انقاد الفتى بين يديه بلين تعجز عنه النساء .
كان هناك من يحسد ناثان على هذا أيضاً. يرون أنه يأخذ كل شيء، الفتوة والمال والنفوذ ..... وسالي. راح قيس يتفقد المكان. انتصب ما لا يحصى من طاولات الميسر، ودار سقاة الخمر على الجميع . تحدث كل بضعة دقائق معارك واهية بين السكارى، ثم ما تلبث وتتعالى ضحكات قارحة، وألفاظ

نابية. توقف يشاهد رهان بين مجموعة من الشبان حول معركة بين صقر وأفعى، وهناك انتبه إلى أنها تنظر إليه، فغض بصره عنها، فتبسمت . أثار هذا حفيظة بعض من يراقبونها طوال الحفل. ما الذي يحدث ؟! أيعقل ؟! سيسيليا تلاطف هذا الشاب الغريب ؟!!!.
اصطنعوا مشكلة معه، وبدأها شاب طويل القامة كثيف اللحية، أسمر البشرة، له أنف أفطس وعينان صغيرتان. تقاتل قيس معه، وجندله أرضاً.
أسرع ثلاثة من أصحاب الرجل لقتال قيس، فصرخت سيسيليا بهم:

توقفوا. إنه مساعد ناثان أيها الحمقى، هيا اغربوا من هنا .

مشت إليه وقالت بلطف :

هل أصابك شيء.

لا، ولكن من أين تعرفينني ؟

ضحكت في ثقة كأنها تقول لا يُسأل مثلي سؤالاً كهذا.
تجاذبت معه أطراف الحديث. لم يستطع أن يحول بين قلبه، وبين الإعجاب بها كأنثى. عيناها السوداوان والحسنات المتفرقة بين وجنتيها وجيدها أشعلت في قلبه ذكرى لا تنطفئ. تذكر أروى، لعلها سارت إلى ما يشبه حال سيسيليا، لعلها دمرت حياة مغفل آخر. تساءلت عن عمله قبل الكتابة، وصرحت له أن صلابته في القتال لا تتأتي لشاعر فقط، فأقرها، وأسهب قائلاً بأنه قد ولد يتيماً. واضطر لضيق الحال إلى الإنضمام إلى فرق المرتزقة، ثم عمل مع قطاع الطرق. توقفت، وبدا الإرهاق عليها. قالت وهي تمسك ساعده :

جيمس لقد تعبت من المشي. انتظر هنا سأطلب لنا شيئاً نشربه .

أدارت عينيها تبحث عن إحدى وصيفاتها، أو أي من العبيد، ولم تجد. انتبهت إليهن يُحلقن في دائرة، ولا يتوقفن عن إطلاق الصيحات المجنونة، والضحكات الهستيرية، ونادت فلم يجبنها، فاقتربت لترى ما يشغلهن.

اندهش قيس إلى الزير في الوسط، وقد فجَّر قلوبهن من الضحك " قاتلك الله، أيها الشهواني القصير "

شرب الزير ما قُدم له، وراح يكمل حديثه، ويطلق النكات دون أن ينتبه إلى وجود قيس. انتظر حتى هدأ ضحكهن، ثم استأنف :

وهكذا استقر رأي الباحثين حول العالم إلي أن أقل الرجال طولاً أكثرهم بركة .

عدن للضحك، ومعهن سيسيليا ف سألته :

مثل مَن مِنَ الباحثين قال هذا ؟

التفت الزير إليها، وفغر فاه للحظات عندما رآها في وجهه. استجمع نفسه، وقال :

مثلي.

ضحكت، وقالت " ومن أيضاً ؟ "

الحقيقة أني تناقشت معي، وخلصت إلى هذا .

دوت ضحكتها " اقنعتني " انتابها الضحك عند كل دعابة له حتي تمايلت إلى الخلف، وتشبثت يداها في ذراع قيس. تابع الزير حركة يدها فوجد قيس في آخرها. هز رأسه لتحيته، فبادله قيس التحية ذاتها. استغربت سيسيليا وقالت :

جيمس هل تعرفه ؟

أجل إنه صاحبي .

كم أنت محظوظ .

أمسكت بيد قيس، وهمت بالمغادرة، ولكن ظهر سالى .

دني منهم بالخطوة الرخوة ذاتها، ثم انتحي بها جانباً. استغل الزير ابتعادها، واقترب من قيس، وهمس وهو ينظر إلى أمامه ويطبق أسنانه ويلوي شفته ناحية قيس:

انتبه لنفسك يا صاحبي .

ذهب سالي، وعادت سيسليا. اقتحم جمعهم رجل عظيم الجسد يترنح بعد أن أفقده الخمر توازنه. وقف بجوار الزير، وراح ينظر إلى سيسليا، ويقول بلسان شبه معقود يتأرجح في فمه.

كم تريدين مني، وتكونين معي ؟

حدجته بنظرة غاضبة. إنها المرة الأولى التي يتجرأ أحد على التصريح بهذا. تطلع الزير إليه، وكأنه ينظر إلى جبل. قال العملاق بعض الطلاسم، ثم مال وهو يتقيأ ما عبأه طوال الاحتفال. غرق رأس الزير بما هطل من فمه، فغَثَت نفسه، فتقيأ بدوره على الفتاة التي تجلس إلى جواره، فصرخت هي ورفيقاتها، وفض المجلس. جثى العملاق، وهو يكرر كلامه، ثم تمدد فاقداً للوعي. مشت سيسليا، ولم يرتح قيس لجره خلفها من يده .

رءاه الزير، وهو ينصرف " لا تذهب، انتظر، أووووووع، خذنى معك "

***

ابتعدا عن ضجيج الاحتفال حتى وصلا إلى بيت خشبي.

ماذا تريد مني تلك الفتاة ؟

إنها استراحتى .

تسمَّر قيس، ونزع يده من يدها. نادته، وهى تدلف :

هيا تعال .

تردد قيس. لن أجد ما أبحث عنه بهذه الطريقة. أعادت نداءها، فابتلع ريقه، اتركيني فداخلى يتقطع، هناك ذئب هائج بين أضلاعى، خطوة أخرى وسأذوب في نارك، وأصبح كأنى لم أكن. تراجع خطوة إلى الخلف.

عادت إلى الباب، وقد نضَّت قميصها، وأرسلت شعرها. يمكن أن تتحسس بعينيك نعومتها. أشارت بسبابتها إليه أن يتقدم، فصرخ رافضاً " لاا ا " الحقيقة أنه كان يقولها لرغبة جارفة بنفسه تدفعه إليها. دقَّ قلبه بعنف

كجنود التتار على أبواب بغداد، ثم سقطت دفاعاته أخيراً. تراجعت سيسليا إلى الداخل، واستسلم قيس لجذب أنوثتها، وعطرها ثم دششششششش. التصق وجهه بالأرض لضربة قوية من آنية فخارية تهشمت فوق رأسه. خرجت سيسليا على صوت الاصطدام مسرعة. رفع قيس رأسه فرأى ظلاً يختفي بين الأشجار. جمع نفسه وانطلق يطارده، ثم توقف عندما يئس من العثور عليه. قابل صهيباً، وعمرو. قال صهيب بقلق :

ما هذا الدم الذي ينساب من رأسك .

قال قيس وهو يتحسس جرحه:

أحدهم هشم إناء فخار على رأسى، ولم أستطع الإمساك به .

تساءل صهيب فى استغراب :

مَن ولِمَ ؟

لا أدرى .

هل من جديد ؟

سأخبركم لنذهب من هنا أولاً، ولكن أين الزير؟

قال عمرو :

لا نعلم .

اشتعل غضبه عندما تذكر تحذير الزير له بأن ينتبه، تراه هو الذي ضربني؟ وما لبث أن ظهر أمامه، فقبض قيس ياقته :

أنت الذي ضربني ؟

ماذا ؟! وما سبب تلك الدماء ؟

صرخ قيس :

قلي دون مراوغة هل أنت مَن ضربني أم لا ؟ قل هل كلفك الأمير بشيء داخل المهمة لا أعلمه ؟

لا أفهم عن ماذا تتحدث .

تركه قيس دون تصديق لكلامه، ولكن لا دليل معه.
تساءل عمرو :
أين سنذهب ؟
أجابه قيس :
سنجلس عند ضفة النهر، ولكن هناك أمر مهم سيقوم الزير به .
انتبه الزير، وقال :
ما هو ؟
سأخبرك .

***

كيف فشلتي في جذبه إليك سيسليا. شاب غريب يصل في فترة وجيزة إلى ما وصل إليه. هذا يعني أنه يعرف ماذا يفعل .
رفعت رأسها، وتغلبت على كسرة فشلها، وقالت متحسرة :
هو لا يهمه سوى المال، والشهرة.
هذا ما يبدو لنا. حتى وإن كان صحيحاً. أريدُك أن تجعليه طوع بنانك، فهمتي ؟
فهمت .
قُبيل الفجر سوف أصعد إلى القلعة، فهناك العديد من الأمور عليَّ ترتيبها قبل موعد التتويج .
تساءلت مستغربة :
التتويج ؟
سوف يتنازل اجناتيوس. لم يعد يصلح بعد فشله، ودمار جيشه أمام معاوية .
أخي .
ماذا ؟

هل يمكنني أن أكون معك يوم التتويج ؟
أفضل أن تكوني هنا حتى أعود، ولكن سأفكر في الأمر .
قطعا حديثهما عندما أحسا بحركة قرب النافذة. أسرع سالى ونظر، ثم اطمأن عندما رأى طائر القمري يتنقل بين الأغصان الوارفة .

***

كاد أمرى ينكشف. إن هذا المخنث أكبر مما نظن. لقد صدق حدس قيس . إنه الزاجل الذي نبحث عنه .
تأكد الزير من الطريق، وأنه غير مطارد، ثم توجه حيث قيس، وصحبته. كان قيس قد عصب رأسه ليوقف الدماء. لا زال يتساءل عن هوية الذى ضربه. وصل الزير، وأخبره بما سمع . قال قيس :
لله درك يا أبي. قد قال لي ربما يكون ما تبحث عنه آخر شيء تتوقعه. من كان يظن المخنث هو صاحب السطوة في تلك البلاد .
قال صهيب :
ماذا سنفعل الآن ؟
سنُعلم رجالنا بإخبار الأمير بالتطور في حكم الظلاميين، وسنسعي لمعرفة يوم التتويج .
تساءل عمرو بحزم :
لما لا نختطف سالي، ونجبره علي البوح بكل شيء ؟
لا ربما لا يخضع لنا، سنتعقبه .

***

تتبع قيس كل خطوة يقطها سالي. نسج حوله خطة محكمة تحصي عليه أنفاسه. قام هو والزير وصهيب بتنفيذها، ولم يتدخل عمرو، وإنما اقتصر دوره على تبليغ المعلومات إلى العناصر الأخرى، والتي تقوم بدورها برفع خبرها للأمير. كان من المدهش أنهم اكتشفوا أن بيتر فتى الدليل هو حلقة

الوصل بينهم. في اليوم الأول عندما بدأوا مراقبة سالي انتظروا خروجه إلى الجبل مع الفجر كما سمع الزير، ولكن أشرقت الشمس يومها، ولم يخرج . تسلل قيس بعدها إلى منزله، واكتشفت دهليزاً يخرجه إلى طريق قرب الجبل. تعقب المسارات التي يؤدي إليه هذا الطريق، فوجد طريقاً واحداً ممهداً وسط الجبل ينتهي أيضاً إلى دهليز مخبأ تحت الرمل والصخور الصغيرة قرب منبع النهر الذي ينساب منه، يؤدي بدوره إلى داخل القلعة .

***

زادت مع الوقت ثقة ناثان فيه. وتولى متابعة التوريدات التي تلبي احتياجات الغابة، وعقد التعاقدات، وكلفه بالتعامل المباشر مع ياقوت. عرف منه أنه المورد الوحيد الذي يقدم عروضه، وبضاعته بأسعار زهيدة. يرجع ذلك إلى مهارته في تخفيض تكاليف إنتاجها، فيستطيع من خلاله تقديم سعر لا يقدر عليه المنافسون. إنه يكاد يحتكر سوق الفخار، والفحم، والوقود، والفتائل وغيرها. ذهب قيس إلي متجره مرات عديدة، لكنه لم يجد فرصة للقائه وجهاً لوجه، فدائماً ما يكلف أحد معاونيه لمفاوضته، ويلبي احتياجاته. وعندما علم ناثان بالأمر أسعده ذلك. فياقوت لم يتخلف يوماً عن لقائه، بل والمثول أمامه متى استدعاه إليه. أقرَّ عينه أنه لازال هو المسيطر، وما حوله دُمى يحركها. احتال قيس مراراً كي يتعرف عليه، فربما كان عنده من المعلومات ما يفيده، ولكن دون جدوى .

ذهب مع سيسليا لمشاهدة إحدى مباريات المصارعة التي لا تنقطع في هذا المكان، وعقد رهان بينهما على من يكون الفائز. اختار قيس المصارع الأسمر رغم ضآلته، ولكنه بدا صلباً، واختارت سيسيليا الأشقر المفتول العضلات. وبينما يترقبون النتيجة، والمشجعون يهتفون بحرارة نشأ عنها لغط لتداخل أصواتهم، خفق قلب قيس فجأة وارتجف كيانه عندما رأى أحدهم ينظر إليه ..... محمود ؟!!!

كان يراقبه، فاستجمع قيس نفسه، وانتبه إلي إشارة محمود لأحد الجنود خلفه ليتقبض عليه. بادره قيس، وكسر أنف الجندى بمرفقه عندما تشبث الجندى بكتفه، ولاذ بالفرار. فزعت سيسليا، وصرخ محمود بحارسيه أن يذهبا خلفه، وتبعهم بعد أن قال لسيسليا "أخبري الجميع أنه قيس ربيب الأمير معاوية "

أخذ يركض حتى وصل لضفة النهر، وهناك غلبه الإعياء، فارتمى جاثياً على ركبتيه يلتقط أنفاسه .

سيخبرهم، وسيضيع كل شيء . سأقتحم القلعة بنفسى، وأطلع على مخططها. أحس ببرودة علي عاتقه، وقبل أن يتحرك سمع صوت غليظ " إياك وأن تتحرك، سأفصل رأسك " ثبت الجنديان السيف علي عنقه. لحق بهم محمود، وضحك " الفتى الطائش من جديد التقينا أخيراً " لم يُجب قيس سار مكرهاً معهم. رأى بيتر ما جرى، فانسحب لا يلوي على شيء. مشى قيس، وقد أطبق الحارسان على جانبيه، ومحمود من ورائهم. انضم إليه ثلاثة آخرون من رجاله، قال محمود :

بعد أن تجيبني على كل ما أريد معرفته منك، سأجعلك عبرة لكل الأغيار، وسأ ...

دششششششش

دوى تهشم الفخار على رأسه فأخرسه، وكوَّمه على الأرض . التفت الجند، وقيس فلم يتبينوا الفاعل رغم تعثره في فروع إحدى الأشجار. هرب مثل البرق. نهض محمود، ووضع يده على قطب رأسه من الألم، أعاد يده أمام ناظريه، فأرعبه منظر دمه " هناك من يساعدك أيها الحقير " ثم اندهش عندما لمح قلادة سقطت من الشبح الهارب، فأردف " ما أسعد حظي "

أشار إلى اثنين من رجاله كي يطاردوه .

حاول قيس أن يفهم ما قاله محمود قبل ذهابه خلف الذي ضربه. أمره الجنود أن يتحرك. لحق به صهيب، وعمرو بعدما أخبرهم بيتر، فقتلا الجنود. لازال شارداً لا يفهم. إنه الشخص ذاته الذي هشم الفخار على رأسه تلك الليلة. الزير من جديد غير موجود. صاح بهم:

قولوا لي من ضرب محموداً منذ قليل ؟ إنه نفس الشخص الذي حطم الإناء على رأسى . أين الزير ؟ هل بينه وبين الأمير خطة لا أعلم بها.

قال صهيب " لقد خرج الزير في صحبة بيتر بعد أن علمنا بالقبض عليك " تساءل في حيرة " مَن إذاً ؟ علينا مغادرة المكان بسرعة قبل أن يستنفر الجميع " وقبل أن يغادر ارتجف قلبه واقشعر جلده عندما رأى القلادة التى رءاها محمود .

يا إلهي، كيف يكون هذا ؟ ..... أروى ؟!!!!!.

***

أخذت تركض بكل ما أوتيت من قوة على ضفة النهر، تعثرت، ونهضت. تكاد أنفاسها تنقطع، وهما لا يزالان يطاردانها. انتهى طريقها إلى الجبل في وجهها، فأُسقط في يدها، فاستلت من خصرها خنجراً، والتقطت بعض أنفاسها بصعوبة حتى وصلا إليها، ولحق بهم محمود يلهث في عرقه. لوحت بالخنجر مهددة " إياكم وأن يقترب أحد مني، سأقتلكم جميعاً "

نظر بعضهم إلي بعض وضحكوا بسخرية. أمرهم محمود أن يوثقوها. أسقط الجندي سلاحها، وعقد ذراعيها خلفها، ثم قبض كل منهما مرفقها. وقف محمود أمامها، وعيناه تشعان فرحاً، وظفراً.

لكم انتظرتك يا أروى، لكم اشتهيتك أيضاً. أنا من أمر باختطافك إلى جزيرة باليان، وأنا من دبّر لهذا الطائش كل ما وقع فيه المكائد، وأنا من سيكسب في نهاية الأمر، لأنكم لا شيء .

لامس سالفاً تدلي علي وجنتها، ثم تراجع وقال :

أبي وصل إلى صدارة المملكة، وأنا وريثه. ستكونين محظيتي. بينما يتم تتويجه في أعلى الجبل ملكاً سأتوج أنا فرحتي بكِ .
انهمرت دموعها، وراحت تشهق بالبكاء، وساقها لا تتوقف عن الارتجاف. اقترب منها، ولامس وجنتها، فأشاحت بوجهها عنه، وجمعت بفمها ما يكفي لانهيار سدّ مأرب، ثم "اتفوووووووووووو" .
انطلقت القذيفة، ولكن محموداً كان محظوظاً إذ يطير رأسه من أمامها ليصطدم السيل بوجه قيس من خلفه. ارتجف الجنديان الآخرين عندما شاهدا رأس محمود تتدحرج أمامهما، فسارعا بالهرب. انطلق في طلبهما صهيب وعمرو، أما قيس فقد ترك سيفه الغارق بدماء القتيل، وراح يمسح وجهه بأطراف ثوبه بعد أن حجب لعاب أروى عن عينيه الرؤيا. وقال :
أهكذا تُذِيبين الشوق ؟
كانت لا تزال ترتجف. نظر إليها ساهماً، ثم عاد إليه غضبه عليها .
ها هي أمامه أخيراً. طال صمت ملامحه الغاضبة، يطالع عينيها المتوسلة. ماذا يفعل ؟ هيا وفِّ بعهدك، وانتقم . ماذا يفعل؟
بداخله بحر متلاطم الأمواج مضطرب .
يخنقها ؟ .... يعانقها ؟
يقتلها ؟ ..... يقبلها ؟
ها هي من أحرقت قلبه، وأذبلت شبابه، وألهبت شجواه، همس بصوت خفيض :
لماذا فعلتِ هذا بى ؟
تهز رأسها نافية. صرخ بها :
لماذا فعلتِ هذا بى ؟
قالت بصوت يمزقه الدمع :

أنا لم أفعل شيئاً. لم أتخل عنك يوماً يا قيس، لم أتخل عنك. أقسم لك يا قيس إنني ...

رفع كفه في وجهها وزجر :

كفى كذباً يا امرأة. كفى كفى. ترحلين فجأة، وتدوسين على ما بيننا، وتقولين هذا الآن. دهستِ كرامتي، وجعلتني مضغة في أفواه الناس، ثم حالفتِ الظلاميين علينا .

غير صحيح .

ألم تفعلي ؟ أجيبى، ألم تفعلى ؟

صرخت أروى متبرأة :

لا لا، لا والذي ربط في هواكَ قلبي ...لا.

انهارت تماماً وخرّت على ركبتيها، ويداها لا تزالان معقودتين خلفها. شهقت وهمست :

لا وربي، لا .

بدأ قيس يرق لها :

الويل لكِ إن كنت تكذبين، والويل لي إن خُدعت بكِ مرة أخرى.

إن كنتَ لا تصدق ... هيا اقتلني .

دفع قيس فكرة قتلها، وقال موبخاً :

لا تُغيري الموضوع ... احكي لي ما جرى .

إنه الأمير من فعل هذا. دبَّر خطته مع أبي، وزرعنا في تلك البلاد بهدف السيطرة على تجارتها، ولما تمكنا من ذلك أرسل للأمير لتتم خطته. أبي هو ياقوت الذى حاولت مراراً أن تلتقي به .

تقولين الأمير ؟

أقسم لك إنه هو من دبَّر هذا كله من الألف إلى الياء .

أحس قيس أن الكون يدور من حوله، وضع يده على جبهته كأنه يحفظ توازنه من السقوط ، وتذكر تهديد الأمير له بأن يؤدبه إن لم ينتبه إلى غايته. تذكره، وهو يتوعده " أخاف عليك مني، أخاف عليك قسوة لا تشوبها رحمة. لا تجبرني على ذلك يا قيس " دار قيس حول نفسه وهو يصيح :

كفى فِخَاخَاً يا أبي. حسناً، أعلم أني قد انحرفت في وقت ما عن طريقنا، واذكر أنك وعدتني بقسوة لا تشوبها رحمة حتى أرجع، ولكني رجعت، يشهد الله أني رجعت، فكفى فخاخاً يا أبتِ كفا!!!!!!!!!"

قالت أروى :

هل صدقتني ؟

هز رأسه " أي نعم " تبسمت، وقالت " هل ستتركني هكذا ؟" انتبه إلى يديها المعقودتين خلفها، فأسرع وحررهما، فاعتدلت وجلسا إلى جوار بعضهما. أكحل كل منهما عينيه بعيني الآخر. رنا كعادته إلي حسنات وجهها، ثم أخرج قلادتها من قميصه، وهو يقول مازحاً :

لقد أصبح من قدرى أن أعيدها لك.

لا حُرِمْتك أبداً .

ما أجملكِ وأنتِ تضحكين، وأنت تبكين كذلك، ثم ما هذا القسم الجديد؟

ضحكت، وقالت :

ألم يعجبك ؟

هلاَّ أعدتِه علي

ضحكت، وقالت :

لا والذي ربط في هواكَ قلبي .

الويل لك يا ابن الصياد، هذا قسمك الرسمي معي من الآن .

قهقهت، وقالت " اتفقنا " فكر قيس، ثم قال :

تقولين أنكم تعملون في توريد الفخار، فهذا يعني أنك قد أهدرتِ رأس مالك على رأسي .

نظرت إليه بتحد، وتذكرت ضعفه أمام سيسليا، وقالت مهددة :

وسأهدر رأسك متى سمحتَ لبنت امرأة أن تغويك مرة أخرى .

تلعثم قيس، وحاول التملص قائلاً :

لم تغوني، وإنما ... إنما كنت أسايرها لأعرف هوية الزاجل .

نظر إليها فرأى أن كلامه لم ينطل عليها. قالت وحاجبها تسلق إلى جبهتها :

قيس .

حسناً حسناً .

عاد إليهما صهيب وعمرو، وأبلغاه بأنهما قد أنهيا أمر الجنديين قبل فرارهما.

قام قيس، وقال :

علينا ان نخرج من هنا فقد كشف أمرنا.

وقبل أن يتحركوا، رأووا مجموعة كبيرة من الفرسان تقترب نحوهم. "

إنهم رجال القلعة. لقد علموا بأمرنا "

جعل قيس أروى في ظهره، والتقط سيفه، واستعد للقتال. كان الفرسان ملثمين جميعهم عدا بيتر، فتبينه قيس " خائن يا بيتر " توقفوا عندهم ثم قال قائدهم آمراً :

أنزل سيفك أيها الطائش .

خفق قلب قيس من جديد عندما سمع صوته " أبي ؟! "

أزال الأمير لثامه، وضحك ، وترجل ثم عانق قيساً ومن معه . قالت أروى:

أهلا بك يا سيدى الأمير .

التفت إلي قيس وقال مازحاً :

كيف تترك هذه الخائنة تعيش ؟

قالت أروى :

مهلاً يا سيدي أرجوك، قد يقتلني حقاً .
خائب ولا يفعلها، فأنا أعرفه .
قال قيس :
لقد كُشِف أمرنا يا سيدي، فما العمل ؟
أخبرني بيتر . لا تقلق سبقناهم بخطوة .
أي خطوة ؟
نادي الأمير " أحضروهم" جرّ الجنود سالي، وليون، وناثان . قال الأمير وهو يربت علي كتف ناثان " هؤلاء أصدقائي الجدد " ثم أشار إلى سالى " عدا هذا ليس بصديقي ". ضحك المقاتلون، وتابع الأمير " سوف يأخذونني إلى داخل القلعة دون ضجيج " نظر إلي سالي وقال : " أليس كذلك ؟ ".

***

باسم الإله الذي اختارنا على سائر الأغيار، وأدان لنا الأقطار. باسم الظلام الذي يعطي النور منه من شاء وقتما شاء. بسم العين المطلعة، والقلوب المقدسة للسادات، من تفتح النعيم، والويلات، وباسم مشروعنا العظيم. أتنازل أنا اجناتيوس بن موسي عن منصبى، وتلبية لمن يأمر فيُطاع أنزل عنه إلى سليل الدماء المقدسة، والحكيم المقدس إبراهيم بن جلعاد .
تقدم إبراهيم، ورفع أحد الحكماء بوتقة يتناثر بخارها، وأطلقه في الممر، وقال :
الآن يمكن لك أيها الحكيم الأعظم الدخول إلى غرفة العهد لتتطلع للمرة الثانية دون غيرك على خطتنا.
تقدم إبراهيم فى عباءة حريرية مرصعة بالذهب، والماس، وفتح الباب ودلف. أغلق إجناتيوس من خلفه. وبعدها ظهر سالى عند مدخل الممر، فحدجه الحكماء بنظرة قاسية، وأشار اجناتيوس له كي ينصرف. ولما لم يفعل

تدخل أحد الحرس لإبعاده بالقوة، ولكنهم فزعوا لنصل يخترق حنجرة الجندي، ليظهر فى الممر رجل ملثم يقتل سالى، ويتقدم نحوهم. صرخ اجناتيوس:" إنه معاوية " انقض الأمير عليهم، وترك أمر الحرس لقيس ومن معه. أسرع الحكماء ليدخلوا إلي غرفة العهد. أدركهم عمرو، وصهيب من الجهة الأخرى، وقتلوهم عدا اجناتيوس استطاع الدخول قبل أن يصلوا إليه. دكَّ الأمير باب القاعة بقدمه، فانفتح علي مصرعيه. قال ابراهيم، وهو يهرب من باب داخلى في القاعة " احمل الكتاب يا اجناتيوس لا تدعه يراه " هرول اجناتيوس كي يغير من هيئة الكتاب، ولكن شُلت يده لانغراز خنجر الأمير بها، فقبض الأمير عليه، وأمر صهيباً بتقييده. أرسل خلف إبراهيم من يحضره، ثم دنى من الطاولة المستديرة، وحملقت عيناه في الكتاب، إنه يعرفه جيداً. كاد يصعق عندما تبينه ورآه مقلوباً. تلك إذاً خطتهم التى دوَّخوا الدنيا بها. أن يظل الكتاب مقلوباً. أن يعيش الناس بعكس ما أمرهم به. لقد قتلونا بسلاحنا. حجبوا النجم القائد عن الدنيا فتاهت، وتخبطت فى ظلماتها. النجم الذي يهدي للتى هى أقوم، وغيابه ضياع محتوم. الحق الذي يوحد الدنيا تحت مظلة واحدة وتحريفه الفرقة، والنزاع والتطاحن. بتحريفه سيظل العالم ينقسم على نفسه، ولن يبقى أمامهم كيان يقف فى وجوههم. بهذا اقتحموا عقولنا، وقلوبنا قبل أن يقتحموا قداسة، وبهذا سلبوا حريتنا ووجودنا. أضعنا طريقنا، وفقدنا الاتجاه الصحيح عندما غاب عنا النجم الدليل قائد بنات نعش .

تمت بحمد الله

الفهرس

إهداء 1

الفصل الأول.. 6

الفصل الثانى.. 10

الفصل الثالث.. 24

الفصل الرابع.. 30

الفصل الخامس.. 42

لماذا تحبني ؟.. 51

الفصل السادس.. 56

الفصل السابع.. 84

الفصل الثامن 90

الفصل التاسع.. 106

الفصل العاشر.. 132

الفصل الحادى عشر.. 150

الفصل الثانى عشر.. 172

الفصل الثالث عشر 232

الفصل الرابع عشر 263

الفصل الخامس عشر... 290

الفصل السادس عشر... 310

الفصل السابع عشر... 321

الفصل الثامن عشر... 336

الفصل التاسع عشر... 353

الفصل العشرون.. 365

الفصل الواحد والعشرون.. 381

الفصل الثانى والعشرون.. 404

الفصل الثالث والعشرون 412

الفهرس... 439

قائد بنات نعش

مضوا يتقاذفهم الموج، ويجذبهم المجهول، تعاقب عليهم الليل والنهار، آفاق حالكة، قلوب قانطة، وجرت الرياح بما لا تشتهي السفن، فلم تكن في قسوتها أقل بطشاً من الظلاميين، رفع الموج هامته، وتمادى في نزقه، ابتلع بعضهم، ومضغ آخرين، ثم لفظهم في اللحظة الأخيرة، لازم عينيه التسهيد، تسلل الخوف إلى قلبه الجريء، بات يخاف النوم، كلما غفا يمثل له ذلك المشهد الأليم، عيون تم اقتلاعها، أطرف بترت، وقلب على حافة الخنجر، وذلك الضخم الأصلع يضحك، وأسنانه ممزوجة بالدم، لم تكن يقظته أقل ألماً، أينما ولى وجهه رأى المأساة ذاتها، هل ينتهي هذا العذاب ؟ تألم من حوله، ولكنهم سلموا في آخر الأمر بأنه انتهى، وأن الأمير مات، ولكن هل مات حقاً ؟ مدينته المحترقة تقول هذا، وضحكة ذلك المجرم، ورماده المنثور في البحر، ودموعه المسفوحة، كل ما حوله يقول أنه قد مات، أجمع العالم كله إلا هو، لم تمت، أنت اليوم أكثر حياة من ذي قبل، تربع على عرشك في أعماقي حتى نلتقي، حان الآن دوري، تلقيت الضربة الأولى ورغم قسوتها لم أمت، شُقَّ قلبي، ولكني ما زلت أتنفس، سأجعلهم يلعنون كل دقيقة مضت ولم يقتلوني فيها، سأجعل الموت نجاتهم وأكبر طموحاتهم

تصميم الغلاف محمود عبد الناصر



ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS



